الحركات الباطنية في العالم الإسلامي

عقائدها وحكم الإسلام فيها



تأليف: أ. د. محمد احمد الخطيب



الحركات الباطنية
في
العالم الإسلامي

عقائدها وحكم الإسلام فيها

هذا الكتاب في الأصل رسالة أعدت من المؤلف لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة والمذاهب المعاصرة من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض وكانت بإشراف فضيلة الأستاذ زيد بن عبد العزيز الفياض.

الحركات الباطنية في العالم الإسلامي

عقائدها وحكم الإسلام فيها

تأليف

أ. د. محمّد أحمد الخطيب

الطبعة الثالثة

٢٠١٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

- عنوان الكتاب: **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، عقائدها وحكم الإسلام فيها**
- المؤلف: **أ.د. محمد أحمد الخطيب**
- الطبعة: **الثالثة**
- سنة النشر: **١٤٣٥ هـ، ٢٠١٤م**
- رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: **(٥٦٨ / ١٢ / ١٩٨٣)**

- الإخراج الفني والتنسيق: **abdobisi@yahoo.com**
- تلفون: ٥٨٣٨٨٧٨ ـ ٧٨ ـ ٩٦٢+ || ٦٩٣٧٥٥٥ ـ ٧٩ ـ ٩٦٢+

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ (1) فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (2)

---

(١) الخلاق: الكذب على الدين / تفسير ابن كثير جـ٤ ص١١٣.

(٢) سورة التوبة آية ٦٧ – ٦٩.


الذخيرة العربية

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

لقد كانت الباطنية وما زالت مصدر خطر على الإسلام والمسلمين منذ أن وجدت، بعد أن أدرك أعداء الإسلام أن مواجهتهم للمسلمين وجهاً لوجه لن يجد شيئاً في تحقيق أهدافهم والوصول إلى مآربهم، ولذلك كانت الباطنية بعقائدها وفتنها نتيجة لاتجاه جديد في الكيد للإسلام والمسلمين عن طريق التدثر باسمه والتستر بحب آل البيت، وهي فكرة خبيثة ماكرة حاكها ودبرها عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي تظاهر بالإسلام وعمل من خلال ذلك على نفث سمومه، وبث مؤامراته بين المسلمين، فادعى الموالاة لعلي بن أبي طالب ﵁ وذريته، وحرض على قتل عثمان بن عفان ﵁، ثم أعلن أن عليا هو وصي رسول الله ﷺ وخليفته من بعده، حتى وصل في نهاية الأمر إلى الزعم بتجسد الألوهية في علي بن أبي طالب.

ومن خلال هذه الأباطيل والمؤامرات، استطاع ابن سبأ أن يمهد لتلاميذه ولكل من يريد الكيد للإسلام والمسلمين، طريقاً خبيثاً سار فيه دعاة الباطنية بعد ذلك.

وكان من تلامذة هذا اليهودي الحاقد، أبو الخطاب، الذي يعد من أخطر الباطنيين العاملين على تطوير عقائد ووسائل عملها، فتخرج من حركته زعماء الباطنية وأهمهم: محمد بن إسماعيل، وميمون القداح، والمفضل الجعفي، فكان ابن إسماعيل والقداح المؤسسين الرئيسين لفرقة الإسماعيلية الباطنية الخطيرة، التي أخرجت للعالم الإسلامي ألواناً مختلفة من العقائد الباطلة والفتن والمؤامرات والثورات، اتجهت جميعها في اتجاه واحد هو تشكيك وإفساد عقائد المسلمين بكل وسيلة. أما الجعفي فكان أستاذ ابن نصير مؤسس الفرقة النصيرية، التي جعلت عليا إلها من دون الله، وأصبحت بؤرة فساد في جسم المجتمع الإسلامي.

ورغم اختلاف هذه الحركات في بعض العقائد والأفكار، إلا أنها اجتمعت على شيء واحد هو محاربة الإسلام، وإفساد عقائده، وارتكاب الكبائر وإباحة الأعراض وهتكها،

وسفك الدماء، والسطو على الأموال، ارواء لأحقادهم الدفينة ضد الإسلام، واشباعاً لغرائزهم الحيوانية.

وقد تصدى لهؤلاء المنحرفين المفسدين معاصروهم، من أئمة المسلمين وعلمائهم وفضحوا عقائدهم وأهدافهم، ونقلوا صورة أمينة عن خبثهم ومكرهم إلى الأجيال القادمة، فكتب الطبري وابن كثير وابن تيمية والشهرستاني وابن حزم وابن الأثير والمقريزى وغير هؤلاء من الذين كتبوا عن هذه الحقبة من تاريخ العالم الإسلامي، حتى بانت صورتهم واضحة عند المسلمين، تمثل صورة حاقدة على الإسلام، مدمرة لكل القيم والفضائل.

وبقيت هذه الصورة ثابتة في أذهان المسلمين، ولم يكن أحد يتوقع أن يأتي يوم يجهل المسلمين حقيقة هذه الحركات وتتغير فيه مفاهيمهم حولها فإذا بالكثيرمن المسلمين- جهلاً منهم - ينظر بعين الود إلى هذه الحركات، على أساس أنها من جملة المذاهب الفقهية، وإذا ببعض هذه الحركات قد أصبحت مع الأسف - تتولى مقاليد الأمور في بعض البلاد الإسلامية.

بل أضحت بعض هذه الحركات - في مثل هذه البلاد -، نموذجاً يقتدى به ويدعى إليه، فيلقن تاريخ القرامطة والحشاشين للنشئ الجديد، على أنه تاريخ يعتز به، ومثل يفتخر به.

ولقد استرعى انتباهي في اطلاعاتي المحدودة بين ثنايا الكتب المعاصرة، أن أحدا لم يتناول بالتقييم الإسلامي الواضح عقائد الحركات الباطنية الموجودة في بلاد المسلمين إلا نادراً، وهذا يعني ندرة بحث هذا الموضوع في المكتبة الإسلامية رغم خطورته.

وإذا وجدنا أحد هذه الكتب، فإننا نجد كاتبه قد قام بدراسة مختصرة وسريعة لاحدى هذه الحركات، دون الالتفات إلى الحركات الأخرى.

وإذا نظرنا من ناحية أخرى لوجدنا أن بعض المؤرخين المعاصرين، قاموا مشكورين فجمعوا عقائد وتاريخ هذه الحركات، دون أي تدخل أو تعليق واضح على هذا التاريخ أو هذه العقائد، وإذا وجد هناك أي تعليق فإنه يمر سريعاً، كما نرى في كتب الأستاذين محمد

كامل حسين، والدكتور عبدالرحمن بدوي، اللذين - رغم ذلك - قد سدا بكتبهما القيمة فراغاً كبيراً في المكتبة العربية والإسلامية.

ولعل الأمر الخطير الذي لم يلتفت إليه الكثير، محاولة دعاة الباطنية المحدثين، نشر أفكار الباطنية بطريقة ماكرة وأسلوب خبيث، وذلك بنشر كتب الباطنية القديمة على أنها كتب من التراث، أو بتشويه الحقائق والكذب على التاريخ، كما هو حاصل في الكتب التي يحققها أو يكتبها: مصطفى غالب، وعارف تامر، وأسعد علي.

لذا رأيت من واجبي أن أكتب عن هذه الحركات، موضحاً ومقيماً قدر استطاعتي عقائد وتاريخ هذه الحركات، فكان موضوع أطروحة الدكتوراة المقدمة مني عن (الحركات الباطنية في العالم الإسلامي)، وأقصد بذلك حركات الشيعة الغلاة، التي تواجدت في الماضي بالعالم الإسلامي، واتخذت التشيع ستاراً تخفي وراءه اعتقاداتها وأهدافها، ودعت إلى الظاهر والباطن في عقائدها، وقالت بألوهية أئمتها، وكان لها آثار سيئة على المجتمع الإسلامي، وأعني أيضاً تلك الامتدادات الباطنية لهذه الحركات، والتي لا تزال موجودة في بلاد المسلمين.

وقد ركزت في رسالتي هذه على نقطتين هامتين، الأولى: تتبع مصادر الفكر الباطني، والبحث عن أصله، لإيضاح الأساس الذي اعتمدت عليه الباطنية، ولإثبات أنه كان غريباً عن عقائد الإسلام ومبادئه. والثانية: نقل صورة واضحة وأمينة للعقائد الباطنية التي تؤمن بها هذه الحركات، وتخفيها عن المخالفين لمبادئها وأفكارها.

وهذا لا يعني أني قد أغفلت تاريخ هذه الحركات، فالتاريخ هو الصورة الحية والمعبرة عن مبادئ أي أمة أو فرقة، ولا يمكن أن تتضح عقيدة أية أمة بغير الاستعانة بالتاريخ، فعن طريقه يمكننا أن نحكم حكماً عادلاً على صحة المبادئ والعقائد التي تؤمن بها الأمة، وتعمل بمقتضاها، فيدون من خلال ذلك تاريخها، لذا فقد بحثت كل فرقة من الفرق الباطنية تاريخياً، قبل أن أبحثها عقائدياً.

وقد قسمت هذه الرسالة إلى أربعة أبواب، يسبقها تمهيد عن (التأويل الباطني، أصله وكيفية وصوله إلى العالم الإسلامي)، وفي الباب الرابع أفردت فصلا عن أثر هذه الحركات

سياسياً واجتماعياً وفكرياً، وبعد ذلك الخاتمة فيكون الهيكل العام للرسالة على الشكل التالي:

التمهيد: التأويل الباطني، أصله وكيفية وصوله إلى العالم الإسلامي: وهي دراسة تتحدث عن بداية نشأة الباطنية، والمصادر التي أخذت منها، والفلسفة والأفكار التي تقوم عليها، وتتكون من أربعة أقسام:

١ - نشأة الباطنية وأفكارها.

٢ - التأويل الباطني، أصله وكيفية وصوله إلى العالم الإسلامي.

٣- مصادر الفكر الباطني.

٤ - التقية حقيقتها وأصلها الباطني.

وبهذه يتكون لدى القارئ فكرة رئيسية عن الباطنية، قبل الدخول في أقسامها.

الباب الأول: الإسماعيلية والأصول الباطنية التي قامت عليها، وأهم الحركات التي نشأت عنها، وتطورها.

ويحوي هذا الباب ستة فصول هي:

الفصل الأول: نبذة عن نشأة الإسماعيلية: والانقسامات التي حدثت فيها وتطورها.

وأعرض فيه تاريخاً موجزاً للإسماعيلية منذ نشأتها وحتى اليوم، وبيان كافة الانقسامات والتطورات التي حدثت في داخلها.

الفصل الثاني: الجانب الباطني في عقائد الإسماعيليين.

ويحوي عرضاً مفصلاً لكافة العقائد التي تؤمن بها الإسماعيلية، والتي لا يجوز عندهم البوح بها لغير أهلها، ويتكون هذا الفصل من ستة أقسام وهي كالتالي:

١ - عقيدتهم في الألوهية والتوحيد.

٢ - عقيدتهم في الوحي والنبوة والرسالة.

٣- عقيدتهم في الولاية وأئمة الستر وأئمة القيامة وعصمتهم.

٤ - عقيدتهم في اليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار.

٥- طريقتهم في الدعوة وتنظيم الدعاة.

٦- التأويلات الباطنية لأركان الإسلام وغيرها.

الفصل الثالث: نبذة عن القرامطة، نشأتهم وعلاقتهم بالإسماعيلة.

وأتحدث فيه عن نشأة القرامطة وعلاقتهم بالإسماعيلية، وعن أعمالهم الإجرامية التي قاموا بها ضد المسلمين.

الفصل الرابع: عقائد القرامطة.

وهو تفصيل لمبادئ القرامطة، التي ساروا عليها، والتي لا تختلف في جوهرها عن مبادئ الإسماعيلية ويتكون هذا الفصل من أربعة أقسام:

١- عقيدتهم في الألوهية والتوحيد.

٢- عقيدتهم في الوحي والنبوة والرسالة.

٣- تنظيمهم الدعوة على تسع مراحل.

٤- شيوعية المال والنساء عندهم.

الفصل الخامس: نبذة عن إخوان الصفاء، ظهورهم وصلتهم بالإسماعيلية وأعرض فيه نبذة عن هذه الجماعة، والتي كانت اسماً من جملة الأسماء التي تختفي وراءها الإسماعيلية بثوبها الباطني.

الفصل السادس: الجانب الباطني في رسائل إخوان الصفاء.

وأتحدث فيه عن العقائد التي جاءت في رسائل إخوان الصفاء، وأقارنها بعقائد الإسماعيلية، لأوضح الصلة الوثيقة بين الطرفين. ويتكون هذا الفصل من أربعة أقسام:

١- نظرتهم إلى الألوهية والتوحيد.

٢- نظرتهم إلى الأنبياء والرسل.

٣- نظرتهم إلى الأمور الغيبية.

٤- أثر الفلسفة في عقائدهم.

الباب الثاني: الدروز والأصول الباطنية التي قام عليها مذهبهم. ويتكون هذا الباب من فصلين اثنين.

الفصل الأول: نبذة عن نشأة الدروز وعلاقتهم بالإسماعيلية.

وهو بحث لا بد منه لدراسة الدروز، وأتحدث فيه عن بداية الدروز، وأهم دعاتهم، وعلاقتهم بالإسماعيلية بوجه عام، والحاكم بأمر الله بوجه خاص، والتطورات التي حدثت على مذهبهم.

الفصل الثاني: الجانب الباطني في عقائد الدروز.

ويحوي أبحاثاً مفصلة عن عقائدهم الباطنية التي يكتمونها عن عامة الناس وحكم الإسلام فيها، وهو مقسم إلى اثني عشر بحثاً:

١ - دعوى ألوهية الحاكم عندهم، ونظرتهم للاهوت والناسوت.

٢ - عقيدتهم في تناسخ الأرواح.

٣- عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب.

٤ - عقيدتهم في الحدود الخمسة.

٥ - إسقاطهم أركان الإسلام.

٦ - العقال والجهال ونظام الخلوات عندهم.

٧- تسترهم على عقائدهم.

٨- عقيدتهم في الأنبياء.

٩ - شريعتهم في الأحوال الشخصية.

١٠ - موقفهم من الأديان والفرق الأخرى.

١١ - رسائلهم وكتبهم المقدسة.

١٢ - حكم الإسلام فيهم وفي معاملتهم.

الباب الثالث: النصيرية والأصول الباطنية التي قامت عليها.

ويتكون من أربعة فصول هي:

الفصل الأول: نبذة عن نشأة النصيرية وأشهر دعاتها وأهم طوائفها وأتحدث فيه عن تاريخ الفرقة النصيرية منذ ظهورها وحتى اليوم، وعن زعماءها الذين قامت هذه الفرقة على أفكارهم ومبادئهم الخبيثة.

الفصل الثاني: الجانب الباطني في عقائد النصيريين.

ويتضمن هذا الفصل عشرة أقسام وهي:

١ – دعوى ألوهية علي عند النصيريين.

٢ – عقيدتهم في الثواب والعقاب.

٣– تعظيمهم لسلمان الفارسي والأيتام الخمسة، وحبهم لابن ملجم قاتل علي، وموقفهم من الصحابة الآخرين.

٤ – المراتب والدرجات عند النصيرية.

٥ – تعظيمهم للخمر ولشجرة العنب، ونظرتهم إلى الأنثى.

٦ – مراسيم وطقوس الدخول في عقيدة النصيرية.

٧ – تسترهم على عقائدهم.

٨ – نظرتهم للفرائض والعبادات الإسلامية.

٩ – نماذج من كتبهم وقداساتهم وأعيادهم وأثر النصرانية في ذلك.

١٠ – حكم الإسلام في النصيرية.

الفصل الثالث: مقارنة بين عقائد الإسماعيلية والدروز والنصيرية.

وهي مقارنة بين جميع العقائد التي مرت عند كل هذه الفرق، وأوجه الشبه الكثيرة بينها، ونقاط الاختلاف القليلة بين عقائدها، وهذا يدل على وحدة المصدر والهدف أيضا.

الباب الرابع: أثر الحركات الباطنية في واقع العالم الإسلامي.

وهذا الباب يتكون من دراسة مدعومة بالوقائع التاريخية القديمة والحديثة، عن الآثار الخطيرة التي أوجدتها الحركات الباطنية في المجتمع الإسلامي في كثير من الأمور، ويتضمن هذا الباب ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: أثرها في الناحية الفكرية.

الفصل الثاني: أثرها في الناحية الاجتماعية.

الفصل الثالث: أثرها في الناحية السياسية.

الخاتمة: وأتحدث فيها عن أهم النتائج التي وصلت إليها، وكذلك عن حكم الإسلام في كافة هذه الفرق، وحكم معاملتهم، وواجب المسلمين نحوهم، وكذلك واجب دعاة الإسلام في التعريف بخطر هؤلاء.

وأما بالنسبة للمراجع والمصادر، فقد اهتممت بكل ما كتب عن هذه الحركات مطبوعاً أو مخطوطاً، قديماً أو حديثاً، كما أنني حاولت جاهداً أن أنقل عقائد هذه الحركات من مصادرها الأصلية، لتكوين صورة صادقة وأمينة عن عقائدها.

وأخيراً.. فهذا الجهد معرض للخطأ والصواب، وحسبي بذلك أني قد بذلت جهدي وأفرغت وسعي في البحث والتقصي خدمة للإسلام وتوضيحاً للمسلمين، فإن أكن قد أصبت فذلك فضل من الله، وان أخطأت فحسبي بذلك نيتي ومقصدي.

وفي ختام هذه المقدمة، لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل، وعظيم الامتنان والتقدير لفضيلة الأستاذ الشيخ زيد بن عبد العزيز الفياض، لما غمرني به من رعاية وتوجيه كان له أكبر الأثر في إخراج هذه الرسالة، فجزاه الله كل خير، كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل من مد يد العون والمساعدة على إتمام هذا العمل.

وختاماً أدعو الله سبحانه وتعالى، أن يتقبل عملي هذا، وأن ينفع به، وأن يوفق الجميع لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. محمد الخطيب




التمهيد

التأويل الباطني

أصله، وكيفية وصوله إلى العالم الإسلامي

وفيه أربعة أقسام:

١- نشأة الباطنية وأفكارها.

٢- التأويل الباطني. أصله وكيفية وصوله إلى العالم الإسلامي.

٣- مصادر الفكر الباطني.

٤- التقية، حقيقتها وأصلها الباطني•.

• الحركات الباطنية في العالم الإسلامي - م٢.





الذخيرة العربية

١- نشأة الباطنية وأفكارها:

الباطن: اسم من أسماء الله عز وجل، كما جاء في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾[١]، ومعناه لغة: المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم[٢].

أي: هو الباطن بحقيقة ذاته، إذ تعجز العقول والحواس بمقتضى تكوينها عن إدراك حقيقته جل وعلا، لأن الحواس والعقول صغيرة محدودة، والله سبحانه وتعالى كبير لا حد له[٣] وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)[٤].

«وقيل أن معناه: عالم السرائر والخفيات، وقيل: أيضاً: هو العالم بكل ما بطن، يقال: بطنت الأمر إذا عرفت باطنه، والباطني هو الرجل الذي يكتم اعتقاده فلا يظهره إلا لمن يثق به، وقيل: هو المخصص بمعرفة أسرار الأشياء وخواصها، وقيل: هو الذي يحكم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلا، فلفظ الباطني يدل إذن على ثلاثة معان»[٥].

وكما يقول أبو حامد الغزالي: إن الباطنية إنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صورا جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة[٦].

---

(١) سورة الحديد آية ٣.

(٢) انظر لسان العرب جـ١٣ ص٥٤.

(٣) العقيدة الإسلامية / عبد الرحمن حنبكة ص١٥٩.

(٤) البخاري ٦ / ١٨٣، ومسلم كتاب الذكر والدعاء ٨ / ٧٨ ومسند أحمد ٢ / ٤٠٤.

(٥) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا ص١٩٤ - جـ٢.

(٦) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص١١.

أما الأصل التاريخي للباطنية، فالواقع أن مؤرخي الفرق مختلفون في أصلها ومصدرها، فمنهم من يرجعها إلى المجوس[١]، ومنهم من ينسبها إلى الصابئة بحران[٢]، إلا أن هذا الاختلاف سرعان ما يزول عندما نعرف أن الأصول التي تعتمد عليها الباطنية بكل فرقها وطوائفها نابعة من الفلسفة اليونانية التي غذت بأفكارها الكثير من هذه الفرق.

على أن الباحث في نشأة الباطنية في العالم الإسلامي، لا بد أن يلم بنشأة الشيعة، لأن التشيع كان ثوبا يتستر وراءه كل من يريد أن يبذر الفتن ضد الإسلام والمسلمين، ومأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام بإدخال تعاليم أبائه وأجداده من يهودية ونصرانية وهندوسية وأفلاطونية.

كما أن المتتبع لتطور عقائد الشيعة، والتي بدأت بفكرة الدفاع عن حق آل البيت في الخلافة، إلى اتخاذ هذا البيت الكريم وسيلة لنشر مذاهب دينية خاصة تهدف إلى أغراض سياسة[٣]، يجزم أن وراء هذه التطورات يداً خبيثة سوداء تحيك في الظلام مؤامرة ضد عقائد الإسلام.

«والراجح - تاريخيا - أن اليهودية الموتورة التي لا تستطيع الانتقام بحد الحسام، لجأت إلى الحيلة والمؤامرة لإيجاد الفرقة بين المسلمين ليضربوا بعضهم ببعض»[٤]، حيث تقدم عبدالله بن سبأ أو ابن السوداء ذلك الحبر اليهودي الذي تظاهر باعتناق الإسلام، وحاول أن يظهر بمظهر المشفق على الحياة الإسلامية، فاستطاع من خلال ذلك أن يجذب إليه الذين زعموا في تصرفات عثمان خروجا عن منهج سلفيه، وكان دور ابن سبأ أن ينشر هذه

---

(١) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٨٤ - ودائرة المعارف / للشيخ محمد حسين الأعلمي جـ٤ ص٩٨.

(٢) خطط الشام / محمد كرد علي جـ٦ ص٢٥١.

(٣) انظر كتاب حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية / د. محمد جابر عبد العال ص٤، ٥.

(٤) المصدر السابق ص٥.

الأمور في شكل يلفت النظر ويثير النفوس على عثمان، وفي هذا الجو تمكن هذا اليهودي الذي تدثر بالإسلام أن يوحي اليهم بمؤاخذة عثمان أو انتقاصه[1].

لهذا فإن ابن سبأ، كان رأس كل الفتن والاضطرابات التي حاقت بالمجتمع الإسلامي، ويقول الدكتور أحمد شلبي في معرض كلامه عن ابن سبأ: «أن زعامة ضالة بدأت هذا الشوط هي عبدالله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم، وأن مريدين كثيرين أخذوا عنه هذا الضلال وساروا فيه أزمنة طويلة وأشواطا واسعة، فالاسم لا يهمنا، ولكن يهمنا أن شخصا قام بالدور الذي نسب إلى عبد الله بن سبأ»[2].

وإلى جانب هذه الفتنة السياسية ضد عثمان، كانت تحاك فتنة أشد خطرا، وهي محاولة هدم الإسلام من الداخل، «وذلك عن طريق ابتداع مناهج الباطنية في تأويل الشريعة على نحو يفضي إلى نسخها والاستعاضة عنها بخليط عجيب من الحكمة، يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل»[3].

لهذا لم تلبث أن ظهرت تلك العقائد اليهودية المطعمة بالوثنية الفارسية والإغريقية، بعد صبغها بصبغة إسلامية خادعة، كفكرة النور المحمدي، وعصمة الأئمة ومعجزاتهم، وتقديس الأئمة، والغيبة والرجعة، والحلول، وتجسيد الألوهية، والتأويل والتشبيه[4]، وغير ذلك من الأفكار والعقائد.

وهذه الأفكار والاعتقادات ليست جديدة، فهي أفكار جاء بها بعض علماء اليهود من قبل وأولوا التوراة على أسس الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وقالت بها أيضاً طائفة يهودية

---

(١) انظر حركات الشيعة المتطرفين / د. محمد جابر عبد العال ص ٥ / وموسوعة التاريخ الإسلامي / د. أحمد شلبي جـ٢ ص١٤٥، ١٤٦.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي / د. أحمد شلبي ص١٤٦ جـ، والمهدية في الإسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم / سعد محمد حسن ص٩٢.

(٣) دراسات في الفلسفة الإسلامية / د. محمود قاسم ص٢٥٤.

(٤) انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام / د. علي النشار جـ١ ص٤٧، وتاريخ الدولة الفاطمية / د.حسن إبراهيم حسن ص١٨، ودراسات في الفلسفة الإسلامية / د. محمود قاسم ص٢٥٤، ٢٥٥.

هي طائفة (القبالة)[1]، والتي شوهت التوراة وحرفتها عن طريق التأويل وادعت الجمع بين التأويل الباطني وادعاء الكشف عن الغيب وأسرار الحروف وغير ذلك من التلفيق الواضح بين فلسفة الاغريق والأفلاطونية الحديثة ورواسب من عقائد الفرس، وهذا الاتجاه التلفيقي كان واضحا في مجتمعات الفلاسفة في اليونان والإسكندرية، وهي التي كانت تعرف بجمعيات أهل العرفان أو (الجمعيات الغنوصية)[2]، «الذين يرون أن علمهم الباطن هو العرفان، الذي يهبط على قلوبهم إشراقاً أو وحيا دون واسطة ودون معلم، وهذه الجمعيات السرية وجدت منذ زمن بعيد، وحاولت نسخ الأديان الموحى بها من يهودية ومسيحية وإسلام عن طريق ضرب بعضها ببعض، ثم ضربها جميعا ببعض الآراء الفلسفية لفتح الطريق أمام ما يسمونه الدين العالمي الذي تحدث عنه الحلاج والكتاني وابن عربي: وهو في ظنهم دين يقوم على الإشراق والكشف، وهو يرجع عند بعض هؤلاء إلى نوع أصيل من الإلحاد، لأنه يبدأ بخلع طابع القداسة على بعض أفراد البشر، ثم يغلو في تقديسهم، حتى يسهل على العامة قبول فكرة حلول الله فيهم، كما حدث في المسيحية، وكما حاول تحقيقه بعض من ادعوا التصوف في الإسلام، وكما انتهى إليه صاحب القيامة الكبرى (الحسن بن الصباح) في قلعة (آلموت) عندما نادى بنسخ الإسلام وأعلن ألوهيته»[3].

ومما لا ريب فيه أن المخطط اليهودي قد استغل كثيرا أبناء الشعوب التي اعتنقت الإسلام ولم يرسخ إيمانها بعد، فأخذ يوحي للسذج من هؤلاء الناس بالظلم المزعوم الذي

---

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية / د. محمود قاسم ص٢٥٦، والكلمة مشتقة من (القبالة) وتطلق على التأويل الخفي للتوراة. انظر المعجم الفلسفي / جميل صليبا جـ٢ ؟

(٢) نسبة إلى (الغنوص) وهي كلمة يونانية معناها المعرفة، ثم أخذت بعد معنى اصطلاحيا، هو محاولة التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف. العقيدة والشريعة في الإسلام / تعليقات المترجمين ص٢٥.

(٣) دراسات في الفلسفة الإسلامية / د. محمود قاسم ص٢٥٦، ٢٥٧.

حاق بعلي لعدم استخلافه، فركزوا على ناحية مهمة أرادوا بها إقحام العقائد الهدامة في نفوس المسلمين وهو إيهام السذج من الناس بعلم علي للغيب، وتجسد الله - جل وعلا - فيه، فوضعوا لهذه الغاية الأحاديث الموضوعة[١]، والأقوال المأثورة عن علي، ومن تلك الأقوال التي نسبوها لعلي «فاسألوني قبل أن تفقدوني، فو الذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة، وتضل مائة، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا ومن يموت موتا»[٢].

ولم يكن مجيء عبدالله بن سبأ لعلي بن أبي طالب وقوله له «أنت، أنت»[٣] مجرد صدفة، ولكنها حلقة من حلقات المؤامرة التي أرادت إحياء العقائد الوثنية وأتباعه يأتون عليا بعد ذلك ويقولون له: «أنت هو» فقال لهم: ومن هو؟ فقالوا: أنت الله، فثار علي وأمر مولاه قنبر بحرقهم في النار[٤].

والظاهر من روايات أخرى أن عليا أراد أيضا أن يحرق معهم رأس الفتنة ابن سبأ، ولكن الناس صاحوا بعلي: يا أمير المؤمنين أتقتل رجلا يدعو إلى حكم أهل البيت والبراءة من أعدائك[٥]. ويدلنا هذا على مقدار تمكن ابن سبأ من عامة الناس وسيطرته على عقولهم حتى أصبحوا أشد المدافعين عنه.

وبقي ابن سبأ في طريقه الحاقد حتى بعد مقتل علي رضي الله عنه، فلم يعترف بمقتله، بل اعتبر ذلك غيبة سيغيبها علي ثم يرجع[٦]، فوضع بذلك فكرة الرجعة اليهودية، وقال للذي جاءه ينعي عليا: كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلا

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام / د. علي النشار ص٤٧.

(٢) دراسات في الفلسفة الإسلامية / د. محمود قاسم ص٤٧.

(٣) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ٢ص١١.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم جـ٤ ص١٨٦.

(٥) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٣٤، وفرق الشيعة / النوبختي ص١٩.

(٦) فرق الشيعة / النوبختي ص ٢٠ / والفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم جـ٤ ص١٧٩.

لعلمنا أنه لم يقتل ولا يموت حتى يملك الأرض ويملأها عدلا كما ملئت جورا[1]. ولم يكتف بهذا الزعم بل نجده يقرر حلول الجزء الإلهي في علي ويقول: بأنه سيجيء بالسحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه أو تبسمه، وسينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا[2].

واستمر تلامذة ابن سبأ في نفث سمومهم، فنجدهم يحملون تلك السموم مع ابن علي محمد بن الحنفية، فادعى المختار بن أبي عبيد الثقفي أنه الإمام بعد أبيه، لأن ابن الحنيفة حمل راية أبيه يوم البصرة دون أخويه فسموا (الكيسانية)[3]. وبدأ من خلال هذا الادعاء ببث أفكاره الضالة التي توارثها عن ابن سبأ، فقال بـ (البداء)، وهو الظهور بعد الخفاء، أي أن تكون الحكمة قد ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل، وهذا يستلزم البداء، وسَبْقَ الجهلِ على الله سبحانه وتعالى وزعم بعد ذلك أن جبرائيل يأتيه بالوحي من عند الله[4] عز وجل، وقال بتناسخ الأرواح[5]، وبالرجعة[6]، وبأن الدين طاعة رجل، حتى حملهم هذا الاعتقاد على تأويل الشريعة، فاعتبروا أن طاعتهم لذلك الرجل تبطل الصوم والحج والصلاة وغيرها من الفرائض[7].

وهذه الادعاءات جعلت ابن الحنيفة يتبرأ منه ومن ضلالاته[8]، وكان ذلك سببا لهزيمة المختار أمام الأمويين.

ولما مات ابن الحنيفة، ظهر أبو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، زعيما للشيعة الغلاة، فاعتبر العلوم السرية والباطنية هي جوهر الإمامة، لأن لكل ظاهر باطنا ولكل شخص

---

(١) فرق الشيعة / النوبختي ص٢٠، والفصل في الملل / ابن حزم جـ٤ ص١٨٠.

(٢) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ٢ ص١١.

(٣) فرق الشيعة / النوبختي ص٢٠.

(٤) فرق الشيعة / النوبختي ص٢١.

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص١٩.

(٦) فرق الشيعة / النوبختي ص٣٧.

(٧) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ١ ص١٩٦، على الهامش.

(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥١، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩م.

روحا، ولكل تنزيل تأويلا، ولكل مثال في العالم حقيقة[1]. وكان أبو هاشم هو البادئ في إسباغ الأسرار على أرقام معينة ومنها الرقم (١٢)، والذي كان شرطا اشترطه على من استخلفه من بعده (محمد بن علي بن عبدالله بن العباس) بأن يكون دعاته إلى الثورة على الأمويين بهذا العدد لتنجح الثورة[2].

وبموت أبي هاشم سنة ٩٧هـ انفسح المجال لشيعة الكوفة التي كانت معروفة بأنها مركز الأديان المتعددة والمذاهب المختلفة[3] أن يطوروا هذه البواكير التي وضعها ابن سبأ وعبدالله بن محمد بن الحنيفة. ومن هذه البواكير انطلق (بيان بن سمعان) فأعلن ألوهية علي بن أبي طالب[4]، ولكنه زعم بعد ذلك أن هذا الجزء الإلهي الذي كان في علي انتقل إليه بنوع من التناسخ، ومن هنا فقد أخذ سر الإمامة وهو العلم الإلهي السري، لذلك فهو - كما يزعم - المشار إليه في القرآن الكريم ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾[5] فصار جديرا بأن ينسخ شريعة محمد ﷺ[6].

وكان في أثناء وجود (بيان) زميل له يؤازره في أفكاره الضاله هو (المغيرة بن سعيد العجلي)، والذي أظهر العلوم والأسرار الخفية الموجودة في الرقم (٧) فجعله عددا لأصحابه الذين خرج بهم وسماهم - الوصفاء[7] -، حتى إنه جعل عليا في مصاف الأنبياء

---

(١) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ١ ص٢٠١ على الهامش.

(٢) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية / د. كامل مصطفى الشيبي ص٢٥.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي / د. أحمد شلبي جـ٢ ص١٤٧.

(٤) الملل والنحل جـ١ ص٢٠٤ على الهامش.

(٥) سورة آل عمران آية ١٣٨.

(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم جـ٤ ص١٨٥، وانظر أيضا الفكر الشيعي والنزعات الصوفية / د. كامل الشيبي ص٢٥.

(٧) تاريخ الطبري جـ٧ ص١٢٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف ٦٦، والكامل في التاريخ / جـ٥ ص٢٠٨.

ومفضلا على بقية الأنبياء والقادر على إحياء الموتى[١]. وكانت خاتمة المغيرة وزميله بيان الحرق بالنار في يوم واحد على يد والي الكوفة خالد بن عبدالله القسرى[٢].

وظهر بعدهما أبو منصور العجلي والذي تنسب إليه فرقة (المنصورية) فرفع أئمة الشيعة جميعهم إلى مصاف الآلهة، وجعل من نفسه نبيا[٣]. وزعم أنه قد عرج به إلى السماء وأن الله سبحانه وتعالى مسح بيده على رأسه وقال: - يا بني بلغ عني - وأنزله بعد ذلك إلى الأرض فهو (الكسف) الساقط من السماء، وهو الذي قال الله فيه «وإن يروا كسفا من السماء ساقطا»[٤].

وجاء أبو الخطاب الأسدى ليسير في أفكار الغلو شوطا كبيرا ورئيسيا، فقد كان أستاذا لكل أصحاب الفرق الباطنية بعد ذلك، فقد كان أستاذا للمفضل الجعفي والذي كان وراء محمد بن نصير في أفكاره الضالة والتي أسس عليها فرقته النصيرية. وكان أيضا أستاذا لإسماعيل بن جعفر ولابنه محمد، وزميلا مخلصا لميمون القداح وابنه، الذين بلوروا بشكل فعال انطلاق الحركة الباطنية بثوبها (الإسماعيلي) التي انبثقت منها أكثر الحركات الباطنية الأخرى كالقرامطة والدروز وإخوان الصفا والحشاشين، وعندما يتحدث النوبختي عن الإسماعيلية لا يصفهم إلا بالخطابية[٥] لارتباط الاثنتين معا في الأفكار والأهداف.

ومن الطبيعي أن يلتصق أبو الخطاب بأحد من تزعم الشيعة إمامتهم وهو جعفر بن محمد الملقب بـ (الصادق)، حيث حاول أن يتقرب منه ليعلن من خلال ذلك أفكاره الضالة، وأراد أن يمثل مع جعفر الصادق نفس الدور الذي مثله من قبل بالنسبة لعلي بن

---

(١) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ ٢ ص١٣، وحركات الشيعة المتطرفين / محمد جابر عبد العال ص٣٧.

(٢) تاريخ الطبري جـ٧ ص٢٩.

(٣) مقالات الإسلاميين جـ١ ص٧٤، والفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٤٣.

(٤) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ٢ ص١٥ على الهامش، والفصل في الملل / ابن حزم جـ ٤ ص١٨٥، والمهدية في الإسلام / سعد محمد حسن ص٧٩، وفرق الشيعة للنوبختي ص٣٤، ٣٥.

(٥) انظر فرق الشيعة / النوبختي ص٥٩.

أبي طالب، عبدالله بن سبأ ورهطه[1]. ولما علم الصادق بأفكاره أعلن براءته منه ولعنه، وأمر أصحابه بالبراءة منه، بل وبالغ في ذلك[2].

وتقوم أفكار الخطابية، على أن الله عز وجل هو (محمد) وأنه ظهر في خمسة أشباح وخمسة صور مختلفة، ظهر في صورة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وإنما أظهر نفسه بالإنسانية والبشرية لكي يكون لخلقه به أنس ولا يستوحشوا به، فقد أظهر نفسه للناس بشكله النوراني فلم يقروا به وأنكروه، وظهر لهم من باب النبوة والرسالة فأنكروه، فلما ظهر لهم من باب الإمامة (أي بشخص علي وذريته) قبلوه، فظاهر الله عندهم الإمامة ومن يحملون هذا اللقب، وباطنه الله الذي معناه (محمد)[3].

ولذلك فقد اعتبروا أبا الخطاب نبيا مرسلا، أرسله جعفر بصفة الإمامة أو كما يزعمون الإله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا -، وأحلوا على هذا الأساس المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض. وقالوا من سأله أخوه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه ويشهد له فإن ذلك فرض عليه وواجب[4].

وزعموا أن الفرائض هي أسماء رجال ونساء، فمن عرف أسماء الأبواب والأيتام والنقباء والمصطفين وغيرهم، وعرف كذلك أن الباب هو سلمان، واليتيم الكبير المقداد، واليتيم الصغير أبو ذر، فهو مؤمن ممتحن موضوع عنه جميع الشرائع، ومحلل له جميع ما حرم الله في كتابه وعلى لسان نبيه، فالمحرمات عندهم أسماء ورجال ونساء أيضا من أهل الجحود والإنكار، وقد فرض الله الصلاة والزكاة وباقي الفرائض على هذه الأسماء أهل

---

(١) دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية / د. موسى لقبال ص٢٠٠.

(٢) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ٢ ص١٥، ١٦ على الهامش، وكتاب المقالات والفرق / للقمي ص١٨٨ وهي من تعليقات المحقق الدكتور محمد جواد مشكور.

(٣) انظر كتاب المقالات والفرق / اللقمي ص٥٦.

(٤) المصدر السابق ص٥٧ / وفرق الشيعة / للتوبختي ص٣٧، ٣٨.

الجحود والإنكار فهي عليهم كالآصار والأغلال عقوبة لهم، وأباحوا الفروج وأبطلوا النكاح والطلاق، واعتبروا أن لهما معنى باطنياً لا يعرفه إلا المؤمن، ولهذا فقد اعتبروا المرأة بمنزلة الريحانة النابتة تقلعها إذا اشتهيت، فإذا شممتها حييت بها أخاك المؤمن[1].

وينبغي أن نذكر هنا أن أبا الخطاب وأتباعه تعلموا الشعوذة وعلم النجوم والكيمياء حتى يستطيعوا أن يحتالوا على الناس، فكانوا يحتالون على كل قوم بما يتفق مع ميولهم، وأما أمام عامة الناس فكانوا يحاولون أن يظهروا الزهد والورع[2].

وجعلوا لقبول الإنسان في مذهبهم امتحانا طويلا، أوله أن يشرب الخمر على أنها حلال، وأن يعرف باطن الصلاة وباقي الفرائض، وآخره (المؤاساة)، وهي أن يجعل أستاذه الخطابي شريكا له في جميع ما يملكه من مال ونساء، فيخرج له الخطابي أهله أو (وعاءه) من زوجة وبنت وأخت فيطأهم الممتحن، ويخرج له الممتحن كذلك كل ما يملكه من زوجة أو بنت أو أخت فيطأهم الخطابي، وهكذا يصبح هذا الممتحن أخا مؤمنا[3]؟!

ومن مزاعمهم أيضا القول بالتناسخ، فزعموا أن أرواح من جحد وأنكر أمرهم تكون في الحيوانات من قردة وخنازير، وفي الجمادات من حجارة أو حديد، وتأولوا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾[4]، أما أرواحهم فلا تنتقل إلى أي شيء من هذه الأشياء وإنما لها سبعة أبدان أخرى تكون أقمصة لها، فكلما تركت قميصا لابست قميصا آخر حتى القميص السابع وعندها ينكشف الغطاء عنه[5].

---

(١) المقالات والفرق / القمي ص٥٧، ٥٩ وفرق الشيعة للنوبختي ص٣٨.

(٢) انظر الكامل في التاريخ / ابن الاثير جـ٨ص٢٩.

(٣) المقالات والفرق / للقمي ص٥٨، ٥٩.

(٤) سورة الإسراء آية ٥٠، ٥١.

(٥) المصدر السابق ص٥٩.

وقد كانت نهاية أبي الخطاب وأتباعه على يد والي الكوفة عيسى بن موسى، حيث اجتمعوا في مسجد الكوفة وحاولوا قتل الوالي وجنوده، فقتل أكثرهم، ثم أتي بأبي الخطاب إلى الوالي حيث قتله على شاطئ الفرات[١].

وكما ذكرنا سابقا، فإن أبا الخطاب هو أحد شيوخ المفضل الجعفي الذي كان أستاذا لابن نصير ولا يزال مقدسا عند النصيريين إلى الآن، ومن يدقق النظر في اعتقادات الخطابية يجد أن غالبية اعتقاداتها قد نقلت نقلا حرفيا إلى النصيرية، فقد أخذت النصيرية جميع تلك الاعتقادات من تحليل وتحريم وتناسخ ووطء النساء وجعلتها اعتقادات خاصة بها[٢]، وهذا يؤيد قولنا أن الباطنية منذ نشأتها على يد عبدالله بن سبأ كان جميع أتباعها يسيرون على نفس الهدف والغاية التي رسمها لهم أعداء الإسلام وعلى رأسهم أحبار اليهود.

ولقد كانت الإسماعيلية أيضا حلقة أخرى من حلقات الاتصال الرئيسية التي أوجدها أبو الخطاب وباقي حركات الغلو السابقة[٣]. فنجد أتباع أبي الخطاب يلجأون بعد مقتله إلى الإسماعيلية مبايعين محمد بن إسماعيل بالإمامة[٤]، ذلك التلميذ المخلص لأبي الخطاب، والذي ادعى أتباعه بأنه بعث برسالة جديدة وشريعة جديدة[٥]، تعتمد على التأويل والعلم الباطني.

وكان كل ذلك في محاولة لاسباغ المظهر العلمي[٦] على العقيدة الباطنية الجديدة، ولإظهارها بمظهر الحركة الإصلاحية التي تنادي بالإصلاح الشامل[٧] لكل أجزاء المجتمع. وإمعانا في هذه الطريق الخطرة نظمت العقيدة الإسماعيلية لتناسب كما المستويات

---

(١) فرق الشيعة / النوبختي ص٥٩ - ٦٠.

(٢) انظر الباب الثالث من هذه الرسالة في موضوع اعتقادات النصيرية.

(٣) انظر الفكر الشيعي والنزعات الصوفية / د. كامل الشيبي ص٢٩.

(٤) فرق الشيعة / النوبتختي ص٦٠، ٦١.

(٥) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ ٢ ص٢٨، ٣٢ على الهامش.

(٦) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية / د. كامل الشيبي ص٣٠.

(٧) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٣٢.

العقلية في المجتمع، وتتفق مع اعتقادات جميع الناس، بحيث تتغير الواجبات المنوطة بالمريد كلما ارتفع في فهمه للأسرار الدينية[1]، ولا تبقي في أعلى مراتبها من الأصول الإيمانية الواجبة في الإسلام إلا هيكلا خاويا وبناء متداعيا، لأن هدف الإسماعيلية في النهاية هو هدم كل عقيدة واقعية محددة[2].

والحقيقة أن ما نجده عند هذه الفرق - وبالأخص الإسماعيلية - من تصور للدين بأنه معرفة الله معرفة عقلية، ومن تقسيم الناس طبقات بحسب درجاتهم في المعرفة[3]، ثم ما نجده من قولهم بنظرية الفيض الأفلاطونية[4]، التي تقوم على المظاهر الدورية للعقل الكلي، فتبدأ بسلسلة أولها آدم وينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليه الصلاة والسلام - وتختتم بإسماعيل وابنه محمد ويليه مباشرة المهدي الذي يأتي برسالة جديدة تعد من حيث هي مظهراً من المظاهر الدورية أكمل وأعظم مما سبقها، بل تفوق رسالات من سبقه حتى رسالة النبي محمد ﷺ، وهذا التطبيق لفكرة المهدية يهدم إحدى دعائم الإسلام الأساسية، ويمحو كذلك صفة أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين - ، وما للشريعة التي أرسله الله بها من قيمة[5].

وتحت هذه العناوين والشعارات خرجت هذه الحركة وغيرها من حركات الغلو تروج لهذه المبادئ الهادمة للإسلام المقوضة لأركانه، هادفين من وراء ذلك أن يعودوا بالبشرية إلى غياهب الظلام التي كانت تعيش بها قبل الإسلام، فاحتالوا لذلك بالقول

---

(١) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية / د. كامل الشيبي ص٣٠، وتاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٣٢.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام / إجناتس جولد تسهير ص٢٤٠.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم متز جـ٢ص٧٧.

(٤) وهي نظرية قال بها أفلاطون وتقول بفيض الكائنات على مراتب متدرجة من مبدأ واحد، كما يفيض النور عن الشمس، والحرارة عن النار.

انظر المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية / القاهرة ص١٠٥، ١٠٧.

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام / إجناتس جولد تسهير ص٢٣٩، ٢٤٠.

بالباطن والعلوم السرية وغير ذلك من تلك الألفاظ الغامضة التي أحاطوها بجو من الأسرار وأساليب المكر والمراوغاة، لعلهم يستطيعون بذلك أن يعيدوا مجدهم المندثر؟!

٢- التأويل الباطني، أصله وكيفية وصوله إلى العالم الإسلامي:

«التأويل مشتق من الأول وهو الرجوع يقال آل إليه أي أرجعه، وعند علماء اللاهوت تفسير الكتب المقدسة تفسيراً رمزيا أو مجازيا يكشف عن معانيها، فالشريعة كما يقول بعضهم مشتملة على ظاهر وباطن لاختلاف فطر الناس وتباين قرائحهم في التصديق، فكان لا بد من إخراج النص من دلالته الظاهرية إلى دلالته الباطنية بطريق التأويل، فالظاهر هو الصور والأمثال المضروبة للمعاني، والباطن هو المعاني الخفية التي لا تتجلى إلا لأهل البرهان، فالتأويل - في نظرهم - هو الطريقة المؤدية إلى رفع التعارض بين ظاهر الأقاويل وباطنها»[(١)].

والتأويل هو أحد الوسائل الرئيسية التي اتخذتها الحركات الباطنية لجعل عقائدها شرعية وصحيحة - على حسب زعمهم -، فكان بالنسبة إليهم أداة صالحة لإيهام الناس أن أرائها متفقة مع نصوص القرآن الكريم.

حتى صارت تلك الحركات ترى في هذا التحوير للمعنى الظاهري السبيل الوحيد لتفهم القرآن، وبذلك أهملوا التفسير الصحيح، بل صارت أحكام القرآن في رأي أتباعها غير واجبة الاتباع[(٢)]. وهم في تأويلهم للقرآن يعتقدون بأن هناك وراء المعنى الحرفي للآيات - وهو معنى لا أهمية له في نظرهم - حقائق فلسفية تستخلص بالتفسير المجازي، ولكي يضفوا على هذا التفسير الباطني مسحة شرعية زعموا بأن محمدا - ﷺ - أفضى لوصيه علي بالمعنى الباطني لآيات القرآن[(٣)]، وأن هذا المعنى لا يلقن إلا عن طريق التعليم

---

(١) المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ١ ص٢٣٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية / مجلد ٤ ص ٥٢٣.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص١٥٦.

من الإمام أو من معلم ينبيه، ويعتقدون أيضا أن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار، والبواطن والأغوار، وقع بظواهرها، وكان تحت الآصار والأغلال، وأرادوا بالأغلال التكليفات الشرعية، لأن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه[1].

والواقع أن استعمال وجوه التأويل الكثيرة يمكن أن ترد إلى أشياع الأفلاطونية الحديثة، وبخاصة فيلون اليهودي، وأوريجانوس النصراني، «وهذا المزيج (أي الأفلاطونية الحديثة) ملفق من فلسفة فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو، وأضيف إليه شيء من الفلسفة الهندية»[2].

وقد تنبه اليهود إلى المذاهب الفلسفية التي انتشرت في العالم القديم، والتي زعزعت أسس الروايات الدينية عندهم، ولهذا حاولوا أمرين:

١ - إقامة أدلة فلسفية على صحة الدين عموما.

٢ - تأويل الروايات الدينية بشكل لا يخالف الفلسفة.

وعلى هذا الأساس نشأ في اليهود الإسكندرانيين نفر اتجهوا هذا الاتجاه في التلفيق، ثم جاء فيلون اليهودي الإسكندراني فنظم آراء المتفلسفين من قومه، ولكنه لم يستطع أن يخلص تلك الآراء من شوائب بالتلفيق ولا أن يضمها في نظام واحد أو أن يستر ما فيها من التناقض[3].

ويدور أكثر تفلسف فيلون حول شرح التوراة شرحا رمزيا، فحواء مثلا كناية عن (الحس) والحية كناية عن (اللذة)، ولقد نفى عن الله جميع الصفات التي وصفته بها التوراة، فالله في نظره لا يمكن أن يتصل بالعالم، ولهذا خلق أولا الكلمة وهي في نظر فيلون (الابن الأول لله)، أما العالم فهو الابن الثاني لله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا -، وبما أن الإنسان

---

(١) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص١١، ١٢.

(٢) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٣٠.

(٣) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٣١.

لا يستطيع أن يتصل بالله مباشرة، فقد جعل الله الكلمة والملائكة شفعاء للبشر في توسلهم إليه[1].

وبسبب هذه الفلسفة ظهر عند اليهود طائفة (القبالية) نسبة إلى (القبالة) وهو كتاب فيه التأويل الخفي للتوراة، وأهم مسائله هي سرية التعاليم وإمكان فك رموز التوراة، وكذلك رمزية الأعداد والحروف[2].

ومن هذا المنطلق وعلى طريقه ظهر أيضا (أوريجانوس) النصراني تلميذ فيلون، والذي كان أول من عمل على تفسير الإنجيل تفسيراً رمزياً سيراً على طريق فيلون والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وكل مدقق في هذا التفسير يرى أحيانا في أبسط المسائل أو في أوضح النصائح معنى دقيقا خفيا[3].

وهكذا استطاع أحفاد (فيلون) عبدالله بن سبأ وتلاميذه، «أن يورثوا الإسلام تركه فيلون اليهودي»[4]، وذلك في محاولتهم تفسير القرآن تفسيرا رمزياً بعيدا كل البعد عن معناه الحقيقي، ليستطيعوا أن يسيروا في مؤامرتهم نحو الهدف المنشود، وطبقوا في سبيل ذلك مبادئ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة على أكثر عقائد وشرائع الإسلام، وأوهموا الإنسان العادي أن فهمه الباطني لشرائع الإسلام ارتقاء إلى المعرفة والسمو.

وكان تأويل ابن سبأ لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۢ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍۢ مُّبِينٍۢ ﴿٨٥﴾ ﴾[5] وقوله: إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد[6]، أول تأويل لمعاني القرآن الكريم، فوضع بذلك هذا

---

(١) المصدر السابق ص١٣١، ١٣١.

(٢) المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ ٢ص.

(٣) دائرة المعارف / المعلم بطرس البستاني جـ ٤ص٦٣٩.

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام / إجناتس جولد تسهير ص١٥٦.

(٥) سورة القصص آية ٨٥.

(٦) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٨.

المذهب الباطني بما فيه من قول بالرجعة[1] والذي نشأ عليه مذهب التناسخ وقالت به باقي حركات الغلو الأخرى. وهذا يعني أن عبدالله بن سبأ حاول أن يوجد نفس العوامل الشبيهة التي أدت إلى تحريف وتأويل التوراة والإنجيل من قبل على غرار ما فعل فيلون وطائفة القبالية. فكان نشره لمبدأ الوصاية بمعنى أن عليا وصى محمد ﷺ من جملة هذه العوامل التي أراد أن تتحقق، لذا نجده ينادي بعد ذلك بحلول جزء إلهي في علي وذريته، وهو المذهب الذي يرجع إلى المؤثرات اليهودية والمسيحية المأخوذة عن الفلسفة الأفلاطونية.

ونستطيع أن نقول بعد ذكر هذه العوامل، أن الذين جاؤوا بعد ابن سبأ ابتداء من المختار وانتهاء بأبي الخطاب كانوا يسيرون على نفس الدرب الذي وضعه لهم ابن سبأ في تحريف وتأويل شرائع الإسلام. وليس مستغربا بعد ذلك أن تسير الباطنية الإسماعيلية على نفس هذه الطريقة المؤدية إلى تطبيق الفلسفة الأفلاطونية الحديثة على من يريد الاندماج بها.

فكما أن مذهب الأفلاطونية الحديثة يصبو إلى التجرد من الحجب الجثمانية ويعود بالإنسان إلى الوطن السماوي، وطن النفس الكلية، فكذلك يجب على من يريد الاندماج في سلك الإسماعيلية أن يزيح عن بصره الحجب المادي التي تغشى الشريعة. وذلك بأن يرتقى إلى معرفة تتناهى في السمو والدقة وأن يسمو إلى عالم الروحانية المحضة، لأن الشريعة عندهم ما هي إلا واسطة تهذيبية ووسيلة تربوية، ذات قيمة نسبية وأهمية عرضية وقتية، وهي تصلح لقوم لم يكتمل نضجهم بعد[2].

وتبين الحادثة التالية مدى تفسير الإسماعيلية للشريعة تفسيرا مجازيا وتحللهم من قيودها، وهي أن إسماعيل الذي تنسب إليه الفرقة أنكر إمامته خصومه من الإمامية الاثنى عشرية لوقوعه في محظور وهو أنه كان يتناول الخمر، فأصبح غير أهل لأن يلي الإمامة، فرد عليهم مريدوه: إن الله اجتبى شخصا للإمامة واصطفاه منذ مولده لتقلد هذا المنصب الخطير في المستقبل، وطهره من الذنوب والأوزار وأفقده القدرة على إتيانها، فتحريم الخمر

---

(١) فرق الشيعة / النوبختي ص١٩، ٢٠.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص٢٤١.

لم ير فيه إسماعيل ومن ثم مريدوه من الإسماعيلية إلا معنى مجازيا، وطبقوا ذلك على الأحكام والفرائض الأخرى كالصيام والحج وغيرها. ويستخلص من نظرتهم هذه، أنهم تحللوا من كل النواميس الخلقية وأباحوا كل محظور[1].

ومن الآيات القرآنية التي اتخذتها الباطنية في تفسيرها الرمزي وسيلة لنشر مبادئها قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[2]، فزعموا أن قوله تعالى ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ أي اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، وقوله ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم، ومعنى «يمددكم بأموال وبنين» أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى «ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية، والأنهار هي العلم الباطني. وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[3]، أن الشيطان هو (عمر بن الخطاب)، والإنسان هو (أبو بكر الصديق)، ومعنى أكفر لا تؤمن بإمامة على بن أبي طالب. وفسروا أيضا قوله تعالى ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾[4] أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وأن إبليس وآدم المشهوران في القرآن هما أبو بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي فأبى واستكبر[5].

إذن فقد كان التأويل والتفسير الباطني للقرآن تنفيذاً واضحاً لتعاليم الفلسفات الغنوصية أو العرفانية ومنها الأفلاطونية الحديثة، التي دخلت إلى العالم الإسلامي عن طريق اليهودية متدثرة برداء التشيع لآل البيت، في مؤامرة خبيثة أرادوا بها تشويه نقاء

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) سورة نوح آية ١٠ - ١٢.

الحركات الباطنية في العالم الإسلامي - م٣.

(٣) سورة الحشر آية ١٦.

(٤) سورة الرحمن آية ٥.

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٤٣٦.

ووضوح عقائد وشرائع الإسلام بتلك التفسيرات والتأويلات الباطنية المريبة التي تدخل الإنسان في ظلمات لا يخرج منها.

وهذه التأويلات لا تمت إلى الإسلام بصلة، وإن كان قائلوها يسمون بأسماء إسلامية[1]، يقول تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ ﴾[2]، فالله سبحانه وتعالى أخبرنا أن الذين في قلوبهم ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل، إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها ابتغاء الفتنة لإضلال أتباعهم إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة[3] قالت: قرأ رسول الله ﷺ: «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» إلى قوله «أولوا الألباب» فقال: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عَنَى الله فاحذروهم» وهي رواية البخاري[4] فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمّى الله فاحذروهم[5]».

فالإسلام دين واضح سهل، لا رموز فيه ولا ألغاز، ورسول الله ﷺ قد ترك المسلمين على المحجة الواضحة، ليلها كنهارها، فكل من حاد عن هذه السبيل، فإنما أعرض عن الصراط المستقيم، وتفرقت به السبل، حتى خرج بعضهم عن طريق الإسلام. ومن ذهب هذا المذهب أو قريباً منه فلا يمكن أن يعد من المسلمين، ولا أن ينسب قوله إلى أقوال أهل الإسلام[6].

---

(١) من تعليق الاستاذ أحمد شاكر على التأويل في: دائرة المعارف الإسلامية مجلد ص٤ص٥٢٤.

(٢) سورة آل عمران آثة ٧، ٨.

(٣) مسند الإمام أحمد جـ ٦ ص٤٨.

(٤) صحيح البخاري كتاب التفسير جـ ٨ ص٣٤٣.

(٥) تفسير ابن كثير / تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا، مطابع الشعب مجلد ٢ص٤ – ٦.

(٦) من تعليق الأستاذ أحمد شاكر على التأويل، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٤ ص٥٢٥.

٣- مصادر الفكر الباطني:

لقد كان تأثير الفكر الباطني الموجود في اليهودية والنصرانية واضحاً في الحركات الباطنية التي ظهرت في العالم الإسلامي، وهذه المؤثرات جاءت كنتيجة مباشرة للبذور التي بذرها عدد من اليهود وغيرهم من أتباع الملل الأخرى بتظاهرهم باعتناق الإسلام، ليُدخلوا من خلال ذلك الأفكارَ المسمومةَ والغريبةَ في عقائد المسلمين، فكانت فكرة التشيع لعلي وآل البيت ستاراً ينطلقون منه لتحقيق أهدافهم.

وقد ترك هذا أثره في مفكري تلك الحركات الباطنية التي ظهرت بعد ذلك مما جعلهم يبحثون عن مصدر هذه الأفكار الأصلي، فوجدوا ضالتهم في الفلسفة اليونانية بما فيها الأفلاطونية الحديثة، وكانت النزعة الباطنية التي تميزت بها هذه الفلسفات دافعاً قوياً لأخذ المزيد من أفكارها.

وكان لترجمة المؤلفات الفلسفية اليونانية وانتشارها في القرن التاسع الميلادي أثر واسع في تبلور فكر هذه الحركات[1]، حيث كانت مدينة الإسكندرية أهم المراكز لدراسة فلسفة اليونان ولاهوتهم، لكنها لم تكن المركز الوحيد، ففي شمال سوريا تركزت هذه الدراسة في أنطاكية وحران والرها وقنسرين، وفي العراق الأعلى نشطت في نصيبين ورأس العين[2].

وهكذا نشأت في الإسكندرية مذاهب فلسفية كثيرة: الفيثاغورية المتأخرة أو (الحديثة) والأفلاطونية المهودة، والأفلاطونية المتأخرة أو (الحديثة) المعروفة بالمذهب الإسكندراني، وكل هذه المذاهب وسواها مما نشأ في الإسكندرية غلب عليها الاصطباغ بالدين ووضع العقائد الدينية الشرقية في تعابير الفلسفة اليونانية قدر الإمكان[3].

ومع أن الأثر الفلسفي الأفلاطوني كان له أثر رئيسي في الفكر الباطني بالعالم الإسلامي، إلا أن للمؤثرات الباطنية الأخرى الموجودة عند من يسمون بالعرفانيين أثر لا

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية / د. ماجد فخري ص٧١.

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية / د. ماجد فخري ص٢٤.

(٣) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٥٢.

يستهان به في أفكار هذه الحركات الباطنية كالصائبة، والثنوية، والمانوية، والديصانية، والهرمسية، وغيرهم، والذين يمكن أن نعرفهم باسم الباطنيين القدماء لكثرة ما في مذاهبهم من الأسرار والاعتقادات والرموز.

وكذلك ينبغي أن نذكر أن هذه المذاهب نفسها كانت من قبل وليدة الفلسفات الشرقية القدمية القائمة على العلوم السرية وتنظيم الجمعيات السرية[١].

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان اهتمام الباطنيين بالمذهب الفيثاغوري النتيجة المباشرة للمؤثرات الإسكندرانية والإغريقية وغيرها مما ذكر، فالنزعة الباطنية التي تميزت بها الفلسفة الفيثاغورية انسجمت مع ميولهم[٢]. ولذلك فقد وجدت الفيثاغورية الحديثة أكبر تلامذة لها لدى الكثيرين من غلاة الشيعة فكان لفكرة الأعداد والحروف مكان واضح في أفكارهم ولدى طوائفهم المختلفة، والتي تعتبر الحروف رموزا ترمز إلى أعداد، والأعداد ترمز إلى حروف، كما اعتبرت أن للحروف خصائص خاصة، وأفكار الميم والسين والعين لدى الغلاة هي من جملة هذه الأفكار[٣].

ومن هنا فإن عرض هذه المؤثرات والأفكار يوضح لنا مصادر الفكر الباطني الرئيسية والتي أثرت بدورها على اليهودية والنصرانية وانتقلت بعد ذلك إلى العالم الإسلامي. ويمكننا القول إن المذهب الإسكندراني[٤] الذي انتشر في الإسكندرية بين القرن الثالث (ق.م) والقرن الثالث (ب.م) وانبثقت عنه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والذي يقوم على خصائص معينة أهمها: الدقة في التفكير، والغموض في المعاني، والتعبير عن الحقائق والرموز والإشارات[٥]، له أهمية رئيسية في تاريخ الباطنية بالعالم الإسلامي، إذ كان جل

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم متز جـ٢ص١٩، ٢٠.

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية / د. ماجد فخري ص٢٢٥.

(٣) هيراقليطس - فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي / د. علي النشار ورفاقه ص٣٠٦، ٣٠٩.

(٤) لقب يطلق على الفلسفة والحضارة اليونانية التي انتشرت في الإسكندرية.

(٥) المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ١ص٨٠.

اعتماد رجالها في أفكارهم الباطنية على فيلسوفها المعروف (أفلوطين)، والتي تتلخص أراؤه فيما يلي:

١ – الله: في رأي أفلوطين أنه كائن مطلق بسيط لا يدركه الوصف لأنه فوق الإدراك.

٢ – الفيض والعلم: وقف أفلوطين أمام مشكلة هي (خلق العالم)، ورأى أن القول بقدم العالم على ما قال أرسطو يقود إلى الكفر، وأن القول بخلق العالم حسب ما وردت به الروايات الدينية مناقضة للفلسفة، فأراد أن يلفق مذهباً لا يثير به رجال الدين ولا يخالف الفلسفة في الظاهر فتبنى رأي أفلاطون في الفيض بعد أن خرج من نطاق الفلسفة إلى نطاق الدين، فقال: إن الوجود الأول هو الله، وإن الله يتأمل ذاته فيعقل بذلك نفسه (أي يعلم أنه موجود) حينئذ يفيض أو يصدر عنه كائن واحد هو (العقل) الأول، هذا العقل هو صورة الله ولكنه ليس الله نفسه. ويعود هذا العقل الأول فيتأمل ذاته فيصدر عنه كائن آخر هو (النفس الكلية) التي تملأ العالم، وترجع النفس الكلية بالتأمل في العقل الأول فيفيض منها كوائن متعددة هي نفوس الكواكب... ثم يستمر الفيض فيصدر عن كل كائن كائنات أخرى أقل شبها بالعقل الأول المطلق (البريء من المادة) وأكثر صلة بالمحسوسات، حتى تفيض الهيولى، وهي أدنى دركات الفيض لأنها مادة مطلقة فوضى لا صورة لها البتة، وهكذا نلاحظ أن الفيض إنما هو - تسوية - بين الروايات الدينية في خلق العالم وبين الرأي الفلسفي ورأي أرسطو على الأخص.

٣– النفس: النفس الكلية (التي صدرت عن العقل الأول الصادر عن الله مباشرة) تملأ العالم وتبعث في نشاطه، وتظهر النفس الكلية في كل كائن حي. أما نسبة النفس الكلية إلى النفوس الجزئية (نفوس البشر والنبات والحيوان) فقد ضرب عليها أفلوطين الأمثال فقال مثلا: إن النفس الكلية كنور الشمس المشرق على غرف متعددة، ففي كل غرفة جزء من نور الشمس نفسه، ولكنه ليس نور الشمس كله.

٤ – أما اتصال النفوس الجزئية بأجسامها فيرجع عند أفلوطين إلى هبوط النفس من الملأ الأعلى إلى الأجسام التي في الأرض، فإذا اتصلت النفس بجسد إنساني

خضعت لشرور وعيوب كثيرة (تأتيها من قبل اتصالها بالمادة) والنفس تحاول دائماً أن ترجع إلى مصدرها الأول، فإذا سلكت في جسدها سلوكاً كاملا رجعت إلى مقامها الأول في الملأ الأعلى، وإلا تقلبت من جديد في أجسام بشر آخرين أو أجسام حيوانات أو أجسام سماوية حتى تتطهر تماماً وتصبح خليقة بالرجوع إلى عالمها الأول.

٥- الإشراق والمعرفة: وهو ورود المعرفة على النفس مباشرة من الملأ الأعلى من غير أن تتطلبها النفس، وهذا النوع من المعرفة هو المعرفة الصحيحة[١].

وقد جاء بعد أفلوطين تلاميذ له وأنصار لمذهبه، أمثال كلمنت وأوريجانوس، فكان لهؤلاء الأثر الواضح في امتداد أفكار الأفلاطونية الحديثة إلى عقائد الأمم الأخرى مثل الصابئة، والثنوية، والمانوية وغيرهم، وهؤلاء يعرفون بأهل العرفان أو العرفانيون والغنوصيون[٢]، ويطلق هذا الإسم على المذهب الذي انتشر في القرنين الثاني والثالث للميلاد وخلاصته: العلم بأسرار الحقائق الدينية، لأن العرفاني هو الذي لا يقنع بظاهر الحقائق الدينية بل يغوص في باطنها لمعرفة أسرارها[٣].

وهذا المذهب الفلسفي رافق نشأة النصرانية، وبلغ ذروته في القرن الثالث للميلاد[٤]، وكان له أثر واضح في عقائد الكثير من فرق ورجال النصرانية، وخاصة في الذين حاولوا أن يتستروا بالنصرانية كالمرقيون أتباع مرقيون[٥].

ومع أن الكنيسة النصرانية حاولت أن تقاوم هذا المذهب وأفكاره وترد عليه، إلا أن النصرانية عادت وأخذت كثيراً من العناصر الغنوصية، حتى إن الدارسين الذين يريدون

---

(١) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٣٢ - ١٣٤.

(٢) اسم مشتق من الكلمة اليونانية غنوص Gnosis - بمعنى المعرفة -

(٣) المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ ٢ ص٧٢.

(٤) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٤٢.

(٥) الفهرست / ابن النديم ص٤٧٤.

وتاريخ الفكر العربي ص١٤٢.

ألا يكون بين النصرانية والغنوصية صلة لا يستطيعون أن ينكروا أن عدداً من أقوال المسيح نفسه والمروية عندهم في الأناجيل يمكن أن يجري تأويلها رمزيا يقرب النصرانية من الغنوصية، ولا شك أن العناصر الغنوصية أكثر ظهوراً في أقوال بولس وفي أقوال غيره من رجال الكنيسة الأولين[1]. ومما يدل على الأثر البالغ للغنوصية في النصرانية النظام المعقد الذي اصطبغت به ولم يكن في طبيعتها الأولى يوم نشأت في بيئتها الآسيوية، حتى إن بعض الغنوصيين النصارى يقولون: إن الخلاص لا يتم إلا بطريق الحكمة وهي ثلاث مراتب أولها: مرتبة العارفين وخلاصهم بالحكمة، وثانيها مرتبة المؤمنين وخلاصهم بالإيمان، وثالثها مرتبة الجهال وهم هالكون لا محالة[2].

وينبغي أن نذكر في هذا المجال العرفانيون اليهود، وعلى رأسهم فيلون اليهودي، «الذي يعد من أكبر ممثلي النزعة إلى التأويل، وقد دفعه إلى اتخاذ هذا المذهب الحملة التي قام بها المفكرون اليونانيون على ما في التوراة من قصص وأساطير ساذجة أو غير معقولة - على حد زعمهم -: مثل برج بابل، والحية التي أغرت حواء في الجنة، وغضب الله، وأحلام يوسف. فاضطر فيلون إلى الدفاع عن التوراة بتأويل هذه المواضع تأويلا باطنيا. ورأى التأويل الباطني هو روح النص المقدس، وأن التفسير بالمعنى الحرفي للنص سيؤدي إلى الكفر[3]».

ومن فيلون انتقلت طريقة التأويل الباطني إلى النصرانية، وخصوصاً أوريجانوس، الذي تأثر بأستاذيه فيلون وأفلوطين، وكان أوريجانوس يزعم أن الكتاب المقدس يفسر على ثلاثة أوجه:

١ - الرجل البسيط يكفيه جسد الكتاب المقدس.

٢ - والرجل المتقدم في الفهم يدرك روح هذا الكتاب.

---

(١) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٤٣.

(٢) المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ ص٧٢.

تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٤٣.

(٣) مذهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ ٢ ص١١، ١٢.

٣- والكامل من الرجال هو الذي يفهم بالناموس النفساني الذي يطلع على الغيب، وذلك أن أوريجانوس تحت وطأة هجمات المنكرين اليونانيين، اضطر إلى الإقرار بأن في التوراة استحالات[(١)].

ومن هذا العرض التاريخي الموجز لمنهج التأويل الباطني عند اليونان واليهود والنصارى، لا يسع الباحث إلا أن يتساءل: كيف وصل التأثير اليهودي والمسيحي الباطني إلى أصحاب مذهب التأويل بالباطن في العالم الإسلامي؟

والجواب على هذا السؤال يرجعنا إلى ابن سبأ اليهودي، الذي تكاد معظم المصادر التاريخية تُجمع على أنه كان من الأشخاص الرئيسيين الذين أوصلوا هذه المؤثرات إلى العالم الإسلامي، وخاصة أنه من اليهود المقيمين في اليمن الذين امتزجت ديانتهم فيها بالنصرانية. ويؤكد ذلك ما أورده الدكتور عبد الرحمن بدوى نقلا عن فريد ليندر - أحد المستشرقين - الذي انتهى إلى القول بأن مزاعم ابن سبأ بإنكاره موت علي رضى الله عنه، وأنه سيرجع من السحاب ما هي إلا أفكار ترجع إلى يهود اليمن وإلى ما يقوله يهود الفلاشا في الحبشة بالذات، وهي يهودية شديدة التأثر بالنصرانية الحبشية، فهم يستعملون نفس الكتاب المقدس، ولغة الكتاب المقدس سواء عند اليهود والنصارى في الحبشة، والكتب الموجودة عند الفلاشا، عدا الكتاب المقدس، حافلة بالأخبار المنتزعة من العهد الجديد ومستمدة مراراً من النصارى مباشرة. وهنا يقرر فريد ليندر أن عقائد الباطنية مأخوذة عن اليهود وما تأثرت به من مذاهب أجنبية أخرى[(٢)]. وبالاضافة لذلك فإن للنقاش المسيحي حول شخصية (يسوع)، ولتلك النصرانية المفلسفة التي ناقشت طبيعة (المسيح وعيسى) لاهوته وناسوته. وهي التي اختط منهاجه منها أوريجانوس. كان لذلك دون ريب أكبر الأثر في القول بحلول الجزء الإلهي في أئمة الشيعة. ولا شك كذلك في أن ابن السوداء هو الذي نقل هذه النظرية من النصرانية المفلسفة، وزعمها في علي وذريته[(٣)].

---

(١) مذهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدى جـ٢ص١٣.
(٢) مذهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوى جـ ٢ ص٢٠، ٢٨، ٢٩.
(٣) المهدية في الإسلام منذ أقدم العصور وحتى اليوم / سعد محمد حسن ص٧٩.

وكذلك كان للنظرية الفلسفية التي تقول بالرجعة أثر لا شك فيه في أصحاب الحركات الباطنية، وهذه النظرية أيضا في جملتها معتقد يهودي حين اتخذوا من قصة (عزير) حين أماته الله مائة عام ثم بعثه مبررا للقول بها، وقد دخل هذا المعتقد أيضا البيئة الإسلاميين على يد عبدالله بن سبأ اليهودي حينما زعم برجوع محمد ﷺ[1]. وهذا المعتقد مهد الطريق لأصحاب الفكر الباطني للقول بنظرية التناسخ والمأخوذة أصلاً من الفلسفة اليونانية والديانة الهندوكية، التي تزعم أن لكل الكائنات دورات متعاقبة لا نهاية لها.

والتناسخ عند الهندوس يقوم على انتقال النفس من جسد توفي حديثاً إلى جسد ولد حديثاً، سواء أكان الجسدان جسدي إنسانين أو جسد إنسان وجسد حيوان. والسعادة والشقاء اللذان يلقاهما الإنسان عادة في الحياة مرتبان على ما كان قد أسلفه الإنسان (يوم كانت نفسه في جسد آخر، في زمن سابق) وجزاء على ذلك. على أن تقلب النفس العاقلة في الأجساد المختلفة مزعج لها، إذ هو في الحقيقة حال من الشقاء، من أجل ذلك يحاول الهندوسي أن يتخلص من التناسخ (من الرجوع إلى الحياة مرة بعد مرة) ليبقى في عالم من العدم لا يشعر فيه بشيء ولا بنفسه[2].

أما نظرة فلاسفة اليونان إلى التناسخ، فقد كان (أنبنقليس) يرى أن الحياة الحقيقة هي الوجود الإلهي المتسامي فوق عالم المادة. أما حياتنا الدنيا فهي عقاب لنا (على ما كنا قد أسلفنا من قبل - في دور سابق من حياتنا - من السيئات)[3].

غير أن أفلاطون يرى أن النفوس الجزئية - أي نفوس البشر - المتصلة بالنفس الكلية، تتأمل دائماً في الألوهية، فإذا اتفق أن «نفساً» منها غفلت عن تأملها ابتعدت عن الألوهية، ولا تزال تبتعد حتى تسقط من الملأ الأعلى على الأرض ثم تدخل في جسد، فإذا مات الجسد رجعت النفس إلى مقرها (بعد أن تكون قد عوقبت على غفلتها بتقلبها في جسد ما)[4].

---

(١) المهدية في الإسلام / سعد محمد حسن ص٣٨.

(٢) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص٤٨.

(٣) المصدر السابق ص٨٠.

(٤) المصدر السابق ص١٠٢.

ومما يذكر أن جميع الطوائف الباطنية تؤمن بالتناسخ إما بين الإنسان والإنسان كما تقول به الإسماعيلية والدرزية، أو بين الإنسان والحيوان كما تقول به النصيرية، ويضاف إلى ذلك أن الدروز يؤمنون أيضا بنظرية المعرفة أو (التذكر) والمأخوذة عن أفلاطون التي تقول «أن النفس حينما تكون في الملأ الأعلى تكون مطلعة على الصور المثلى جميعها، فإذا هبطت واتصلت بالجسد نسيت ما كانت قد عرفته، ولكن كلما وقع نظر الإنسان على شيء تذكرت نفسه، وأنها كانت قد رأت مثل صورة هذا الشيء في الملأ الأعلى»[١].

وبجانب هذه الفلسفات والأديان التي أخذت عنها الباطنية، كانت هناك مذاهب دينية تحارب الإسلام أيضاً أشد محاربة، ومن هذه المذاهب: الصابئة، وقد كان موطن الصابئة في حران، وعاش فيها الصابئة حتى دخول الإسلام، وما زالت بقاياهم في العراق حتى الآن، وقد نسب الصابئة إلى أغازيموس وهرمس[٢]، واعتبروا هرمس النبي ادريس عليه السلام، وقالوا ان للعالم ناظرا حكيماً، مقدساً عن سمات الحدثان، والناس عاجزة عن معرفة جلاله معرفة مباشرة، فنلجأ إلى المتوسطات المقربين إليه، وهؤلاء المتوسطات هم الروحانيون[٣].

وكما ذكرنا من قبل فإن جميع هذه الفرق والاعتقدات يطلق عليها اسم العرفانية أو الغنوصية، وكلها رغم التفاوت بينها إلا أنها تجمعها خصائص معينة نعم جميع هذه الفرق، وأهم هذه الخصائص القول بتجسد الإله والاعتقاد بالطقوس والأسرار وبالعدد سبعة باعتبار أنه يمثل آخر الفيوضات، أما تجسد الإله فجميع الفرق الغنوصية تؤمن بإله مخلص

---

(١) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٠٢.

(٢) هرمس هو الاسم الذي أطلقه اليونان على الإله المصري (تحوت)، وسماه الأفلاطونيون المحدثون هرمس المثلث العظمة، ويطلق اسم الهرسية على جملة من النظريات التي ترقى إلى كتب مصرية قديمة تسمى بكتب (طاط) المثلث العظمة.
انظر المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ٢ص٥١٩.

(٣) الفهرست / ابن النديم ص٤٤٢، ٤٤٥ ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام / د. علي سامي النشار جـ١ص١٠٣.

يهبط من السماء لتخليص البشر من شرور الحياة، ويسير على الطريق الذي سار فيه البشر ثم يموت وينهض من الموت، وفي الفرق العرفانية كذلك عدد عظيم من الطقوس الشكلية في الملابس والمطاعم والسلوك، ويلحق بهذه الطقوس أسرار دينية ورموز دالة على معان مطوية عن غيرهم، أما الاعتقاد بالعدد سبعة فهم جميعاً يعتقدون أنه يمثل آخر الفيوضات أو القوى السبعة والمتمثلة بالكواكب السبعة التي تدبر العالم وتؤثر فيه، وهذه الفرق جميعها لها طقوس معينة للقبول بسلكها تسمى (الاجتباء)، لأن هذه الفرق تدين بالباطنية، ومن أجل ذلك لا يباح بأمور العقيدة إلا للمجتبين الذين قبلهم رؤساء الفرقة وصرحوا لهم بالأسرار بمقادير مختلفة باختلاف سن هؤلاء المقبولين وباختلاف قدرتهم على فهم وجوه العقيدة[1].

وقد أثرت الغنوصية في عبدة طوائف باطنية ظهرت بالعالم الإسلامي، وكان للأفلاطونية الحديثة - غنوص - تتمثل فيه كل صفات المذاهب الغنوصية، وقد تلاقى هذا الغنوص مع غيره من غنوصات مختلفة مما ذكرنا -، وحاولت أن تنفذ إلى أعماق الحياة الإسلامية فدخلت في الحديث، وقد عدد الباحثون المحدثون أحاديث قدسية، وضعت بعد عصر النبي عليه الصلاة والسلام، وفيها تلك الصبغة الأفلاطونية المحدثة مثل قولهم «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب[2] هذا الحديث اعتبر قدسيا، بينما كان الغناصيون هم الذين انطقوا أفلوطين بلسان النبي ﷺ[3].

والإسماعيلية من الفرق الباطنية التي استقت أفكارها من الغنوصية، «فالتوحيد في نظرها ليس لله وإنما هو للعقل الفعال والمبدع الأول، فهو الواسطة بين الله وبين عباده

---

(١) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص١٤٤، ١٤٥ بتصرف وإيجاز.

(٢) حديث موضوع / انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني جـ١ ص٢٣٧ - ٢٦٣.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام / د. على النشار جـ ١ ص٨١، ٨٢.

ويأتون بحديث قدسي موضوع يقول فيه الله مخاطباً العقل: أنت فتقي ورقتي، والمشرف مني على خلقي، بك آخذ حقي، بك أنجز وعدى، فوعزتي وجلالي، لا أصل من يجحدك، ولا يعرفني من أنكرك، فأنت مني بلا تبعيض، وأنا فيك بلا حلول، وفي منتهى لطائف العقول[1].

ومن هذا الاعتقاد الغنوصي تقدس الإسماعيلية أئمتها أيما تقديس، لأن الإمام في نظرهم هو العقل، والعبادة والتقديس والمعاد متجهة إليه. والإسماعيلية مليئة بالطقوس والأسرار الباطنية ولها طريقة خاصة ودستور معين لدخول المجتبين في الدعوة[2]، وكل هذه الاعتقادات والأفكار ترجعنا إلى خصائص واعتقادات الفرق الغنوصية وخصوصاً الأفلاطونية الحديثة وأفكارها التي سربت إلى عقائد اليهود والنصارى.

ولا يفوتني في هذا المجال أن أذكر أن هذه الاعتقادات تؤمن بها جميع الفرق الباطنية الموجودة الآن في العالم الإسلامي وأخص بالذكر الدرزية والنصيرية، فهاتان الفرقتان تؤمنان بنظرية الفيض الأفلاطونية، فالدروز يزعمون أن إلههم (الحاكم) فاض عنه العقل وهو حمزة بن علي مؤسس هذه الفرقة، أما النصيرية فتزعم أن الإله وهو علي بن أبي طالب - تعالى الله عن ذلك - قد فاض عنه الاسم والباب، وهما محمد ﷺ وسلمان الفارسي. وبالاضافة إلى ذلك فهم يؤمنون بتجسد الإله، وبالطقوس والأسرار الواضحة في عقائدهم[3].

ونستطيع أن تقرر بعد هذا الغرض، أن مصادر الفكر الباطني لدى هذه الحركات ليست من الإسلام في شيء، وإنما هي أفكار دخيلة على عقائد الإسلام تستر أصحابها بها،

---

(١) أربع رسائل إسماعيلية / تحقيق عارف تامر - رسالة مطالع الشموس في معرفة النفوس، لشهاب الدين أبو فراس ص١٧.

(٢) انظر أربع رسائل إسماعيلية / الرسالة الثالثة - الدستور ودعوة المؤمنين للحضور - للطيبي ص٤٩.

(٣) انظر الأبواب الثلاثة القادمة من الإسماعيلية والدرزية والنصيرية.

هادفين من وراء ذلك هدم المجتمع الإسلامي بعقائد وأساطير حطمها الإسلام، فلم يجدوا أمامهم إلا هذه الطرق، التي تدل على الحقد الدفين في قلوبهم ونفوسهم على هذا الدين وأهله. وتحت لواء هذه الفرق والحركات التي اتخذ دعاتها الإسلام ستارا لإخفاء أغراضهم، روجت الدعاية السرية مبادئ باطنية غنوصية هادمة للإسلام مقوضة لأركانه؟!

٤- التقية، حقيقتها وأصلها الباطني:

التقية بالفتح ثم بالكسر، لغة: الخوف والحذر والكتمان، واصطلاحا: ترك فرائض الدين في حالة الإكراه أو التهديد بالايذاء. و هي إحدى عقائد الشيعة الرئيسية على اختلاف طوائفها، فالشيعي لا يستطيع أن يخفي مذهبه ويكتم عقيدته فحسب، بل يجب عليه أن يفعل ذلك وأن يبالغ في الإخفاء والكتمان، فأصبحت هذه العقيدة صفتهم المميزة وسمة مألوفة في سيرهم[(١)].

وقد آمنت الشيعة بهذه العقيدة، حتى تستطيع أن تحرك قواها عبر الدعاية الخفية المستترة، فكثرت أسرارها العقائدية التي لا يجوز البوح بها للآخرين، فاستعان بها دعاة التشيع وجعلوها مبدأ من مبادئهم الأساسية مستهدفين من وراء ذلك عدم إفشاء أسرارهم ليوهموا الناس أنها مقدسة؟!.

ومع أن الشيعة يعتمدون في عقيدتهم هذه على تأويل الآية الكريمة: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾[(٢)]. إلا أن الأصول التي يعتمد عليها دعاة

---

(١) انظر لسان العرب مجلد ١٥ص٤٠٢، ودائرة المعارف / محمد حسين الأعلمي جـ١٤ ص١١٣، ودائرة المعارف الإسلامية مجلد (٥) ص٤١٩، ٤٢١.
والعقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهيير ص٢٠١.

(٢) سورة آل عمران آية ٢٨.

التشيع في عقائدهم وخاصة الغلاة منهم، تظهر أن أصول التقية كما يتصورها هؤلاء مستقاة من عقائد وفلسفات غريبة عن الإسلام وأصوله.

ولقد كان أفلاطون أحد هؤلاء الفلاسفة، الذين كانوا يعتمدون على السرية التامة في إظهار أفكارهم الحقيقية، فقد كان يورد فكرة واحدة بعبارات مختلفة ويجعل لكل واحدة معاني مختلفة أو متناقضة، وخاصة عند كلامه عن المسائل الإلهية فإنه يذكر أنه من المستحيل كشفها لكل الناس لأن النور الذي يفيض من هذه الحقيقة يبهر أعين العامة، ولا يمكن إلا لنخبة الأفاضل أن يمعنوا فيه النظر إذا استكملوا شروطاً بعددها.

والظاهر أن أفلاطون كان يقتدي بكهنة مصر وبعض من سبقه من الفلاسفة باتخاذه تعليمين سريا وجهريا، فالأول كان للداخلين في مذهبه وكان يعلمهم إياه شفاها لا كتابة ولا يكتم عنهم شيئاً، والثاني للعامة كان يعلمهم إياه كتابة[١].

وقد أنشأ (أمونيوس) سنة ٢٣١م مدرسة للحكمة في مكان يدعى ليسيوم، فكان قبل الظهر يعلم أصدقاءه من الطلبة بطريقة فلسفية و كانت تلك الدروس تسمى خصوصية، وكان عند المساء يعلم جمعاً غفيراً ويشرح لهم أمورا أعم فكانت تلك الدروس تسمى عمومية[٢].

والسرية في العقائد وعدم إظهارها أمام العامة، كانت معروفة أيضا في الهندوسية، فكتاب (الأوبانيشاد) - المقدس عندهم - «اعتبرت مواده من القدسية بحيث لا يجوز ترديدها بحضور الطبقات الدنيا، باعتبارها أسرارا خاصة لا يمكن أن تباح أمام هؤلاء»[٣].

أما فيلون اليهودي، فقد كان فهمه للتأويل الباطني، له علاقة بفهمه للحقيقة الخافية في الأسرار، «فالحقيقة - في نظره - لا ينبغي الإفضاء بها إلا لعدد صغير وبحذر وحيطة، فإن آذان العامة الجهلاء بهذه الناحية لا تقدر على سمعها واحتوائها، ومن ثم ليس للحكيم أن

---

(١) دائرة المعارف / المعلم بطرس البستاني جـ٤ص٦٥، ٦٦.

(٢) المصدر السابق جـ٣ص٧٦.

(٣) حكمة الأديان الحية / جوزيف كاير ص١١٢.

يكشف الحجاب عن الحقيقة لكل أحد، بل إنه ليعرف كيف يكذب أحياناً في هذا السبيل، مدفوعاً بالتقوى والرحمة وحب الإنسانية؟![1]».

والفرق الغنوصية المنبثقة عن الأفكار الأفلاطونية الحديثة مثل المانوية والديصانية والصابئة، كانت تقوم أيضا على طقوس وأسرار دينية ورموز دالة على معان مطوية عن غير الغنوصيين، وتدين هذه الفرق كذلك بالباطنية وكتمان أمور العقيدة، من أجل ذلك لم يكن يباح بأمور العقيدة إلا للمجتبين، أما غير هؤلاء فكان اسمهم (السماعين) أي المنتسبين إلى الفرقة والمكتفين بسماع ما فيها من أمور الدين الظاهر من غير اطلاع على أسرار العقيدة[2].

بعد هذا الاستعراض التاريخي لعقيدة الكتمان والسرية الموجودة عند الأمم الأخرى، نستطيع أن نتبين هدف دعاة التشيع في جعلهم التقية عقيدة واجبة على كل من دخل في مذاهبهم، لذلك نجدهم يحاولون جاهدين أن يظهروا لأئمتهم علم باطني أوحاه جبريل للنبي ﷺ، وأسره عليه الصلاة والسلام إلى علي بن أبي طالب وتناقلته الأئمة من بعده إلى بعضهم البعض[3] «هذا العلم الباطني يشمل - على حد زعمهم - حقائق الدين وكافة حوادث العالم، فعلي لم يعرف المعنى الحقيقي للقرآن الخفي عن الفهم العادي فحسب، ولكنه ألمَّ أيضا بكل ما سوف يحدث حتى يوم القيامة، وعرف كل فتنة كانت إلى ذلك الوقت، ومن أجل ذلك فالإيمان بهذا العلم الباطني - الذي خص به علي - قد أتاح للشيعة أن يصنفوا طائفة من المؤلفات الدينية الغريبة، زاعمين أنها تشتمل على هذا الوحي الخفي - وقد انتقل علم علي برواية خفية، تناقلها الأئمة الذين تبعوه، فهم يتلقون الوحي ولا

---

(١) الآراء الدينية والفلسفية لـ (فيلون الإسكندري) / أميل بريهين ص١٤.

(٢) تاريخ الفكر العربي / عمر فروخ ص١٤٤.

(٣) مؤمن الطاق / الشيخ محمد حسين المظفر ص٥٢.

يستطيعون أن يعلنوا سوى الحق وهم أيضا السلطة العليا المفردة التي بيدها التعليم والهداية ونشر الفرائض والأحكام الإلهية والنبوية وتأويلها[1]».

ولكن رغم هذا التبرير الملفق من قبل القائلين بالتقية، إلا أن بعض مفكريهم قد أكدوا أن أسيادهم الروحيين في علومهم الباطنية هم أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس، وهذا ينقض قولهم الأول في زعمهم أن هناك علماً باطنياً لدى أئمتهم توارثوه عن النبي ﷺ عن طريق علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، يقول عبدالله النجار (الكاتب الدرزي المعاصر): «الباطنية مذهب خفي اتخذه أصحابه وقاء من نقمة الحانقين والغوغاء وطوروه على معان خصت بها فئة مختارة من العارفين، شرعه اليونانيون القدماء، وحصروا أسراره بالمطلعين من النبهاء، فهو منسوب إلى أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس. من هذه المصادر الثلاثة انحدر المذهب إلى الدروز الذين يعتبرون هؤلاء الفلاسفة أسيادهم الروحيين، فطبقوه على التعاليم الإسلامية، ثم حاطوه بالحذر والكتمان حتى اليوم، كما أنه استهوى سواهم من الفرق الباطنية في الإسلام المتفتحة للتيارات الفلسفية. إنه في الأصل اجتهاد فلسفي لادراك الحقيقة الإلهية، وتجريد للروح من سطحية المعتقد الديني؟! وشوق صوفي للدنو من معرفة الله، استعمل أتباعه ألفاظا واصطلاحات خاصة لا يفهم مؤداها إلا المؤتمنون على الأسرار حفاظاً على سلامتهم من أهل السنة؟! فيما يذهبون إليه، وتسهيلاً لبثه دون استثارة من يخالفهم فيه»[2].

ويزعم دعاة الباطنية أن جعفر الصادق هو أول من أظهر هذه العقيدة وأمر أتباعه بها، لذلك فقد امتلأت كتبهم بالكثير من الروايات المزعومة عن جعفر في وجوب هذا المعتقد، مع أن المصادر غير الشيعية تنفي هذه الصفة عن جعفر الملقب فيها (بالصادق).

---

(1) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص٢١٢.

(2) مذهب الدروز والتوحيد / عبد الله النجار ص٢٨.

وقد جاءت روايات كثيرة في كتبهم عن كيفية أخذهم بالتقية، فقد روي أن سليمان بن جرير - أحد دعاتهم - هو الذي قال لأصحابه: إن أئمة الشيعة وضعوا لشيعتهم مقالتين لا يظهرون معها من أئمتهم على كذب أبدا، وهما القول بالبداء وإجازة التقية، فأما البداء فإن أئمتهم لما أحلوا أنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيتها في العلم فيما كان ويكون، والإخبار فيما يكون في غدٍ وقالوا لشيعتهم إنه سيكون في غد وفي غابر الأيام كذا وكذا، فإن جاء ذلك الشيء على ما قالوه لهم: ألم نعلمكم أن هذا يكون، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل ما علمته الأنبياء، وبيننا وبين الله عز وجل مثل تلك الأسباب التي علمت بها الأنبياء عن الله ما علمت. وإن لم يكن ذلك الشيء الذي قالوا إنه يكون على ما قالوا، قالوا لشيعتهم: بدا الله في ذلك فلم يكن. وأما التقية فإنه لما كثرت على أئمتهم مسائل شيعتهم في الحلال والحرام وغير ذلك من صنوف وأبواب، فأجابوهم فيها، وحفظ عنهم شيعتهم جواب ما سألوهم وكتبوه ودونوه، ولم يحفظ أئمتهم تلك الأجوبة لتقادم العهد وتفاوت الأوقات، فوقع في أيديهم في المسألة الواحدة عدة أجوبة مختلفة متضادة، وفي مسائل مختلفة أجوبة متفقة، فلما وقفوا على ذلك منهم سألوهم عنه، وأنكروه عليهم، وقالوا: من أين جاء هذا الاختلاف وكيف جاز ذلك؟ فقالت لهم أئمتهم: إنما أجبنا بهذا للتقية، ولنا أن نجيب كيف شئنا، لأن ذلك إلينا، ونحن أعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم، وكف عدونا وعدوكم عنا وعنكم، فمتى يظهر من هؤلاء كذب؟ ومتى يعرف حق من باطل؟[1].

وقد كانت التقية سبباً في خروج كثير من الناس على أئمتهم من الشيعة، فقد جاء في أحد الروايات أن أحد رجالهم (عمر بن رياح) زعم أنه سأل أبا جعفر (محمد بن جعفر) عن مسألة فأجابه بجواب، ثم عاد إليه في عام آخر فسأله عن تلك المسألة بعينها فأجابه بخلاف الجواب الأول، فقال لأبي جعفر: هذا خلاف ما أجبتني في هذه المسألة العام الماضي، فقال له: إن جوابنا ربما خرج على وجه التقية، فشك في أمره وإمامته، فلقي رجلا

---

(١) فرق الشيعة / النوبختي ص٥٥ - ٥٦، والمقالات والفرق / القمي ص٧٨، ٧٩.

من أصحاب أبي جعفر يقال له (محمد بن قيس) فقال له: إني سألت أبا جعفر عن مسألة فأجابني فيها بجواب، ثم سألته عنها في عام آخر فأجابني فيها بخلاف جوابه الأول، فقلت له: لم فعلت هذا؟ فقلت: فعلته للتقية، وقد علم الله أني ما سألته إلا وأنا صحيح العزم على التدين بما يفتيني به ومثوله والعمل به، فلا وجه لإتيانه إياي، وهذه حالي، فقال له محمد بن قيس: فلعله حضرك من اتقاه، فقال: ما حضر مجلسه في واحدة من المسألتين غيري، ولكن جوابيه جميعا خرجا على وجه التبخيت، ولم يحفظ ما أجاب به، فرجع عن إمامته، وقال لا يكون إماما من يفتي بالباطل على شيء بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال، ولا يكون إماما من يفتي بتقية بغير ما يجب عند الله، ولا يسع الإمام إلا الخروج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

هذا وتعتمد الشيعة على اختلاف طوائفها، أقوالا منسوبة لأئمتهم، وخاصة لجعفر الصادق تحض على التقية وكتمان الأسرار، وتدل على أن لديهم علوما باطنية لا يعلمها غيرهم، فهذا أحد الذين يزعمون أنه من أئمتهم وهو الإمام الرابع (علي زين العابدين) ينسبون إليه قوله:

«ورب جوهر علم لو أبوح به　　　لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا»[2].

أما الاقوال المنسوبة لجعفر الصادق فهي كثيرة في التأكيد على وجوب هذا المعتقد، من هذا قوله: «من لا تقية له لا دين له - والتقية ديني ودين آبائي - ومن أذاع لنا سرا أذاقه الله برد الحديد - وأمرنا سر مستور في سر، وسر مستسر، وسر لا يفيده إلا سر، وسر على سر مقنع بسر»[3].

---

(١) فرق الشيعة / النوبختي ص٥٢، ٥٣، والمقالات الفرق / للقمي ص٧٤، ٧٥.

(٢) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٤٩.

(٣) انظر عقائد الإمامية / محمد رضا المظفر ص٨٤، وكتاب أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر ص٣٤، وكتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار / شيخ محمد حيدر آملي ص٣٣.

وقد عمد دعاة الباطنية إلى كتابة بعض الرسائل الملفقة على لسان أئمتهم لاظهار مشروعية السرية والكتمان، وهذا أحد مشايخهم المحدثين ينشر رسالة عن حياة (شيطان الطاق محمد بن علي بن النعمان المعروف بباطنيته)، فيأتي بأقوال ووصايا مزعومه له أوصاه بها جعفر الصدق تحض على السرية والتقية، معتبرا إياها حجة المؤمن التي لولاها ما عبد الله[١].

ويستدل أصحاب التقية على مبدئهم بأقوال موضوعة، وأفعال مزعومة عن رسول الله ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم -، فهم يزعمون أن النبي ﷺ قد بث علي بن أبي طالب وبعض صحابته علوما وأسراراً خفية، أخفاها عن بقية صحابته لأنهم ليسوا أهلا لذلك، «والغرض من ذلك - على حد زعمهم - إخفاء أسرار الله تعالى عن غير أهلها، لأنها ما زالت كذلك مخفية عن غير أهلها، مودعة عند أهلها»[٢].

أما أهل الأسرار الربانية، الذين خصهم رسول الله ﷺ بالعلوم الباطنية، فهم قلة، ومن هؤلاء سلمان الفارسي الذي يعتبر عند دعاة الباطنية صاحب السر العظيم، ويلفقون لذلك حديثا على لسان النبي ﷺ وهو يخاطب أبا ذر بقوله: «لو علم أبو ذر ما في بطن سلمان من الحكمة لكفره»، ومنهم أيضا أبو ذر الغفاري، وأويس القرني اللذين اطلعا على أسرار الله تعالى كشفا وذوقا[٣].

ويؤول أصحاب هذا المذهب قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾[٤]. بأنه أمر من الله بوجوب إخفاء أسراره وتأديتها إلى أهلها، لأن هذا السر لا زال كذلك مستورا مخفيا مودعا عند أهله مضنونا به على غيرهم[٥].

---

(١) انظر كتاب مؤمن الطاق / محمد الحسين المظفر ص٥٠ - ٥٢.

(٢) كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار / شيخ سيد حيدر آملي ص٢٥، ٢٦.

(٣) المصدر السابق ص٢٧.

(٤) سورة النساء آية ٥٨.

(٥) كتاب جامع الأسرار ص٢٢٦.

وعليه فإن من اليسير علينا أن نتصور - كما قال جولد تسهير -: أي مدرسة للمخاتلة والغدر تنطوي عليها تعاليم مبدأ التقية[1]، فقد أوجدت في بيئة التشيع نظرية خلقية أفردتهم بصفة بارزة هي المكر والمراوغة.

أما محاولات دعاة التشيع إبعاد هذه الحقائق عن مبدئهم هذا، فهو في الواقع مداراة عن الحقيقة الساطعة، فهم يزعمون أن التقية عندهم ليس معناها أن تجعل منهم جمعية سرية لغاية الهدم والتخريب، كما أنه ليس معناها أيضا أن تجعل الدين وأحكامه سِراً من الأسرار التي يجوز أن يذاع لمن لا يدين به[2].

ويبررون قصة عمر بن رياح مع محمد بن جعفر بأنها تماثل إجابة جعفر الصادق لأحد رجاله عندما سأله عن غسل القدمين في الوضوء، فأجابه بالإيجاب، ولم يكن جوابه بذلك إلا تقية لخوفه من هارون الرشيد الذي كان يترصده وينظر ما يخفي[3].

ولكن النصوص الواردة في هذا المجال - والتي ذكرناها سابقا - تنفي بشكل قاطع كل هذه الادعاءات، فالتقية عند جميع طوائفهم «واجبة، من تركها فقد خرج عن دينه وخالف الله تعالى ورسوله والأئمة»[4]. لأنه بذلك قد باح بالسر لغير أهله.

أما موقف الإسلام من معتقدهم هذا، فهو الرفض البات بأن يكون الإسلام سرا من الأسرار، «لأنه دين ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، وكل من ادعى أن النبي ﷺ خص أحداً من الناس بعلم كتمه عن جمهور صحابته فقد كذب على رسول الله، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكتم من الشريعة كلمة ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم،

---

(١) العقيدة والشريعة / جولد تسهير ص٢٠٣.

(٢) عقائد الإمامية / محمد رضا المظفر ص٨٥.

(٣) المقالات والفرق / للقمي ص٢٠٧، ٢٠٨ من تعليقات المحقق الدكتور محمد جواد مشكور على موضوع التقية.

(٤) كتاب جامع الأسرار ومنبع الأنوار / شيخ سيد حيدر أملي ص٢٢٧.

ولا كان عنده عليه الصلاة والسلام سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ولو كتمهم شيئا لما بلغ كما أمر»[1].

كما أن عليا ﵁ كان ينكر أن يكون رسول الله ﷺ قد خصه بشيء من علوم وأسرار، ففي رواية الشعبي عن أبي جحيفة قال: سألنا علي ﵁، هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء بعد القرآن، قال: لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلا في القرآن، أو ما في الصحيفة، قلت: وما الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر[2]. وفي رواية إبراهيم التميمي عن أبيه أن علي ﵁ قام خطيبا فقال: من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه إلا كتاب الله وهذه الصحيفة، صحيفة فيها أسنان الابل وأشياء من الجراحات فقد كذب[3].

أما ادعاءاتهم في تفسيرهم لقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ .... ﴾ فهو تعد على الحق، وإخراج عن أصل المعنى، وتفسير هذه الآية الصحيح: هو أن يكون المؤمن بين الكفار وحيدا أو في حكم الوحيد، والكفار لهم الغلبة والكثرة فمباح له أن يتقيهم حتى يجعل الله له منهم مخرجا، ولا تكون التقية بأن يدخل معهم في انتهاك محرم، أو استحلال محرم، بل التقية بالقول والكلام[4].

فالتقية التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، إنما هي تقية من الكفار لا من غيرهم[5]، وإذا كان الرجل - المتقي - في قوم كفار[6]. وليس كما تصوره أخبارهم بأن (الكتمان جهادنا)، ويعنون بذلك جهاد أصحاب المذاهب الأخرى من المسلمين أولا وقبل كل شيء[7].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء / ابن حزم جـ٢ص١١٦.

(٢) مسند الإمام أحمد / طبعة المكتب الإسلامي - بيروت مجلد ١ ص٧١.

(٣) المصدر السابق مجلد ١ ص٨١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٥ ص٤٢٣ - من تعليق الأستاذ أحمد شاكر على التقية.

(٥) تفسير الطبري بتحقيق أحمد ومحمود شاكر مجلد ٦ ص٣١٦.

(٦) تفسير الفخر الرازي جـ٨ص١٤.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٥ ص٤٢٢.

ومما يرد على قولهم في نسبة التقية إلى الأنبياء ومنهم النبي ﷺ قوله تعالى لنبيه[1]:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[2] فتبليغ الرسالة وإظهارها أمر من الله وواجب على نبيه عليه الصلاة والسلام وصحابته وكل من تبعه إلى يوم الدين.

كما أن التقية التي يؤمنون بها، تخالف بوضوح فهم المسلمين لها، فهي في نظر الباطنيين تدل على حجب الأسرار الربانية والحقائق الإلهية عن جمهور عامة الناس، لأن هؤلاء أقل إدراكاً من معرفة هذه الخفايا والأسرار، لذا قالوا بالتقية حتى يستطيعوا أن يخفوا هذه الأسرار - كما يزعمون - عن أهلها.

والحقيقة أن غرضهم من ذلك أولا وآخراً، تضليل عامة الناس عن حقيقة معتقدهم تسهيلا لبثه بينهم دون استثارة أحد منهم، وبالتالي يكونون في مأمون من أهل الإسلام، بتظاهرهم به.

---

(١) سورة المائد آية ٦٧.

(٢) روح المعانيم الألوسي جـ٣ص١١٠.




الباب الأول

الإسماعيلية والأصول الباطنية التي قامت عليها وأهم الحركات التي نشأت عنها وتطورها

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: نبذة عن نشأة الإسماعيلية، والانقسامات التي حدثت فيها وتطورها.

الفصل الثاني: الجانب الباطني في عقائد الإسماعيليين.

الفصل الثالث: القرامطة.

الفصل الرابع: عقائد القرامطة.

الفصل الخامس: إخوان الصفاء وخلان الوفاء.

الفصل السادس: الجانب الباطني في رسائل إخوان الصفاء.





الذخيرة العربية

الفصل الأول

نبذة عن نشأة الإسماعيلية، والانقسامات التي حدثت فيها، وتطورها

تقدم القول فيما سبق عن كيفية ظهور الإسماعيلية[١]، حيث ذكرنا أن الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة، سميت بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، حينما انقسمت الشيعة على نفسها بعد وفاة جعفر الصادق، إذ تبعت جماعة موسى الكاظم بن جعفر وسميت بالإمامية الاثنى عشرية، وصدقت أخرى ادعاءات أتباع إسماعيل وابنه محمد بحقها في وراثة الإمامة عن جعفر. مع أن إسماعيل كان قد توفي قبل وفاة أبيه بخمس سنين سنة ١٤٣هـ، وأراد جعفر أن يؤكد وفاة ابنه بأقوال شهود عديدين، فكتب محضرا بذلك وأشهد عليه والي المدينة[٢].

ويظهر أن جعفراً أراد من ذلك أن يمنع الغلاة من التشيع، الزعم بعدم موته، ولكن احتياطات جعفر لم تعط النتائج التي يريدها، إذ انقسم أتباعه بعد ذلك إلى ثلاث فرق:

الأولى: قالت بإمامة موسى الكاظم وعرفوا بالاثنى عشرية.

الثانية: قالت إنها منتظرة لإسماعيل[٣]، لأن إسماعيل لم يمت، ولكنه أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس[٤].

الثالثة: قالت أن جعفرا نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه، علمنا أنه إنما نصب إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل[٥]، فالنص لا

---

(١) انظر نشأة الباطنية وأفكارها في التمهيد.

(٢) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل / الشهر ستاني جـ٢ص٥ - على الهامش -.

(٣) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٦٣.

(٤) الفصل في الملل / الشهر ستاني جـ٢ص٥ ؟

(٥) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٦٣.

يرجع قهقرى، والفائدة في النص بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه دون غيره، وهؤلاء يقال لهم المباركية[1]. نسبة إلى مولى لإسماعيل اسمه المبارك.

ويطلق على الإسماعيلية عدة ألقاب وأسماء، منها الباطنية لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجرى في الظواهر مجرى اللب من القشر، ومنها السبعية لاعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة، فمحمد بن إسماعيل انتهى دور الإمامة له، إذ كان هو السابع من محمد ﷺ، وأدوار الإمامة سبعة سبعة عندهم، فأكبرهم يثبتون له منصب النبوة، وأن ذلك يستمر في نسبه وعقبه[2].

والحقيقة أن جذور الإسماعيلية نجدها في شخصيتين قياديتين خطيرتين، شخصية إسماعيل بن جعفر، وشخصية أبي الخطاب[3]، اللذين سعيا معا لتأسيس حركة تتخذ من التشيع طريقا سهلا للخروج عن تعاليم الإسلام وهدمها.

ومما يؤكد هذا، أن جعفراً قد كذب أبا الخطاب وتبرأ من جميع أعماله وأقواله. ويعزز ذلك أيضا أن القمي والنوبختي[4] - وهما من مؤرخي الفرق عند الشيعة - قد ربطا بين الخطابية والإسماعيلية، واعتبرا الإسماعيلية امتدادا للخطابية في عقائدها وأفكارها.

حتى إن أبا الخطاب لما مات تحول أتباعه إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأعلنوا ولاءهم له، فكانت فرقة الإسماعيلية هي الخطابية نفسها[5].

ويبدو أن هناك أسبابا أخرى جعلت جعفرا يتبرأ من أبي الخطاب وأتباعه، منها الصلة الوثيقة بين إسماعيل وكثير من الغلاة أمثال أبي الخطاب والمفضل بن عمر الجعفي، وهذا هو الذي جعل جعفراً يعلن براءته من إسماعيل ويقول: «إسماعيل ليس مني ولكنه شيطان

---

(١) مقالات الإسلاميين جـ١ ص١٠٠١ - والفصل في الملل / الشهرستاني جـ٢ ص٥.

(٢) فضائح الباطنية / الغزالي ص١١، ١٢.

(٣) هو محمد بن أبي زينب الذي سبق ذكره في التمهيد.

(٤) المقالات والفرق / القمي ص٥٩، وفرق الشيعة / النوبختي ص٦١.

(٥) أصول الإسماعيلية / برنارد لويس - نقلا عن الكشبي ص٧١.

في صورة إنسان»[١]. وقد أورد الكشي[٢] عن عنبسة قوله أيضا: «كنت مع جعفر بن محمد بباب الخليفة أبي جعفر المنصور بالحيرة حين أتى ببسام[٣]، وإسماعيل بن جعفر بن محمد، فأدخلا على أبي جعفر، فأخرج بسام مقتولا، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد، فرفع جعفر رأسه إليه وقال: أفعلتها يا فاسق؟ أبشر بالنار».

ويضاف إلى ذلك ما ذكره الكشي في كلامه على المفضل بن عمرو الجعفي[٤] أخبارا تنبئ على ما يظهر عن صلة وثيقة بين إسماعيل والخطابيين، وتبين حنق جعفر على أولئك الذين أضلوا ولده وزجوه في المروق والأخطار، قال جعفر للمفضل: يا كافر يا مشرك مالك ولابني؟ ثم قال: ما تريد إلى ابني، أتريد أن تقتله[٥]؟

من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى خطورة الحركة الخطابية، التي أوجدت لها تلامذة مخلصين انبثقت منهم جميع الفرق الباطنية بعد ذلك، ويؤكد هذا - كما سنرى - العلاقة بين إسماعيل وابنه محمد من جهة، وميمون القداح وابنه عبدالله تابعي أبي الخطاب من جهة أخرى، المؤسسين الحقيقيين للإسماعيلية.

لذا نجد أن تلامذة أبي الخطاب بعد هلاكه يتجهون في اتجاهين، فميمون القداح وابنه عبدالله اتبعا المبارك في القول بإمامة محمد بن إسماعيل، وأسسا بناء على ذلك الطائفة الإسماعيلية، التي أخرجت القرامطة والدروز والحشاشين.

أما المفضل الجعفي فقد تظاهر بالعودة إلى فرقة موسى الكاظم حيث عمل فيها على بث أفكار أستاذه أبي الخطاب، فتبلور عن ذلك ظهور النصيرية.

---

(١) اصول الاسماعيية / برنارد لويس ص٨٠، نقلا عن الجويني أحد مؤلفي الشيعة.

(٢) المصدر السابق – نقلا عن الكشي ص٨٠.

(٣) صراف بالكوفة ميوله شيعية.

(٤) كان المفضل صرافا في الكوفة، وكان من أتباع جعفر البارزين، ناصر أبا الخطاب ثم أوجد فرقة صغيرة باسمه بعد قتل أبو الخطاب، وكان رغم طرد جعفر أباه، يدعو إلى إمامة ابنه إسماعيل من بعده، ثم إلى الشيعة الاثنى عشرية، وكان من أساتذة محمد بن نصير النميري الذي أوجد الفرقة النصيرية.

(٥) أصول الإسماعيلية / برنارد لويس ص٨١.

ويمكننا القول الآن بعد هذا العرض، أن أهم شخصيات الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة جعفر هم: محمد بن إسماعيل، وميمون القداح وابنه عبدالله.

وقد أضطر محمد بن إسماعيل إلى ترك مسقط رأسه في المدينة المنورة، وهاجر إلى خوزستان (جنوب غربي إيران) ثم تركها إلى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين)، ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك[(١)].

هذا عن محمد بن إسماعيل، أما القداح وابنه، فقد وردت عنهما كثير من الروايات التاريخية حول حقيقة أمرهما، منها ما أورده ابن النديم نقلا عن ابن رزام[(٢)] أن ميمون كان يعرف بالقداح، وكان من أهل قورح العباس بقرب مدينة الأهواز، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالميمونية، التي أظهرت أتباع أبي الخطاب، وزعمت أن العمل بظواهر الكتاب والسنة حرام، وجحدت المعاد[(٣)]، وكان هو وابنه ديصانيين، وكان ابنه عبدالله يظهر الشعوذة، ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضي إلى أين أحب في أقرب مدة، وكان يخبر بالأحداث الكائنات في البلدة الشاسعة، وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن اليهم ويعاونونه على نواميسه، ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه بيت عبدالله فيخبر من حضر بما يكون، ثم هرب بعد ذلك إلى سلمية بقرب حمص، واشترى هناك ضياعا وبث الدعاة إلى سواد الكوفة، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط لقصر كان في متنه وساقه، وكان قرمط هذا أكار أبقار في القرية المعروفة بـ (قس بهرام) وكان داهية.

ولكن ابن الأثير يقول: أن عبدالله بن ميمون علم أن هناك رجلا في نواحي الكرخ وأصبهان يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بـ (دندان) يتولى تلك المواضع، وله نيابة عظيمة، يبغض العرب ويجمع مساوئهم، فسار إليه القداح، فأشار عليه أن لا يظهر ما في نفسه، إنما

---

(١) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٤.

(٢) الفهرست / ابن النديم ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) انظر مختصر التحفة الاثنى عشرية / الدهلوى ص١٧.

يكتمه، ويظهر التشيع والطعن على الصحابة، فإن الطعن فيهم طعن في الشريعة، فإن طريقهم وصلت إلى من بعدهم، فاستحسن قوله وأعطاه مالا عظيما ينفقه على الدعاة إلى هذا المذهب، ويقول ابن الأثير أيضا: إن لميمون القداح كتابا اسمه (الميزان في نصرة الزندقة)[1].

أما المقريزي فيأتي برواية أخرى تقول: إن ميمون القداح كان له مذهب في الغلو، وكان له ابن يسمى بـ (عبدالله) كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب، وقد وضع سبع دعوات يتدرج الإنسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها ويصير معطلا إباحيا لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا، حتى اشتهر وصار له دعاة فجاء إلى البصرة فعرف أمره ففر منها إلى سلمية، فولد له بها ابن اسمه أحمد، فلما مات قام من بعده ابنه أحمد وبعث بالحسين الأهوازى داعيته إلى العراق، فلقي أحمد بن الأشعث المعروف بقرمط في سواد الكوفة ودعاه إلى مذهبه فأجابه، وإلى قرمط تنسب القرامطة وولد لأحمد بن عبدالله بن ميمون القداح الحسين ومحمد المعروف بأبي الشلعلع، فلما مات أحمد خلفه الحسين في الدعوة حتى مات فقام من بعده أخوه أبو الشلعلع، وكان لأحمد بن عبدالله ولد اسمه سعيد فصار تحت حجر عمه، وبعث أبو الشلعلع بداعيين إلى المغرب وهما أبو عبدالله وأخوه العباس فنزلا في البربر ودعوها، واشتهر سعيد بسلمية بعد موت عمه وكثر ماله فطلبه السلطان، ففر من سلمية إلى مصر يريد المغرب، وكان على مصر عيسى النوشري فورد عليه كتاب الخليفة ببغداد بالقبض عليه ففاته وصار بسلجماسة في زي التجار، فبعث المعتضد من بغداد في طلبه، فأخذ وحبس حتى أخرجه أبو عبدالله الشيعي من محبسه، فتسمى حينئذ بعبيد الله وتكنى بأبي محمد، وتلقب بالمهدي، وصار إماما علويا من ولد محمد بن إسماعيل، وإنما هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح[2].

ويحاول بعض المستشرقين إنكار التشكيك في نسب آل عبيد الله المهدي، ومن هؤلاء (إيفانوف)، الذي يعتبر شخصية عبدالله بن ميمون القداح أسطورة نمت واستفحلت

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٨ ص٢٨، ٢٩.

(٢) خطط المقريزى جـ٢ص١٥٠.

واتخذت علما لدعوة إلحادية عظيمة، ويرى أن عبدالله هذا لم يكن سوى رمز للإمامة الإسماعيلية، وأن مؤامرته المزعومة لم تكن سوى رمز لنشاط الحركة الشيعية[1]. «وقد يستطيع إيفانوف أن يحملنا على الشك في هذا النسب، فلنفرض معه أن هذه القصة أسطورة، وأن حكام بني عبيد الله لا يمتون بأي صلة إلى القداح، ولكن ما الدليل على أنهم من الناحية الأخرى يتصلون في نسبهم بآل البيت، وأنهم حقا من ولد محمد بن إسماعيل؟»[2].

ولكن رغم هذا الإنكار في نسب عبيد الله المهدي إلى القداح، إلا أن هناك مصادر هامة وأساسية لا نستطيع تجاهلها وهي المصادر الإسماعيلية، تقر بوجود القداح وابنه، وتعتبر لأسرة القداح الفضل في قيادة الحركة الإسماعيلية في دورها الأول وهو دور الستر، فقد قدمت لها خدمات لا يزال التاريخ الإسماعيلي يذكرها بالفخر والإعجاب[3]. فميمون القداح عند هذه المصادر كان باب الأبواب، ومن الطبيعي أن يبقى مرافقا للإمام في حله وترحاله[4].

إلا أن بعض المصادر الإسماعيلية الأخرى تنفي المزاعم السابقة وتعتقد أن محمد بن إسماعيل اتخذ اسما مستعارا هو (ميمون القداح) لتضليل العباسيين، وكان يدعو إلى إمام مستور اسمه (محمد بن إسماعيل) أي نفسه، وقد خفي هذا الأمر على أقرب المقربين إليه، حتى دعاته المخلصون لم يكونوا يعلمون شيئا من هذه القصة؟![5].

وقبل أن نتقدم للبحث في نقطة أخرى، لا بد أن نتحدث عن اعتقاد خاص بالإسماعيلية والباطنية عموما، له علاقة مباشرة بموضوع نسب العبيديين إلى القداح ويعطي مزيدا من الوضوح حوله، وهو الأبوة الروحانية أو النكاح الروحاني[6]، ويتحدث برنارد لويس حول هذا الاعتقاد فيقول: إن الحركة الباطنية بما لها من ميول غنوصية قوية بتعويلها الشديد على النواحي الباطنية للأشياء دون المادية الظاهرية منها، بلغت بسهولة،

---

(١) انظر تلخيصا لأقوال إيفانوف في كتاب قلعة الموت / العمر أبو النصر ص٦٥ - ٧٠.

(٢) قلعة الموت / عمر أبو النصر ص٧٢.

(٣) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٧٩.

(٤) تاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب ص١٤٧.

(٥) القرامطة / عارف تامر ص٤٧، ٤٨.

(٦) وهي عقيدة عند النصيريين أيضا.

وبشكل طبيعي حداً اعتبرت فيه العلاقة بين الأب وابنه - وهي تتصل بالبدن التافه الزائل وحده - أقل أهمية وحقيقة من العلاقة الروحانية بين المعلم والتلميذ المنبعثة من النفس الخالدة، وينتج عن هذه العقيدة أن التلميذ أحرى بأن يكون الابن وهو الوارث الحقيقي من النسل الطبيعي للإنسان، ويأتي برنارد لويس على صحة ذلك برواية عن رشيد الدين المؤرخ الفارسي: بأن جعفرا أرسل حفيده محمد بن إسماعيل في صحبة أبي شاكر ميمون الديصاني المعروف بميمون القداح، إلى طبرستان، وبعد وفاة جعفر أودع ميمون القداح ولده عبدالله إلى محمد بن إسماعيل قائلا: إن الأبوة الجسمانية تكون من ولادة الطفل المادية ليس غير، بينما تكون الأبوة الروحانية من ملامة شخص آخر معين، فنقول إن فلانا ابن فلان لأنه تخرج عليه، أفلا يكون الذي يتلقى العلم والمعرفة اللتين هما جوهر الحياة الروحانية من رجل آخر هو ابنه الحقيقي؟ فأنا مثلا أنجبني جعفر بن محمد روحانيا، ثم أصبحت بما كشف لي من أسرار العلم أهلا لأن أنتسب إليه وأن أعتبر نفسي ابنه، والخلاصة فإنه أنهى كلامه بقوله: عبدالله هو ابن محمد بن إسماعيل ووارثه الذي لا يتقدم عليه أحد، وقد أودعه إياي لأنشئه وأعصمه من مكائد أعدائه، ولما بلغ عبدالله السابعة عشرة من عمره نادى ميمون القداح بإمامته، ولم يعترض الشيعة على ذلك[1].

ومهما يكن من شك في حقيقة نسب العبيديين، فإنه يكفي سرد بعض الحوادث التاريخية، التي تؤكد إن الإسماعيليين أنفسهم أخذوا يشكون في نسب هؤلاء الذين يدعون الإمامة، بل وفي بعض الأحيان ينكرون عَلَناً نسبهم إلى آل البيت. «وهذا هو السبب الأول في خروج القرامطة عن طاعة عبيد الله المهدي» فالقرامطة استطاعوا أن يعرفوا اسم الإمام وقابلهم الرجل صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم، ولما عادوا إليه مرة أخرى وجدوا شخصا آخر يحمل نفس الاسم وأشار إليه من حوله بأنه الإمام، فشك زعماء القرامة في الإمام وفي الدعوة نفسها، وحاربوا عبيد الله ونهبوا أمواله وقتلوا عائلته، ودعوا إلى أنفسهم. وهذا ما حدث أيضا لأبي عبدالله الشيعي الذي مكن للإسماعيلية بين قبيلة كتامة،

---

(١) أصول الإسماعيلية / لويس ص٨٦، ٨٩.

فإنه قبل سفره إلى بلاد المغرب زار الإمام بسلمية، فقابله شخص على أنه الإمام، ولكن بعد ظهور المهدي بالمغرب رأى أبو عبدالله الشيعي أن المهدي ليس هو الإمام الذي قابله بسلمية، وتطرق الشك في نفسه إلى درجة أن أفضى بذلك إلى أخيه أبي العباس وبعض رؤساء كتامة، وكادت تحدث ثورة لو لم يبادر المهدي بقتل أبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس[١]. ووصل الأمر بأتباع الإسماعيلية بعد ذلك أن قام الحسن الأعصم القرمطي - أحد زعماء القرامطة - خطيبا على منابر دمشق ليعلن أن المعز لدين الله من سلالة القداح، وأن القداح وأسرته كانوا كالقرامطة يدعون للأئمة المستورين[٢].

ومما يذكر في هذا المجال، أن مؤرخي الإسماعيلية يحلو لهم دائما أن يتحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ أئمتهم، وهي الفترة التي تعرف عندهم (بدور الستر)، أي الفترة التي اضطر فيها الأئمة إلى الاستتار خوفاً من بطش أعدائهم - ابتداء من محمد بن إسماعيل وانتهاء بعبيد الله - فكل مؤرخ من مؤرخي الإسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له، بحيث جاء حديثهم مضطربا أشد الاضطراب، مختلفا أشد الاختلاف، فهم مختلفون في عدد أئمة هذه الفترة، وهم مختلفون أيضا في أسماء هؤلاء الأئمة، جعل بعضهم الأئمة ثلاثة، وقال بعضهم بل خمسة، وقال بعضهم بل سبعة[٣]. وأعتقد أن هذا الاضطراب التاريخي عند الإسماعيلية يمكن أن يضاف إلى جملة الشبهات المحيطة في نسب العبيديين.

هذا عن نسب أئمة الإسماعيليين، أما عن محاولتهم لتأسيس دولة لهم، فقد كثرت محاولاتهم في هذا المجال. ولعل أول حركة إسماعيلية ناجحة خلال هذه الفترة هي التي قامت ببلاد اليمن، «فقد كان أحد أئمتهم وهو الحسين بن أحمد بن عبد الله يتحين الفرص لنشر دعوته، وقد رأى أن اليمن والمغرب هما خير البلاد التي يمكن أن يستجيب أهلها، والتي يجوز للدعوة أن تنتشر بين ظهرانيهم، وذلك لبعدها عن أنظار الخلفاء العباسيين من

---

(١) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٢٥، ٢٦.

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم ص٧٨.

(٣) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٥.

جهة، ثم لإمكان تأثر أهلهما بهذه الدعوة من جهة أخرى، وكان الحسين بن فرج بن حوشب من كبار شيعته خير من يتوسم فيه للقيام بهذا الأمر، وكان أن قدم إلى العراق خلال ذلك علي بن الفضل الخنفري، فرأى من تشيعه وبكائه فوق قبر علي ما يضمن نجاح الدعوة إن هو ضمه إلى الحسن بن فرج، ولهذا تمكن من استمالته وتكليفه بالقيام بالدعوة مع الحسن بن فرج للإمام الإسماعيلي المنتظر»[١].

وكما أورد القاضي النعمان فإن إمامهم الحسين بن أحمد قد زودهما ببعض التوصيات، أهمها: التبشير بالمهدي، ولزوم الصلاة والصوم والتقشف، وإيهام الناس بأن لكل ظاهر باطنا، وأن له أناسا يعلمونه إلا أن الوقت لم يحن بعد لإعلانه، ومما قاله: إن لقيت من هو ألحن بالحجة منك، فانغمس له في الباطن، قال: وكيف ذلك؟ قال: تقطع الكلام، وتريه أن تحت ما تريد الجواب به باطنا لا يمكنك ذكره[٢].

وقد لقب الحسن بن فرج بالمنصور، وعرف بمنصور اليمن، واستطاع ان يجمع حوله عددا كبيرا من قبائل اليمن، وأن يفتح باسمه عدداً من القلاع والحصون باليمن، واستطاع بذلك أن يؤسس باسم الإمام الإسماعيلي (المنتظر) أول دولة إسماعيلية في التاريخ.

أما علي بن الفضل، فقد أمعن في إحكام خطته، «فتظاهر بالزهد والتقشف وكثرة الصوم والصلاة والتعبد ليلا ونهارا في بطون الأودية، حتى تمكن من استجلاب قلوب الرعاع من أهل (يافع) إليه، وكان عندما يأتونه بالطعام لا يأكل إلا يسيرا، كما رفض السكنى معهم في رؤوس الجبال بادئ الأمر، وأخيرا أجابهم إلى طلبهم بعد أن شرط عليهم أن يعاهدوه على عدم مخالفة أمره. وأبدى في سيرته معهم مزيدا من الصلاح والعدل مما جعل الأهالي يقدسونه أعظم تقديس ويجمعون إليه الزكوات من كل الجهات المجاورة، ثم بدأ بعد ذلك بالتوسع في المدن المجاورة حوله، حتى قوي وصلب عوده، فأظهر حينئذ

---

(١) تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن / أحمد حسين شرف الدين ص٨١.

(٢) افتتاح الدعوة / القاضي النعمان ص١٢، وتاريخ الفكر الإسلامي في اليمن / أحمد شرف الدين ص٨٢.

أفكاره وعقائده الإلحادية، فقد أعلن الكفر وأحل جميع المحرمات، وخرب الكثير من المساجد، ثم ادعى النبوة، وأحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات، ولما احتل مدينة الجند صعد المنبر وقال الأبيات المشهورة - كما يذكرها البهاء الجندي -:

خــذي الــدف يــا هــذه واضربي	وغنــي هــزارك ثــم اطــربي
تــولى نبــي بنــي هاشــم	وجــاء نبــي بنــي يعــرب
أحــل البنــات مــع الأمهــات	ومــن فضــله زاد حــل الصــبي
لكــل نبــي مضــى شرعــة	وهــذى شريعــة هــذا النبــي
فقــد حــط عنــا فــروض الصــلا	ة وحــط الصــيام ولم يتعــب
إذا النــاس صــلوا فــلا تنهضــي	وإن صــوّموا فكــلي واشربي
ولا تمنعــي نفســك المعــزبين مــن	الأقــربين مــع الأجنبــي
فمــن أيــن حللــت للأبعــدين	وصرت محرمــة لــلأب
ألــيس الغــراس لمــن أسســه	وســقاه في الــزمن المجــدب
ومــا الخمــر إلا كــماء الســماء	حــلال فقدســت مــن مــذهب

وعندما احتل صنعاء - كما روي البهاء الجندي أيضا في السلوك-: حصل المطر، فأمر بسد الميازيب التي ينزل فيها الماء من سطوح الجامع، ثم أطلع النساء اللاتي سبين من صنعاء وغيرها، وصعد المنارة وأمر بإلقائهن في الماء، فمن أعجبته اجتذبها إلى المنارة وافتضها، حتى افتض عددا من العذارى. ويقول أيضا: إن ابن الفضل انهمك في تحليل محرمات الشريعة وإباحته محظوراتها، وعمرّ دارا واسعة يجمع فيها غالب من تابعه نساء ورجالا متزينين متطيبين، ثم توقد الشموع بينهم ساعة ثم تطفأ، ويضع كل واحد من الرجال يده على أي امرأة ويقع عليها ولو كانت من محارمه. وبقي ابن الفضل يعيث فسادا حتى مات مسموما سنة ٣٠٣هـ، مما جعل القبائل اليمنية تهاجم عاصمته (المذيخرة) وتهزم أتباعه»[1].

---

(١) تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن / أحمد شرف الدين ٨٥ – ٩١.

ويبدو أن نشاط صاحبه ابن حوشب امتد إلى خارج اليمن، فقد كان يرسل الدعاة باسم الإمام الإسماعيلي في مختلف البلاد، فكان من الدعاة الذين بعث بهم ابن حوشب إلى بلاد المغرب الداعي أبو سفيان والداعي الحلواني، غير أنهما توفيا بعد قليل. فلما وصل نبأ موتهما إلى ابن حوشب عهد إلى أبي عبدالله الشيعي القيام بالدعوة إلى الإسماعيلية هناك، ليتمم ما بدأه الحلواني وأبو سفيان من بث الإسماعيلية بين رجال القبائل المغربية باسم المهدي المنتظر، واستطاع أبو عبدالله الشيعي أن يكتسب تأييد قبيلة كتامة، إذ بايعه شيوخها على الدفاع عنه وعن إمامه، وأن يأتمروا بأمره في دينهم ودنياهم، فاستطاع بذلك أن يؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب بعد أن أرسل في طلب عبيد الله المهدي.

وخلال هذه السنوات التي استطاع دعاة الإسماعيلية فيها النجاح في تأسيس دولة باليمن، قامت حركة إسماعيلية أخرى في سواد الكوفة والبحرين، عرفت في التاريخ باسم القرامطة، كانت مصدر الفتن والويلات التي حلت بالعالم الإسلامي في ذلك الحين، حيث طبقت جميع مفاهيم الإسماعيلية الاجتماعية والسياسية والعقائدية بكل حذافيرها.

وقد كان أول تحرك للقرامطة في سواد الكوفة سنة ٢٧٨هـ، وكما يروي المؤرخون: فإن ابتداء أمرهم كان على يد أحد دعاة الإسماعيلية ويسمى الفرج بن عثمان القاشاني المعروف بـ (زكرويه)، الذي استطاع أن يستميل أحد دهاة تلك المنطقة الملقب بـ (حمدان قرمط) إلى مذهبه، فلقي من قرمط تجاوبا سريعا لكل ما كان يلقيه إليه من عقائد وأفكار، وكان قيامه بحركته سنة ٢٧٨هـ تأكيدا قويا على إيمانه الراسخ بهذه العقائد، فدعا إلى إمام من آل البيت هو المهدي الذي يملأ الأرض بعدله، وزعم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في اليوم، فاستجاب له جمع كثير، وكان يأخذ من كل واحد من أتباعه دينارا للإمامة، وجعل عليهم اثنى عشر نقيا سماهم الحواريين، ولما علم عامل الناحية بأمره قبض عليه وحبسه، ففر من سجنه في ظلام الليل لمساعدة جارية للعمل، واختفى حينا، فازداد أنصاره فتنة به وقالوا رفع إلى السماء، ثم ظهر في ناحية أخرى من الكوفة، وعكف على بث دعوته فيها، مما أكثر أنصاره بها[1].

---

(١) انظر الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٧ ص٤٤٤ – والبداية والنهاية / ابن الكثير جـ ١١ص٦١، وتاريخ الجمعيات السرية / محمد عبدالله عنان ص٣٣.

وفي ذلك الحين أيضا، اجتاحت دعوة القرامطة أنحاء البحرين، والتف القرامطة حول زعيم لهم يسمى الحسن بن بهرام ويعرف بأبي سعيد الجنابي، فاجتمع إليه جمع غفير من القرامطة والأعراب، استطاع بهم أن يهاجم (هجر) عاصمة البحرين سنة ٢٨٧هـ ويحتلها، ويجعلها عاصمة له[١]. وبذلك تجرد القرامطة بعدئذ للبطش بقوافل الحجاج، فدخلوا مكة أثناء موسم الحج، وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمتهم هجر، بعد أن ذبحوا الألوف من الحجاج وزرعوا الرعب والخوف في حجاج بيت الله العظيم.

غير أن القرامطة بعد ذلك، تألبوا على الإمام الإسماعيلي في سلمية، فخلعوا طاعته وجعلوا الدعوة لزعمائهم دون أئمة الإسماعيلية، بل شاءوا القضاء على أئمة الإسماعيلية، فهجموا على سلمية، واقتحموا دور أئمة الإسماعيلية، وسلبوا كثيرا من أموالهم وقتلوا بعض أفراد الأسرة، وكان الإمام الإسماعيلي إذ ذاك هو عبيد الله المهدي، الذي جاءت إليه الأنباء بنوايا القرامطة، فهرب مع بعض أفراد أسرته من سلمية إلى الرملة، وعلم القرامطة بفراره فتبعوه إلى الرملة يريدون قتله ومن معه وسلب أمواله ومتاعه، فاضطر عبيد الله إلى الفرار مرة أخرى إلى الفسطاط بمصر، حيث أقام عدة أسابيع رحل بعدها إلى شمال أفريقيا، بعدما أنفذ أبو عبدالله الشيعي الرسل إليه يدعوه للحضور إليها[٢]، وكما ذكرنا من قبل فإن سبب انقلاب القرامطة على عبيد الله هو شكهم الذي وصل إلى درجة اليقين في نسب عبيد الله وأسرته إلى آل البيت.

وفي المغرب أظهر عبيد الله نفسه، وخرج من سرته، وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانتا في ستر وخفاء، وبذلك دخل تاريخ الإسماعيلية في دور جديد عرف بـ (دور الظهور)، بعدما أعلن عبيد الله قيام الدولة العبيدية سنة ٢٩٧هـ. وقد حاول عبيد الله وبمساعدة دعاته أن يحل في قلوب الناس أسمى مكانة، فأخذوا يذيعون بين الناس عنه كثيرا من الصفات التي تحوطه بهالة من التقديس، حتى أن بعضهم كان يقول للناس: هو

---

(١) القرامطة / ميكال دي خويه ص٤٢ – وتاريخ الجمعيات السرية / محمد عنان ص٢٦.

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين / المقدسي جـ١ ص٢٠١ – وتاريخ الدولة الفاطمية ص٣٢٧.

المهدي ابن رسول الله ﷺ، وحجة الله على خلقه، وبعضهم يقول: هو رسول الله وحجة الله، بل هو (الله الخالق الرازق) تعالى الله عما يقول الظالمون[1].

وقد انتهز أصحاب القلوب المريضة تلك الفرصة، فمدحوه مدحا وصل إلى حد الكفر والشرك، ومع ذلك فقد أجازه وأعطى قائله الجوائز، من ذلك ما مدحه به أحد الشعراء بقوله:

«حـــل برقـــادة المســـيح	حـــل بهـــا آدم ونـــوح
حـــل بهـــا أحمـــد المصـــفى	حل بها الكبش والـذبيح
حـــل بهـــا الله ذو المعـــالي	وكل شيء سواه ريح»[2]

ويروي ابن الأثير أن عبيد الله وأتباعه حاولوا إرغام الناس على اعتناق العقيدة الإسماعيلية: فقد جاء رجل يعرف بالشريف، ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أحسن اليه، ومن أبى حبس، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس، وهم قليل، وقتل كثير ممن لا يوافقهم على قولهم[3].

وقد بلغ من غلو دعاة عبيد الله وفي تقديسهم له، أن صيغة اليمين عندهم على المستجيب لم تكن باسم من أسماء الله، وإنما كانت باسم المهدي ونصها (وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة)، وهي صيغة لا تتضمن الغلو فقط، وإنما هي كفر صريح، لأن فيها إشراكا للمخلوق، مع الخالق، في إحدى خصائصه، وهي معرفة الغيب»[4].

وبقي عبيد الله مستوليا على زمام الأمور في دولته حتى مات سنة ٣٢٢هـ، فأسند الحكم إلى القائم بأمر الله، ثم إلى المنصور بالله سنة ٣٣٤هـ، وبعد ذلك إلى المعز لدين الله

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية ص٣٢٦ - ٣٢٧ - ودور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية / د. موسى لقبال ص٣٢٨.

(٢) الكامل في التاريخ / ابن الاثير جـ٨ص٤٩.

(٣) دور كتامه في تاريخ الخلافة الفاطمية / د. موسى لقبال ص٤١٠.

(٤) انظر الباب الثاني من هذه الرسالة عن الدروز وعقائدهم.

سنة ٣٤١هـ، الذي استطاع أن يفتح مصر سنة ٣٥٨هـ ويجعلها عاصمة لملكه، وبذلك حقق الحلم الذي كان يراود حكام بنو عبيد في الاتجاه نحو المشرق. وقد خلف المعز العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ، ثم الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ، الذي ناصر مذهبا انشق عن الإسماعيلية سنة ٤٠٨هـ، عرف بالدرزية[1] أعلنه بعض دعاة الإسماعيليين الفرس الذين نادوا بألوهية الحاكم بأمر الله، وكان على رأسهم حمزة بن علي الزوزني.

وقد قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ، فتولى الحكم بعده الظاهر، فخلفه المستنصر بالله سنة ٤٢٧هـ، وقد انقسمت الإسماعيلية بعد وفاته سنة ٤٨٧هـ إلى فرقتين، وكان هذا الانقسام من أخطر الانشقاقات التي حدثت داخل الإسماعيلية، إذ صار له انعكاس خطير على مجريات تاريخ الإسماعيلية وعقائدها.

وكانت بداية هذا الانشقاق بعد وفاة المستنصر مباشرة، بعدما أعلن وزيره الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني استخلاف المستعلي بن المستنصر - وكان طفلا صغيرا - وهو ابن أخت الوزير، الأمر الذي ترتب عليه رفض عدد كبير من الدعاة ومن أتباع المذهب الإسماعيلي مبايعة المستعلي، وعدم الاعتراف بإقامته، ومن ثم المناداة بإمامة ابنه الكبير نزار، الذي كان المستنصر قد نص على أن يتولى الحكم بعده. وبذلك انقسمت الفرقة الإسماعيلية إلى فرقتين: الإسماعيلية النزارية المعروفة بالاغاخانية، والإسماعيلية المستعلية المعروفة بالبهرة في الهند، والطيبة في اليمن[2].

أما الإسماعيلية المستعلية، فهؤلاء هم إسماعيلية مصر واليمن وبعض بلاد الشام - في ذلك الوقت -، الذين ساروا وراء المستعلي، والذي ما لبث أن مات سنة ٤٩٥هـ، فخلفه

---

(١) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٤١، ٤٢.

(٢) نسبة إلى علي بن محمد الصليحي، الذي استطاع بعد موت ابن الفضل وبالتحديد سنة ٤٣٩هـ أن يعيد تأسيس دولة إسماعيلية أخرى باليمن عرفت بالدولة الصليحية، وقد خلف الصليحي ابنه مكرم سنة ٤٥٩هـ، ولكنه ما لبث أن أصيب بالفالج فقامت زوجته أروى الملقبة بالملكة الحرة بتدبير أمر هذه الدولة، وفي عهدها زعم أن الطيب قد اختفى عندها انظر تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن / أحمد شرف الدين ص٩٢ – ٩٩.

الآمر بأحكام الله وعمره خمس سنوات، غاير أنه قتل بعدما بلغ العشرين من عمره على يد أحد أتباع الحسن بن الصباح الموالي للفرقة الثانية (النزارية)، وذلك سنة ٥٢٤هـ.

وكان مقتل الآمر بأحكام الله بداية تطور جديد في تاريخ الإسماعيلية، ذلك أن الآمر بأحكام الله لم ينجب ولدا يتولى الأمر بعده، فعين عمه الحافظ عبد المجيد بن المستنصر إماما بالنيابة أو (إماما مستودعا)، ولكن سرعان ما دعا الحافظ لنفسه بالإمامة الكاملة، وقد تولى الأمر بعده الظافر سنة ٥٤٤هـ، ثم الفائز سنة ٥٤٩هـ، وأخيرا العاضد سنة ٥٥٥هـ، الذي انتهت الدولة الفاطمية في عهده، بعد أن أعلن صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ نهاية تلك الدولة، وبذلك قضي على هذا الفرع من المستعلية.

هكذا كان أمر الإسماعيلية المستعلية في مصر، ولكن كان للاسماعلية المستعلية شأن آخر في اليمن في عهد الصليحيين[١]، الذين لم يعترفوا بإمامة عبد المجيد، وزعموا أن أحد زوجات الآمر بأحكام الله المقتول كانت حاملا ووضعت طفلا ذكراً اسمه الطيب بن الآمر، فالإمامة إذن لهذا الطفل، الذي خاف عليه أحد الدعاة فأخفاه عن الحافظ وأرسله إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن، وهذه الملكة أخفته وجعلت نفسها كفيلة ونائبة عنه في تولي شؤون الدعوة الإسماعيلية، ومنذ ذلك الحين لم يقدم لنا التاريخ ذِكراً للأئمة المستورين الذين جاؤوا من عقب الطيب المختفي؟!

وقد انقرضت الدولة الصليحية في سنة ٥١١هـ، ولم يقم أتباع الدعوة الطيبية بأي نشاط سياسي بعد ذلك، وكما يقول الدكتور محمد كامل حسين: فإن أتباع هذه الدعوة ركنوا إلى التجارة وعاشوا في محيط خاص بهم، وكان كثير منهم يتخذ التقية فلا يظهر إسماعيليته، بالرغم من وجود داعية لهم ينوب عن إمامهم المستور في تصريف أمورهم الدينية، وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة لنشر الدعوة الإسماعيلية الطيبة في الهند، ولا سيما في ولاية جوجرات جنوب بومباي، وأقبل جماعة من الهندوس على

---

(١) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٥١.

اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفوا باسم (البهرة)، وكلمة البهرة كلمة هندية قديمة معناها التاجر[(١)].

ولكن الدعوة الطيبة انقسمت في القرن العاشر الهجري إلى فرقتين: فرقة البهرة الداودية، وفرقة البهرة السليمانية، ويرجع هذا الانقسام إلى الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة، فالفرقة الداودية تنسب إلى الداعي قطب شاه داود برهان الدين، وهو الداعي السابع والعشرون من سلسلة دعاة الفرقة المستعلية الطيبة المتوفى سنة ١٠٢١هـ، والفرقة السليمانية تنسب إلى الداعي سليمان بن حسن الذي أبى أتباعه الاعتراف بداود، واعترفوا بسليمان سنة ١٠٠٥هـ داعية لهم. على أن مركز دعوة الفرقة الداودية انتقل من اليمن إلى الهند في القرن العاشر الهجري، وداعيتهم الآن هو طاهر سيف الدين، ويعد الداعي الحادي والخمسين من سلسلة دعاة الدعوة الطيبية ويقيم في مدينة بومباي، وكذلك داعي الفرقة السليمانية علي بن حسين الذي يقيم في اليمن[(٢)].

وطائفة البهرة بفرعيها يحترفون التجارة وخاصة تجارة الحديد وأدوات العمارة، ولا يزيد عددهم في العالم على مائتي ألف نسمة نراهم متفرقين في بلاد الهند وبالباكستان وعدن، وفي جبال حران باليمن طائفة منهم يطلق عليهم الآن القرامطة أو الباطنية ولا يعرف عددهم تماما. وهم جميعا يقدسون داعيهم المطلق تقديسا تاما ويطيعونه طاعة عمياء، وقد استطاع الإنجليز أن يستميلوا إلى جانبهم دعاة البهرة، فهذا آخر دعاتهم طاهر سيف الدين أعطاه الإنجليز نفوذا ضخما في الهند، وتركوا له سلطة مطلقة على أتباعه، حتى إنه كان باستطاعته أن يحرم الموتى من الدفن في مدافن الطائفة، وأن ينبش قبور المخالفين له، بل وأن يستولي على ما يتركه الميت من أموال، وأعلن كذلك فرض ضرائب عجيبة على

---

(١) المصدر السابق ص٥١، ٥٢ – وانظر تاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب في الصفحات الأخيرة – جدول رقم (٣) لدعاة الطيبة.

(٢) المصدر السابق ص٥١، ٥٢ – وانظر تاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب في الصفحات الأخيرة – جدول رقم (٣) لدعاة الطيبة.

أتباعه، وقد انشق بسبب ذلك عن طاعته عدد من أفراد طائفته ومن هؤلاء: علي بن إبراهيم الذي كون فرقته (العلوية)، ومنهم فرقة (الناجوشية) الذين يقيمون في ولاية باردوا بالهند، وهذه الفرقة كانوا في الأصل من براهمة الهند، ثم اعتنقوا الإسماعيلية الطيبة، ولذلك نراهم يتبعون في معيشتهم نفس التقاليد التي عند البراهمة ومنها عدم أكل اللحوم[١].

هذا عن الإسماعيلية المستعلية، أما الإسماعيلية النزارية، فقد كان لهم شأن خطير ودور كبير في مناطق فارس والشام على يد أحد دعاة الإسماعيلية وهو (الحسن بن الصباح) الذي استطاع أن يمهد الأمور في فارس للمناداة بإمامة نزار بن المستنصر، فأطلق عليهم اسم النزارية.

وقد اتخذ ابن الصباح مبدأ القتل وسيلة لتحقيق أهدافه، فكان عهده مصدر الفتن والاضطراب في كثير من بقاع العالم الإسلامي. كما أنه ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام قائم القيامة المختفي والدعوة إليه، بعدما زعم أن ابناً لنزار استطاع الهرب إلى قلعة الموت، حيث أخفاه الحسن بن الصباح ولن يظهر إلا في الوقت المناسب.

وكان نظام الفدائيين الذي ابتدعه الصباح، من أهم الأمور التي يتميز بها عهده، فقد كان يأمر أتباعه باغتيال كل من يقف في طريقه أو يخاصمه، حتى استطاع أن يمتلك قلعة آلموت (جنوبي بحر قزوين)، وأن يؤسس بها دولة الإسماعيلية في إيران، التي عرفت في التاريخ بأسماء متعددة مثل: الإسماعيلية، والباطنية، والحشاشين، والفداوية.

والروايات التي تروي قصة سقوط قلعة آلموت في يد الإسماعيلية لا تختلف فيما بينها كثيرا، فرواية ابن الأثير والجويني تقول: إن الحسن كان يطوف على الناس فيضلهم، فلما رأى قلعة آلموت، واختبر أهل تلك النواحي، فأقام عندهم، وطمع في إغوائهم، ودعاهم في السر، وأظهر الزهد، فتبعه أكثرهم، والعلوي صاحب القلعة حسن الظن فيه، يجلس إليه

---

(١) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٥٨، ٥٩.

يتبرك به، فلما أحكم الحسن أمره، دخل يوما على العلوي بالقلعة، فقال له ابن الصباح: أخرج من هذه القلعة، فتبسم العلوي، وظنه يمزح، فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج العلوي، فأخروجه إلى بلد أخرى وأعطوه ماله، وبذلك ملك القلعة[١].

وهناك رواية أخرى تؤيد رواية ابن الأثير والجويني، ولكن توحي بعملية التدليس والمكر التي استعملها ابن الصباح مع صاحب القلعة، فصاحب كتاب (دبستان مذاهب) يروي: أن الصباح كان يدخل القلعة متنكرا، وأنه جرت له في بعض الأيام مع مستحفظها العلوي مناظرة حول صحة عقد بيع وقع فيه تدليس، وكان الصباح يرى فساد مثل هذا العقد، والعلوي لا يرى فيه بأسا، عندئذ طلب الصباح من العلوي أن يبيعه من الأرض مقدار ما يمكن أن يحتوى عليه جلد بقرة لقاء ثمن معز، فقبل العلوي، وهنا عمد الصباح إلى جلد بقرة وفرقه شرائح رفيعة جدا، ووصلها جميعا بعضها ببعض ومدها فأحاطت القلعة جميعا، فأسقط في يد العلوي واضطر إلى قبول هذا البيع المدلس[٢].

ومما يذكر، أن جهود الحسن قد تركزت خلال عهده، على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر في أماكن حصينة، يستطيعون منها الانقضاض على خصوهم من أهل السنة، لذا أصبح لديه المئات من القلاع والحصون، ولم يقتصر على ذلك فقط، وإنما تعداه إلى بناء القلاع أيضا، فكان إذا وجد جبلا حصينا بنى عليه قلعة وسير إليها الماء.

«وبالاضافة لما تمنحه هذه الحصون والقلاع من حماية وأمن للمقيمين بها، فإن لها أهمية أخرى، إذ استطاع المقيمون بها السيطرة على البريد والأخبار، وكانت هذه القلاع أيضا تمتاز بمواقع يسهل الانقضاض منها على القرى المجاورة، وبهذه السيطرة استطاعوا أن يقطعوا السبل، كما استطاعوا أن يلقوا الاضطراب في الحياة الاقتصادية بأن فرضوا على أموال الناس وأملاكهم الضرائب، وكان لهم على أمير كل أقليم أتاوة تحمل إليهم، كما

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ ١٠ص٣١٧ - ورواية الجويني في تاريخه مترجمة عن الفارسية في كتاب دولة الإسماعيلية في إيران / د. محمد السعيد جمال الدين ص١٨٩.

(٢) فرقة النزارية / د. السيد محمد العزاوي، نقلا عن كتاب دبستان مذاهب.

كانت هذه القلاع محطات للبريد ومراكز ينبعث منها الدعاة والمغيرون والفدائيون، وتحفظ فيها الذخائر والمؤن وأموال الزكاة، ويقيم فيها الجنود»[١].

ويحدثنا التاريخ أن الحسن بن الصباح دخل في خدمة (ملكشاه) السلطان السلجوقي، عندما كان وزيره الرجل الشهير (نظام الملك)، وأنه بلغ في بلاط السلطان المرتبة التي تخوله أن يضطلع بالأمور الخطيرة، إلى أن بدأ نظام الملك يشك في نواياه، مما حمله على طرده من خدمة ملكشاه والتخلص منه، وأغلب الظن أن الصباح كانت له أطماع أخرى معينة من دخوله في خدمة ملكشاه، فلعله كان يطمع في كسبه إلى صفوف الإسماعيلية، إلا أن تخلص نظام الملك منه قد أفسد عليه تدبيره.

وقد اتبعت النزارية طرقا غريبة للاستيلاء على عقول تابيعها، واستمالة قلوب الناس إليها، عن طريق النظام الذي ابتدعه ابن الصباح في اقامة الجنان لأتباعه (الفداوية).

وكما يروي السائح الإيطالي (ماركو بولو) الذي مر بهم في ذلك الوقت، فإن تفاصيل ذلك: أن يأخذ شيخ الجبل (وهو لقب الحسن بن الصباح في قلعة الموت) الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، فينشئهم تنشئة خاصة، ثم يأتي بهم ويخدرهم بمخدر خاص يقال أنه الحشيشة[٢]، ويدخلهم بعد ذلك في حدائق غناء مليئة بالملذات والكواعب الحسان، ويطلقهم فيها ليتمتعوا بكل ما احتوت، ثم يعيدهم إلى حضرته، ويطلب إليهم بعدما يفيقون أن يغتالوا من يريده شيخ الجبل من أعدائه، وجزاؤهم على ذلك الخلود في الجنة التي ذاقوا نعيمها، فيكون في ذلك ما يدفعهم إلى إنفاذ إرادة زعيمهم[٣].

---

(١) فرقة النارية / د. السيد محمد العزاوى ص٩٩، ١٠٠.

(٢) ولهذا السبب يطلق عليهم لقب (الحشاشين).

(٣) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية / بروكلمان ص٢٨٢ - وتاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص١٧٠، وفرقة النزارية / د. السيد العزاوى ص١١٢، ومواقف حاسمة في تاريخ الإسلام / محمد عنان ص٢٧٧.

لذا فقد تميز عهد الحشاشين بسفك الدماء والإرهاب، حتى أصبح الناس يخشونهم، وخاصة الحكام والوزراء. «بل نجدهم في فترة من الفترات يحاولون أن يغتالوا صلاح الدين الأيوبي، ولكن محاولتهم باءت بالفشل»[(١)].

ولو حللنا قوائم الاغتيالات التي سجلها المؤرخون يتضح لنا أن الحشاشين قصدوا به طوائف معينة بهدف ايجاد فراغ سياسي وفكري باغتيالهم، وأهم هذه الطوائف: الخلفاء والأمراء والقواد والوزراء، وكذلك القضاة والفقهاء والوعاظ ومن في حكمهم ممن كان في مقدورهم دائما أن يوجهوا مشاعر الناس ويؤلبوهم ضدهم. ويضاف إلى هذه الفئات أيضا: الذين عرفوا شيئا من الدعوة الإسماعيلية، أو دخلوا فيها ثم ارتدوا عنها[(٢)].

ولعل ا لأمر المهم، والذي ينبغي أن يذكر في هذا المقام، هو محاولة ابن الصباح تطبيق البرنامج الاقتصادي الحقيقي للطائفة الإسماعيلية، وكما طبقه القرامطة، وهو برنامج أقرب ما يكون إلى الشيوعية منه إلى شيء آخر. ومما يؤكد ذلك ما نقله الدكتور العزاوى عن المؤرخ الفارسي رشيد الدين: أن المزدكية لما رأوا للإسماعيلية ظهورا وشوكة أبدوا رغبتهم في الدخول فيها، وكان للحسن بن الصباح حسن ظن بهم، فأرسل اليهم أحد دعاته، الذي أقام فيهم إلى أن مات سنة ٥١٢هـ، فخلفه عليهم ولداه، ولكنهما نسيا اعتقادهما في سبيل المال والجاه، وخالفا حكم ابن الصباح[(٣)]. والمزدكية مذهب قديم قريب مما طبقه ابن الصباح في آلموت، وهي تقوم على تناول اللذات، والانعكاف على بلوغ الشهوات[(٤)].

ويؤيد ذلك أيضا، ما أذاعه أحد خلفاء ابن الصباح (الحسن بن محمد بن كيابزرك) على الناس في قلعة آلموت، بأن إمامهم قد فتح باب رحمته وأبواب رأفته بأن رفع عنهم آصار الشريعة وأوزارها ورسومها[(٥)]، لأن النبي ﷺ قال: كلكم راع، وكل راع مسؤول عن

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية / بروكلمان ص٣٥٤.

(٢) انظر قائمة بهذه الاغتيالات في كتاب فرقة النزارية / د. السيد العزاوى ص١٠٤ - ١٠٨.

(٣) فرقة النزارية / د. السيد العزاوى ص١٠٨.

(٤) الفهرست / ابن النديم ص٤٧٩.

(٥) دولة الإسماعيلية في إيران / د. محمد السعيد جمال الدين ص٢١٣، ٢١٤ - نقلا عن الجويني في تاريخه جهاتكشاى.

رعيته، فالإمام هو المسؤول الأول عن أتباعه، وهو الذي يتحمل بدلهم الحساب يوم القيامة، إن أطاعوه إطاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو، وبذلك طرح خليفة ابن الصباح عن الناس جميع التكاليف الدينية[1]؟!.

وقد هلك ابن الصباح سنة ٥١٨هـ، فخلفه (كيابزرك أميد) حتى سنة ٥٣٢هـ، فعهد إلى إبنه (محمد بن كيابزرك) الذي مات سنة ٥٥٧هـ، فجاء بعده ابنه الحسن الثاني بن محمد - الذي سبق ذكره - فحاول أن يمحو جميع فرائض الإسلام، وأن يشيع الإباحية المطلقة في النساء والمال وشرب الخمر، ليزعم بعد ذلك أنه هو الإمام المختفي من نسل نزار بن المستنصر بالله، وقد بقي هذا على سدة الحكم حتى مات سنة ٥٦١هـ، فخلفه ابنه محمد الثاني بن الحسن الثاني، الذي ظل على مبادئ أبيه إلى سنة ٦٠٧هـ حينما مات، فتولى الأمر بعده ابنه الحسن الثالث، الذي بدأ سياسة جديدة، فأعاد القيام بالفرائض الشرعية، وأمر ببناء المساجد، وإقامة الأذان للصلاة، وراسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وطعن في الحسن بن الصباح وكل من تولى بعده، وأمر بحرق كتبهم، وأرسل أمه وزوجته إلى الحج[2].

ولكن هذه السياسة لم تعجب أتباع الباطنية، إذ قتل الحسن الثالث على يد أحد الحشاشين، الذين رأوا في أفعاله خروجا على تعاليم ابن الصباح، وبذلك رجع الحشاشون إلى سابق عهدهم في الإلحاد والإباحية، وزرع الخوف والفتن بين الناس، حتى جاء هولاكو على رأس جيوش المغول فاجتاح قلاع وحصون الحشاشين وعلى رأسها آلموت، التي دخلها سنة ٦٥٤هـ، وقتل ركن الدين خورشاه آخر أئمة الإسماعيلية النزارية في آلموت، وبذلك قضي على هذه الدولة التي كانت مصدراً للإلحاد والفتنة.

وتزعم النزارية أن شمس الدين بن ركن الدين استطاع الهرب من هولاكو إلى أذربيجان، حيث تقلد إمامتهم بعد ذلك[3]. ولكن بعد موته انقسمت النزارية إلى فريقين،

---

(١) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٨١.

(٢) انظر بتفصيل أكثر في كتاب طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٨٢، ٨٣.

(٣) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٧٧.

فالفريق الذي كان يعيش في تلك الناحية نادوا بإمامة (محمد شاه)، واعترفوا به وإمامة الأئمة من نسله حتى انقطعت سلسلتهم في منتصف القرن العاشر الهجري بعد موت آخر إمام لهم من هذا الفرع واسمه طاهر شاه الثالث سنة ٩٥٠هـ، وأتباعه موجودون إلى الآن بقرب الحدود الروسية الإيرانية، ويلقبون بـ (جون دهرمية) أو (المؤمنية)، وكذلك في مصياف والقدموس بسورية[١].

أما الفرع الثاني، فيزعم أن الإمام بعد شمس الدين هو قاسم شاه، وأن محمد شاه قد اغتصب الإمامة[٢]. ويقيم غالبية أتباع هذا الفرع في الهند ويعرفون بـ (البارسيين)، «وكان أتباع الإسماعيلية في الهند قبل سقوط دولتهم في آلموت لهم شيء من السيطرة على إقليم السند، حتى قام السلطان محمد الغورى بغزوهم وفتح بلادهم، وأسس في الهند حكماً إسلامياً، حيث قام بعد ذلك بالبحث عن الإسماعيلية وقتلهم، فاضطر الإسماعيلية إلى التقية، وهربوا داخل بلاد الهند الواسعة، وبقي الأمر كذلك حتى وفدت أفواج الهاربين من آلموت وباقي القلاع إلى الهند، فالتقوا بالإسماعيلية هناك، الذين كانوا متأثرين بالعقائد والتقاليد الهندوكية، فكان من نتيجة هذا اللقاء، أن كون الإسماعيلية النزارية في الهند عقائد هي مزيج من عقائد الإسماعيلية والعقائد الهندوكية والتصوف الفارسي والهندي، وهنا يجب أن يشار إلى حقيقة هامة، هي أن عدداً كبيراً من شيوخ المتصوفة في فارس والهند الذين يطلق عليهم لقب (بير) كانوا متأثرين تأثرا تاما بعقائد الإسماعيلية، بل منهم من كان تحت سلطان الأئمة الإسماعيلية»[٣].

وقد استمرت الإسماعيلية النزارية في الهند على ولائهم لإمامة نسل قاسم شاه، ولكن منذ عهد أحد أئمتهم وهو شاه حسن علي الملقب (بشاهان أغاخان الأول) سنة ١٢٣٣هـ،

---

(١) المصدر السابق ص٨٦، ٨٧.

وتاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب ص٢٨١.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب ص٢٨٠.

(٣) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٨٩.

بدأ الإسماعيليون وخاصة إمامهم بالتعاون الفعلي مع الاستعمار الإنجليزي في الهند، فقد كان إمام الإسماعيلية (أغاخان الأول) رجل السلام والمحبة بين الإنجليز وأتباعه، لذلك فقد منحته بريطانيا لقب (صاحب السمو)، وفتحت أبواب المستعمرات الإنجليزية - الذين يدين أهلها بالإسلام - له ولأتباعه، فأرسل الإسماعيليون دعاتهم إلى أقطار أفريقيا وآسيا مثل: بورما وسيلان وكينيا وزنجبار وأوغندا، ليشككوا الناس بدينهم وعقيدتهم[(١)].

وقد توطدت العلاقة أكثر بين الإسماعيليين والإنجليز في عهد أغاخان الثالث، حين صار هذا وسيطا بين الحلفاء وألمانيا، مما جعل بريطانيا تأمر بإطلاق أحد عشر مدفعا تحية لأغاخان عند مقدمه للحفلات الرسمية، وكان أغاخان معروفا بالترف الزائد، فقد تزوج أربع مرات باحتفالات أسطورية، منها زواجه من الأميرة الإيطالية (ثريا ما جليانو) سنة ١٩٠٨م، التي أنجبت له ولي عهده علي خان، وعندما احتفل بيوبيله الذهبي عام ١٩٣٦م، قدم له أتباعه هدية ذلك بأن وزنوه ذهبا؟! وكان هذا الإمام الأمير بعد من أغنى أغنياء العالم، إذ قدر إيراده بعشرة ملايين دولار، وقدرت مجموعة الجواهر التي يملكها بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار؟! وكان من أوامره التي أصدرها لأتباعه، أن أمر نساء الإسماعيليين بنزع الحجاب، لأنه يتعارض والعقائد الإسماعيلية[(٢)].

ويكفي أن ننهي حديثنا عن أغاخان، بأن نورد ما قاله جولد تسهير عنه، لتتضح حقيقة هذه الشخصية للقارئ الكريم: «وهو رجل دنيوي المظهر إلى حد كبير، ومشبع بأفكار الثقافة العصرية، لذا كان من الطبيعي أن يخصص موارده للإنفاق على رحلاته العديدة، وهو ممن يؤيدون سيادة الإنجليز على الهند، تلك السيادة التي يراها نعمة للشعوب الهندية، وفي حركة (السواراجي) أصدر لمسلمي الهند بيانا قصد به أيضا غير المسلمين ممن يدينون بالديانات الأخرى، أثبت فيه أن رغبة الهنود في الاستقلال هي رغبة طائشة حمقاء، ونزعة

---

(١) انظر بتفصيل طويل عن حياة أغاخان الأول ومن تبعه من أئمة في كتاب تاريخ الدعوة الإسماعيلية لمصطفى غالب ص٣٢١ - ٣٢٦.

(٢) انظر أيضا وبتفصيل أكثر في تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٣٣٤، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٦

متهوسة، سابقة لأوانها، ثم بين ضرورة الحكم الإنجليزي ونفعه، كعامل من عوامل الاتحاد والتوفيق بين طوائف السكان ذوي الميول المتعارضة»[1].

وننتقل بعد الإسماعيلية النزارية التي وجدت في فارس، إلى أتباع لهم في بلاد الشام، الذين كان لهم كذلك دور خطير في تاريخ هذه البلاد، «وقد قويت شوكة إسماعيلية الشام بعد أن وفد عليهم أحد دعاة الإسماعيلية واسمه (بهرام)، فاستطاع أن يستولي على قلعة بانياس (جنوب غربي دمشق)، وبذلك تحقق حلم الإسماعيلية في الشام بامتلاك قلعة منيعة يثبون منها إلى غيرها من القلاع والحصون، وبعد مقتل بهرام في موقعة مع الدروز سنة ٥٣٢هـ، استلم الدعوة الداعي إسماعيل، الذي استطاع أن يتودد للأمراء ورجال الحكم ومنهم المردغاني، حتى إن هذا الداعي استطاع أن يولي أحد أتباعه وهو أبو الوفاء وظيفة قاضي قضاة دمشق، ولم تكن تولية أبي الوفاء على قضاء دمشق إلا حلقة من سلسلة تدبيرات خاصة للوصول إلى فرض سلطان الإسماعيلية في دمشق بمساعدة الصليبيين[2]»، وكان المردغاني قد راسل الصليبيين سرا على أن يسلمهم دمشق مقابل أن يسلمه الصليبيون صور، وقد قبل الصليبيون ذلك، وقرروا أن يتم ذلك بإغلاق أبواب الجامع على الناس يوم الجمعة فلا يمكنوا أحداً من الخروج منه ليجيء الإفرنج ويملكوا البلاد، فبلغ الأمر أمير دمشق فاستدعى المردغاني وقتله، ثم نادى بالناس بقتل أتباعه، ولما تمت هذه الحادثة بدمشق، خاف إسماعيل داعية الإسماعيلية في قلعة بانياس أن يثور به وبمن معه الناس، فراسل الصليبين وبذل لهم تسليم بانياس لهم، والانتقال إلى بلادهم[3].

هذا وقد ازدادت قوة الإسماعيلية في الشام بظهور أحد دعاتهم الدهاة وهو (راشد الدين سنان)، الذي استطاع أن يؤسس فرقة حشاشين أخرى، على غرار ما فعله الحسن بن الصباح في قلعة ألموت، وكان ذلك سنة ٥٥٨هـ، بعد استيلائه على قلعة مصياف، التي

---

(١) العقيدة والشريعة / جولد تسهير ص٢٤٦.

(٢) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص٩٧.

(٣) العقيدة والشريعة / جولد تسهير ص٢٤٦.

جعل منها قاعدة لحشاشيه ينطلقون منها لبث الرعب بين الناس، ولكن سنان ما لبث أن أعلن بعد ذلك أنه الإمام، ومن نسل الأئمة، بالإضافة إلى قوله بتناسخ الأرواح، «وكانت كتاباته وأحاديثه ورسائله، وخطبه وعلاقاته مع الصليبيين كثيرة، مما حمل الكثيرين على الاعتقاد بأنه ترك الإسماعيلية متقربا من النصارى والنصرانية، أو أنه أنشأ عقيدة قريبة منها»[(١)]. لذا نجده يقف موقفا معاديا تجاه نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، اللذين أرادا توحيد العالم الإسلامي ضد الصليبين، ويحاول مرارا قتل صلاح الدين، مما أضطر صلاح الدين إلى قتاله حتى تم الصلح بينه وبينهم سنة ٥٧٢هـ[(٢)].

«وعندما مات سنان، خلفه عدد من الدعاة، عادوا واتجهوا في ولائهم إلى أئمة قلعة آلموت، وبقي الأمر على هذه الحال حتى سنة ٦٥٤هـ، حينما سلموا للمغول بعض حصونهم بعد اجتياحهم بلاد الشام، ولكن موقعة عين جالوت بقيادة بيبرس سنة ٦٥٧هـ، وانتصاره فيها على المغول، غيرت مجرى الأحداث، فقد أعلن الإسماعيليون ولاءهم لبيبرس وقبلوا دفع الجزية له، وأصبح له الحق أيضا في أن يولي عليهم من يشاء من الدعاة، فعين سنة ٦٦٩هـ الداعي صارم الدين بن سالمة داعية على قلعة القدموس وقلعة الرصافة. ولكن صارم الدين حاول أن يتمرد على بيبرس سنة ٦٧٠هـ، فألقي القبض عليه، وعادت القلاع الإسماعيلية للخضوع لبيبرس. وإسماعيلية الشام لا يزالون يعيشون في سورية إلى الآن، وبالذات في سلمية والقدموس ومصياف وبانياس، وينقسمون إلى فريقين: فريق يدعوا للأئمة النزاريين من نسل قاسم شاه، وفريق آخر يدعو للأئمة من نسل محمد شاه»[(٣)].

ومما هو جدير بالملاحظة، أن الإسماعيليين منذ سنة ١٢٣٣هـ، يحاولون الامتداد والدعوة لمذهبهم على حساب الإسلام في كثير من البلاد التي يجهل أهلها تعاليم الإسلام

---

(١) قلعة آلموت / عمر أبو النصر ص١٦٢.

(٢) انظر تفصيل ذلك في الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ١١ ص٤٣٦.

(٣) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٠٨، ١٠٩.

الصحيحة، وكل هذا كان بتشجيع من الدول الاستعمارية وخاصة بريطانيا، الذين رأوا في الإسماعيلية وسيلة توقف خطر الإسلام عنهم. لذلك نرى الإسماعيلية تتوغل في بلاد أفريقية وآسيوية عديدة أهمها: كينيا وأوغندا وسيلان وبورما، مفتتحة في سبيل ذلك المراكز الضخمة في دار السلام عاصمة كينيا، وفي كمبالا عاصمة أوغندا.

وفي السنوات الأخيرة، امتدة نشاطهم كذلك إلى الولايات الامريكية، حيث افتتحوا لهم مراكز ضخمة تدل على مآربهم وأهدافهم المريبة، لأن هذا تم بعد الإقبال الجماهيري من الزنوج على الإسلام.

ويلاحظ أيضا أن الدعاية للإسماعيلية وأفكارها أخذت تنتشر في الآونة الآخيرة في البلاد العربية على يد عدد من دعاتهم وأهمهم: مصطفى غالب وعارف تامر، اللذين ما فتئا يكتبان عن الإسماعيلية وعقائدها وحركاتها، بمساعدة عدد من دور النشر اللبنانية، مستغلين جهل القارئ المسلم بحقيقة هذه الحركات، لذا امتلأت الأسواق العربية بالكتب البراقة المريبة - من تأليف هذين المؤلفين وغيرهما - التي تتحدث عن الإسماعيليين بصفتهم أصحاب الفكر الذي حمى الإسلام، ووقف سدا منيعا أمام أعدائه؟! حتى وصل الأمر بهذين المؤلفين أن يصدرا الكتب المدافعة عن حركتي القرامطة والحشاشين[1]، وجعلها في مصاف الحركات الثورية التي أرادت إنشاء المجتمع الإشتراكي المثالي؟!.

والآن، بعد أن بحثنا في تاريخ الإسماعيلية منذ نشأتها وحتى الآن، علينا أن نلم بعقائدها الأساسية التي تستند عليها في تاريخها الطويل، وأعتقد أن القارئ الكريم استطاع أن يتبين معالم هذه العقيدة، فتاريخ أي حركة إنما هو في الواقع صورة صادقة وحية عن عقائدها وأفكارها الحقيقية.

---

(١) راجع لمصطفى غالب الكتب التالية:
تاريخ الدعوة الإسماعيلية / والحركات الباطنية في الإسلام / والقرامطة / والحسن بن الصباح.
وكذلك لعارف تامر: القرامطة / وتحقيق كتاب الهفت والأظلة.

الفصل الثاني

الجانب الباطني في عقائد الإسماعيليين

١- عقيدتهم في الألوهية والتوحيد:

تذهب الإسماعيلية في عقائدها دائماً إلى النفي المطلق للصفات عن الله، وانكار أية صفة عنه سبحانه من التي وصف بها نفسه في القرآن الكريم، لأنه تعالى - كما يزعمون - فوق متناول العقل، والعقل عاجز عن إدراك كنهه، فنفي الصفات عن الله اعتقاد أساسي في التوحيد عند الإسماعيلية، لأن ثباتها - حسب زعمهم - يعني عدم التوحيد[١]. ولهذا نرى الحامدي[٢] ينفي جميع الصفات الإلهية عن الله سبحانه: «فلا يقال عليه حي، ولا قادر، ولا عالم، ولا عاقل، ولا كامل، ولا تام، ولا فاعل، لأنه مبدع الحي القادر العالم التام الكامل الفاعل، ولا يقال له ذات لأن كل ذات حامله للصفات...»[٣].

والإسماعيليون يزعمون أن جميع الأسماء والصفات الإلهية، إنما تليق بمبدعاته التي هي الأعيان الروحانية، ومخلوقاته التي هي الصور الجسمانية[٤]. فأسماء الله الحسنى التي ذكرت في القرآن الكريم ما هي إلا إشارة إلى حدوده الروحانية العلوية والجسمانية السفلية، ويؤولون قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٥]، بأن المقصود بالأسماء هم الحدود، أي تطلبون الوصول إلى توحيد الله من جهتهم[٦]. ذلك أن الإسماعيلية تزعم أن الله لم يخلق العالم خلقا مباشرا، وإنما أبدع الله تعالى (الكاف) واخترع (النون)، وأن من الكاف والنون أقام الله العالم العلوي والعالم السفلي[٧].

---

(١) تاج العقائد ومعدن الفوائد / علي بن محمد الوليد ص٢٨.
(٢) أحد دعاة الإسماعيلية وكتابها في اليمن، توفي سنة ٥٥٢ هـ.
(٣) كنز الولد / إبراهيم الحامدي ص١٣ و ١٤.
(٤) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق د. محمد كامل حسين – من تعليقاته ص٨٩.
(٥) سورة الأعراف آية ١٨٠.
(٦) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٩٠.
(٧) المصدر السابق ص٩٢.

فتوحيد الله الصحيح عندهم - كما يزعمون -: هو معرفة حدوده، وسلب الإلهية عنه له تجريده، وسلب الأسماء والصفات عنه له تنزيهه[1]، لأن الإثبات الحقيقي لهذه الصفات والأسماء على الله يعني شركة بينه وبين سائر الموجودات[2].

واستنادا إلى ما سبق، فإن معرفة الله عند الإسماعيليين تقوم على اعتبارين: الأول: تجريد الله وتنزيهه عن أسمائه وصفاته، والثاني: أن توحيده يعني معرفة حدوده.

ونظرية الإبداع التي تقول بها الإسماعيلية، تتفق تمام الاتفاق مع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وبالذات مع نظرية الفيض عند أفلوطين، مع أن بعض كتاب الإسماعيلية كالكرماني وغيره، يحلوا لهم أن يبدلوا كلمة الفيض بكلمة الإبداع[3]، بتعليلات فلسفية لا تغير في جوهر المعنى شيئا.

والإسماعيلية بعد أن تجرد الله عز وجل من جميع أسمائه وصفاته، تحولها إلى أول مبدع أبدعه الله تعالى - وهو كما يزعمون -: (العقل الأول)، ويصف الكرماني هذا المبدع بقوله: إذا كان الله عريا عن كل صفة، فإن صفات الكمال موجودة في أول أبدعه، فهو - أي المبدع - الحق والحقيقة، وهو الوجود الأول، وهو الوحدة، وهو الواحد، وهو الأزل، وهو الأزلي، وهو العقل الأول، وهو المعقول الأول، وهو العلم، وهو العالم الأول، وهو القدرة، وهو القادر الأول، وهو الحياة، وهو الحي الأول[4].

فالواحد - كما يزعمون - أبدع بأمر من مشيئته أول (سابق) فهو إذن العقل الأول والحجاب المفضل، وظهر عنه التالي مخترعا من نوره، ثم ظهرت جميع الموجودات منهما وبهما، فالفيض الأول هو أصل الإيجاد، وهو المبدأ وإليه المعاد[5].

---

(١) كنز الولد / الحامدي ص١١.

(٢) الإقحام لأفئدة الباطنية الطغام / يحيى العلوي ص١٢.

(٣) انظر راحة العقل / المركماني ص١٧١ - ١٧٢.

(٤) انظر راحة العقل / للكرماني ص١٨٩.

(٥) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر (الرسالة الأولى: مطالع الشموس في معرفة النفوس، لشهاب الدين) ص١٩.

ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى خاطب العقل بعد خلقه بقوله: أنت فتقي ورتقي، والمشرف مني على خلقي، بك آخذ حقي، وبك أنجز وعدي، فوعزتي وجلالي، لا أصل من يجحدك، ولا يعرفني من أنكرك، فأنت مني بلا تبعيض، وأنا فيك بلا حلول، وفي منتهى لطائف العقول[1].

وواضح بعد هذا أن العقل الأول أو السابق - عند الإسماعيليين - محل لجميع الصفات والأسماء الإلهية، فهو عندهم الله ممثلا في مظاهره الخارجية، ولما كانت الصلاة لا يمكن أن تؤدى لكائن لا يدرك فهي تؤدى في رأيهم لمظهره الخارجي، أي العقل الذي أصبح بذلك الإله الحقيقي عندهم، وبما أنه ليس في مقدور الإنسان أن يصل إلى معرفة ذات الله، وإنما يعرف العقل وحده، لهذا يسمى الإسماعيلية العقل: الحجاب أو المحل، أو الصلة[2].

والعقل الأول أو المبدع الأول هو الذي رمز إليه تعالى بـ (القلم) في الآية الكريمة ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ ﴾[3]، وعلى هذا فالقلم هو الخالق المصور، وهو الذي أبدع النفس الكلية التي رمز إليها القرآن بـ (اللوح المحفوظ)، ووصفت بجميع الصفات التي للعقل الكلي، إلا أن العقل كان أسبق إلى توحيد الله وأفضل فسمى بـ (السابق) وسميت النفس بـ(التالي)، وبواسطة العقل والنفس وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية، من جماد وحيوان ونبات وإنسان، وما في السموات من نجوم وكواكب[4].
لذلك نجد شهاب الدين يبدأ رسالته بقوله: الحمد لله الذي ظهر لخلقه، واحتجب عن خلقه بخلقه، وأبدع بأمره الكريم وسره العظيم، السابق الأول، ثم اخترع منه التالي الثاني فصبغ جوهرهما بنور وحدته، وجعلهما أصلين للخلق والدين ببديع قدرته[5].

---

(١) المصدر السابق ص١٧.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٣ص ٣٨١.
(٣) سورة القلم آية (١) .
(٤) الثائر الحميري الحسن بن الصباح / مصطفى غالب ص١٠٢، وطائفة الإسماعيلية / محمد كامل حسين ص١٥٨.
(٥) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر (الرسالة الأولى: مطالع الشموس في معرفة النفوس) لشهاب الدين ص١١.

فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلي والنفس الكلية، وإذا ذكر الله عندهم فالمقصود هو العقل الكلي، فإذا عرفنا ذلك استطعنا أن نتبين سبب الاهتمام الكلي لدعاة الإسماعيلية في هذا الموضوع، وما ذلك إلا لإثبات فضل حدين من حدود الدين - عندهم - هما حد النبي، وحد الوصي أو الإمام، وأن هذين الحدين في العالم السفلي يقابلان حدين شريفين هما أعلى الحدود في العالم العلوي وهما حد القلم أو السابق أو العقل الكلي، وحد اللوح أو التالي أو النفس الكلية، وأن النبي والوصي في عالم الدين يوجدان هذا الدين كما أوجد السابق أو التالي عالم الأمر كله، اذ عنهما يصدر الوجود، وهذان الحدان هما المشار إليهما (بالكاف والنون)، وأن الناطق أو (النبي) ومن قام مقامه من وصي أو إمام يتصف بكل الصفات التي للعقل الكلي، وأن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الكلي أو السابق فهي إذن تنطبق على الناطق أو الإمام[1]. فالإمام الإسماعيلي إذن هو ممثل العقل الكلي، فهو الواحد، الأحد، الفرد الصمد، وعلى ضوء ذلك قال ابن هانئ الأندلسي الشاعر في مدح المعز لدين الله العبيدي:

«ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول:

ندعوه منتقما عزيزا قادرا ... غفار موبقة الذنوب صفوحا»[2]

ويقول شاعر آخر:

هذا أمير المؤمنين بمجلس ... أبصرت فيه الوحي والتنزيلا

وإذا تمثل راكباً في موكبٍ ... عاينت تحت ركابه جبريلا»[3]

ومما يذكر أن نظرية المثل والممثول التي تقول بها الإسماعيلية تقوم على أن الحدود الروحانية العلوية، يوجد لها ممثول في الصور الجسمانية السفلية، وهذه النظرية نظرية فلسفية قديمة ذكرها أفلاطون مرارا في كتبه[4].

---

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٩٨.

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٤٨.

(٣) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٥٩.

(٤) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص١٠٧.

وإذا طبقنا نظرية المثل والممثول على حدود الإسماعيليين، يكون في العالم الأرضي حدود جسمانية تماثل الحدود العلوية وتتصف وتسمى بأسمائها، لأن الله سبحانه وتعالى المنزه عن الأسماء والصفات، أقام العالمين العلوى والسفلي بعشرة حدود كاملة: خمسة حدود روحانية، وخمسة حدود جسمانية، فالحدود الجسمانية أو الأرضية هم: النبي والوحي والإمام والحجة والداعي، يقابل كلا منهم في العالم العلوى: السابق والتالي والجد والفتح والخيال، وقد استندوا في ذلك إلى تأويل قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾[1] فزعموا أن المقصود بـ (الوحي) في الآية الكريمة هو رتبة (الجد)، وأما (الحجاب) فهو رتبة (الفتح)، (ويرسل رسولا) رتبة (الخيال)[2].

وبالإضافة إلى النفس الكلية بصفتها المنبعث الأول عن العقل الكلي، فإن الإسماعيلية تعتقد بوجود انبعاث ثان عن العقل الكلي هو الهيولى والصورة أو (عالم المادة والأرض)، ويطلقون على الموجود الأول أو المنبعث الأول - أي النفس الكلية -: العقل القائم بالفعل، وعلى الموجود الثاني - أي الهيولى -: العقل القائم بالقوة[3].

ويزعمون أن حركات العالم المادية تأتي من الأول بواسطة الثاني، وروحانياته تكون من السابق - أي العقل الكلي - بواسطة التالي - أي النفس الكلية -[4]. وباختصار: فإن الجوهرية أو الروحانية الموجودة في الإنسان تأتي إليه من العقل القائم بالفعل، وصورته وشكله وتركيبه يأتي من الهيولى أو العقل القائم بالقوة.

---

(١) سورة الشورى آية ٥١.

(٢) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص١١٧ـ١١٨.

(٣) هذه النظرية مأخوذة أيضاً عن الفلسفة اليونانية وقال بها أرسطو، وتقوم: على أن الشيء قبل أن يتحقق وجوده في العقل يكون في مرحلة الاستعداد لهذا الوجود، وهو الذي يسمى (الوجود بالقوة)، ومثال ذلك: الطفل أو الصبي الصغير فإنه وهو في طفولته يكون رجلا بالقوة، أي له الاستعداد لكي يكون رجلا بعد ذلك، وإذا وصل الطفل إلى مرحلة الرجولة أصبح رجلا بالفعل، وكذلك الحبة فإنها وهي ما زالت حبة تكون شجرة بالقوة، فإذا نبتت ونمت وترعرعت أصبحت شجرة بالفعل.

(٤) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - (الرسالة الأولى: مطالع الشموس في معرفة النفوس) لشهاب الدين ص٢٠.

ومن اعتقاداتهم أيضا في النفس الكلية، زعمهم بانبثاق سبعة عقول قائمة بالفعل عنه، وجود كل واحد منهم عن الآخر، لا فرق بينهم في الحياة والقوة والقدرة والكمال إلا برتبة السبق في الانبعاث، وهذه العقول في العالم العلوي يقابلها في العالم السفلي أئمة سبعة.

ويزعمون أن موجودات هذا العالم من نبات ومعادن وحيوان وإنسان، كان نتيجة اتصال الأفلاك والكواكب (وهم الآباء)، مع الأركان أو (العناصر) التي هي (الأمهات)، وكانت النتيجة توالد كل هذه الموجودات الأرضية، وكان آخر المواليد وزبدتها وصفوتها وخلاصتها هو الشخص البشري أو الإنسان. ويرون أن الأفلاك والكواكب إضافة إلى الأركان قد انبعثتا من العقل القائم بالقوة أو (الهيولى).

وعلى أساس معتقدهم في انبعاث العقول السبعة عن النفس الكلية، فهم يزعمون أن هذا العالم له دورات متعاقبة تقوم على مبدأ الرقم (سبعة)، وكل دور له نطقاء أو (أنبياء) سبعة، وأسس أو (أوصياء) سبعة، وأئمة سبعة. فإذا انتهى أو تم دور العقل السابع والأخير، أتى من بعده دور جديد متمثل بناطق أو (نبي) جديد يدعو إلى شريعة جديدة ينسخ بها شريعة النبي الذي كان قبله، ولهذا فهم يزعمون أن (محمد بن إسماعيل) مؤسس فرقتهم هو الناطق الجديد الذي افتتح دورا جديدا في دورات هذا العالم هو القيامة، بعد أن انتهى الدور السابق، والذي بدأ به (محمد ﷺ) وأساسه علي بن أبي طالب، وتم بـ (إسماعيل بن جعفر)، وسينتهي الدور الجديد بظهور قائم القيامة.

ولقد قابل الإسماعيليون مراتب العقول التي قالوا بها بمراتب الدعوة الإسماعيلية، وبالأفلاك والكواكب الموجودة في السماء، وطابقوها على الشكل التالي:

١- **العقل الأول أو المبدع الأول:** يقابل الفلك الأعلى، ويقابل الناطق، وله رتبة التنزيل.

٢- **العقل الثاني أو الموجود الثاني:** يقابل الفلك الثاني، ويقابل الأساس، وله رتبة التأويل.

٣- **العقل الثالث:** يقابل (فلك زحل) ويقابل الإمام، وله رتبة الأمر.

٤- **العقل الرابع:** يقابل (فلك المشترى) ويقابل الباب، وله رتبة فصل الخطاب.

٥- **العقل الخامس:** يقابل (فلك المريخ) ويقابل الحجة، وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا.

٦- **العقل السادس:** يقابل (الشمس) ويقابل داعي البلاغ، وله رتبة الاحتجاج.

٧- **العقل السابع:** يقال (فلك الزهرة) ويقابل الداعي المطلق، وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة والباطنية.

٨- **العقل الثامن:** يقابل (فلك عطارد) ويقابل الداعي المحدود، وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة.

٩- **العقل التاسع:** يقابل (القمر) ويقابل المأذون المطلق، وله رتبة أخذ العهد والميثاق.

١٠- **العقل العاشر:** يقابل (ما دون فلك القمر)، ويقابل المأذون المحدود أو المكاسر أو المكالب، وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة(١).

والحقيقة أن الذين يدرسون الإسماعيلية يستطيعون أن يدركوا مدى تأثر العقائد الإسماعيلية بالفلسفة اليونانية الشرقية والغربية، فالفيثاغوريون الذين جعلوا كل الأعداد أصولا لعقيدتهم، جاءت الإسماعيلية لتصبغها بالصبغة الإسلامية على حسب العقيدة الإسماعيلية، ومن ثم ظهرت عندهم عقائد في الأعداد وما يقابلها من أصول دينية(٢)، ونظرية الفيض الأفلاطونية أيضا من أوضح الأمثلة على اقتباس الإسماعيليين منها، فإذا قرأنا نظرية مراتب الموجودات عند الإسماعيلية نجد أنفسنا أمام نظرية الفيض في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ولم يقف دعاة الإسماعيلية عند هذا الحد فقط، بل عملوا على التوفيق بين الصليب (شعار النصرانية)، وبين الشهادة (شعار الإسلام)، ليصلوا بنفس الوقت إلى التوفيق بينهم وبين الحدود العلوية الإسماعيلية، وكل هذا من أجل هدفهم الرئيسي وهو محو الأديان

---

(١) انظر مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ٢ص٢٦٧، والثائر الحميري الحسن بن الصباح / مصطفى غالب ص١١٣.

(٢) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٧٤.

جميعها، وايجاد دين عالمي واحد يقوم على مبادئ هادمة للقيم والأخلاق التي جاءت من أجلها الأديان السماوية، وهذا التوفيق بين الصليب والشهادة من جملة ذلك، ونجده في قول السجستاني وهو يحاول أن يوفق بينهما إذ يقول:

«إن الشهادة مبنية على النفي والإثبات، فالابتداء بالنفي والانتهاء إلى الإثبات، وكذلك الصليب خشبتان: خشبة ثابتة لذاتها، وخشبة أخرى ليس لها ثبات إلا بثبات الأخرى. والشهادة أربع كلمات، كذلك الصليب له أربعة أطراف، فالطرف الذي هو ثابت في الأرض، منزلته منزلة صاحب التأويل الذي تستقر عليه نفوس المرتادين، فالطرف الذي يقابله علوا في الجو، منزلته منزلة صاحب التأييد الذي عليه تستقر نفوس المؤيدين، والطرفان اللذان في الوسط يمنه ويسرة دليل على التالي والناطق، اللذين أحدهما صاحب التركيب والآخر صاحب التأليف، أحدهما مقابل الآخر، والطرف القائم دليل على السابق الممد لجميع الحروف، والشهادة سبعة فصول، كذلك الصليب أربع زوايا وثلاث نهايات. وللزوايا الأربع والنهايات الثلاث دليل على الأئمة السبعة في أدوارهم، كما دلت الفصول السبعة في الشهادة على أئمة دور ناطقنا عليه السلام. وكل طرف منها له ثلاثة أطراف، تكون الجملة اثنى عشر، كذلك الشهادة اثنا عشر حرفا... وكما أن الشهادة إنما تكمل عند اقترانها بمحمد صلّى الله عليه وآله، كذلك الصليب إنما شرف بعد أن وجد عليه صاحب ذلك الدور[1]».

ومما لا شك فيه أن هذا المنهج الباطني سلاح ذو حدين، فهو إما أن يتجه إلى تثبيت المذهب الإسماعيلي، وإما إلى محاولة القضاء على السلام كله. ومعتقدهم في الألوهية والتوحيد من هذا القبيل، «فظاهره التوحيد الخالص لله، وباطنه الكفر المحض والانسلال عن ربقة الدين»[2].

وقد تبين لنا أن الإسماعيلية تعتقد بوجود إلهين صانعين لهذا العالم، أحدهما علة لوجود الآخر، وهما السابق والتالي، وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي.

---

(١) كتاب الينابيع / السجستاني ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) الإقحام لأفئدة الباطنية الطعام / يحيى العلوي ص٣٨.

وهذا الاعتقاد من المقالات الموجبة للتفكير، يقول أبو حامد الغزالي: أما القول بإلهين فكفر صريح لا يتوقف فيه، لأنهم عرفوا أننا نعتقد أن للعالم صانعا واحدا قادرا عالما مريدا متكلما سميعا بصيرا حيا، ليس كمثله شيء... فمن رآها كفرا فهو كافر لا محالة[1]. وكما نعلم فإن الدعوة الأولى التي دعا إليها رسول الله ﷺ هي التوحيد وعدم الإشراك مع الله إلهاً آخر، ولا شك أن اعتقاد الإسماعيلية يعني إشراك آلهة أخرى مع الله، وهذا يدل على هدم الركن الأساسي في الإسلام.

٢- عقيدتهم في الوحي والنبوة والرسالة:

الوحي عند الإسماعيلية بعيد كل البعد عن الحقائق والأخبار التي وردتنا عن رسول الله ﷺ لأنه قائم على اعتقادهم بأن العقل وليس الله هو مدبر هذا الكون وهو مرسل الوحي إلى الأنبياء، وعلى هذا فهم يزعمون أن الوحي هو: «ما قبلته نفس الرسول من العقل، وقبله العقل من أمر باريه»[2] والنبي عندهم عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق - بواسطة التالي - قوة قدسية صافية[3]. وينبغي على النبي - كما يزعمون - قبل أن يصل إلى مرتبة النبوة أن يمر بمرتبة الولي أو (الولاية)، لأنه يجمع في نفسه الصفات الثلاث: الولاية والنبوة والرسالة[4].

وزعموا أن جميع الانبياء لم يأخذوا التأييد، ولا اتصل بهم الوحي، إلا عن طريق الحدود الروحانية وهي (الجد، والفتح، والخيال)، فالسابق يوحي إلى التالي، الذي يوحي بدوره إلى الجد وهو - إسرافيل -، فيبلغه إلى الفتح وهو - ميكائيل -، الذي أبلغه إلى الخيال - جبرائيل - ، فيوحيه جبرائيل إلى الناطق الحي الذي يكون يمثل في دوره دور السابق[5].

---

(١) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص١٥١.

(٢) تاج العقائد ومعدن الفوائد / علي بن محمد الوليد ص٤٧.

(٣) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي.

(٤) مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ ٢ص٢٩٤.

(٥) كنز الولد / الحامدي - من تعليقات المحقق ص٧٦ - والثائر الحميري الحسن بن الصباح / لمصطفى غالب ص١١٨ - وتاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب ص٥٤.

ويستدلون على ذلك بحديث ينسبونه إلى النبي ﷺ «إنني آخذ الوحي عن جبرائيل، وجبرائيل يأخذه عن ميكائيل، وميكائيل يأخذه عن إسرافيل، وإسرافيل يأخذه عن اللوح، واللوح يأخذه عن القلم» فصار التأييد يتصل بالنطقاء من خمسة حدود علوية، ويتصل عنهم للمستجيبين، بواسطة خمسة حدود سفلية[1].

واستنادا إلى ذلك، فالوحي وبالتالي القرآن مستمد من سلسلة الحدود العلوية التي أولها السابق (العقل الأول)، لذلك فالقرآن ليس كلام الله، لكنه في نفس الوقت ليس كلام رجل يطلقه كما يشاء، وهكذا فالقرآن والنبوة عموما، ليس سوى جزء أو مرحلة من استمرار السابق والتالي لتدبير العالم بشطريه المادي والروحي، والقرآن نتيجة الوحي الهابط من سلسلة العقول على النبي، لكن الوحي مستمر، والأدوار مستمرة متباينة، فلا غرابة إذن أن يقوم ناطق كل دور بنسخ شريعة سابقة. من هنا فليس ما يمنع من انتظار القائم صاحب الدور السابع، ليقوم بنسخ الشرائع جميعا بما فيها الشريعة التي تتمثل بالقرآن، والشريعة تتطور على يد الإمام الذي يكشف باطنها بعد أن يعلن النبي ظاهرها، وهذه مرحلة تسبق مرحلة النسخ على يد الناطق التالي، والإمام لا بد منه في كل عصر، وهو معصوم يرجع إليه في كل العلوم، وعصمته تعادل عصمة النبي، وهو يرث الوحي عن النبي[2].

والناطق السابق الذي نسخ شريعة الإسلام في نظر الإسماعيليين هو (محمد بن إسماعيل)، فهو ناسخ، وفاتح لعهد جديد، وهو صاحب شريعة عطلت بقيامها ظاهر شريعة محمد (ﷺ)[3]. وهو أيضا كما يقول الحامدي: «متمم شريعته وموفيها حقوقها وحدودها، وهو السابع من الرسل»[4].

---

(١) أساس التأويل / القاضي النعمان ص٧٠.

(٢) انظر بتفصيل أكثر كتاب الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ض١٦٩.

(٣) مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ٢ص٢٩٣.

(٤) كنز الولد / الحامدي ص٢١١.

وقد سمى الإسماعيليون الأنبياء بالنطقاء، لأن النطق كما قالوا: قسمان، أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم وهو النطق عما في الدنيا، والآخر النطق عما في الدار الآخرة المتميز به أهل التأييد الذين يتكلمون عما وراء الحجاب[1].

ومن ناحية أخرى، فقد استنكر الإسماعيليون ما ذهب إليه أهل السنة في تفسيرهم الظاهري لقصص الأنبياء ومعجزاتهم، وعملوا على تأويلها بما لا يتفق في كثير ولا قليل مع ما هو معروف، إذ ادعى الإسماعيليون أن تفسيرات المفسرين الظاهرية تعرض الأنبياء إلى رميهم بارتكاب المعاصي. كما أنهم ادعوا أن المعجزات ليست خاصة بالأنبياء فقط، وإنما تصح أيضا من الأوصياء والأئمة والحدود، ومعجزة هؤلاء هي علوم الباطن التي اختصوا بها دون غيرهم من البشر[2].

أما بصدد تأويلاتهم لقصص الأنبياء ومعجزاتهم، فجميعها تدور في فلك واحد بأن تجعل هذه القصص والمعجزات رموزا لأشياء لا يفهمها إلا أهل الباطن، ومن أمثلة ذلك: قصة آدم وخروجه من الجنة بسبب أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، فقد أنكرت الإسماعيلية هذا التفسير، وزعمت أن له تأويلا باطنا، وهو أن آدم لم يكن أول الخلق، وإنما كان قبله عالم عاش بينهم آدم، وأن آدم هذا كان له حجة هو الذي رمز إليه في القرآن الكريم بحواء، أي أن حواء عندهم لم تكن أنثى وليست بزوجة آدم، إنما كانت أقرب الدعاة إلى آدم، وأن آدم وحواء كانا ينعمان في دعوة الإمام الذي كان قبل آدم، وهي دعوة إسماعيلية عبر الله عنها بالجنة، فتطلع آدم إلى مرتبة دينية أعلى من مرتبته، فأخرجه الإمام من الدعوة، ولكن آدم عاد إليها بعد أن تاب الإمام عليه. وكذلك أولوا ما جاء عن إبراهيم الخليل عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص١٣٥.

(٢) انظر كتاب ديوان المؤيد في الدين / تحقيق محمد كامل حسين ص١٣٦.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾[1] فالكواكب المذكورة في الآيات الكريمة هم الدعاة الذين أخذ عنهم إبراهيم علوم الدعوة الإسماعيلية، حتى انتهى ما عندهم، فاتجه إلى الأخذ عن حجة النبي الذي كان قبله، فلما أتى على جميع ما عنده من العلوم طلب العلم عن النبي نفسه حتى هيأه النبي أن يحل محله بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى[2]. ومن أمثلة ذلك أيضا: أن ثعبان موسى معناه عندهم حجته، ومعنى أن المسيح لا أب له أنه لم يأخذ العلم عن إمام، وأن احياءه الموتى إشارة إلى علمه الذي يهدي به، ونبع الماء بين أصابع النبي ﷺ إشارة إلى كثرة علمه[3].

وإذا بحثنا عن السبب الذي من أجله اتجهوا إلى تأويل قصص الأنبياء هذا الاتجاه، نجد أن من عقائدهم ما أطلقوا عليه (نظرية الدور)، وتتلخص هذه النظرية في أن الحياة تتجدد، وهي مقسمة إلى فترات ست، وعلى رأس كل فترة نبي، وبين كل نبي وآخر أئمة يخلفون النبي في شؤون دينهم، وأن ما يحدث في فترة من هذه الفترات يحدث ما يشبهه تماما في الفترات الأخرى، فما حدث في عصر آدم عليه السلام هو نفس ما حدث في عصر إبراهيم وفي عصر نوح وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام، ولذلك كانت صفات هؤلاء الأنبياء واحدة بحيث تسطيع أن تقول مثلا: إن موسى هو آدم عصره، وهو نوح عصره، وعيسى عصره، وأن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء في مرتبة واحدة أيضا وصفات واحدة، ونتيجة ذلك أن إمام العصر وهو وارث الأنبياء جميعا وكل من سبقه من الأئمة، فهو صاحب كل صفات الأنبياء والأئمة السابقين[4].

ولعل تأويلات الإسماعيلية عن قصص الأنبياء ومعجزاتهم، تجعلنا نتفهم قول علمائنا عنهم، أنهم يبطلون المعجزات وينكرون النبوات، فالإسماعيلية في مزاعمها السابقة، يكذبون بتأويلاتهم الملتوية للقرآن الكريم في قصصه عن الأنبياء، وبالتالي يجردون الأنبياء

---

(١) سورة الأنعام آئة ٧٦ – ٧٨.

(٢) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٦٧، ١٦٨.

(٣) الإقحام لأفئدة الباطنية الطعام، / يحيى العلوي ص٢٠.

(٤) طائفة الإسماعيلية / محمد كامل حسين ص١٦٨، ١٦٩.

عليهم الصلاة والسلام من كل معجزة مادية ظاهرة ظهرت عنهم، لأن التأويل الذي يقولون به ما هو إلا بدعة تحايلوها للتستر على حقيقة اعتقاداتهم الإلحادية.

والأمر المهم الآخر في اعتقادهم بالنبوة، زعمهم أن الناطق الاخير كان (محمد بن إسماعيل)، ومما لا شك فيه أن اعتقادهم هذا من الاعتقادات التي يكفر قائلها، لأنها تنكر عقيدة ثابتة عند المسلمين، وهو أن محمد بن عبد الله صلوات الله عليه خاتم النبيين والمرسلين.

٣- عقيدتهم في الولاية وأئمة الستر وأئمة القيامة وعصمتهم:

الإمامة هي المحور الأساسي الذي تدور عليه كل العقائد الإسماعيلية، لأن ولاية الإمام هي الركن الأساسي لجميع أركان الدين - حسب زعمهم -.

ويعتقد الإسماعيليون أن للإسلام دعائم سبع، «بغيرها لا يكون الإنسان مسلما مؤمنا، أولها الولاية، ثم الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد»[١]. حتى إنهم جعلوا الولاية، ماسك الجميع ورابطه والمانع من اختلاله، فإذا بطلت من الدين ولاية الوصي والأئمة بطلت الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، وعاد الدين جاهلية، فالولاية من الدين العمدة[٢].

وينسبون إلى علي بن أبي طالب أنه سئل ما الإيمان؟ وما الإسلام؟ فقال: الإسلام الإقرار، والإيمان الإقرار والمعرفة، فمن عرّفه الله نفسه ونبيه وإمامه، وأقر بذلك فهو مؤمن[٣].

فالولاية عند الإسماعيليين، هي اعتقاد وصاية علي وإمامة الأئمة المنصوص عليهم من ذرية علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول ﷺ، ووجوب طاعتهم، فطاعة الله عز وجل مقترنة بطاعتهم، ولن يقبل الله من مطيع طاعة إلا بطاعة من افترض عليه طاعته من

---

(١) دعائم الإسلام / القاضي النعمان جـ١ ص٨.

(٢) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٧٠.

(٣) الثائر الحميري الحسن بن الصباح / مصطفى غالب ص١٠١.

أوليائه الذين هم الأئمة من أهل البيت[١]، ويزعمون أن جعفر الصادق سئل عن قول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[٢]، فقال: إيانا عنى به، ونحن أولوا الأمر وطاعتنا مفروضة[٣]. وينسبون أيضا إلى جعفر قوله: بنا يعبد الله، وبنا يطاع الله، وبنا يعصى الله، فمن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله[٤].

وهذا المعنى كثير جدا في كتب الإسماعيلية، أفردوا فيه فصولا طوالا، لأن الولاية كما رأينا أقوى دعائم الإسلام في عقيدتهم، لذلك لا نجد كتابا من كتبهم يخلو من حديث طويل عن طاعة الأئمة، وليس أدل على ذلك من أن مفكرهم المعروف (القاضي النعمان) قد ألف كتابا عن كيفية الأدب مع الأئمة أسماه (الهمة في آداب أتباع الأئمة) قال فيه: فالأئمة فوق الخلق بما لا يدرك به علما، والذي يجب لهم أعظم وأجل من أن يدرك بعلم وعقل، ويقول أيضا: فينبغي لمن خصه الله ومنحه وأنعم عليه بالكون من جملة من ذكرناه من طبقات أتباع الأئمة، أن يعتقد إمامتهم، اعتقاد من يرى ويعلم أن رضاهم موصول برضاء ربه، وسخطهم مقرون بسخطه. حتى إنه جعل فصلا خاصا في النهي عن إنكار أفعال الأئمة، والأمر بتأتيها عنهم بالقبول، لأن الإمام ينظر بنور ربه ويعمل بتأييده[٥]. وقد تفرع عن هذا التقديس والإجلال أن قالوا: إن من شرك في إمامه سلطة أخرى، أو ارتاب في وجوب الطاعة له، كان كمن أضاف للنبي نبينا أخر، أو كمن شك في نبوته، وبذات صار كمن وضع مع الله إلها آخر، وعلى ذلك فمن أشرك بالإمام، أو شكَّ في الإمامة وأنكرها، صار نجساً وليس بطاهر، وأصبح ما يقتنيه هذا الرجل مما لا يصح استعماله[٦].

---

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٧١.

(٢) سورة النساء آية ٥٩.

(٣) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٢٦.

(٤) دعائم الإسلام / القاضي النعمان جـ١ ص٣٩.

(٥) الهمة في آداب أتباع الأئمة / القاضي النعمان الصفحات ١٥، ٢١، ١٩٢، ١٩٣.

(٦) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير - نقلا عن مخطوط في جامعة ليدن ص٢٤٥.

وليست عقيدة الولاية والإمامة، عقيدة خاصة بالإسماعيليين، بل هي عقيدة الشيعة على اختلاف فرقهم، قال بها الغلاة، كما قال بها غيرهم، والإسماعيليون ما هم إلا فرع من فروع الشيعة. «ومن هنا جاءت الآراء الشيعية عن الإمامة واحدة تقريبا، فهم يفسرون بعض الآيات القرآنية بأن المقصود بها الأئمة من أهل البيت، فقوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧ ﴾[1]، يزعمون أن رسول الله ﷺ قال في شرح هذه الآية: أنا المنذر وعَلِـيٌّ الهادي من بعدي. وفسروا أيضا قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾[2]، بأنه إقسام بما هو غاية القسم: إن ذلك الكتاب الناطق المترجم عن هذا الكتاب الصامت لا ريب فيه، وأنه مختار من الله لمحمد وصيا كاختيار محمد من الله سبحانه نبيا، وأكدوا هذا التفسير بقصة نسبوها إلى علي نفسه، أنه كان يتلو في بعض الأيام القرآن الكريم فانتهت به القراءة إلى قوله تعالى ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ ﴾[3]، فترك علي المصحف على رأسه وقال له: يا كتاب الله انطق، وكررها ثلاث مرات، فأشار بهذا إلى أنه هو الكتاب الناطق، وأن القرآن هو الكتاب الصامت»[4].

وعلى هذا النمط من تعظيم الإمام وتقديسه جعل الإسماعيليون للأئمة صفات لا تمت إلى البشرية بصلة، بالرغم من إلحاح كتاب الإسماعيلية - الذين كتبوا في ظل الدولة العبيدية - في القول بأن الأئمة من البشر، وأنهم خلقوا من الطين ويتعرضون للآفات والأمراض والموت مثل غيرهم من بني آدم، ولكننا نجد في تأويلاتهم الباطنية أن الإمام هو (وجه الله)، و (يد الله)، و (جنب الله)، وأنه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار، وأنه هو (الصراط المستقيم)، و (الذكر الحكيم)، و (القرآن الكريم)، والواحد، الأحد، الفرد، الصمد[5]، إلى غير ذلك من الصفات الإلهية التي اكتسبها وأسبغت عليه بصفته ممثول العقل الكلي في الحدود الجسمانية.

---

(١) سورة الرعد آية ٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢.

(٣) سورة الجاثية آية ٢٩.

(٤) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٧٤، ٧٥.

(٥) انظر كتاب طائفة الإسماعيلية / محمد كامل حسين ص٥٩ - وتاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب ص٤٠.

وهكذا فقد اعتقد الإسماعيليون، أن الإمام من نور الله، وأن جسمه أشرف الأجسام، وأن جسمه عقل بالنسبة لأجسام البشر، ولهذا وصفوا الإمام بأنه قبلة النفس والروح. وعللوا وصفهم للإمام بأنه قبلة الأرواح، بأنهم في الصلاة مثلا يتوجهون نحو الكعبة، والكعبة من تراب، فالإنسان يتجه إلى الكعبة بجسمه الترابي، ولكن نفس المصلي جوهر قابل لآثار النبوة والكتاب، فاقتضى أن تكون قبلة نفسه ما تنحل إليه، فالمصلي إذا استقبل الكعبة فكأنما استقبلها بجسمه الكثيف، أما لطيفه (أي روحه) فمتجه إلى الإمام وقالوا إن معنى الحج هو القصد لأشرف البقاع، وأشرف البقاع في الظاهر الكعبة، وهي في التأويل حجة الله على خلقه الذي هو أشرف الخلق، وهو قبلة النفوس التي تتوجه النفوس إليها لخلاصها، ولكن توجه الإنسان بحياته ونطقه إلى بيت جماد (أي الكعبة)، لا يحس ولا يعقل خطب، فاقتضى أن تكون قبلته الإمام، ولذا قال المؤيد:

أبيـــت مـــن الأحجـــار أعظـــم حرمـــة

أم المصـطفى الهـادي الـذي نصـب البيتـا[1]

كما ويعتقد الإسماعيليون أن الدين وعلومه وقف على الأئمة من أهل البيت، وأن هذه العلوم هي علوم الباطن، وأن استخلاص الباطن من الظاهر من اختصاص الأئمة فقط، لأنهم وحدهم أصحاب علم الباطن[2].

لذا فإن أهم شروط الولاية عند الإسماعيليين وجوب معرفة الإمام، واستدلوا على وجوب معرفته بحديث زعم أنه للنبي ﷺ وهو: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، ورووا أيضا عن جعفر الصادق قوله: الجاهلية جاهليتان، جاهلية كفر، وجاهلية ضلال، فجاهلية الكفر ما كان قبل مبعث النبي، وجاهلية الضلال ما يكون بعد مبعثه فيمن ضل عن إمام زمانه[3]».

---

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص٨٨، ٨٩.

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٤٩٧.

(٣) ديوان المؤيد في الدين / تحقيق محمد كامل حسين ص٧١، ٧٢.

أما عقيدة الإسماعيلية في علي وذريته، فهم يزعمون أن لكل نبي وصيا يكل إليه أمر المؤمنين بعد النبي، وأن الله تعالى هو الذي يوحى إلى النبي بإعلان الوصي الذي اختاره الله، فكان وصي آدم هابيل، ووصي نوح ابنه سام، ووصي إبراهيم إسماعيل، ووصي موسى أخاه هارون، ووصي المسيح شمعون الصفا.

وكما أن لهؤلاء النطقاء أوصياء، وجب أن يكون لمحمد ﷺ وصي، وهذا الوصي على بن أبي طالب، وأن الله تعالى أمر نبيه أن يبلغ وصاية علي إلى الناس، وأما قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[1]، فزعموا بأن هذا أمر من الله تعالى إلى نبيه الكريم (صلوات الله عليه) للنص على وصاية علي بن أبي طالب، ومعنى هذا أن النبي (ﷺ) كان فرقا من تبليغ رسالة النص على علي حتى أمره الله بذلك يوم غدير خُم، ومن الغريب أن صاحب كتاب سرائر النطقاء (جعفر بن منصور اليمن) قال في هذا الشأن: إن النبي (ﷺ) لما علم أنه لا ولد له يرث مقامه، وخاف أن تخرج الإمامة من عقبة، زوج لعلي ابنته لتكون الإمامة والوصاية باقية في عقبه، فكأنه أظهر النبي الكريم - صلوات الله عليه - في صورة لا تتفق مع ما كان عليه النبي - عليه الصلاة والسلام - من سمو في الخلق، وانصراف عن مطامع الملك[2].

وقد أطلق الإسماعيليون على مرتبة النبوة والرسالة (مرتبة الاستيداع)، أما مرتبة الإمامة والوصاية فسموها (مرتبة الاستقرار)، ولهم حديث طريف عن تنقل هذه المراتب، إذ زعموا أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام اجتمعت لديه (مرتبة الاستيداع)

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧.

قال الطبرى في تفسير الآية: وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمدا ﷺ، بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قص تعالى ذكره قصصهم في هذه السورة، وذكر فيها معايبهم وخبث أديانهم، واجترائهم على ربهم، وأن لا يشعر نفسه حذرا منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله، وإن قصر في إبلاغ شيء مما أنزل فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب.

تفسير الطبري / تحقيق محمود وأحمد شاكر جـ ١٠ ص٤٦٧.

(٢) ديوان المؤيد في الدين / تحقيق محمد كامل حسين ص٧٢، ٧٣.

وأئتمن، على (مرتبة الاستقرار)، فأورث اسحق مرتبة الاستيداع، وأعطى إسماعيل مرتبة الاستقرار، وتوارث أولادهما هذه المراتب حتى وصلت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب جد النبي عليه الصلاة والسلام، واستودع مرتبة الاستيداع، فقسم هذه المراتب بين ولديه أبي طالب وعبد الله، ونسبوا إلى النبي ﷺ قوله: (لم أزل أنا وأنت يا علي من نور واحد، ننتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية كلما ضمنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم، حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب، فانقسم ذلك النور نصفين في عبد الله وأبي طالب، فقال الله تعالى: كن يا هذا محمدا، ويا هذا كن عليا، ولكن عبد الله توفي فاستدعو بعد المطلب مرتبة النبوة والرسالة لمحمد، ثم استودع أبا طالب مرتبة الوصاية، والإمامة أيضا، وبعد وفاة أبي طالب اجتمعت لمحمد هذه المراتب، فكان محمد للرتب جميعها وهي النبوة والرسالة والإمامه والوصاية، فكان باجتماعها فيه أعلى من جميع المخلوقات، حتى كان يوم (غدير خُم) سلم فيه النبي ﷺ مرتبة الاستقرار لعلي ومنه إلى الأئمة من ولده، حتى تجتمع هذه المراتب مرة أخرى في قائم القيامة[1]. حتى إن عليا وفقا لما ينسب إلى جعفر بن منصور اليمن يعلو على جميع الأنبياء والأولياء، لأنه واحد في فضله، أحد فرد صمد، لا شريك له فيه، ليس له كفوا أحد[2].

وقد ذكر الحامدي أن ظهور: علي ومحمد (ﷺ)، مثل ظهور الجسم والنفس معاً، وليس مرادنا بالجسم إلا الشريعة، ولا باللطيف (النفس) إلا التأويل، فعلم علي وصورته نفس الشرائع وصورها المدفونة في غضونها، فهو محيي الشرائع ومقومها ومتممها، كما أن اللطيف حياة الجسم ومقومه ومحركه، وكان الرسول يشرف علياً ويقدره، وكان علي يقول: إن أحدا لم يعرفه حقيقة المعرفة إلا الرسول[3].

---

(١) المصدر السابق ص٨٠، ٨١.

والحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية / الأعظمي ص١٢١، ١٢٢.

(٢) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ص١٦٤.

(٣) كنز الولد / الحامدي ص٢٢١، ٢٢٢.

وفَرَّقَ الإسماعيليون بين الوصاية والإمامة، فلم يكن علي بن أبي طالب إماما من أئمتهم، بل ذهبوا إلى أن الإمامة في الرتبة دون الوصاية، فعلي كان وصي النبي ﷺ، وكانت الإمامة بعده إلى الحسن بن علي وهو أول أئمتهم، وبعده كانت الإمامة في الحسين، والإمامة بعد الحسين لا تكون إلا في ولد بعد والد، وهذا الكلام أولوه من قوله تعالى[1] ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾[2].

ومن الغريب أن الإسماعيلية لم يحترموا هذا الأصل الأساسي من أصول عقيدتهم ولم يتقيدوا به، فجعلوا الإمامة تتغير بين الأشخاص لأمور اقتضتها الاعتبارات السياسية والمصلحية، فالمعز لدين الله العبيدي نصّ على ولاية ابنه عبدالله من بعده، ولكن عبدالله توفي في حياة أبيه فنص المعز العبيدي مرة أخرى على ولاية ابنه العزيز، فخالف بذلك الأساس الذي قامت عليه الطائفة الإسماعيلية في أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ، إنما تنتقل من أب إلى ابن، كذلك فإن المستنصر نصّ على إمامة ابنه نزار، ولكن بعد موته نصبوا ابنه الآخر المستعلي. وفي عصرنا الحديث نصّ آغا خان الثاني على إمامة ابنه شهاب الدين شاه، ولكن شهاب الدين مات في حياة أبيه، فنصّ آغا خان الثاني على ابنه الآخر، الذي تولى الإمامة وعرف بآغا خان الثالث، وقد رأينا آغاخان الثالث يحرم ولديه علي خان وصدر الدين آغا خان من الإمامة، وينص على حفيده (كريم) الذي لقب بآغا خان الرابع وهو الإمام الحالي للطائفة، وهذا كله يدلنا على أن هذا الأصل من أصول المذهب الإسماعيلي أصبح نظريا فقط بمجرد أن أصبح للإسماعيلية دولة سياسية وتدخلت التنظيمات السياسية في العقيدة، فكيفتها حسب ما أملته الظروف السياسية[3].

حتى إن مسحة التقديس والإجلال والعصمة، التي يسبغونها على أئمتهم، نجدهم سرعان ما ينقضونها في أقوالهم، فهذا داعي دعاتهم (المؤيد في الدين) الذي كان معاصرا

---

(١) سورية الزخرف آية ٢٨.

(٢) ديوان المؤيد في الدين / تحقيق محمد كامل حسين ص٧٣، ٧٤.

(٣) انظر طائفة الإسماعيلية / محمد كامل حسين ص١٧٤.

للمستنصر العبيدي، وداعيا للدعاة في عهده، يذكر بصراحة أن المستنصر بالله كان ألعوبة في أيدي رجال دولته، وأنه كان محجورا عليه، وأن أم المستنصر ووكلاءها كانوا هم المتصرفون في أمر البلاد، والإمام المعصوم موجود بين ظهرانيهم[1]؟!

وحديثنا عن الأئمة في العقيدة الإسماعيلية، ينقلنا إلى تطور هام حدث في هذه العقيدة، بعد انقسامها إلى فرقتين (نزارية ومستعلية)، إثر موت المستنصر بالله العبيدي. وهو أن الحسن بن الصباح مؤسس الفرقة النزارية أو (الحشاشين)، قد افتتح دورا دينيا جديدا هو (دور القيامة)، وجعل من نفسه (الحجة الكبرى لقائم القيامة)، لأنه لا بد من مجيئه كضرورة تاريخية في ذلك الوقت بالذات، حيث تنتهي - على زعمه - دورة الشريعة لتبتدئ دورة القيامة[2] بهذه الدعوة الجديدة التي قوامها ظهور قائم القيامة. ومما تجدر ملاحظته أن النزارية قدموا الأساس النظري الذي تقوم عليه هذه العقيدة وطوروها بحيث أصبحت تعني: أن نفس الحجة الكبرى هي امتداد لنفس الإمام[3].

ويبدو أن إعلان الحسن بن الصباح عن قيام دور القيامة، كان تمهيدا للأهداف التي كان يرمي إليها، لذلك نرى الحسن الثاني بن محمد أحد خلفاء ابن الصباح على «آلموت» يعلن بأنه قائم القيامة الجديد، وخليفة الله على أرضه، فهو إذن ناسخ الشريعة، ومحلل الحرام، ورافع الآصار والأغلال التي هي الصلاة والصوم والزكاة والحج.

ولكي يستطيع ابن الصباح السيطرة على أتباعه، أوجد لهم مبدأ جديدا هو (مبدأ التعليم)، ولذلك أطلق عليهم (التعليمية).

«ويقوم مبدأ التعليم على أصلين، الأصل الأول هو التسليم، والتسليم هو (حكم إلهي على كل كون)، أي كل مملكة من ممالك الوجود (الجماد والنبات والحيوان)، فكلما سلم كل

---

(١) انظر سيرة المؤيد في الدين وداعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص١٤، ١٥، ٨٣.

(٢) بما أن الناطق السابع في نظر الإسماعلية هو (محمد بن إسماعيل)، فقد بدأ به كما يزعمون دور القيامة لهذا العالم، والأئمة الذين يأتون بعده مقدمة للإمام قائم القيامة.

(٣) فرقة النزارية / السيد العزاوي ص٥٢، ٥٣.

حد من هذه الحدود نفسه إلى الحد الذي يليه مقاما ورتبة، وجعل نفسه تحت تصرفه تحقق كماله. فالتراب مثلا إذا وضع نفسه تحت تصرف النبات حتى يضرب فيه النبات بجذوره ويستخلص غذاءه من صفواته وخلاصاته، وينمو ويرتفع وتظهر خاصياته، وصل من الترابية إلى النباتية، والنبات إذا وضع نفسه تحت تصرف الحيوان فجعل هذا منه غذاءه، فكمل جسمه وهيكله وحواسه وصل من النباتية إلى الحيوانية، والحيوان إذا وضع نفسه تحت تصرف الإنسان حتى يستغل بعضه في تقويم جسمه وتقوية روحه الحيوانية، التي بها يحس الإنسان ويتحرك، ويجعل منه غذاءه، وصل من الحيوانية إلى الإنسانية. ويرتفع الإنسان الجاهل الناقص من دركة الجهل إلى درجة العلم إذا هو وضع نفسه تحت تصرف الإنسان العاقل الكامل، وسلمه حسه وعقله، أي ألقى إليه كليته بزمام تصرف الإنسان العاقل الكامل، وسلمه حسه وعقله، أي ألقي إليه كليته بزمام نفسه حتى يحوله من حال إلى حال، ويبلغ به من موضع إلى موضع على الوجه الذي يرى مصلحته فيه، وسلمه له لدرجة أنه لو أراد له الحياة لما أحب الموت، ولو أراد له الموت لما أحب الحياة، ولو قال له: إن النهار المشرق ليل بهيم، أو أن الليل البهيم نهار مشرق لما هجس في قلبه أي اعتراض على هذا القول، ولما حام حول كيف يكون الأمر كذلك ولماذا؟ فينعدم اختيار الإنسان الناقص الجاهل، وإرادته باختيار الإنسان الكامل العاقل. وأما هذا العاقل الكامل الذي يجب أن يسلم إليه الناقص الجاهل نفسه فهو الإمام أو حجته. والأصل الثاني هو (محبة الإمام) وآية هذه المحبة عدم محبة النفس، وذلك لأن من أحب نفسه مثقال ذرة فكأنما لم يحب الإمام قط، ذلك لأن محبته إياه قد خالطتها محبة نفسه، فلا تكون محبته خالصة له، لهذا يجب على الأتباع جميعا أن يضعوا كل إشارة صدرت عن الإمام في كفة، وفكر أنفسهم وقولهم في كفة أخرى، إذ بقوة تلك الإشارات تقهر كل رؤساء الأبالسة والشياطين»[1].

---

(١) فرقة النزارية / د. السيد العزاوي ص٦٥، ٦٦، ١١٦ - نقلا عن النص الفارسي لكتاب التصورات لنصير الدين الطوسي.

وهكذا يخرج ابن الصباح من التعليم بشيء واحد، وهو إثبات ضرورة وجود معلم صادق واحد - هو الإمام الإسماعيلي - والفوز بعلمه الغيبي والاستفادة منه، وتسليم النفس إليه، إلى درجة أنه لو أراد الحياة لما أحب الموت، ولو أراد الموت لما أحب الحياة، فينعدم بذلك اختيار الإنسان وإرادته وتصبح مقرونة باختيار الإنسان الكامل العاقل وإرادته؟!

ويمكن أن نرى بسهولة إلى أي شيء يؤدي هذا التعليم فهو يقود الإنسان إلى التسليم المطلق وإلغاء الاختيار والإرادة، ومتابعة الأوامر دون فهم ولا إدراك لمراميها، والتخلي عن العقل والعلم جميعا، وعدم محبة النفس، ووضع إشارة الإمام في كفة، وفكر الفرد وقوله وعمله في كفة أخرى، وقياس الصداقة والعداوة للناس بمقدار صداقة الناس للإمام (وكل ما يرمز إليه) وعداوتهم له.

ولا شك أن الطاعة العمياء، والخضوع المطلق لسلطة الإمام من قبل أتباع ابن الصباح (والإسماعيلية عموما) جعلت من هذه الطاعة والخضوع حكما إرهابيا صارما، استغله ابن الصباح أبشع استغلال، في تنشئة الشباب المغرر بهم على هذه المبادئ، مما جعلهم أداة طيعة في يده يحركهم كيفما يريد ضد أعدائه، فابتدع من خلال ذلك نظام (الفداوية) الذي أرهب به العالم الإسلامي، وزرع بواسطته الفتن والخوف بين الناس.

وهناك اصطلاح مهم عند الإسماعيليين، له علاقة أكيدة بعقيدة الإمام عندهم، وهو مصطلح (الضد)، ويقصدون به كل من اغتصب الوصاية أو الإمامة في كل عصر وفي كل دور، ولذلك قالوا: إن ضد آدم هو إبليس، وضد إبراهيم النمرود بن كنعان، وضد موسى فرعون وهامان، وضد عيسى بختنصر. وبما أن دور محمد (ﷺ) يقابل أدوار غيره من الأنبياء، وأن كل ما كان في عهد الأنبياء قبله جرى في دوره، ولذلك سمى الإسماعيليون الضد في دور (محمد ﷺ) بأسماء الأضداد الذين كانوا في عصور الأنبياء السابقين، وأولوا الآيات القرآنية التي وردت في الذين خالفوا الرسل، بأن الله تعالى قصد بهم أيضا هؤلاء الذين خالفوا عليا والأئمة من ذريته.

وللإسماعيليين قصة غريبة متداولة في كتبهم تدل على حقدهم الدفين على الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة على أبي بكر عمر، ننقله من حديث الدكتور محمد كامل حسين

في تحقيقه لديوان المؤيد فيقول: الإسماعيلية تزعم أن أبا بكر كان حجة جزيرة لآخر إمام في دور عيسى، وبحكم مكانته علم أن الله تعالى سيرسل نبيا يختم به الأنبياء، فطمع أبو بكر في أن يكون هو النبي، ولكن الله أرسل محمد (ﷺ)، فاضطر أبو بكر إلى أن يؤمن بنبوة محمد (عليه الصلاة والسلام) طمعا في أن يلي الوصاية، فكان أبو بكر من أوائل الذين اعترفوا بنبوة محمد (عليه الصلاة والسلام)، وعلم أبو بكر أن الله تعالى نص على وصاية علي بن أبي طالب، ولكنه عمل على اغتصاب حق علي... ثم إن أبا بكر أراد أن يرد الحق إلى أهله وأن ابنه محمدا كان يعظه ويحضه على اتباع علي، ولكن عمر أغراه ومنعه على أن يلي الأمر بعده، فكان عمر خليل أبي بكر وفيهما أنزل الله تعالى ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[1] يعني الظالم الثاني (أي عمر). وزعم الإسماعيليون أن قول أبي بكر المنسوب إليه: (لي شيطان يعتريني فإذا زغت فقوموني) بأن الشيطان هو عمر، لهذا تبرأ الإسماعيليون من الشيخين ونعتوهما بكل الصفات القبيحة كإبليس، وفرعون، وهامان، والطاغوت، وهبل، وأدلم.. إلى غير ذلك من الألقاب الدنيئة. وسموا جمهور المسلمين الذين لا يدينون بمذهبهم أولاد الزنا، والنواصب، لأنهم بغضوا عليا ونصبوا أعداءه[2].

٤- عقيدتهم في اليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار:

يذهب أكثر الذين كتبوا عن عقائد الإسماعيلية من الكتاب المحدثين، إلى القول بأنهم لا يؤمنون بالتناسخ (أي انتقال الروح بعد الموت إلى إنسان آخر أو إلى حيوان أو نبات)، ولكن الكثير من علمائنا القدامى، قالوا إن الإسماعيلية تؤمن بالتناسخ، وتنكر القيامة، ومن هؤلاء (أبو حامد الغزالي) الذي قال: وقد اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة، وأن هذا النظام المشاهد في الدنيا، من تعاقب الليل والنهار، وحصول الإنسان من نطفة، والنطفة من إنسان، وتولد النبات. وأولوا القيامة، وقالوا: إنها رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمان، وهو السابع الناسخ للشرع المغير للأمر. وأما المعاد فأنكروا ما ورد به الأنبياء، ولم

(١) سورة الفرقان آية ٢٨.

(٢) انظر ديوان المؤيد في الدين / تحقيق محمد كامل حسين ص١٣١، ١٣٢.

يثبتوا الحشر والنشر للأجساد، ولا الجنة والنار، ولكن قالوا: معنى المعاد عود كل شيء إلى أصله، وزعموا أن نفوس المعاندين لمذهب الإسماعيلية، تبقى أبد الدهر في النار، على معنى أنها تبقى في العالم الجسماني تتناسخها الأبدان، فلا تزال تتعرض فيها للألم والأسقام، فلا تفارق جسدا إلا ويتلقاها آخر[1].

إلا أن الأستاذين الفاضلين (الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور عبد الرحمن بدوي) يجزمان بعدم إيمان الإسماعيلية بالتناسخ[2]، معتمدين في ذلك على كتب بعض الدعاة الإسماعيليين مثل: الكرماني والمؤيد في الدين، اللذين أنكرا التناسخ عن الإسماعيلية في عصر الدولة العبيدية، وهو بالنسبة إليهم دور الظهور للأئمة الإسماعيليين، فلا غرابة إذن أن ينكروا ما أنكروه تقية وخوفا من ثورة الناس على أئمتهم. ويجب أن نلاحظ أن الدكتور محمد كامل حسين قد تنبه إلى هذه الملاحظة في بحثه عن الطائفة الإسماعيلية، ومع ذلك فقد نفى التناسخ عنها، إذ يقول: إن هذه الصفات التي أسبغوها على الأئمة، لم يستطيعوا أن يصرحوا بها للعامة أو للمبتدئين من المستجيبين، بل لم يكن يعرفها إلا من استمع إلى داعي الدعاة نفسه في المجالس التي كان يعقدها للخاصة فقط، أما أمام جمهور الناس، – ولا سيما في الدور العبيدي بمصر - فلم يكن الدعاة بقادرين على الإبانة عن هذه العقائد أو الإشارة لها، وإلا كان ينالهم من المصريين ما ناله دعاة تأليه الحاكم بأمر الله، ولذلك عمد الدعاة الإسماعيلية في مصر إلى إخفاء أكثر عقائدهم السرية عن الناس، ولم يظهروا منها إلا ما كان هينا رفيقا بالشعب، وما كان لا يخالف العقائد التي كانت سائدة في مصر، وهي القريبة من مذهب الشافعي ومالك[3].

---

(١) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص٤٤ – ٤٦، وقال بمثل هذا أيضا يحيى العلوي في كتاب الإقحام لأفئدة الباطنية الطعام ص٢١.

(٢) انظر كتاب طائفة الإسماعيلية ص١٧١ / وديوان المؤيد في الدين ص١٢٦ / لمحمد كامل حسين. وكذلك كتاب مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي ص٣٠٧.

(٣) طائفة الإسماعيلية / د. محمد كامل حسين ص١٦٠، ١٦١.

وهكذا فإن من يطلع على الكتب الإسماعيلية التي كتبت في دور الستر، يجد أن الإسماعيلية قالت بالتناسخ، وأنكرت البعث والجنة والنار.

وأعتقد أن نظرية الدور التي تقول بها الإسماعيلية، من جملة المعتقدات التي نستطيع أن نأخذ منها إيمان الإسماعيلية بالتناسخ، فكما ذكرنا سابقا فإن الإسماعيلية تؤمن بوجود دورات متعاقبة لهذا العالم، في كل دور نبي ناطق ووصي وأئمة ستة فإذا جاء السابع، افتتح دورا جديدا، وصار ناطقا. وعلى هذا الأساس آمنوا أن الأنبياء والأئمة خلقوا من نور العقل الكلي (خالق هذا العالم على زعمهم)، وأن هذا النور يتسلسل بالأنبياء والأئمة في كل الأدوار، حتى إنهم اعتبروا أن آدم هو نوح، ونوح هو موسى، وعيسى هو محمد ﷺ وهكذا.

ومن هنا نستنتج أن هذه النظرية تقوم على التناسخ، فقد جعلت الأنبياء شخصا واحدا وكذلك الأئمة، يظهرون في كل دور بنفس ظهورهم في الدور الذي سبقه، أي بمعنى آخر تفنى أجسامهم وتبقى أرواحهم تتعاقب على أجسام أخرى، وهذا بعينه مذهب التناسخ.

ويضاف إلى ذلك، أن القيامة معناها عندهم عودة الروح إلى مبدئها[١] وهي النفس الكلية، وهذا يعني إبطال العقاب والثواب في الجنة والنار، «لأن العقاب في رأيهم هو الآلام والأوجاع التي تراها الروح في تقلبها في الأجسام والأقمصة المختلفة، وأما الثواب فهو اللذات التي يأخذها المؤمن من مراتب العلوم»[٢].

وقد اعتبر جعفر بن منصور اليمن عقيدة حشر الأجساد مضحكة، لأن الحياة السرمدية ليست سوى عودة الروح إلى مبدئها[٣].

و على هذا المنوال قال أحد شعرائهم (عامر البصري):

«ولي صـــورة محصـــورة القـــدر ضـــبطها
ظهـــوري لعينـــي عنـــد لبـــسي بـــردتي

---

(١) القرامطة / ميكال دى خويه ص١٣٩ نقلا عن مخطوط إسماعيلي.

(٢) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - الرسالة الثالثة (الدستور ودعوة المؤمنين) للطيبي ص٧٠.

(٣) القرامطة / ميكال دي خوية ص١٣٩.

فأبــدوا بهــا صــورة بعــد صــورة
وآخـــر مـــا يتلـــوه أول نشـــأتي

قيـــامتي الصـــغرى بخلعـــي وإنمـــا
قيـــامتي الكـــبرى بتتمـــيم دورتي»[1]

ولكي نؤكد قولنا أن الإسماعيلية في كتبهم السرية قد قالوا بالتناسخ، نأتي بنصوص من رسالة لأحد دعاتهم نشرت حديثا وتقول: «إن أهل الحق على ضربين، أحدهما: أهل المعارف الحقيقية، والعلوم الإلهية، والأعمال الصالحة، والموالاة لجميع الأئمة من ناطق الدور ووصية إلى إمام الزمان وحدوده، وهؤلاء هم الذين يكونون عند مفارقتهم لكثافتهم (أي لأجسامهم)، الأعضاء الرئيسية من ذلك الهيكل النوراني الذي هو هيكل الإمام، وعلى قدر مبلغ كل واحد منهم في العلم والمعرفة والولاء يكون علوه في ذلك الهيكل النوراني، ويتلوهم أهل الولاء المحض، والأعمال الصالحة في ذلك الهيكل، فيكون كل واحد منهم في موضعه الذي يستحقه، وهذه لطائفهم دون كثائفهم، فأما كثائفهم فتكون محفوظة في أعز عز، وأحرز حرز، وذلك أنها تعود إلى السحيق بعد مفارقتهم لطائفهم، ثم إلى المزاج والممتزج، ثم تعود إلى الأرض أمطارا، ثم تلطف إلى أن تحلل بخارا، وتصعد إلى فلك البروج في أماكنها، وينحدر ذلك من البروج إلى الأرض، ثم يصير ترابا سحقيقا، ثم ترتقي إلى أن تصير في القامة الألفية إنسانا، وذلك الصاعد الكائن خلفا للمنحدر... وعند كمال هذه الأشخاص وبلوغها الحلم تدعى فتجيب ويؤخذ عليها العهد الكريم، وترتقي في الرتب الدينية والمعارف الحقيقية شيئا بعد شيء من غير أن يدخلها شك ولا يعرف لها شبهة، بل تكون جارية في مضمار الصعود، إلى أن تبلغ مالها أن تبلغه، وهو مبلغها الذي بلغته في أول وهلة عند كونها وظهورها بالجثة الإبداعية، فالباب يعود بابا، والحجة يعود حجة، وداعي البلاغ يعود داعي بلاغ... ولا يزالون كذلك كلما صفت نفس وصعدت إلى

(١) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - الرسالة الرابعة (القصيدة التائية) ص٩٣.

عالم الصفا، انبعث في جسمها المتخلف نفس أخرى بتدبير المتدبرات ونظر من العناية الإلهية، أما الضرب الثاني فهم أهل الولاء المتعلقون بشيء من العلوم الدينية والحكم الإلهية... وأجسام هؤلاء لا يبلغوا هنا إلى مبالغ أجسام أهل الضرب الأول، بل تبقى مرتهنة بتلك الأفعال القبيحة التي تعدت إليها، وأقدمت عليها من غير حلها، فيقتص منها بجميع ما أسلفه وفعلته من قليل وكثير، ويسلك بها في شيء من صراط العذاب، ومطامير العقاب الأدنى، وتعرف بالنار المصفية، إلى أن يكمل ما عليها من المظالم، واستؤنف بها العمل والترقي إلى أن تظهر إلى القامة الألفية، ثم تدعى فتجيب، وتتصل إلى حدها الذي بلغته أولا كما سبق به القول... ولما انتهى بنا القول إلى ما انتهى، نريد أن نتبع ذلك الكلام على الأضداد وما ينتهون إليه من الكون والفساد، وما يصيرون إليه من العذاب وسوء العقاب... وأما أجسام هؤلاء الأضداد ونفوسهم، فإن نفس الواحد منهم عند موته تشيع في جسمه، ويصيران شيئا واحدا، ويستحيلان إلى التراب، ثم يصعدان بخارا، ويعودان مطرا، ويحدث من ذلك المطر البرقات المهلكات، والسيول والخربات... وينصبان إلى الأرض ويصيران نباتا وحيوانا، فيغتذيه من يصلح له الاغتذاء، ويستقبل بهما العذاب، وهي الأدراك السبعة، فأولها: درك الرجس، وهي قمص البشر، فيصير ذلك المغتذى به نطفة يرتقي إلى أن يخرج من بطن أمه جنينا، في قميص من قمص الزنج والزنات والبربر والترك وغيرهم من الذي لا يصلحون لمخاطبة الحق، ولا يزال ينتقل من قميص إلى قميص، إلى أن يستكمل في كل نوع من أنواع هذا الدرس سبعين قميصا. ثم خرج بالمزاج والممتزج، إلى قمص الوكس، وهو الدرك الثاني المماثل للتركيب البشري، وهم القرود والدب والنسناس والغول وأمثال ذلك، فيسلك به في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصا، إلى أن يستوفيها جميعا، وهو في جميع هذه القمص الوكسة، يتحقق أنه في حال العذاب... ثم يسلك به في قمص العكس، وهو الدرك الثالث، وهم سباع البر والبحر، كالأسود والذئاب وأمثالهم، إلى أن يستكمل في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصا... ثم سلك به في قمص الحرس، وهو الدرك الرابع، وهم هوام البر والبحر، كالأفاعي والعقارب، فينقمص في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصا... ثم سلك به في الدرك

الخامس، ويسمى النجس، وهم طير البر والبحر، إلى أن يستوفي في كل نوع منها سبعين قميصا، فإذا استوفى جميع هذه القمص سلك به بما هو في الدرك السادس، ويسمى النكس، وهو النبات المحظور القاتل المهلك للحيوان، إلى أن يستوفي في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصا، وسلك به في الدرك السابع، الذي يسمى الركس، وهو المعدن والحجر، إلى أن يستوفي في كل نوع من أنواعه سبعين قميصا... ثم إنه يعمد بعد ذلك بأضداد المقامات الإلهية والرسل والأنبياء، فتنفى إلى أرباع الأرض الخارجة من حد الاعتدال، التي هي غير مسكونة»[1].

من هذا النص يتبين لنا أن الإسماعيليين يؤمنون بالتناسخ، فأرواح المؤمنين عندما تموت وتمتزج بالهكيل النوراني وتعود بعدها إلى الأرض بأجسام أخرى، وتدخل الدعوة من جديد إلى أن تصل إلى مرتبتها فيها قبل موتها. أما أرواح العاندين، فتدخل في أدوار متكررة من العذاب تتقمص في كل دور سبعين قميصا، أولها الرجس وهي قميص البشر الذين لا يصلحون للمخاطبة كالزنج والترك، وآخرها الوسخ وهو ظهوره في داخل المعدن والحجر.

وقد اعتبر بعض الإسماعيلية عذاب القبر، بأنه تأثر النفس بسبب ما يظهر عليها من الصور الهيولانية المخالفة للطبائع، وذلك على سبيل التغيير، كما اعتبروا النشر ظهور النفوس في عالم بعد عالم وفق مكتسباتها[2].

وأولوا على هذا الأساس القيامة، بأنها قيام النفوس الجزئية المفارقة للمدركات الحسية، والآلات الجسدانية، وقيام الشرائع والأديان، بظهور صاحب الزمان، وقيام

---

(١) الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية / محمد حسين الأعظمي - وفي النص الحرفي لرسالة (الأنوار اللطيفة في فلسفة المبدأ والمعاد) للداعي طاهر بن إبراهيم الحارثي اليماني. ص١٣١ - ١٣٥و ١٣٩و ١٤٠ - وما جاء به هذا الداعي، قاله أيضا الحامدي في كنزل الولد ص٣٠٩ - ٣١١.

(٢) انظر أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - الرسالة الثالثة (الدستور ودعوة المؤمنين للحضور) للطيبي ص٦٨، ٦٩.

الدور، بروز النفس الكلية لمحاسبة النفوس الجزئية، وقيام القيامة بكمال الإخلاص والنجاة، واستراحة النفوس بأجمعها من الإيراد والإصدار[1].

وجنة النعيم هي عالم العلم، ودرجاتها هي مراتب العلوم، وأما اللذات، فهي جولات النفوس في فضاء معارجها وابتهاجها عند الحصول في مشاهدها ومواقعها[2].

وعلى هذا فإن نعيم الجنة ولذاتها عند الإسماعيليين، إنما هي لذات معنوية وليست حسية، وتبعا لذلك فإن الإسماعيليين ينكرون الجنة والنار، ولا يؤمنون بهما. وهذا ما يقرره السجستاني بقوله: «لما كان قصارى الثواب إنما هي اللذة، وكانت اللذة الحسية منطقة زائلة، وجب أن تكون التي ينالها المثاب أزلية غير فانية، باقية غير منقطعة، وليست لذة بسيطة باقية على حالاتها غير لذة العلم، فكان من هذا القول وجوب لذة العلم للمثاب في دار البقاء»[3].

وهذا يشبه قول علي بن محمد الوليد الذي يرى: «أن النفس تستحق الجنة حين تصير خالصة من شوائب المادة، معراة من الجسماني مناسبة لذوات الملائكة وصورها، بحيث تصير إلى حال تستمد فيها قبول فيض العقل على الدوام، وتخلص من أثار الحس، فيترادف الفيض في ذاتها، ودار الثواب لا تغير فيها، فلا يمكن أن تكون لذاتها حسية، لأن ما هو حسي متغير فاسد»[4].

أما العقاب فيصفه الحامدي بقوله: «وإن للنفس في عالم الكون والفساد، كائنة في الأجساد، وهي الأرواح الهابطة للزلة التي كانت منها، والخطيئة التي جنتها، فأهبطت وأبعدت من دار الكرامة، فبقيت معذبة مربوطة بالطبيعة الحسية والتكليفات اللازمة لها في الشرائع الناموسية، جزاء لها بما أسلفت، وما ذكره الحكماء من الهيولى والصورة، إلا تنبيها للنفس اللاهية، والأرواح الساهية الغافلة، عن آيات الله وتذكارا لهم، وأن الهيولى والصورة، أعراف عليها واقفون، وبرازخ لهم إلى يوم يبعثون، كلما بليت صورة بالفساد

---

(١) المصدر السابق ص٦٩.

(٢) المصدر السابق ص٧٠.

(٣) الينابيع / السجستاني ص١٣٥.

(٤) تاج العقائد ومعدن الفوائد / علي بن محمد الوليد ص١٦٥، ١٦٦.

كونت أخرى بالكون. فهم بين البلاد والنشوء مترددون، ما بين الهيولى الجسمانية، والصورة التركيبية»[1].

ويعلق الأستاذ مصطفى غالب على النص السابق بقوله: «إن هؤلاء (يقصد عدم المؤمنين بالإسماعيلية) إذا ماتوا، شاعت أنفسهم في أجسامهم ولم تفارقهم إلا الهوائية، ثم يتحللون ويصيرون من البرازخ فيما يستحقون منها على قدر أعمالهم، إن استحقوا خلصوا، وإلا ردوا إلى ما يستحقونه باكتسابهم في المرة الثانية، لأنه عدل لا يظلم به العباد ولا يخلف الميعاد، والغرض كله إنشاء الخلقة استخلاصها مما وقعت فيه من الخطيئة والإنكار، فمن تخلص صعد، ومن أبى وعاند الحدود ارتكس وهبط»[2].

وعلى ذلك فإن الصور التي تتلاحق على نفس أو روح المعاند إنما هي برازخ لهم حتى يتخلصوا من عنادهم، ويبقى ذلك حتى يوم الدين، وهو يوم قائم القيامة.

٥- طريقتهم في الدعوة وتنظيم الدعاة:

المذهب الإسماعيلي، مذهب سري باطني، يقوم على القول بالباطن، والعمل بالتقية، لأن العلوم الباطنية - التي يزعمونها - سر مصون لا يجوز البوح بها إلا لأهلها، «فلا يحملها إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان»[3].

والتقية - كما هو معلوم - تقول بها الشيعة على اختلاف فرقها، وينسبون العمل بها إلى أحد الذين يزعمون أنه من أئمتهم وهو جعفر الصادق، الذي ينسبون إليه أقوالاً قالها في وجوب التقية منها: «التقية ديني ودين آبائي وأجدادي، ومن لا تقية له لا دين له» و «الذائع لسرنا كالجاحد له»[4].

---

(١) كنز الولد / الحامدي ص١١٢، ١١٣.

(٢) كنز الولد / الحامدي - (الهامش) ص١١٣.

(٣) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - الرسالة الأولى (مطالع الشموس في معرفة النفوس) لشهاب الدين ص١٦.

(٤) المصدر السابق ٣٤.

وإن المطّلع على أساليب الإسماعيلية وطرقهم الماكرة في الدعوة، التي كانوا يستعملونها إما لاستمالة الناس إلى مذهبهم، وإما للتسلط على إرادتهم، وإبقاءهم تحت طاعتهم التامة، ليعجب جدا من مكر هؤلاء الناس، وطرق التحايل المستعملة عندهم. «لأن الغاية القصوى من هذه الأساليب والطرق الجهنمية، أن يثير الداعي الشك في نفس المدعو، وفي عقائده الأصلية، ومبادئه السياسية والاجتماعية، ويحمله على الدخول في سلك الجمعية السرية صاحبة العلم الصحيح وهي «الطائفة الإسماعيلية»[١].

ولهذا فقد قام الإسماعيلية الباطنية، على تنظيمات سرية للغاية، تعتمد على دعاة مراوغين، جعلت منهم وسيلة رئيسية لتحقيق نجاح حركتها في دور الستر والتخفي، وفي دور الظهور والاعلان أيضا.

وحتى يتمكن هؤلاء الدعاة من نشر مذهبهم، وتوجيه أتباعهم دونما أية معارضة، فقد أسبغت عليهم العقيدة الإسماعيلية فضائل دينية، وجعلت منهم (حدود الدين)، فكانت مخالفتهم ومعارضتهم تعتبر بالنسبة إلى الإسماعيلية مروقا من الدين وخروجا عن طاعة الإمام نفسه، لأنهم من صلب العقيدة وحدودها.

وقسموا على هذا الأساس دعاتهم، فزعموا أن الدعوة لا يمكن استقامتها إلا باثني عشر داعيا يتولون إدارتها، يقابلهم في عالم الفلك اثنا عشر برجا، وباعتبار أن الشهر ثلاثون يوما، لذا كان لكل داعية جزيرة ثلاثون داعيا نقيبا لمساعدته في نشر الدعوة، وهم قوته التي يستعين بها في مقارعة الخصوم، وهم عيونه التي بها يعرف أسرار الخاصة والعامة. ولما كان اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة، اثنتي عشرة ساعة بالليل، واثنتي عشرة ساعة بالنهار، لذا جعل الإسماعيليون لكل داع نقيبا، أربعة وعشرين داعيا، منهم اثني عشر داعيا ظاهرا كظهور الشمس بالنهار، واثني عشر داعيا محجوبا مستترا استتار الشمس بالليل[٢].

---

(١) انظر كتاب من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / بندلي جوزى ص٩٥.

(٢) انظر كتاب تاريخ الدعوة الإسماعيلية / مصطفى غالب ص٢٨، ٢٩.

«ويمكننا القول إن مراتب الدعوة الإسماعيلية تتكون على الشكل التالي:

١- إمام.

٢- باب.

٣- حجة.

٤- داعي الدعاة.

٥- داعي البلاغ.

٦- النقيب.

٧- المأذون.

٨- داع محدود (أو محصور).

٩- جناح أيمن.

١٠- جناح أيسر.

١١- مكاسر (أو مكالب).

١٢- مستجيب»[(١)].

والملاحظ أن مهمة مجادلة العلماء والفقهاء أمام جماهير الناس، تقع على عاتق المكالب (أو المكاسر)، فكانوا يرتادون مجالس العلماء والفقهاء وكأنهم تلاميذ يريدون الاستفادة من أساتذتهم، ثم يطرحون عليهم أسئلة شائكة تؤول على معان كثيرة، فإذا ظهر من العالم أدنى عجز عن الجواب، نجد الداعي الإسماعيلي يسخر منه ويتركه، وهنا يسرع إليه الناس يلتمسون منه الجواب الشافي عن الأسئلة التي طرحها، وعندئذ يبدأ باصطياد فريسته من هؤلاء الناس، والذي يجد به ميلا إلى مذهبه. فإذا فرض ووجد المكاسر إماماً خصما عنيدا، أكثر منه علما وتبحرا في مختلف الفنون، وجب على المكاسر في هذه الحالة أن يلج في المسائل الفلسفية العميقة التي لا حد لها، والتي لا يفمها العامة، ويدخل معه في مناقشات باطنية، وبذلك ينجو المكاسر من الظهور بمظهر الضعف أمام العامة، بل ربما عظم شأنه في أعينهم

---

(١) المصدر السابق ص٣٣، ٣٤.

لأنه يتحدث عن أشياء لا يفهمونها، ولا يعرفون كنهها. وفي حالة توصل الداعي المكاسر إلى اقناع أحد المستجيبين، يأخذه إلى أحد الدعاة الذين هم أعلى منه مرتبة، فيلاطفه ويفاتحه في لين ورفق، دون أن يظهر له صفته المذهبية أو شيئا من عقائده، بل يكتفي باطلاعه على بعض المسائل المذهبية، ويلمح له ببعض التأويلات الباطنية التي لا ضير في كشفها، فإذا أصر المستجيب بدأ يكاشفه ببعض الأسرار الخفية التي لا ينفر منها، ويتدرج به حتى يطمئن الداعي المأذون إلى إخلاصه، ويطمئن المستجيب إلى الداعي ويثق به، عندئذ ينقله إلى الداعي الذي هو أرقى منه مرتبة، وهكذا يتدرج المستجيب بين الدعاة حتى يسمح له أخيرا بحضور مجالس داعي دعاة (الجزيرة)[1].

وكان الإسماعيليون يخفون - كما ذكرنا - ما يريدون أن يحملوا الناس على اتباعه، ويتظاهرون أمامهم بأمور أخرى تحبب إليهم المذهب الإسماعيلي، الذي يدعو إلى إمامة إسماعيل بن جعفر، لذلك ابتدع مؤسس طائفتهم (القداح)، طرقا للدعوة إلى مذهبه، قسمها إلى سبع درجات، ثم تطورت في أيام الدولة العبيدية فأصبحت تسعا، وقد أوردها الدكتور حسن إبراهيم حسن نقلا عن مخطوط (للنويري)، وهذا نصها:

«**الدرجة الأولى:** كان عبدالله بن ميمون ودعاته يعلمون الناس كلا على قدر علمه وعقله ودينه ومذهبه، وكانوا يجتذبون الناس بالوعود الكاذبة عن طريق تفسير رموز الدين، وإظهار بعض متشابه القرآن، ومشكلات المسائل الشرعية. فإذا وجد الداعي أن المدعو ملم بما يقوله سلمه له، وإلا تركه يعمل فكره فيما يلقيه عليه من الأسئلة، وقال له: يا هذا إن الدين لمكتوم، وإن الأكثر له منكرون به جاهلون، ولو علمت هذه الأمة ما خصص الله به الأئمة من العلم لم تختلف. وبهذا يثير الداعي حب الاستطلاع عند المدعو والوقوف على ما عنده من العلم، فإذا آنس اطمئنانا إلى كلامه قال له: إن سبب ما نزل بالمسلمين من تفريق الكلمة، ذهابهم عن أئمة نصبوا لهم، وأقيموا حافظين لشرائعهم، يؤدونها على حقيقتها، ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها... ولكـــن النـــاس صاروا إلى أنواع

---

(١) المصدر السابق ٣٠، ٣١، ٣٢.

الضلالات، فإن دين محمد ﷺ ما جاء بالتحلي، ولا بما خفّ على الألسنة وعرفته دهماء العامة، ولكنه صعب مستصعب، وعلم خفي غامض، وهو سر الله المكتوب، وأمره المستور، الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى. ومن الأسئلة التي يوجهها الداعي إلى المدعو في هذه الدرجة: ما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام؟ أعجز عن خلقها في ساعة واحدة؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن؟ وما إبليس وما الشياطين وما وصفوا به، وأين مستقرهم؟ وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم؟ وما سبعة أبواب النار، وما ثمانية أبواب الجنة؟ و ما شجرة الزقوم الثابتة في الجحيم؟ وما معنى (ألم) و (ألمص)؟ وما معنى (كهيعص) و (حمعق)؟ ولم جعلت السموات سبعا، والأرضون سبعا، والمثاني من القرآن سبع آيات؟ ولم فجرت العيون اثنتا عشرة عينا، ولم جعلت الشهور اثنا عشر شهرا؟ ثم يقول الداعي لمن حوله: فكروا أولا في أنفسكم. أين أرواحكم؟ وكيف صورها ؟ وأين مستقرها؟ وما أول أمرها؟ وما معنى قول رسول الله ﷺ: خلقت حواء من ضلع آدم؟ ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من سائر الحيوانات؟ ولم كان في وجهه سبع ثقب، وفي سائر بدنه ثقبان؟ ولم كان في ظهره اثنتا عشر عقدة؟ وفي عنقه سبع عقد؟ ولم جعل عنقه صورة ميم، ويداه حاء، وبطنه ميما، ورجلاه دالا، حتى صار كتاباً مرسوما يترجم عن محمد؟ ولم جعلت قامته إذا انتصبت صورة ألف، وإذا ركع صارت صورة لام، وإذا سجد صارت صورة هاء، فكان كتابه يدل عل الله؟ ولم جعلت عظام الإنسان كذا، وعدد أسنانه كذا، والأعضاء الرئيسية كذا؟ وكان دعاة هذا المذهب إذا شككوا المدعو أو المريد، وطلبوا منه حل هذه الرموز، أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن لا يكشف عن سر هذه الدعوة، وأن يدافع عنها، وأن يتحمل في سبيل الدفاع عنها كل ضروب العذاب والآلام... فإذا علم الداعي أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه، وطلب منه الجواب عنها، قال له حيئنذ: لا تعجل فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ويجعل غرضا للعب. وجرت عادة الله وسننه في عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده، ولذلك قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾[1]. وقال: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾[2]. ومن أمثال هذا، فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده، فأعطنا صفقة يمينك، وعاهدنا بالمؤكد من أيمانك وعقودك أن لا تفشي لنا سرا، ولا تظاهر علينا أحدا، ولا تطلب لنا غيلة، ولا تكتمنا نصحا، ولا توالي لنا عدوا. فإذا أعطى العهد، قال له الداعي: أعطنا جعلا من مالك تجعله مقدمة أمام كشفنا تلك الأمور وتعريفك إياها. والرسم في هذا الجعل بحسب ما يراه الداعي، فإذا امتنع المدعو، أمسك عنه الداعي، وان أجاب وأعطى، نقله إلى الدعوة الثانية.

الدرجة الثانية: وإذا تم للداعي ما أراد، دخل بالطالب في الدرجة الثانية، ومؤداها أن فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر، ثم يكاشف المدعو بقوله: إن الناس قد ضلوا، لأنهم لم يأخذوا عن أئمة نصبهم الله لهم، ويستدل على ذلك بأمور مقررة في كتب الإسماعيلية حتى يثبت ذلك في نفسه، فإذا ثبت نقله الداعي إلى الدجة الثالثة، وبذلك يضعون أساس مبدأ الإمامة في نفس المدعو فيتحول عن دينه أو مذهبه القديم.

الدرجة الثالثة: وفيها يكشف الداعي عن العقيدة، بأن الأئمة سبعة، وأن الإمام الحقيقي هو السابع الذي يعلم كل رموز الدين وسرائره. ويستدل بذلك على أن الله، جعل الكواكب السيارة سبعة، وجعل السماوات سبعا، وجعل الأرضين سبعا، وهؤلاء الأئمة هو أيضا سبعة، أولهم علي، ويليه الحسن، فالحسين، فعلي زين العابدين، فمحمد الباقر، فجعفر الصادق، فإسماعيل بن جعفر، وبعضهم يتخطى إسماعيل ويلحق الإمامة بابنه محمد. وهذا الإمام السابع هو صاحب الزمان، وأن عنده علم الباطن، وعلم التأويل، وأنه

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧.

(٢) سورة النحل آية ٩١، ٩٢.

يعرف الأسرار، وأن دعاته هم الوارثون. فإذا انقاد المدعو لما ألقاه عليه الداعي في هذه الدرجة نقل إلى الدرجة الرابعة.

الدرجة الرابعة: وإذا وصل الطالب إلى هذه المرتبة، اعتقد أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين، وفي ذلك يقول الداعي: حيث أن عدد الأئمة سبعة، كذلك عدد الرسل الذين جاءوا بالشرائع سبعة، ولكل من هؤلاء الرسل صاحب يأخذ عنه دعوته، ويكون ظهيرا له في حياته، وخليفة له بعد وفاته. وهؤلاء الأئمة السبعة الأصحاب أو المساعدون هم الأساس، والصامتون لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم، ولا بد عند إنقضاء هؤلاء السبعة ونفاد دورهم من استفتاح دورتين يظهر فيها نبي ينسخ شرع من مضى من قبله، ويكون الخلفاء من بعده، ثم يكون بعدهم نبي ناسخ، يقوم من بعده سبعة صمت أبدا، وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التي كانت قبله، ويكون صاحب الزمان الأخير. ومعنى ذلك أن النبي الذي يأتي بشريعة هو الناطق، فالناطقون سبعة هم الأنبياء، ولكل ناطق أو نبي سوس وستة أصحاب صمت، مثال ذلك: آدم جاء بتشريع فهو نبي ناطق وصاحبه وسوسه ابنه شيث، الذي يليه ستة أئمة صمت، ونوح ناطق أتى بشريعة نطق بها، وصاحبه وسوسه ابنه سام ويليه ستة صمت...... ومحمد ﷺ نبي ناطق أتى بشريعة هي الإسلام، وصاحبه وسوسه علي بن أبي طالب، وإنما يقصد الداعي من وراء ذلك أن يغير عقيدة المدعو، ويجعله يعتقد أن الوحي مستمر مع توالي الأجيال والأدوار. حتى يصل به الاعتقاد إلى أن محمد بن إسماعيل هو عبدالله بن ميمون القداح، وأنه بمنزلة هارون من موسى، أو بمنزلة علي من محمد ﷺ.

الدرجة الخامسة: وفي هذه المرتبة يقول الداعي للمدعو: إن لكل إمام قائم، حججا متفرقين في الأرض عددهم اثنا عشر رجلا... ثم يقول الداعي للمدعو: إن شريعة محمد ﷺ ستنسخ، وإذا كان فارسيا ذكره بإذلال العرب له، وحثه على التخلص منهم، وإن كان عربيا أثار حفيظته على الفرس.

الدرجة السادسة: وفيها يفسر الداعي معاني شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وحج وطهارة وغير ذلك، ويقول: إن هذه الفروض وضعت لتشغل العامة عن خلافاتهم وتبعدهم عن الفساد، وإذا اعتقد المدعو بصحة هذا القول، ضعف اعتقاده في الدين وأركانه، بعدها ينتقل الداعي إلى الكلام في الفلسفة، فيقول إن فلاسفة اليونان يعتمدون على العقل في شرح كل المسائل، وعلى كل إنسان أن يحكم العقل في كل شيء، وبذلك يحبب إلى نفسه أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم من الفلاسفة، الذين يعتمدون على تحكيم العقل. وإذا أخذ المدعو بهذه الآراء أصبح أهلا للنقل إلى الدرجة السابعة، ولم يتعد هذه المرتبة إلا قليل.

الدرجة السابعة: وفيها يعلم أن الناصب للشريعة، وهو النبي، لا يستغني بنفسه، ولا بد له من صاحب يكون أحدهما الأصل، ويكون الأخر صدرا له.

الدرجة الثامنة: وفيها يقول الداعي للمدعو: إن التالي (النفس الكلية) يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق (أي العقل الكلي)، وإن الصامت في الأرض يدأب في أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء... فإذا اعتقد المدعو بذلك، قال له الداعي: إن معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير أشياء تنظم بها سياسة الجمهور، فينظم بذلك النبي شريعة يتبعها الناس، ثم يقرر الداعي أن القيامة والقرآن والثواب و العقاب معناها غير ما يفهمه العامة وما يتبادر إلى الذهن، وليس هو إلا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب... وعلى ذلك فليست معجزة النبي سوى أشياء تنظم بها سياسة الجمهور، وإنما يقصد الداعي بذلك إزالة كل اعتبار عن كل ما يسمى نُبوّه ولم يعد للإسلام أي تأثير على نفسه.

الدرجة التاسعة: وإذا انتقل المدعو إلى الدرجة التاسعة، أصبح جديرا بالتعمق في أصول المذهب الإسماعيلي، عند ذلك يحيله الداعي إلى كتب الفلاسفة وما جاء فيها عن

الطبيعة وما وراء الطبيعة، وعن العلم الإلهي، واعتقاد أن الوحي هو صفاء النفس، وأن النبي يجد في فهم ما يلقى إليه ويتنزل عليه فيظهره للناس، ويعبر عنه بكلام الله...»[1].

وهكذا نرى أن دعاة الإسماعيلية، الذين خرجهم القداح وخلفاؤه، كانوا في غاية المكر والمراوغة، يراعون في أقوالهم درجة سامعيهم العقلية، وعلاقتهم بالدين عامة، وبالإسلام خاصة، وينظرون إلى قومياتهم وميولهم السياسية، فكانوا يخاطبون كلا منهم بلسانه، وبما يوافق ميوله وعواطفه ودرجة نموه العقلي، فربما كانوا يخاطبون الفارسي بغير ما كانوا يخاطبون به العربي، ويكاشفون الفلاسفة، بغاير ما كانوا يكاشفون به غيرهم. «ولذلك فإننا نرى أن الإسماعيلية لم تنبذ في الظاهر الشرائع المنزلة عامة والقرآن خاصة، وذلك لأنهم كانوا يرون فيها فائدة لطبقات الشعب الدنيا، وطبقات العميان والحمير - كما كانت الإسماعيلية تسميهم - أما الطبقات العالية التي (فتح الله بصائرهم وأبصارها) فأدركت الحقيقة، فهي في نظر الإسماعيلية، وحسب اعتقادهم في غنى عن هذه الشرائع وشعائرها»[2].

وإذا لاحظنا طريقة دعوتهم، فإن مريدي الاندماج في الطائفة الإسماعيلية تزاح عنهم هذه الحجب والأقنعة - كما يزعمون - بالقدر الذي يناسب استعدادتهم، ويتدرجون في هذا المضار حتى تهيأ لهم القدرة على مواجهة هذه الحقائق.

وقد عمل الإسماعيليون بعد قيام دولتهم (العبيدية) في المغرب، على نشر المذهب الإسماعيلي وخاصة مبدأ تقديس الأئمة بواسطة دعاتهم، ولكنهم فشلوا في ذلك، وعندما رأى عبيد الله المهدي ذلك، عمل على إقامة مدارس أسماها مدارس الدعوة، لبث عقائد مذهبه بين أتباعه سرا، بمعنى أنه أراد أن تكون مدارس الدعوة أداة اتصال بينه وبين أتباعه، فينفذ بذلك سياسة مزدوجة، فيظهر أمام رعاياه علويا صريحا ويأخذ بنصرة

---

(١) نهاية الأرب للنويري جـ ٢٣ (مخطوط) - نقلا عن كتاب تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٣٨ - ٣٤٤.

(٢) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / بندلي جوزى ص١٠٥.

العلويين ويبطن المذهب الإسماعيلي ومبادئه. وفي الوقت نفسه يشجع هذا المبدأ سرا عن طريق هذه المدارس وغيرها من وسائل الاتصال بينه وبين أتباعه[١].

ومما استحدث أيضا في الدولة العبيدية بالنسبة إلى الدعاة، أنها جعلها هيئة شبيهة بالكهنوت - كما هو عند النصارى - تعترف بها رسمياً وتعطيهم أرزاقاً، وهو لم يحدث قط في الإسلام، فأصبحوا أشبه بالقسيسين[٢].

ولما حدث الإنقسام في الإسماعيلية، وانتقلت النزارية إلى قلعة آلموت، أجرى ابن الصباح بعض التعديلات الجذرية على نظام مراتب الدعوة عند الإسماعيليين، لتتناسب مع الأنظمة التي ابتدعها، وأهم هذه التعديلات كانت كما يلي:

المرتبة الأولى: مرتبة شيخ الجبل، وهو نائب الإمام، ورئيس الدعوة الجديدة، فكان ابن الصباح يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة، ومولانا، وشيخ الجبل.

المرتبة الثانية: أو مرتبة كبار الدعاة، ولا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن بن الصباح بهم ثقة تامة، لأنهم قسم العالم أقساماً ثلاثة، وجعل على رأس كل قسم واحدا من هؤلاء الدعاة الثلاثة.

المرتبة الثالثة: وهي مرتبة الدعاة، وهم أكثر عددا من أفراد المرتبة الثانية، وقد اشترط ابن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك، ماهراً في التلبيس، ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم.

المرتبة الرابعة: أو مرتبة الرفاق، وهم طبقة تفقهت في أصول المذهب، يتولون تثقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم.

المرتبة الخامسة: الفداوية، وهم الذين يُستخدمون في قتل الأعداء غدرا، ويضحون بأنفسهم فداء لرئيسهم، ولا يشترط في الفداوى أن يتعمق في دراسة أسرار المذهب، انما

---

(١) انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٢٩ - ٣٣٠.
(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم متز جـ٢ص٧٨.

يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود، فأصبحوا آلات انتقام فتاكة، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفزع.

المرتبة السادسة: اللاصقون، وهم ينتسبون إلى الدعوة، ويأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة.

المرتبة السابعة: المستجيبون، هم المؤمنون المبتدئون، لا يعرفون الكثير عن المذهب، إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس، وبث الذعر في نفوسهم[1].

ومما يذكر أن ابن الصباح قد ابتدع حيلاً ووسائل أخرى غير التي عمل بها ابن القداح، يتدرج بها الداعي مع المستجيب، فكان الدعاة يتوسلون بوسائل وحيل كثيرة لاصطياد المستجيب، وقد فصلها الغزالي، ونوجزها فيما يلي:

١ – التفرس: ويقصد به معرفة وإدراك نفسية المستجيب، حتى تظهر بذلك قوة إرادة الفرد، ومبلغ سهولة انقياده إلى مذهبهم.

٢ – التأنيس: وهو زرع الطمأنينة في نفوس المستيجبين، مع إشباع ميولهم، وإعطائهم كل ما يميلون إليه، كل حسب نزواته.

٣ – التشكيك: وهو التشكيك في عقائد المستجيب، مما يزعزع الأصول التي آمن بها، وهذه الخطوة من أخطر المراحل، فعن طريقها يصل الداعي إلى قلب المريد.

٤ – التعليق: وهو ترك المستجيب بعد تشكيكه متأرجحاً بين عقيدته التي كان يؤمن بها وبين معرفة حقيقة المذهب الإسماعيلي، وبذلك تظهر حقيقة نفسيته وتعرف شخصيته.

٥ – الربط: وهو أن يربط لسانه بأيمان مغلظة وعهود مؤكدة، أن لا يفشي أو يبوح بما يذكره له الداعي.

٦ – التدليس: وهو أن يلجأ الداعي إلى التمويه، فلا يعطيه الأسرار دفعة واحدة، مما يزيد في تلهف المستجيب وتشويقه ورغبته في دخول الدعوة.

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٦٨ – ٣٦٩.

٧- التلبيس: وهو جعل المعلومات والأسرار التي لقنها الداعي للمستجيب حقائق ثابتة في نفسه ومستقرة في ذهنه، يؤمن بها ويقبل عليها.

٨- الخلع والسلخ: ويقصد به خلع المستجيب عن عقائد دينه وأركانه، وسلخه منها نهائياً، بإسقاط الفرائض والحدود الشرعية عنه، لأن معناها الباطني غير معناها الظاهري، وهذا يسمونه البلاغ الأكبر[١].

وبسبب السرية والقول بالباطن، التي يؤمنون بها، جعلوا للمستجيب عهدا يقوله عند دخوله الدعوة، فيه الإيمان المغلظة، على كتمان السر، وعهود مؤكدة على عدم البوح به، ولا يجسر المخالفة لها بحال، ويكون هذا العهد أمام جماعة منهم وله مراسم وطقوس معينة كما هو الحال في جميع الحركات الباطنية، وفيما يلي نص العهد الذي يؤخذ:

«أقسم بالله، الذي لا إله إلا هو الحي، الجبار القهار، عالم الغيب والشهادة، والنقص والزيادة، القائم على كل نفس بما كسبت، القوي الشديد الآخذ لها بما ظهرت وأضمرت، العليم بما في الضمائر، الخبير بمكنون السرائر، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، ولا تفوته غوامض الأشياء، الذي من أقسم به كاذباً، واستشهده باطناً، استحق الخزي والخذلان، وحل في مقام السخط والهوان. وأقسم به ثانياً وثالثاً ورابعاً، كما أقسمت به أولا، وأقسم بجميع أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأشهد ملائكته المقربين، وأرواح أنبيائه المرسلين، ونفوس الصادقين والصالحين من عباده العارفين. أنني طالب راغب في المذهب الإسماعيلي من خالص اعتقادي، وصميم فؤادي، اعتقاداً لا يشوب باطنه الدنس ولا الشك ولا الريب ولا الشبهة في الإيمان، وليس لي قصد في هذه الرغبة إلا تحقيق أمر الدين، وطلب معرفة حقيقة اليقين، وتصحيح الاعتقاد، والدخول مع الفرقة الناجية من الطغيان والفساد، ومعرفة مولانا صاحب الوقت، وإمام الزمان. وأني إذا فهمت أمراً، وعرفت سراً، أكتمه وأخفيه عمن لا يعتقد بمعتقدي، ولا أظهره لأحد من الخلائق لا بقول ولا بنية ولا بإشارة ولا عبارة، ولا تكتبه يداي، ولا ينطق به لساني، وإن أضمرت خلاف ما أنطق به، أو كنيت أو

---

(١) باختصار عن فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص٢١ - ٣٢.

تخليت أو تفكرت أو توهمت، أكون كافرا بالله وبرسله وأوليائه وملائكته وكتبه، وأكون محاربا لهم، ومنكراً أمرهم، ومخالفاً قولهم، وذابحهم وشارب دمائهم، وبريئاً منهم في الدنيا والأخرة، وخارجاً من دين الإسلام والمروؤة والإيمان، والله على ما أقول شهيد»[(١)].

والمطلع على أساليب الماسونية في العصر الحاضر، وطرق الدخول فيها، والتكريس الذي تمارسه على الداخل في محافلها، يستطيع أن يقارن بن أساليب الباطنية عموما وبالأخص الإسماعيلية، وأساليب التكريس الماسوني، بحيث لا نبتعد عن الحقيقة، إذا قلنا إن هناك خيطاً رفيعاً يجمع بين الباطنية والماسونية، يمكن أن نرده إلى اليهودية العالمية، التي استطاعت أن توجد الباطنية وفرقها في القديم، والماسونية العالمية ومؤسساتها في العصر الحديث.

٦- التأويلات الباطنية لأركان الإسلام وغيرها:

التأويل الباطني عند الإسماعيليين دعامة رئيسية، تضاف إلى الدعامة الأخرى، وهو عقيدتهم في وجوب الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر.

وقد ذهب الاسماعليون إلى أن لكل شيء (ظاهر محسوس) تأويلا باطنياً لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة، وهؤلاء الأئمة يودعون هذا العلم الباطني لكبار الدعاة بقدر معين، ذلك أن التأويل بالباطن قد خص الله به علياً، فكما أن الرسول ﷺ خص بالتنزيل، فكذلك علي بن أبي طالب قد خص بالتأويل.

وتزعم الإسماعيلية أن هذا التأويل قد تسلسل في الأئمة من عقب علي، وهم الذين أشار الله تعالى إليهم ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[(٢)]، وهم وحدهم الذين لهم حق تأويل القرآن، بما عندهم من العلوم الباطنية، وزعموا أن النبي ﷺ قال: (أنا صاحب التنزيل، وعلي صاحب التأويل)[(٣)]».

---

(١) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - الرسالة الثالثة (الدستور ودعوة المؤمنين) للطيبي ص٥٤.

(٢) سورة آل عمران آية ٧.

(٣) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص١٠٢.

وتزعم الإسماعيلية كذلك: «أن أسرار الدين متوقفة على تعليم الأئمة من نسل فاطمة، وهم الكواكب والنجوم والمصابيح، ترسل نور المعرفة إلى قلوب أتباعهم، كما أن العين المبصرة بدون القمر والشمس والمصباح لا تحقق الفائدة المرجوة[1].

فالأئمة إذن هم أصحاب التأويل، ورووا عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا»، واتخذوا هذا الأثر للجمع بين القرآن وأصحاب تأويله (أي الأئمة)، وأردفوا ذلك بحديث نسبوه إلى النبي ﷺ: «تعلموا من عالم أهل بيتي، أو ممن تعلم من عالم أهل بيتي تنجوا من النار»، وقوله لعلي: «سوف تقاتل على تأويله، كما قاتلت على تنزيله»، فزعموا أن هذا كله يدل على أن الوصي هو ومن تبعه من الأئمة من ذريته، هم الذين اختصوا بتأويل القرآن الكريم، لذلك زعموا أن علياً قال (ما نزلت آية من القرآن إلا علمت كيف نزلت، وأين نزلت، وفي أي شيء نزلت، سلوني قبل أن تفقدوني عما كان، وعما يكون إلى يوم القيامة)، ثم قال: (إن هاهنا لعلما جما) وأشار إلى صدره[2].

كذلك تزعم الإسماعيلية أن لديهم كتاباً توارثوه عن علي هو (الجفر)، الذي ينسب إلى جعفر الصادق. وتعتقد الإسماعيلية أن علي بن أبي طالب هو الذي وضع أصوله، ليستبقي علم التأويل بالباطن في سلالته، ويتناول كما يزعمون العلوم الغيبية والباطنية التي أورثها علي لذريته. ويظهر أن هذا الزعم هو الذي أوحى لجعفر بن منصور اليمن بتأليف كتاب (الجفر الأسود)، الذي يعتبر امتدادا للكتاب الأول[3].

وبما أن الإسماعيليين يزعمون بأن لكل ظاهر باطناً، لذا فقد أوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن، وكفروا من يعتقد بالظاهر دون الباطن «فمن عمل بالباطن والظاهر فهو منا،

---

(١) الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية / محمد حسن الأعظمي ص٢٤.

(٢) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص١٠١، ١٠٢.

(٣) انظر كتاب الدكتور حسن إبراهيم حسن / تاريخ الدولة الفاطمية، الذي تحدث عن هذا الكتاب ص٤٨٥.

ومن عمل بالظاهر دون الباطن، فالكلب خير منه وليس منا»، ويزعمون أن جعفراً الصادق سئل عن الحاجة إلى اتخاذ الباطن في الحجب لما العدول بها عن طريق الإيضاح والإظهار، فأجاب: هي الحاجة إلى اتخاذ الحب في أغطية السنابل، والثمار في الأغشية[1].

واستخلاص الباطن من الظاهر، هو في الواقع (نظرية المثل والممثول التي سبق ذكرها)، أي تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها وبما يماثلها من الأمور الجثمانية المحسوسة، فنظرية المثل والممثول هذه هي قوام عقيدة الإسماعيليين في التأويل، وقد ذكرنا من قبل أن بعض ما اعتقده الإسماعيليون في صفات الإمام، إنما هي بعد تطبيق هذه النظرية.

وعلى وجه العموم، فإن نظرية التأويل بالباطن التي تزعمها الإسماعيلية، تقوم على أن الله تعالى جعل كل معاني الدين في المخلوقات التي تحيط بالإنسان، فيجب إذن أن يستدل بما في الطبيعة، وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين، وجعلوا المخلوقات قسمين: قسما ظاهرا للعيان، وقسما باطنا خفيا، فالظاهر يدل على الباطن، وزعموا أن للقرآن معن سوى ما تتداوله ألسن العامة، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا لا يعلمه إلا الأئمة وكبار دعاتهم[2].

وبالرغم من أنهم قالوا إن التأويل من عند الله، وأنه خص به علي بن أبي طالب والأئمة من نسله، نراهم مرة أخرى يزعمون أن التأويل من خصائص حجة الإمام، أو داعي دعاته، ومن ثم اختلف التأويل بالباطن عندهم باختلاف شخصية الداعي الذي إليه التأويل، وباختلاف موطن الداعي وزمن وجوده[3].

ويبدو أن كل شيء عند الإسماعيليين يمكن أن يخضع لـ (قانون) التأويل، فهو يتناول معظم آيات القرآن الكريم والأحاديث والشرائع والفرائض الدينية، ولا بد لنا من إثبات بعض نماذج من التأويلات، لتظهر كيفية تجيير الإسماعيليين للنصوص في خدمة أهدافهم:

---

(١) ديوان المؤيد في داعي الدعاة / تحقيق محمد كامل حسين ص١٠٥، ١٠٦

(٢) الثائر الحميري الحسن بن الصباح، مصطفى غالب ص١٠٣.

(٣) طائفة الإسماعيلية / محمد كامل حسين ص١٦٣.

فقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾[1]، فزعم الإسماعيليون أن (آيات الله) المذكورة في الآية هم الأئمة، لأنهم الأعلام الدالة على الله. وكذلك نراهم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾[2]، وقد أول المؤيد الأمانة على أنها الولاية، والسموات والأرض والجبال بالحدود الحية الناطقة، فالنطقاء هم (السماء)، والأسس والأئمة هم (الأرض)، والحجج هم (الجبال). أما قوله تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾، فقد زعم المؤيد في تأويلها: أن الإنسان هو الضد الذي تقمص قميص خلافة النبوة بغير سلطان من الله تعالى ولا نص من رسوله»[3].

أما التأويل للفرائض والتشريعات، فقد أولوها لتتناسب مع مراميهم، «فأولوا الحلال بأنه الواجب إظهاره وإعلانه، والحرام الواجب ستره وكتمانه، وأما الصلاة فهي صلة الداعي إلى دار السلام بصلة الأبوة في الأديان إلى الإمام، والزكاة إيصال الحكمة إلى المستحق، والصوم الإمساك عن كشف الحقائق لغير أهلها، والحج القصد إلى صحبة الأئمة، والإحرام الخروج من مذهب الأضداد، وأما الزنا فهو اتصال المستجيب من غير شاهد، والربا الرغبة في الإكثار وطلب الحطام وإفشاء الأسرار، والمسكر الحرام ما يصرف العقل عن التوجه إلى طلب معرفة الإمام»[4].

وهكذا ينتهي بهم التأويل إلى طرح كل أركان الدين وإباحة محرماته، وهو الغاية القصوى التي تسعى إليها الباطنية.

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٦.

(٢) سورة الأحزاب آية ٧٢.

(٣) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة/ تحقيق محمد كامل حسين ص٨٥، ١٢٢.

(٤) أربع رسائل إسماعيلية / عارف تامر - الرسالة الثالثة (الدستور ودعوة المؤمنين) للطيبي ص٧٠، ٧١.

فالغرض النهائي عند الإسماعيليين من التأويل، يقوم على ترجمة القرآن إلى لغة عقيدتهم، وكأن العقيدة الإسماعيلية هي في البدء مصاغة بمنأى عن القرآن السنة.

وهم في استشهادهم بالقرآن والحديث والفرائض الإسلامية وتأويلها بالعلم الباطني، يحققون أربعة أمور:

«١ – عدم رفض القرآن ككتاب ديني مقدس.

٢ – التخلي عن أحكامه وملزماته وفروضها من خلال تأويلها.

٣– وفي نفس الوقت دعم حركتهم وعقائدهم وتعزيزها بأسانيد قرآنية.

٤– وفي نفيهم - أو تجاوزهم - المعاني الظاهرية للقرآن، يبرز الفراغ الفكري الذي كانت تملأه تلك المعاني. ومن هنا يفتح المجال لنزعاتهم وتطلعاتهم كي تتحرك وتؤثر بحرية بعيدة المدى»[١].

إن العقائد الباطنية بمنهجها التأويلي، تمثل تجاوزاً خطيرا لكل العقائد والمفاهيم التي جاء الإسلام من أجلها، بل إنها في سعيها لنسف الظاهر وكشف الباطن، تحاول أن تنسف الإسلام كدين، وأن ترسي بدلا منه المفاهيم الإلحادية الباطنية المشتملة على الإباحية المطلقة. ورحم الله الغزالي عندما قال: «إن هذه الدعوة لم يفتتحها منتسب إلى ملة، ولا معتقد لنحلة، معتضد بنبوة، فإن مساقها ينقاد إلى الانسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين»[٢].

---

(١) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ص١٦٠.

(٢) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص١٨.

الفصل الثالث

القرامطة

نبذة عن القرامطة، نشأتهم وعلاقتهم بالإسماعيلية

القرامطة، فرع من فروع الإسماعيلية، ينتسبون إلى شخص يقال له (حمدان بن الأشعث)، لقب بقرمط، لقصر كان فيه، إذ كان قصير القامة، ورجلاه قصيرتان بشكل يلفت الانتباه، فكان خطوه قصيرا. «الأمر الذي جعله ناقما على المجتمع يبدي التأفف والتضجر، ويحقد على الناس جميعا، ويظهر التذمر من كل المجتمعات التي تحيط به، أو التي ينتقل إليها، ويضمر البغض على كل وضع»[(١)].

ومن استعراض تاريخ الحركة القرمطية، يمكن أن نلاحظ بأن البذرة الأولى لهذه الحركة، قد سبقت تحركهم العسكري سنة ٢٧٨هـ، فمما يرويه ابن سنان: إن ابتداء أمرهم كان على يد داعية للإسماعيلية (يقصد القرمطي)، قدم من بلدة خوزستان[(٢)] إلى الكوفة، فنزل بموضع يقال له النهرين، وتظاهر بالزهد والورع والتقشف، وأقام على ذلك زمنا كبيرا، وكان إذا جاءه شخص وجلس معه، تحدث معه في أمر الدين وزهده في الدنيا، وأخبره أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت، فأقام على الدعاية حتى اجتمع حوله جمع كبير... ثم دعا أهل القرية إلى اعتناق مذهبه فأجابوه، وكان يأخذ من كل رجل دينارا ويزعم أنه للإمام، واتخذ منهم اثنى عشر نقيبا، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى نحلته، وقال لهم: أنتم كحواريي عيسى، فاشتغل أهل كور تلك الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات. وكان للهيصم (أمير تلك الناحية) ضياع، فرأى تقصير أهل القرية في عمارتها، فسأل عن ذلك، فأخبر بخبر القرمطي، فأخذه وحبسه وحلف أن يقتله لما اطلع

---

(١) القرامطة / محمود شاكر ص٥.

(٢) خوزستان: بلاد الخوز، وهي الأهواز، وهي بين فارس والبصرة.

على مذهبه، وأغلق باب البيت عليه، وجعل مفتاح البيت تحت وسادته، فسمع بعض من في الدار من الجواري بقصته، فرقت للرجل إحداهن فأخذت المفتاح - حين نام سيدها-، وفتحت الباب وأخرجته ووضعت المفتاح مكانه.

فلما أصبح الهيصم، فتح الباب ليقتله فلم يجده، وشاع ذلك في الناس فافتتن به خلق كثير في تلك القرية، وقالوا: رفع، ثم ظهر في ناحية أخرى واجتمع بأصحاب وغيرهم، وسألوهم عن أمره فأخبر أنه لا يمكن أحدا أن يصل إليه بسوء، فعظم من ذاك الوقت في أعينهم»[1].

ومن بين الأسباب التي يسرت نمو حركة القرامطة في ذلك الوقت، ثورة الزنج، التي نكبت بها بلاد البصرة لمدة خمس عشرة سنة، فنتيجة للفوضى السائدة في جنوبي العراق، تمكنت الإسماعيلية من تنظيم المستجيبين في الأمكنة التي كانت مسرحا لذلك، حتى إن قرمط حاول أن يتحالف مع أمير الزنج ضد العباسيين، ولكنه لما رأى اختلاف الآراء معه تركه، وهذا ما رواه سلف زكرويه (خليفة حمدان) الذي قال: قال لي قرمط: صرت إلى صاحب الزنج، ووصلت اليه، وقلت له: إني على مذهب، وورائي مائة ألف سيف، فناظرني، فإن اتفقنا على المذهب ملت بمن معي إليك، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك، وقلت له: تعطيني الأمان، ففعل. قال: فناظرته إلى الظهر، فتبين لي في أخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري، وقام إلى الصلاة، فانسللت، فمضيت خارجا من مدينته، وصرت إلى سواد الكوفة»[2].

ورغم نمو خطر القرامطة في تلك الناحية، إلا أن الدولة العباسية لم تقم باتخاذ تدابير جدية ضدهم، حتى إن (أحمد بن محمد الطائي) والي الكوفة في سنة (٢٦٩هـ) فرض جزية قدرها دينار واحد على كل منتم إلى هذه الفرقة، إلا أن بعض أهل الكوفة قدموا إلى بغداد، ليحذروا الخليفة من قوم أحدثوا دينا غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ،

---

(١) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص٧ - ١٠

(٢) تاريخ الطبري جـ١٠ص٢٧.

وأن الطائي يخفي أمرهم، فما كان من الطائي إلا أن أجهض مهمتهم، وعاملهم بطريقة جعلت أكثرهم لا يجرؤ على العودة إلى بلاده خشية أن يضطهد[1].

ويبدو أن قيام قرمط بثورته سنة ٢٧٨هـ- كما يفهم من كاتب إسماعيلي معاصر - لم تكن تحظى بموافقة مركز الإمامة في السلمية، وهي التي كانت توصي بالتريث والانتظار لتكريس جهد أوسع وإمكانيات أعظم، لهذا لم تبارك تلك الخطوة، ولكنها - على حد تعبير الكاتب - سكتت على مضض، خوفا من حدوث انشقاق وارتداد في صفوف أتباعها[2].

إلا أن هذا الزعم لا يستند إلى أية حقيقة تاريخية، فالمؤرخون مجمعون على أن حركة القرامطة، خطوة من خطوات الإسماعيلية، التي كانت تتحرك وفق مخطط مدروس يتكون من ثلاث شعب يستهدف إحداث الفوضى الاجتماعية، الأول: كان بالكوفة، وقام به الحسين الأهوازي بالمشاركة مع حمدان بن الأشعث القرمطي، والثاني: باليمن، وقام به أبو حوشب وعلي بن الفضل، والثالث: كان بالمغرب، وقام به أبو عبدالله الشيعي، الذي مهد لقيام الدولة العبيدية هناك.

من هنا نستطيع أن نقول: إن القرامطة قامت بفتنتها بإيعاز من القداحين الموجودين في سلمية.

وثمة أمر آخر في موضوع القرامطة، وهو حقيقة صلتهم بالإسماعيليين، لأن هناك من المؤرخين المعاصرين من يشكك في صحة هذه العلاقة، ولكن من يطلع على أهداف الإسماعيلية ووسائلها في كل حركة من حركاتها يستطيع أن يجزم أن وراء هذه الحركات جميعها يدا خبيثة واحدة تسيرها في اتجاه واحد.

ولو رجعنا إلى عبيد الله المهدي، عندما أقام دولته العبيدية في المغرب، ونظرنا إلى محاولات دعاته نشر الإباحية، والتحلل من قواعد الشرع بين صفوف أهل المغرب، لما استغربنا قيام القرامطة بذلك في قتلهم للناس، واستباحتهم للمحرمات، ونشرهم

---

(١) انظر تاريخ الطبري جـ١٠ ص٢٥.

(٢) القرامطة / عارف تامر ص١٢٠.

للإباحية. ويحدثنا التاريخ عن أساليب دعاة عبيد الله، «فيذكر أن أحدهم واسمه (إبراهيم بن غازي)، كان ينتهك حرمة رمضان جهارا، ويرتكب الكبائر، ويخاطب المهدي بقوله: أنت، أنت. وكان آخر وهو (أحمد البلوي)، يتجه في صلاته إلى رقادة (مكان عبيد الله)، بدلا من الكعبة، فلما استقر المهدي في عاصمته (المهدية)، حول وجهته إلى هناك، ونقل عنه قوله: لست ممن يعبد من لا يرى، وقيل إنه كان يتصدى لعبيد الله، في الطريق، ويخاطبه بقوله: أرقَّ إلى السماء!؟ كم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق؟! فافتتن الناس، وتحللوا من الفرائض، وأباح الغوغاء وهواة اللذة لأنفسهم انتهاك المحركات، والأعراض»[(١)].

واذا تتبعنا آراء دعاة الإسماعيلية، لوجدناها متطابقة أيضا في الأندلس، فقد قام أحد دعاتهم الملقب بـ (أبي الخير)، «بالدعوة إلى الانحلال الخلقي، وترك الفرائض، وإنكار الحساب والعقاب، واعتبار الملائكة بنات الله، والمساجد دورا للبقر، ثم سخريته ممن يصلون أو يحجون لأنهم: يتعبون أبدانهم، ويقصدون حجارة صماء. ونقل عنه أيضا أنه تمنى أن يقلع الحجر الأسود من مكانه، مثلما فعل القرامطة»[(٢)] «وكان يقول في الخمر: إنه أجل من الماء للشراب والطهور، وأن محمدا - ﷺ - ظلم في تحريمها، وأحل أشياء كانت الخمر خيرا منها»[(٣)].

هذا في المغرب والأندلس، أما في اليمن، فيحدثنا (محمد بن مالك الحمادي) «أحد الذين دخلوا في مذهب الباطنية، لا رغبة منه في ذلك، ولكن ليقف على حقيقة ما ينسب إليه، ومما قاله: ومعنى الصلاة والزكاة عندهم: محمد وعلي، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة، وآتى الزكاة... فإذا قبل منهم ذلك المخدوع، قالوا له: قرب قربانك يكون لك سلما ونجوى، ونسأل مولانا أن يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذه الآصار، فيدفع اثنى عشر دينارا فيقول الخداع (أي الداعي): يا مولانا إن عبدك فلان قد عرف الصلاة ومعانيها،

---

(١) دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية / د. موسى لقبال ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) المصدر السابق ص٣٨٤.

(٣) المصدر نفسه ص٤٢٦ – الهامش.

فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذه نجواه اثنا عشر دينارا، فيقول: اشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة... ثم يقول له الداعي: الآن قد عرفت الصلاة، وأنا أرجو أن يبلغك الله أعلى الدرجات، فاسأل وابحث، فيقول المخدوع: عم أسأل؟ فيقال له: سل عن الخمر والميسر فاعرف معناهما، فيقول المخدوع: عم أسأل؟ فيقال له: سل عن الخمر والميسر فاعرف معناهما، فإن الدين لا ينال إلا بالعلم، فإن الخمر والميسر اللذين نهى الله عن قربهما هما أبو بكر وعمر، لمخالفتهما عليا، وأخذهما الخلافة دونه، وأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك، فليس بحرام، لأنه مما تنبت الأرض... وهكذا حتى يعرف أربعة أمور، ثم يقول له الداعي: هل تحب أن تدخل الجنة؟ فيقول: وكيف لي بذلك؟ فيتلو عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ ﴾[1]، فالزينة ها هنا ما خفي على الناس من سرائر النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك... ثم يقول له: ادفع اثنى عشر دينارا تكون لك قربانا، فيمضي به ويقول: يا مولانا هذا عبدك فلان قد صحت سيرته وصفت سريرته، وأصبح جديرا أن تبلغه حد الأحكام، وتدخله الجنة، وتزوجه الحور العين، فإني قد وثقت به وأمنته... فيقول: ... فإذا صح عندك، فاذهب به إلى زوجتك، فيقول: سمعا وطاعة لله ولمولانا، فيمضي به إلى بيته، فيبيت مع زوجته، فإن كان الصباح قرع عليهما الباب، وقال: قوما قبل أن يعلم بنا هذا الخلق المنكوس، فيشكره ذلك المخدوع، فيقول له: ليس هذا من فضلي، بل من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة فلا يبقى منهم أحد إلا وبات مع زوجة المخدوع، كما فعل هو. ثم يقول له الداعي: لا بد أن تشهد المشهد الأعظم عند مولانا فادفع قربانك، وبعد أن يدفع اثنى عشر دينارا، يمضي به إلى سيده ويقول: يا مولانا هذا عبدك فلان يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جنّ الليل ودارت الكؤوس...أحضر أهل هذه الدعوة الملعونة حرمهم فيدخلن عليهم وقد أطفئوا السرج والشماع، فيأخذ كل واحد

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢.

منهم ما يقع في يده... ثم يقول الداعي بعد ذلك: هذا من فضل مولانا فاشكروه، ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم ووضع عنكم من أوزاركم وحط عنكم من آصاركم، ووضع عنكم من أثقالكم، وأحل لكم بعض الذي حرم على جهالكم»[1].

وعندما نذكر بعد قليل طرق وأساليب القرامطة في خداعهم للناس وإشاعتهم للإباحية، نستطيع أن نجزم أن جميع هؤلاء يتلقون عقائدهم من معلم واحد يسير بهم نحو أهدافه المريبة الحاقدة، وأن القرامطة جزء أكيد من أجزاء الإسماعيلية الكثيرة.

ولكن القمي والنوبختي يأتيان برواية تظهر أن القرامطة فرع من فروع المباركية التي انفصلت عن الخطابية، ثم اختلفت مع المباركية في أمور أهمها: أنه لا يكون بعد محمد (النبي ﷺ) إلا سبعة أئمة (علي بن أبي طالب، وهو إمام ورسول، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر، وهو الإمام القائم المهدي، وهو رسول)، وزعموا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب للناس بغدير خُم، فصارت الرسالة في ذلك اليوم في علي بن أبي طالب... فزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت، وأنه في بلاد الروم، وأنه القائم المهدى، ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة، وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ، وأن محمد بن إسماعيل من أولي العزم من الرسل... وأن الله تبارك وتعالى جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم، ومعناها عندهم الإباحة للمحارم وجميع ما خلق في الدنيا...)[2]. ومع وجود هذه الرواية، إلا أنني أعتقد أنها في مضمونها تؤكد بأن القرامطة فرع من فروع الإسماعيلية، فالمباركية التي يذكرها النوبختي والقمي، هي نفس الفرقة، التي سبق ذكرها - وانفصلت عن الشيعة بعد وفاة جعفر الصادق، ونادت بإمامة محمد بن إسماعيل، وهي أيضا الفرقة التي دخلها أصحاب أبي الخطاب بعد هلاكه. ولو نظرنا الي

---

(١) تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن / أحمد حسين شرف الدين ص٧٦ - ٧٩ (نقلا عن مخطوطة للحمادي نفسه بعنوان (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة).

(٢) كتاب المقالات والفرق / للقمي ص٨٣ - ٨٦ - وفرق الشيعة / للنوبختي ص٦٢ - ٦٤.

العقائد التي تحدث عنها القمي والنوبختي، والتي تؤمن بها القرامطة، لوجدناها مطابقة تماما لعقائد الإسماعيلية.

ولئن عدنا إلى تنظيم الأمور الذي اتبعه حمدان القرمطى قبل فتنته، لوجدناه قد سنّ نظاما ماليا على أتباعه، «ففرض على كل من الرجال والنساء درهما سماه (الفطرة)، ثم فرض (الهجرة) وهي دينار على كل شخص بالغ، ثم فرض عليهم (البلغة) وهي سبعة دنانير... وقال: هذا بلاغ من يريد الإيمان والدخول في السابقين، فكان من أدى سبعة دنانير عن البلغة أطعمه شيئا حلوا لذيذا في قدر البندقة، وقال له: هذا طعام أهل الجنة نزل إلى الإمام، وصار يبعث إلى كل داع منها مائة بلغة ويطالبه بسبعمائة دينار عن كل واحدة سبعة دنانير. ثم فرض عليهم الخمس من كل ما يملكونه وما يكتسبونه... فبادروا إلى ذلك وقوّموا سائر ما يملكونه من ثوب وغيره، وأدوا منه الخمس.. ثم فرض عليهم الألفة، وهي أنهم يجمعون أموالهم في موضع واحد، وأن يكونوا فيه كلهم أسوة واحدة، لا يفضل أحد من أصحابه على صاحبه ولا أخيه في ملك يملكه بشيء البتة... وقال لهم: لا حاجة بكم إلى الأموال، فإن الأرض بأسرها ستكون لكم دون غيركم. وقال لهم: هذه محنتكم التي امتحنتم بها ليعلم كيف تعملون، وألزمهم بشراء السلاح في سنة ست وسبعين ومائتين. وأقام في كل قرية رجلا مختارا من الثقات، فجمع عنده أموال قريته من غنم وبقر وحلي ومتاع وغير ذلك... ثم لما استقام له ذلك كله، أمر الدعاة أن تجمع النساء في ليلة عينها ويخلطهن بالرجال حتى يتراكبن، وقال: هذا من صحة الود والألف، ففعلوا ذلك. ثم انه أفشى فيهم إباحة الأموال والفرج والاستغناء عن الصوم والصلاة وجميع الفرائض، وقال: هذا كله موضوع عنكم، ودماء المخالفين وأموالهم حلال لكم، ومعرفة صاحب الحق تغنيكم عن كل شيء، ولا تخافون معه إثما ولا عذابا، وعنى بصاحب الحق (محمد بن إسماعيل)، وقال: بهذا الإمام اتسقت هذه الأمور، ولولاه لهلك الخلق وعدم الهدي والعلم، فبسطوا أيديهم بسفك الدماء وقتلوا جماعة ممن خالفهم، فخافهم الناس ووافقهم كثير من مجاوريهم. وفي تلك الآونة أنس القرامطة في أنفسهم القوة، فاتفقوا على بناء دار هجرة، فأقاموا

سورا في قرية يقال لها (مهتماباذ) من سواد الكوفة، وجعلوا عرضه ثمانية أذرع، ومن ورائه خندق عظيم، وبنو من داخل السور المباني، وتحول إليها الرجال والنساء، وذلك في سنة سبع وسبعين ومائتين، فلم يبق أحد إلا خافهم لقوتهم وتمكنهم من البلاد»[١].

وكان فيما حكي عن القرامطة، أنهم جاءوا بكتاب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يقال لها نصرانة، داعية إلى المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية، وهو جبريل. وذكر أن المسيح تصور له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك روح القدس، وإنك يحيى بن زكريا. وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله (مرتين)، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحا رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة سورة الاستفتاح، وهي من المنزل على أحمد بن الحنفية، والسورة هي: الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي، اتقون يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما أفعل، وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلوا عبادي، وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي، وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري، وكذب رسلي، أخلدته مهانا في عذابي، وأتممت أجلي، وأظهرت أمري، على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعل علي جبار إلا وضعته، ولا عزيز إلا أذللته، وليس الذي أصرّ على أمره وداوم على جهالته، وقالوا: لن نبرح عليه عاكفين، وبه مؤمنين، أولئك هم الكافرون. ثم يركع ويقول في

---

(١) تاريخ أخبار القرامطة / لابن سنان وابن العديم ص٩٨ - ١٠٠.

ركوعه: سبحان ربي ربي العزة وتعالى عما يصف الظالمون! يقولها مرتين، فإذا سجد قال: الله أعلى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم. من شرائعه أن الصوم يومان في السنة، وهما المهرجان والنيروز، وأن النبيذ حرام، والخمر حلال، ولا غسل من جنابة، إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وأن القبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة ويوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، وأن من حاربه وجب قتله، ولم يحاربه ممن خالفه أخذت منه الجزية...»[1].

ونرى مما ذكر أن الكتاب فيه ذكر لأحمد بن محمد بن الحنفية، باعتباره - على حسب زعمهم - رسول الله، وهذا مخالف لاعتقادات الإسماعيلية والقرامطة، ويبدو أن ذكر ابن الحنفية في كتاب قرمط، لم يكن إلا طريقة من طرقه وأساليبه المخادعة، فالكوفة كما هو معلوم مليئة بالاعتقادات والأفكار التي كانت رائجة آنذاك، ومن هذه الاعتقادات ما تقدس ابن الحنفية، فأراد قرمط أن يكسب أتباعها إلى صفه، فأذاع هذه الصفة عن ابن الحنفية، لعله بذلك يستطيع أن يدخل أتباع ابن الحنفية في مذهبه.

وكان من أشهر دعاة قرمط، صهره عبدان، وكان عبدان هذا كاتم أسراره، ومؤلف معظم كتب القرامطة، وهو الذي عين (زكرويه) داعي العراق، وأبا سعيد الجنابي داعي فارس الجنوبية[2]. وكان عبدان هذا مشهورا بعلمه وتشيعه، وكان فطنا خبيثا، لا يظهر - أمام الناس - إلا الدعوة إلى إمامة محمد بن إسماعيل[3] ويكتم اعتقاداته الحقيقية، ولذلك فإن بعض الروايات تذهب إلى أنه هو واضع (بلاغات الفرقة التسعة)، وهي كتاب شرح فيه طريق المريد إلى هذه البلاغات، والتي تنتهي بالمريد إلى تحريره من القيود العقائدية والدينية، ومن جميع أغلال الشريعة[4]؟!

---

(١) تاريخ الطبري / جـ ١٠ ص٢٥، ٢٦.

(٢) القرامطة / ميكال دى خويه ص٣٦.

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٨٧.

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية / بروكلمان ص٢٢٩.

والجدير بالملاحظة أن قرمط وأتباعه، كانوا يتلقون التعليمات من السلمية حيث مقر الإمامة الإسماعيلية، ولكنهم سرعان ما انحرفوا عنها، عندما علموا أن هؤلاء الذين يدعون أنهم من أولاد محمد بن إسماعيل، إنما هم أولاد عبدالله بن ميمون القداح، فشق حمدان عصا الطاعة على الموجودين في السلمية، وآثر أن يعمل وحده دون الالتفات إلى السلمية[١]، ولكن أولاد القداح لم يرضوا عن هذا الانشقاق، إذ تحالفوا مع زكرويه ابن مهرويه، أحد الذين استمالهم حمدان وعبدان في بداية دعوته، والذي استطاع أن يقتل حمدان وعبدان حوالي سنة ٢٨٠هـ[٢].

ولم يلبث أن تحول نشاط القرامطة بعد ذلك نحو الشمال في بلاد الشام على يد زكرويه، ونحو الجنوب في البحرين والإحساء على يد أبي سعيد الجنابي.

وزكرويه هذا، ابن رجل من القرامطة يقال له (مهرويه)، عرف أول حياته بالثقة والدين، فانقاد إليه خلق كثير، وقال: أنا من ولد عبدالله بن محمد بن إسماعيل، وصار يركب في قبة على جمل، ويدعى بالسيد، وكان له ابن يقال له زكرويه أحد الدعاة[٣].

وذكر أن زكرويه بعد قتله لحمدان وعبدان، اختفى عن الأنظار ويقال إنه كان مختفيا في منزل (سلفه)، وكان له سرداب وعليه باب حديد، وكان له تنور متنقل، فإذا جاء الطلب عليه، وضع التنور على باب السرداب، وقامت امرأة تسجره، فمكث كذلك أربع سنين، وذلك في أيام المعتضد (العباسي)، وكان يقول: لا أخرج والمعتضد في الأحياء. فلم يزل هذه حاله حتى مات المعتضد، فحينئذ أنفذ الدعاة، وعمل في الخروج[٤].

ويبدو أن زكرويه، بعد أن أخذ الدعم من سلمية، أراد أن يستميل إليه البدو الذين يقطنون في بادية الشام، فأرسل أولاده إليهم، فبايع فخذ من قبيلة (كلب)، المعروف ببني

---

(١) القرامطة / محمود شاكر ص٥٩، ٦٠.

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٨٨.

(٣) تاريخ أخبار القرامطة / لابن سنان وابن العديم ص١٠٠.

(٤) تاريخ الطبري جـ١٠ ص١٢٧، ١٢٨.

العليص بن صمصم بن عدي بن جناب، ابن زكرويه المسمى بـ (يحيى)، والمكنى (أبا القاسم)، وذلك على مبدأ القرامطة، ولقبوه بـ (الشيخ)، وزعموا لهم أنه أبو عبدالله بن محمد بن إسماعيل، وأن ناقته التي يركبها مأمورة، وأنهم إذا اتبعوها في مسيرها ظفروا، ولذلك لقب بـ (صاحب الناقة)، فقصد دمشق، وهاجم هو وأصحابه في طريقهم إليها كثيرا من القرى والمدن، وقتلوا الكثير من أبنائها، وسبوا نسائها وصبيانها، وأحرقوا المساجد، ثم حاصر دمشق، فأرسل إليه المصريون (بدر الكبير غلام ابن طولون)، فقاتلهم قريبا من دمشق، حتى انهزموا بمقتل ابن زكرويه[1].

ولما قتل زكرويه، اجتمع من بقي من القرامطة على أخيه الحسين، الذي سمى نفسه أحمد بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل، ودعا الناس إلى ذلك، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم، فاشتدت شوكته، وأظهر شامة في وجهه، وادعى أنها آيته، ولقب بصاحب الشامة أو الخال، وسار بعد ذلك إلى دمشق، فصالحه أهلها على خراج يدفعونه، فانصرف عنهم، ثم سار إلى أطراف حمص فتغلب عليها، ثم حضر إلى عنده ابن عمه عيسى، فكناه بـ (المدثر)، وعهد إليه بالقيام بالأمر من بعده، وزعن أنه المدثر المذكور في القرآن، فقتل أسرى المسلمين، ولما أطاعه أهل حمص وفتحوا له بابها خوفا منه، سار إلى حماة ومعرة النعمان وغيرهما، فقتل أهلها، وقتل النساء والأطفال، ثم توجه إلى بعلبك، فقتل أهلها، ولم يبق منهم إلا قليل، ثم سار إلى سليمة، فمنعه أهلها، فصالحهم وأمنهم، ففتحوا له بابها، فبدأ بمن فيها من (آل القداح)، وكانوا جماعة فقتلهم ولم يبق أحد منهم، وقتل الصبيان والفقهاء والشيوخ والبهائم، وخرج منها وليس بها عين تطرف، ودخل في القرى المجاورة لها يسبى ويقتل وينهب ويقطع السبيل ويأتي من المنكرات مالا عين رأت ولا أذن سمعت[2].

والشيء المؤكد أن مهاجمة ابن زكروية لسلمية، يدل على أن القرامطة وآل زكروية، قد اختلفوا مرة ثانية مع دعاة الإمامة في السلمية، وأن هذا الاختلاف قد وصل إلى حد الفتك

---

(١) انظر تاريخ الطبري جـ١٠ ص٩٥.

(٢) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص٢١.

بكل الموجودين هناك، وهذا الذي جعل عبيد الله المهدى يفر هاربا بنفسه، وكل هذا يدل أيضا على أن القرامطة قد تأكدوا من كذب هؤلاء في ادعائهم إلى النسب إلى محمد بن إسماعيل، فرأى آل زكرويه في أنفسهم الأحقية بادعاء هذا النسب.

وبعد إمعان ابن زكرويه في القتل، وانتهاك المحرمات، سارع بدر مولى ابن طولون ٢٩٠هـ لمقاتلة صاحب الشامة بجيش كبير، فانهزم القرمطي صاحب الشامة، وهرب مع بعض أتباعه إلى البادية ومنهم ابن عمه المدثر، ولكن سرعان ما قبض عليهم، فجلبوا إلى بغداد، حيث أمر الخليفة بقتلهم[1].

ولما أيقن الحسين بن زكروية بالهزيمة والهلاك، بعث أخاه أبا الفضل، الذي يسميه ابن خلدون بـ (أبي القاسم علي)، وحمله قسما من كنوزه، ولم يطل الأمر بأبي الفضل حتى جمع جماعة من القرامطة يغزو بهم وينهب، ثم ما لبث أن عاد إلى البادية، نزولا عند رغبة أبيه الذي لم يشأ أن يتعرض ابنه الأخير للأخطار[2]. ويقول ابن خلدون: إنه ارتحل إلى اليمن، حيث اجتمع إليه دعاتهم هنالك[3].

وفي سنة ٢٩٣هـ، أرسل زكرويه بن مهرويه، بعد مقتل صاحب الشامة، نصر بن عبدالله بن سعيد (أحد دعاته)، فدار على أحياء العرب من كلب وغيرهم يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله أحد إلا رجل من بني زياد، الذي استغوى طوائف من قبائل أخرى، وقصد نصر بهؤلاء ناحية الشام والأردن، فهاجم بصرى وحرب أهلها، ثم أمنهم فلما استسلموا إليه قتل مقاتليهم، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، ثم هاجم دمشق، فخرج اليهم صالح بن الفضل، فهزمه القرامطة هو وعسكره، وفتكوا فيهم فتكا ذريعا، ثم أمنوهم وغرروا بهم وقتلوا الشيوخ والأطفال فوصلت الأخبار إلى الخليفة فأنفذ أمره إلى الحسين بن حمدان وبعض القواد للشروع في قتال القرامطة واستئصال شأفتهم، فقصدوا

---

(١) المصدر السابق ص٢٤، ٢٥.

(٢) القرامطة / ميكال دى خويه ص٥٥.

(٣) تاريخ ابن خلدون / جـ٤ص١٨٦.

دمشق، فلما علم القرامطة انسحبوا راجعين، وفي طريقهم نهبوا المدن واستباحوا حرماتهم، فلما أحسّ الكلبيون بأخبار الجيوش المرسلة من بغداد إليهم، قاموا إلى نصر زعيم القرامطة فقتلوه، وسار برأسه رجل منهم يدعى (الذئب بن القائم) إلى الخليفة العباسي المكتفي، وطلب الأمان والقرب، فأمر الخليفة بذلك، وأجازه بجائزة، وأمر بالكف عن قتال قومه[1].

ومهما يكن من أمر، فقد اضطر زكرويه بعد ذلك إلى تسلم زمام الأمور بنفسه، فكتب إلى قرامطة بادية الشام، أن الشيخ ويقصد (ابنه يحيى)، وأخاه الحسين قد قتلا، وأن الإمام الذي يوحى إليه لن يبطئ في الظهور والغلبة، وأرسل اليهم داعية له يسمى (القاسم بن أحمد)، فأعلمهم أن فعل الذئب قد نفره منهم، وأنهم قد ارتدوا عن الدين، وأن وقت ظهورهم قد حان، وقد بايع لهم بالكوفة أربعون ألفا، وفي سوادها أربعمائة ألف رجل، وأن يوم موعدهم الذي ذكره الله في كتابه في شأن موسى وعدوه فرعون ﴿ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩ ﴾[2]، وأن زكروية يأمرهم أن يخفوا أمرهم، ويسيروا نحو الكوفة حتى يصبحوا فيها في غداة يوم النحر، فإنهم لا يمنعون منها، وأنه يظهر لهم، وينجز لهم وعده الذي كانت رسله تأتيهم به، وأن يحملوا القاسم بن أحمد معهم، فامتثلوا لأمره، ووافوا باب الكوفة، وقد انصرف الناس عن مصلاهم، وكان الذين وافوا باب الكوفة في هذا اليوم ثمانمائة فارس، دخلوا أبواب الكوفة، وقد ضربوا على القاسم بن أحمد، داعية زكرويه قبة، ويقولون: هذا ابن رسول الله ﷺ، ودعوا: بالثارات للحسين، يعنون الحسين بن زكرويه، فحاربهم أهل الكوفة، فهزموا إلى خارج الكوفة، وصاروا إلى قرية هنالك، وأخرجوا زكرويه من مخبئه، الذي اختبأ فيه سنين طويلة، فسجدوا له لما رأوه، وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته، وأعلمهم أن القاسم بن أحمد أعظم الناس عليهم منة، وأنه ردهم إلى الدين بعد خروجهم منه، وأنهم إذا امتثلوا أمره أنجز مواعيدهم، وبلّغهم آمالهم،

---

(١) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص٢٧، ٢٨.

(٢) سورة طه آية ٥٩.

ورمز لهم رموزا، وذكر فيها آيات من القرآن، واعترف لزكرويه جميع من رسخ حب الكفر في قلبه، وسار بهم وهو محجوب عنهم يدعونه بالسيد، ولا يبرزونه لمن في عسكرهم. والقاسم يتولى الأمور دونه[1].

وبعث الخليفة العباسي المكتفي عساكره، إلى سواد الكوفة لقتالهم، فهزمهم القرامطة، وغنموا معسكرهم[2]. وهذا الانتصار شجع زكرويه وأتباعه، فسار بهم بعد ذلك لاعتراض الحجاج والفتك بهم، فنهبوا قوافل الحجاج، وقتلوهم، وسبوا نساءهم واستعبدوا من لم يقتلوه من الرجال، ثم عملوا على اعتراض قوافل الحجاج الراجعة، وقيل انه قتل في قافلة واحدة زهاء عشرين ألف رجل[3]، حتى إنه جمع أجساد القتلى فعمل منها دكة وقف عليها[4] وكانت نساء القرامطة يطفن بالماء على القتلى، يعرضن عليهم الماء، فمن كلمهن قتلنه[5].

وقد جهز المكتفي بعدما جاءته الأخبار بذلك جيشا كبيرا، فأدركوا القرامطة وقاتلوهم يومين، ثم هزموهم، وضرب زكرويه على رأسه، فأصيب، وجيء به أسيرا، وبخليفته القاسم وابنه وكاتبه وزوجته، ولكنه ما لبث أن هلك بعد خمسة أيام، فأرسلت جثته إلى بغداد وصلب هناك[6].

أما قرامطة البحرين، فقد كان ابتداء أمرهم سنة ٢٨١هـ، عندما جاء إلى تلك النواحي أحد دعاتهم، ويعرف بـ (يحيى المهدي)، حيث قصد القطيف، فنزل على رجل يعرف بـ (علي بن المعلى بن حمدان)، مولى الزياديين، وكان مغاليا في التشيع، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وأن ظهوره قد قرب، فوجه علي بن المعلى إلى الشيعة من أهل القطيف

---

(١) تاريخ الطبري / جـ١٠ص١٢٧.
(٢) تاريخ ابن خلدون / جـ٤ ص ١٨٧.
(٣) تاريخ الطبري جـ١٠ ص١٣٢.
(٤) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص٨٤.
(٥) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٧ص٥٤٩.
(٦) تاريخ ابن خلدون / جـ٤ ص١٨٧، ١٨٨.

فجمعهم، وأقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي إليهم من المهدي، فأجابوه، وأنهم خارجون معه إذا ظهر أمره، ووجه إلى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه، وكان فيمن أجابه (أبو سعيد الجنابي). ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة، ثم رجع ومعه كتاب يزعم أنه من المهدي إلى شيعته، فيه: قد عرّفني رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم إلى أمري، فليدفع إليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين، ففعلوا ذلك. ثم غاب عنهم مرة أخرى، وعاد ومعه كتاب أن ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم. فدفعوا إليه الخمس، وكان يحيى يتردد أثناء ذلك على قبائل قيس، ويورد إليهم كتابا، يزعم أنها من المهدي، وأنه ظاهر، فكونوا على أهبة[١].

ويقال إن الحسن بن بهرام أو (أبو سعيد الجنابي)، بعد أن دخل في دعوة يحيى، أخذ يتردد على حمدان القرمطي وعبدان في سواد الكوفة، فوثقا فيه وانتدباه للعمل مكان يحيى في تلك الناحية[٢].

ولما رجع أبو سعيد إلى ناحية القطيف، عمل على التخلص من يحيى بقتله[٣]، ودعا الناس إلى مذهبه، فكان أول من استجاب له (بنو سنبر)، وهم الحسين وعلي حمدان[٤]، وهذان من وجهاء قبيلتهم، وكان لهما نفوذ كبير في أنحاء البحرين، حتى إن الحسين زوج ابنته لأبي سعيد، مما قوى مركز أبي سعيد، وكثر إقبال الناس عليه[٥]. وما زالت دعوته تنتشر، وأمره يقوى، حتى اجتمع إليه عدد كبير من الأعراب والقرامطة، فقتل ما حوله من أهل القرى، ثم سار إلى القطيف فقتل من بها، وأظهر أنه يريد البصرة[٦].

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٧ص٤٩٣، ٤٩٤.
(٢) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص١٠٢، ١٠٣.
(٣) أصول الإسماعيلية / برنارد لويس ص١٣١.
(٤) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص١٠٣.
(٥) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / بندلي جوزى ص١٢٩.
(٦) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٧ص٤٩٣.

ويروي ابن الأثير رواية تفيد كيفية إغرائه للناس، فقد جاء إلى أبي سعيد يحيى المهدي، فأكلوا طعاما، فلما فرغوا خرج أبو سعيد من بيته، وأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى، وأن لا تمنعه إن أراد[1]. فلا عجب والحالة هذه إذا رأينا غوغاء الناس يلتفون حوله، وقد دعاهم إلى ترك الشعائر الدينية، وإباحة المحرمات، ووعدهم بالسعادة في هذه الأرض.

وفي سنة ٢٨٧هـ، انتشرت دعوته، وامتد نفوذه إلى أرجاء البحرين كافة، وقرب جيشه من نواحي البصرة، فأرسل المعتضد أحد قواده (العباس الغنوي) لقتاله، ولكنه هزم وأسر، مما شجع الجنابي على مهاجمة (هجر) عاصمة البحرين، فاحتلها وجعلها عاصمة له[2].

وقد عمل أبو سعيد على تكوين مجتمع إسماعيلي إباحي، يدين له بالطاعة والولاء، وهكذا استطاع أن يكوّن من أبناء الأسرى، وأبناء أتباعه، جيشا، لا يعرف غير الطعن والقتال حرفة، وطاعة الرئيس دينا، فجمع الصبيان في دور، وأقام عليهم قوادا، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، ووسمهم جميعا على الخدود لئلا يختلطوا بغيرهم[3].

ويبدو أن أبا سعيد في أخريات حياته، قد نهج سياسة التقرب من العباسيين، مما حدا بالمقتدر العباسي أن يرسل إلى أبي سعيد كتابا لينا، يحثه فيه على إطلاق أسرى المسلمين، ويناظره، ويقيم الدليل على فساد مذهبه[4]. ولذلك نرى أبا سعيد لا يقوم بأية محاولة جدية لمساعدة العبيديين حين غزوا مصر للمرة الأولى في سنتي ٣٠٠، ٣٠١هـ.

بل ونراه ينافس آل عبيد الله في ادعائهم الإمامة، فقد غلا في عقائده، وادعى لنفسه من مظاهر التقديس، وكأنه إمام من أئمة الإسماعيلية[5].

---

(١) المصدر السابق جـ٧ص٤٩٤.

(٢) المصدر السابق جـ٧ص٤٩٩.

(٣) نهاية الأرب للنويري مخطوط جزء ٢٣ نقلاً عن كتاب تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن.

(٤) الكامل في التاريخ / ابن الاثير جـ٨ص٨٤.

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٩٢.

كل هذه الأمور، أغاظت عبيدالله المهدي، فاعتبر أفعال أبي سعيد محاولة منه للخروج عن طاعته، فدبر مؤامرة ضد أبي سعيد وأتباعه، وكان ذلك سنة ٣٠١هـ، عندما قُتل أبو سعيد على يد خادم صقلبي له في الحمام، فلما قتله استدعى رجلا من أكابر رؤسائهم، وقال له: السيد يستدعيك، فلما دخل قتله، ففعل ذلك بأربعة نفر من رؤسائهم، واستدعى الخامس، فلما دخل فطن لذلك، فأمسك بالخادم وقتله[1].

وبقي القرامطة على تعظيمهم وتقديسهم لأبي سعيد بعد موته، فقد زعموا أنه أبلغهم أنه سيغيب ثم يعود إلى الأرض، ولذلك فقد أبقوا حصانا مهيأ بعناية بجوار قبره، عليه طوق ولجام، يقف بالنوبة ليلا ونهارا، ويزعم أنه قال لأبنائه: حين أعود ولا تعرفونني اضربوا رقبتي بسيفي، فإذا كنت أنا، حييت في الحال، وقد وضعت هذه الدلالة حتى لا يدعي أحد أنه أبو سعيد[2].

وقد تولى ابنه سعيد الحكم بعده، فسار على سياسة أبيه التي تنطوي على التقرب من العباسيين والتباعد عن العبيديين، حتى إنه أطلق سراح جميع الأسرى من المسلمين[3]. وهذا أغضب العبيديين في المغرب، فعملوا على قتله والتخلص منه، وولوا أخاه أبا طاهر، حتى إن عبيد الله المهدي أرسل له كتابا يقره فيه على الولاية[4].

وبذلك رجعت القرامطة فرعا أصيلا من الدولة العبيدية، تأتمر بأمرها، وتنفذ خططها وسياستها. وقد أخذ أبو طاهر على عاتقه تحقيق تلك الخطط التي كانت ترمي إلى القضاء على العباسيين، وإقامة الدولة الإسماعيلية.

لذا نرى أبا طاهر يوجه جيوشه ضد العباسيين، في الوقت الذي كانت تغزو فيه جيوش العبيديين مصر بزعامة أبي القاسم بن عبيد الله المهدي، الذي طلب من أبي طاهر

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٨ص٨٣، ٨٤.

(٢) تراث الانسانية / مقال للدكتور يحيى الخشاب عن كتاب سفر نامه / لخسرو - مجلد ١ ص٦٥٢.

(٣) ابن الأثير جـ٨ص٨٤.

(٤) تاريخ ابن خلدون / جـ٤ص١٨٩.

وجيوشه أن تتصل بجيشه في مصر، ولكن قائد الخليفة العباسي المقتدر يحول دون اتصال جيوش أبي طاهر وجيوش العبيديين[1].

وكان أبو طاهر هذا، يمتلئ حقدا على الإسلام والمسلمين، لذلك فقد عاث فسادا في الأرض، يقتل وينهب ويهتك الأعراض، جاعلا هدفه قتل ما يستطيع من المسلمين.

من ذلك، أنه في سنة ٣١١هـ، قصد أبو طاهر البصرة، فوصلها ليلا في ألف وسبعمائة رجل، ومعه السلالم، فوضعها على السور، وصعد وأصحابه، ففتحوا الباب، فظفر القرامطة بأهل البصرة، فاستباحوها، وقتلوا خلقا كثيرا منها، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوما يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة، والنساء والصبيان[2]، ولم يخرج منها إلا بعد أن هدم مسجدها.

وفي سنة ٣١٢هـ، هاجم الحجاج، فأوقع بهم، وأخذ أمتعتهم وأموالهم ونساءهم، وعاد إلى هجر، وترك الحجاج في مواضعهم، فمات أكثرهم جوعا وعطشا ومن حر الشمس[3]. وفي نفس العام دخل أبو طاهر القرمطي الكوفة، وجعل مسجدها اصطبلا لخيوله[4].

وعاود الهجوم على الكوفة سنة ٣١٥هـ، حيث عاث فيها فسادا، وأراد من بعدها الوصول إلى بغداد، ولكنه لم يستطع فرجع[5]، ويبدو أنه أراد أن يتصل بجيش العبيديين الذي أراد في هذه السنة احتلال مصر.

وفي سنة ٣١٧هـ، زحف أبو طاهر القرمطي على مكة، يريد قتل الحجاج وهدم الكعبة (واعتراض الحجاج وقتلهم ومنعهم من الحج، - كما تبين من سيرة القرامطة - شيء محبب لهم، لأن شعائر الحج - كما يزعمون - من شعائر الجاهلية، ومن قبيل عبادة الأصنام) فدخل مكة هو وأصحابه، وأخذوا يقتلون أهاليها، ومن كان فيها من الحجاج من رجال

---

(١) المصدر السابق ص١٨٩ - ١٩٠.

(٢) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٨ص١٤٤.

(٣) المصدر نفسه جـ٨ص١٤٧.

(٤) المصدر نفسه جـ٨ص١٥٦.

(٥) المصدر نفسه جـ٨ص١٧٠.

ونساء وهم متعلقون بأستار الكعبة وردم بهم زمزم، وفرش بهم المسجد وما يليه، وقتل في سكك مكة وشعابها من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين ألفا، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك، وأقام بمكة ستة أيام، ولم يقف أحد تلك السنة بعرفة، ولا وفّى نسكا، وكان من أشد الناس قساوة وأقلهم رحمة أبو طاهر نفسه، فكان ينتقل من مكان إلى آخر، وهو يدعو أصحابه: أن أجهزوا على الكفار وعبدة الأحجار، ودكوا أركان الكعبة، واقلعوا الحجر الأسود، حتى لا يبقى منه أثر، وطلع أبو طاهر إلى باب الكعبة وقلع بابها الشريف وصار ينشد:

أنـــا بـــالله وبـــالله أنـــا ... يخلـق الخلـق وأفنـيهم أنـا

وصاح أحد أتباعه وهو يقتل واحدا من الحجاج: يا حمير، ألستم قلتم في هذا البيت، من دخله كان آمناً، وكيف يكون آمناً وقد قتلته الساعة بحضرتكم؟! ويروي آخر: أن أحد أصحاب أبي طاهر، دخل الحرم وأنا بين القتلى جريح مطروح لا أبدي حراكاً، إلى أن داسني بحافر فرسه، فلما رآني تحركت، تقدم إلي وسألني: أتعرف سورة الفيل؟ فقلت نعم أعرفها. فقال: أين الأبابيل؟ فقلت: حيث شاء ربك، فصاح بي: أيها الحمير إنكم تسجدون للحجارة، وتطوفون حولها، وترقصون إكراماً لها، وتمسحون وجوهكم بها؟!(١).

أقام أبو طاهر وأصحابه على هذه الحالة عدة أيام، يعملون السيوف بأهاليها وحجاج بيت الله، وينهبون أموالهم، ويأتون من الأفعال ما تقشعر له الأبدان، وقد نهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الأشياء الموجودة في داخل الكعبة، أو على جدرانها، وكان من جملة ما نهبوه الحجر الأسود، حيث أخذوه إلى الإحساء، وألقوه هناك، وهذا الأمر أفزع عبيد الله المهدي، فقد خاف من ثورة الناس عليه، لعلمهم أنه يأتمر بأمره، فكتب إلى أبي طاهر كتابا يعنفه على ذلك، ويطلب منه إعادة الحجر إلى مقره، فكتب إليه أبو طاهر بالعجز عن ذلك خوفاً من أتباعه(٢).

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فلي الإسلام / بندلي جوزى ص١٣٩ - ١٤٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون / جـ٤ص١٩١.

وقد خرج أبو طاهر وجماعته من مكة وهم ينشدون:

«فلو كان هذا البيت لله ربنا

لصب علينا النار من فوقنا صبا

لأنا حججنا حجة جاهلية

محللة لم تبق شرقا ولا غرباً

وأنا تركنا بين زمزم والصفا

جنائز لا تبغي سوى ربها ربا»[1]

وبقي أبو طاهر على هذه الحال، من القتل والنهب والإرهاب، حتى هلك سنة ٣٣١هـ، وكان له عشرة أبناء، أكبرهم (سابور)، فكاتبوا القائم العبيدي، فيمن يقوم مقام أبي طاهر، فجاء جوابه بولاية أخيه أحمد، وأن يكون ابن أبي طاهر (سابور) ولي العهد، فاستقر أحمد في الولاية عليهم، وكنوه أبا منصور، وهو الذي رد الحجر الأسود إلى مكانه، وقالوا لما ردوا الحجر: إنهم إنما حملوه بأمر إمامهم عبيد الله، وإنما يردونه بأمره وأمر خليفته القائم[2].

ثم قبض سابور على عمه أحمد، فاعتقله بموافقة إخوته، وكان ذلك سنة ٣٥٨هـ بعدها قامت المنافسة بين بيت أحمد بن أبي سعيد (أبو منصور)، وبيت أبي طاهر بن أبي سعيد، وانتهى الأمر بقتل سابور بن أبي طاهر سنة ٣٥٨هـ، ونفي إخوته وأنصاره إلى جزيرة أوال[3]. وقد أثار قتل سابور حنق العبيديين، لأنهم ولوه العهد بعد عمه أحمد، وعدوا قتله خروجا عن طاعتهم، وانقسم القرامطة بسبب ذلك إلى فريقين: فريق بزعامة بيت أبي طاهر، ظل على ولائه للعبيديين، وفريق آخر بزعامة بيت أحمد بن أبي سعيد، وعلى رأسه الحسن الأعصم، صار يحنق على العبيديين، ويعمل على التقرب إلى العباسيين.

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / بندلي جوزى ص١٤٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ٤ص١٩١، ١٩٢.

(٣) المصدر السابق ص١٩٢.

ولم يكن بد إذا من نشوب الحرب بين القرامطة وبين العبيديين، فلما مات أحمد بن أبي سعيد، وقتل سابور، استبد ابن أحمد (الحسن الأعصم) بالأمر من بعده، واتخذوا من استيلاء العبيديين على دمشق بقيادة جعفر بن فلاح سنة ٣٥٨هـ، ومنعهم الجزية التي كانت تدفع للقرامطة من قبل، ومقدارها ثلثمائة ألف دينار كل سنة، فرصة للانتقام من العبيديين، والمسير إلى بلاد الشام، والاستيلاء عليها، وأخذ هذه الجزية بالقوة[١].

وقد حاول الحسن الأعصم، بسبب حقده على العبيديين، وخاصة المعز، محالفة الخليفة العباسي المطيع، والوقوف معه في وجه العبيديين، ويحدثنا أبو المحاسن في النجوم الزاهرة فيقول: «وسار القرمطي، واسمه الحسن بن أحمد بن أبي سعيد، إلى بغداد، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي، على لسان عز الدولة بختيار (البويهي)، أن يمده بمال ورجال ويوليه الشام ومصر، ليخرج المعز منها، فامتنع الخليفة المطيع بالله من ذلك، وقال: كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما المصريون (يعني بني عبيد الله)، فأماتوا السنن، وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء (يعني القرامطة)، فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود، وفعلوا ما فعلوا. فقال عز الدولة بختيار للقرمطي: اذهب، فافعل ما بدا لك، وقيل: إن بختيار أعطاه مالا وسلاحا؟، فسار القرمطي إلى الشام ومعه أعلام سود، وأظهر أن الخليفة المطيع ولاه، وكتب على الأعلام اسم المطيع، وملك القرمطي الشام، ولعن المعز على منبر دمشق وأباه، وقال: هؤلاء من ولد القداح، كذابون، مخترقون، أعداء الإسلام، ونحن أعلم بهم، ومن عندنا خرج جدهم القداح. وبعد ملكه لدمشق، عزم المسير إلى الرملة، ومنها إلى مصر، ولما بلغ المعز مجيئه خاف وتهيأ لقتاله، وحصل بين جيشهما مناوشات، انتهت إلى تقهقر المعز إلى القاهرة وتحصنه بها، فحاصره القرمطي بها، إلى أن أرضى القرمطي بمال وخدعه، وعاد نحو الشام، ولكنه عاد واتفق مع أفتكين التركي (والي الشام) ضد المعز، فزحف إليهما المعز وهزمهما، فلحق الأعصم بطبريا منهزماً، ثم ارتحل منها إلى الإحساء[٢].

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٩٥.

(٢) النجوم الزاهرة / أبو المحاسن تغرى بردى جـ٤ص٧٤.

وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين، إلى أن مات الأعصم سنة ٣٦٦هـ، فأصبحت دفة الحكم بين أيدي زعماء ستة، لقبوا بـ (السادة)، وينتخبون من بين أحفاد أبي سعيد[١].

وقد شاهد ناصر خسرو، الرحالة الإسماعيلي الشهير، هذه الحكومة الجماعية، عندما زار الإحساء سنة ٤٤٣هـ، وهو يقول: ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف، هو دار ملكهم، وبه تخت يجلسون هم الستة عليه، ويصدون أوامرهم بالاتفاق، وكذلك يحكمون[٢].

وبعد موت الحسن الأعصم، عاد ولاء القرامطة من جديد إلى الدولة العبيدية، يؤيد هذه الحقيقة، أن القرامطة هاجموا سنة ٣٧٣هـ الكوفة حتى وصلوا إلى مشارف بغداد، ولكنهم عادوا بعد أن صولحوا على مال أخذوه[٣]. وعاودوا الكرة سنة ٣٧٥هـ، حينما سيطروا على الكوفة، على رأس جيش يقوده اثنان من (السادة)، وهما جعفر وإسحق، وكان سبب احتلالهم للكوفة قبض صمصام الدولة على نائبهم في بغداد المعروف بـ (أبي بكر بن شاهويه)، فأرسل صمصام الدولة جيشاً لقتالهم فهزم، ثم أرسل جيشاً آخر أكثر عدداً، فانتصر، وألحق هزيمة نكراء بالقرامطة، فانسحبوا راجعين بفلولهم إلى الإحساء[٤].

وكانت هذه الهزيمة سببا في أفول نجمهم، حتى يقول ابن الأثير: وزال من حينئذ ناموسهم[٥].

ولم يكد خبر الهزيمة ينتشر بين القبائل المجاورة لهم، حتى خرج عليهم سكان أواسط الجزيرة العربية، وانفصلوا عنهم، ثم تبعهم سكان عمان[٦].

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ٨ص٦٨٨.

(٢) القرامطة / ميكان دي خويه ص١٥٦.

(٣) تاريخ ابن الأثير جـ٩ص ٣٧.

(٤) المصدر نفسه ص٤٢، ص٤٣.

(٥) المصدر السابق نفسه ص٤٣.

(٦) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / بندلي جوزى ص١٦٢.

وفي سنة ٣٧٨هـ، انقضت على القرامطة، قبيلة المنتفق، بقيادة الأصيفر، فهزمتهم شر هزيمة، ثم تعقبتهم إلى عاصمتهم التي التجأ إليها القرامطة، فحاصرهم فيها، لكنه لم يقو على فتحها، فعدل عنها إلى القطيف، فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم، وسار إلى البصرة[١]. وظل القرامطة قابعين في تلك الجهات بعد هزائمهم المتوالية. ولكن العلاقات الطيبة التي كانت بينهم وبين العبيديين بقيت مستمرة، ففي عهد الحاكم بأمر الله العبيدي (٣٨٦هـ ٤١١هـ)، حاول حمزة بن علي، مؤسس المذهب الدرزي، والداعي إلى تأليه الحاكم، أن يستميل القرامطة إلى مذهبه، على أساس أنهم جميعاً يسعون إلى معرفة الاله، وينتظرون ظهوره، لهذا فقد وعدهم حمزة بإرسال دعاته إليهم[٢] ويظهر أن محاولة حمزة باءت بالفشل، لأن خليفته وداعيته (المقتنى بهاء الدين) عاود الكرة مع القرامطة في رسالة بعثها إلى السادة، يدعوهم فيها إلى مذهب التوحيد وموالاة الإمام[٣].

ومما يدل على أن العلاقات، ظلت جيدة بين العبيديين والقرامطة، أن ناصر خسرو، صاحب كتاب سفرنامة، قد زار الإحساء عاصمة القرامطة سنة ٤٤٣هـ، ويظهر أن رحلته إليها كانت لأسباب سياسية، وكان الهدف منها، زيادة صلات الود بين القرامطة والعبيديين، وخاصة بعد أن سيطر السلاجقة السنيون على بغداد، وهذا أرعب العبيديين، لذلك أراد خسرو من هذه الزيارة الاتفاق مع القرامطة على مواجهة قوة السلاجقة السنيين، الذين كانوا خطرا على الطرفين[٤].

ويبدو أن القتال بين القرامطة وجيرانهم من القبائل بقي متوالياً، وهذا ما ذكره خسرو وقال: إنه التقى بأمير عربي، وهو زاحف على الإحساء، وبعد أن حاصرها سنة كاملة،

---

(١) تاريخ ابن الأثير جـ٩ص٥٩.

(٢) انظر رسالة (السيرة المستقيمة) لحمزة.

(٣) انظر رسالة (السفر إلى السادة في الدعوة لطاعة ولي الحق الإمام المنتظر) لبهاء الدين وكتبت سنة ٤٣٠هـ.

(٤) تراث الإنسانية / مقال للدكتور يحيى الخشاب عن سفرنامة – مخلد ١ص٤٦.

استولى على حظيرة من حظائر المدينة الأربع، وأصاب غنائم كثيرة، إلا أنه لم يتمكن من الاستيلاء على الإحساء... فلما رآني قال: إن غرضي أن أستولي على الإحساء، لأن أهلها كفرة، لا دين لهم[1].

«وكانت نهاية القرامطة، في عهد المستنصر العبيدي، وقد مرت هذه النهاية في طورين، انتهى الطور الأول منهما بطردهم من جزيرة أوال، وانتهى الثاني باستئصال شأفتهم من بلاد البحرين، ففي سنة ٤٥٨هـ خرجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة في البحرين، وخضعت للعباسيين، بعد سلسلة من الثورات التي قام بها السنيون في هذه الجزيرة، فقد بنى هؤلاء السنيون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم، ولما فرغوا من بناء هذا المسجد، خطبوا فيه للخليفة العباسي، كذلك ثار أهل أوال على حكم القرامطة وعزلوا واليهم، وفرضوا عليهم ضريبة جديدة أثارت حنقهم، فأشعلوا نار الثورة، وقضوا على قوات القرامطة البرية والبحرية، وآل الحكم في هذه الجزيرة إلى السنيين. وكانت هزيمة القرامطة في جزيرة أوال، بعيدة الأثر عليهم في بلاد البحرين نفسها، فقد اتصل السنيون في بلاد البحرين بالسلاجقة في العراق، فبعثوا إليهم في سنة ٤٦٢هـ بجيوش أحلت بالقرامطة هزائم متتالية، فاضطر القرامطة إلى الارتداد إلى الإحساء، وقد شجعت الهزائم المتلاحقة للقرامطة، السلاجقة، فأرسلوا إلى الإحساء جيوشاً، أذاعت على الناس تحثهم على الانضواء تحت راية هذا الجيوش (لجهاد المبطلين، والقرامطة، والملحدين، واستئصال ذكرهم، وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم)، فالتف الناس حول الجيش، الذي أحاط بالقرامطة في شمالي الإحساء، وانتصروا عليهم في موقعة الخندق سنة ٤٧٠هـ، وتعد هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ، لأنها قضت على دولة القرامطة نهائياً، بعد أن ظلوا زهاء قرنين مصدر الرعب والفزع للناس[2]».

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / بندلي جوزى ص١٦٤.

(٢) تاريخ الإسلام / د. حسن إبراهيم حسن جـ٤ص٢٥٨، ٢٥٩.

الفصل الرابع
عقائد القرامطة

١- عقيدتهم في الألوهية والتوحيد:

عقائد القرامطة لا تختلف عن العقائد الإسماعيلية إلا في بعض الأمور التطبيقية، التي استطاعت القرامطة بإرهابها أن تطبقها تطبيقاً تاماً في مجتمعها، بينما لم تستطع الإسماعيلية أن تظهرها أو تطبقها بعد قيام دولتها العبيدية في المغرب خوفاً من ثورة الناس عليهم. لذا لا يمكننا القول أن عقائد القرامطة باطنية، لأن السرية والكتمان محيا من قاموس القرامطة بعد ظهور دولتهم.

ولا غرابة في ذلك، فإن الحركة القرمطية في حقيقتها، تعبير حي وفعلي للعقائد الإسماعيلية، لهذا فقد أخذت هذه الحركة على عاتقها تنفيذ كل الأحلام التي كانت تحلم بها الإسماعيلية، وهي ايجاد مجتمع يعتبر الدين خرافة، والثواب والعقاب والمعاد، أموراً لا تصدق، ويرى في اللذة والإباحية الملجأ الوحيد له.

والدليل على ما ذكرناه، في أن القرمطية تطبيق فعلي لمبادئ الإسماعيلية السرية، ما أورده عبد القاهر البغدادي، مترجماً عن رسالة وجهها عبيد الله المهدى مؤسس الدولة العبيدية إلى سليمان بن سعيد الجنابي (أبو سعيد الجنابي) مؤسس دولة القرامطة بالبحرين، وفي هذه الرسالة تأكيد قاطع لحقيقة وأهداف الإسماعيلية بجميع فروعها، يقول عبيد الله في رسالته: «أدع الناس، بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منهم رشدا، فاكشف لهم الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا، وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا نعرفه... ويقول أيضا مبطلا المعاد والعقاب: إن الجنة نعيم الدنيا، وإن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد.. وإن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه، ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم[1]».

---

(١) الفرق بين الفرق / عبد القاهر البغدادي ص٢٩٤، ٢٩٥.

إذن فالخالق عند الإسماعيلية ومنهم القرامطة يجب أن يتجسد في صورة بشرية حتى يمكن للبشر أن يؤدوا عباداتهم إلى تلك الصورة أو الحجاب، فيعبدون بذلك إلها يعرفونه.

والعقل الكلي أو (السابق) هو الإله والخالق عند الإسماعيلية ومنهم القرامطة، وبما أن الإمام هو ممثل هذا العقل في العالم السفلي فالعبادات والصفات الإلهية متجهة إليه فقط[1] بصفته الصورة أو الحجاب الذي يحتجب به الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا -.

إذن ينبغي القول، بأن المذهب القرمطي قد احتوى العقيدة الإسماعيلية وطبقها بكل ما فيها، وكان أتباعه يترقبون - كما هي حال أتباع الإسماعيلية - الظهور الأخير المجيد للألوهية في نهاية الدور النهائي لهذا العالم[2]، وهو عودة القائم المنتظر إلى الأرض - يقصدون محمد بن إسماعيل - الذي سيحاسب الناس ويعاقبهم - كما يزعمون -.

وفي هذا يورد البغدادي عن أحد الذين دخلوا القرامطة ثم هداه الله ورجع عنها، وسبب رجوعه عنها أن الداعي قال له: ينبغي أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذي نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾[3]، قال المدعو: فقلت: سخنت عينك تدعوني إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم، ثم تدعوني مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى[4].

والقرامطة كما هي الإسماعيلية تعتقد أن العقل قد فاض وظهر عنه النفس الكلية أو (التالي)، وبواسطة العقل والنفس وجدت جميع المخلوقات والمبدعات، ولكن بما أن العقل هو أول فيض ظهر عن الله، فهو إذن أصل الإيجاد، وإليه المبدأ والمعاد، ولذلك سمي بالسابق.

---

(١) انظر كتاب أخبار القرامطة / د. سهيل زكار ص٢٦٣.

(٢) القرامطة / ميكال دى خويه ص١٤٠.

(٣) سورة طه آية ١٢.

(٤) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٣٠٢، ٣٠٣.

وعلى هذا فالإله الخالق عند القرامطة، قد يطلق على العقل، وقد يطلق على النفس، لأنها - حسب مزاعهم - سبب إيجاد العالم، لذا يمكننا القول بأنهم يعتقدون بأمرين يخرجهما من حظيرة الإسلام، وهما اعتقادهم باحتجاب الله في صورة البشر، والثاني قولهم بوجود إلهين اثنين، وهذا يعني إنكارهم وحدانية الله، واعتقادهم بأن الله شريك في الخلق - تعالى الله عن ذلك -.

٢- عقيدتهم في الوحي والنبوة والرسالة:

النبي في عقيدة القرامطة هو: شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالي قوة صافية، وأن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه، لا أنه ملك، وأن القرآن هو تعبير محمد (ﷺ) عن المعارف التي فاضت عليه من العقل فسمى كلام الله مجازاً لأنه مركب من جهته[١]. وعلى هذا فهم ينكرون أن يكون الوحي من الله إلى الأنبياء عن طريق جبريل، وإنما يرون أن جبريل تعني عملية الفيض التي تفيض من العقل على النبي باعتبار أن النبي أو الإمام هو ممثول العقل في العالم السفلي.

ويظهر أن هذا المعتقد كان تمهيداً من القرامطة في محاولة لتشكيك الناس بصدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصحة كتبهم وشرائعهم، وفي رسالة عبيد الله إلى أبي سعيد الجنابي يبدو هذا الهدف واضحاً حينما يقول: «إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة في السماء، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأن كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم... وينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء، ومناقضتهم في أقوالهم، كعيسى بن مريم قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريمه الأحد بدلا من السبت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها، ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته... ثم قال في رسالته: ولا

---

(١) انظر كتاب أخبار القرامطة / د. سهيل الزكار نقلا عن ابن الجوزى ص٢٦٣.

تكن كصاحب الأمة المنكوسة - يقصدون محمد ﷺ -، حين سألوه عن الروح فقال: ﴿ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾[1]، لما لم يعلم، ولم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى في دعواه، التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة[2].

ولعل إنكارهم للقيامة والجنة والنار، يدل على أن هدفهم النهائي هو الوصول إلى نقض الشرائع وإظهار أن الأنبياء ليسوا إلا أشخاصا اتخذوا المخرقة والحيلة للاحتيال على الناس وسلب عقولهم، ولذلك ركزوا في مبادئهم على التشكيك في الغيبيات كالملائكة والجن والقيامة والجنة والنار، حتى ينفذوا من خلال ذلك إلى أفكار الناس وعقولهم. وفي هذا يقول عبيد الله في رسالته: «... إلا أن صاحبهم - يقصد محمد ﷺ - حرم عليهم الطيبات، وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبدا من البعث في القبور، والحساب، والجنة، والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً، وجعلهم له في حياته، ولذريته بعد وفاته خولا[3]... وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعد لا يكونن وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد؟ ويختتم رسالته بقوله للجنابي: وأنت وإخوانك الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئا لكم ما نلتم من الراحة من أمرهم[4]».

ولذلك فإن القرامطة مثلهم مثل الإسماعيلية يعتقدون بالتناسخ لإنكارهم القيامة ويزعمون: أن هذا النظام وتعاقب الليل والنهار وتولد الحيوانات لا ينقضي أبدا، وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ومعنى المعاد عندهم عود كل شيء إلى أصله[5]».

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٥.

(٢) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٩٦ - ٢٩٧.

(٣) أي الخدم والأتباع.

(٤) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٩٧، ٢٩٨.

(٥) أخبار القرامطة / د. سهيل الزكار - نقلا عن ابن الجوزى ص٢٦٤.

ولا شك أن غرضهم من هذه المعتقدات والتأويلات، انتزاع الإيمان بهذه الأمور من نفوس الناس، حتى تبطل الرغبة بها والرهبة منها، فيسهل حينئذ لأمثال هؤلاء الدخول إلى أفكار الناس وعقولهم. وما أخبرنا به ناصر خسرو عن مجتمع القرامطة في البحرين دليل واضح على هذه الأهداف المريبة، فقد تركوا جميع الفرائض، وأحلوا جميع المحرمات، وهدموا المساجد، ولم يبق للدين أو الفضيلة أي أثر في مجتمعهم.

٣- تنظيمهم الدعوة على تسعه مراحل:

وضع عبدان داعية حمدان القرمطي المخلص، تسع مراحل أو (بلاغات) لاصطياد الناس وإخراجهم من دينهم، ولئن عدنا إلى هذه البلاغات، والتي يرويها النويري نقلا عن أخي محسن[١]، لرأيناها تطابق تماما المراتب التي وضعها الإسماعيليون لاصطياد الناس[٢].

وفي المرحلة الأولى من هذه المراحل، نجدهم يجتذبون الناس كلا على قدر علمه ودينه ومذهبه، عن طريق تفسير رموز الدين وفرائضه، وإظهار بعض متشابه القرآن، ومشكلات المسائل الشرعية، وبهذا يثير الداعي القرمطي حب الاستطلاع عند المدعو والوقوف على ما عنده من العلم، ويشككوا المدعو في دينه وعقيدته، ليسهل بعد ذلك لهم تسميم أفكاره بضلالاتهم.

وفي المرحلة الرابعة، نجد أن القرامطة يقررون أن الأنبياء سبعة، والأسس سبعة، وأن محمد ﷺ كان السادس من الأنبياء، وأن السابع كان محمد بن إسماعيل، لأنه هو المنتهي إليه علوم من قبله، والقائم بعلم بواطن الأمور وكشفها، وإليه تفسيرها. ويعلق أخو محسن على هذه الدرجة بقوله: فهذه درجة أخرى قرر بها الداعي عند المدعو نبوة نبي بعد محمد ﷺ، وسهل بها طريق النقل عن شريعته... فكانت هذه الدعوة أول ما أخرج الداعي بها

---

(١) هو أبو الحسين محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ويعرف بأخي محسن، وهو أول من كتب عن القرامطة.

(٢) انظر بتفصيل عن هذه المراتب ص١٥٩.

المدعو من شريعة رسول الله ﷺ، وأدخله في جملة الكفار والمرتدين عن شريعته[1]. أما في المرحة السابعة والثامنة فيقررون أن للعالم مدبرين أثنين هما السابق والتالي، أحدهما أسبق من الآخر[2]. وفي هذا يقول أخو محسن أيضا: إنه انسلاخ من شرائع أهل الكتب والنبوة، لأن الأنبياء حسب زعمهم، أنبياء سياسات وشرائع[3].

٤- شيوعية المال والنساء عندهم:

من المبادىء الهامة التي انطلق منها دعاة القرامطة، إفشاء شيوعية الأموال والفروج بين أتباعهم، لعلهم بذلك يستميلون إلى مذهبهم دعاة الشهوة واللذة البهيمية من عوام الناس، ويؤثرون بها أيضا على المراهقين من الشباب والشابات.

وكان أول من فعل ذلك حمدان القرمطي، عندما فرض على أتباعه (الألفة)، وهي أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد، وأن يكونوا فيه كلهم أسوة واحدة، لا يفضل أحد من أصحابه على صاحبه ولا أخيه في ملك يملكه بشيء البتة. ولما استقام الأمر لحمدان، أمر أتباعه بأن يجمعوا النساء في ليلة عينها ويخلطهن بالرجال، حتى يتراكبن، وزعم: أن هذا من صحة الود والألف[4].

وقد مرّ معنا كيف كانت الإباحية منتشرة بين أتباع القرامطة في اليمن وكيف عمل على إفشائها ابن الفضل بين أتباعه.

من هذا يتبين لنا أن هدفهم النهائي، هو الإباحية المطلقة وهدم كل القيم والأخلاق الفاضلة، وبالتالي التخلي عن كل الروابط الأسرية، «ويؤيد هذا ما أمر به الجنابي أتباعه في

---

(١) مذهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوى - نقلا عن مخطوطة النويري جـ٢٣ من نهاية الأرب - ص١٦٣.

(٢) المصدر السابق ص١٦٨، ١٦٨.

(٣) المصدر السابق ص١٧٠.

(٤) تاريخ أخبار القرامطة / ابن سنان وابن العديم ص٩٩، ١٠٠

دولة البحرين، بإقامة ليلة سماها (ليلة الإفاضة)، يجتمع خلالها الرجال والنساء، وتطفأ الأنوار، ويمارسون الجنس دون تمييز بين المحللات والمحرمات[1]».

ويضاف إلى ذلك، أن المؤمن عند القرامطة لا يكمل إيمانه إلا إذا رضي التشريق، «وهو أن يدخل الرجل إلى حليلة جاره فيطأها وزوجها حاضر ينظر إليه، ثم يخرج فيبصق في وجهه، ويصفع قفاه، ويقول له: تصبر، فإذا صبر عد كامل الإيمان وسمي من الصابرة[2]. وقد ذكر من قبل أن أبا سعيد الجنابي، أدخل امرأته على يحيى المهدي، وأمرها أن لا تمنعه إذا أراد، بل وصل الأمر بمن جاء بعده أن أباح اللواط، وأوجب قتل الغلام الذي يمتنع على من يريد الفجور به[3].

ومما جاء في رسالة عبيد الله للجنابي حول هذه الإباحية قوله:

«وما العجب من شيءٍ كالعجب، من رجل يدعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء، وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه، وينكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم - يقصد النبي ﷺ - حرم عليهم الطيبات»[4].

ولعل التفصيلات التي ذكرها ناصر خسرو الرحالة الإسماعيلي الشهير عن مجتمعات القرامطة في الإحساء في أواخر عهدهم، تؤكد لنا أن هذا المجتمع صار مجتمعنا إباحيا لا يعترف بالدين ولا بالفضيلة، يقوم على إباحة كل شيء، ومما يذكره عن الإحساء وأهلها: أن سلطانها (يقصد أبا سعيد الجنابي)، قد رد أهلها عن الإسلام، وقال: إني أعفيتكم من الصلاة والصوم... فهم لذلك لا يصلون ولا يصومون، وليس في مدينة الإحساء مسجد جمعة، ولا تقام بها صلاة ولا خطبة... وفي الحسا تباع لحوم الحيوانات من قطط وكلاب

---

(١) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ص٢٣٩.

(٢) القرامطة / ميكال دى خويه ص١٣٠.

(٣) الفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٨٦.

(٤) المصدر السابق ص٢٩٧.

وحمير وبقر وخراف وغيرها، ويوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري، وهو يسمنون الكلاب هناك، كما تعلف الخراف، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها، ثم يذبحونها ويبيعون لحمها»[1].

والواقع، أنني لم أستطع أن أجد شيئا أستند إليه في تقبل آراء بعض الكتاب المعاصرين، وخاصة المستشرقين منهم، الذين لا همّ لهم إلا نفي شيوعية النساء عن القرامطة، وكأنهم يريدون بذلك أن يجعلوا القرامطة أصحاب فضيلة ودعاة حق، يفتخر بهم، ويعتز بهم، فتتغير الصورة في أذهان الناس عن هؤلاء فيصبحون نموذجا يقتدى بهم؟!

وكل من يتتبع تاريخ هذه الحركة في فتنها وإرهابها، لا بد - إذا أراد الحق - أن يقول إن هذه الحركة ما ظهرت إلا من أجل شيء واحد محدد، هو محاربة الإسلام بكل الوسائل، بارتكاب الكبائر، وهتك الأعراض، وسفك الدماء بلا حدود، والسطو على الأموال والأملاك، وتحليل المحرمات، إرواء لأحقادهم الدفينة ضد الإسلام وإشباعا لغرائزهم الحيوانية.

ولو تتبعنا الوسط الذي نمت وترعرعت فيه حركة القرامطة، لأمكننا التعرف على بعض العوامل التي استغلها القرامطة، واستفادت منها في اصطياد الناس والتغرير بهم، فكما نعلم أن المناطق التي ظهرت فيها القرامطة، كانت في سواد الكوفة وبادية الشام، ومنطقة الإحساء والبحرين في الجزيرة العربية، فسواد الكوفة كان يغص بالفلاحين والمزارعين والفقراء، وأما البادية والإحساء، فكانت مناطق معروفة لقبائل البدو، لذا فقد استغلت القرامطة وضع الفلاحين والبدو الاقتصادي، واستفادت منه في اصطيادهم والتغرير بهم، أما الفلاحون، فقد كان أكثر سواد الكوفة منهم، وهم من الفقراء الذين تركوا أهاليهم وزوجاتهم، وجاؤا للعمل عند ملاكي أراضي سواد الكوفة، «فاجتمع في هذه المنطقة جماعات كثيرة معظمها من الشباب الذين هم في سن العمل، أو ممن لهم تطلعات نحو النساء، وقد ابتعدوا عن أزواجهم إن كانوا من الذين سبق لهم أن تزوجوا، وابتعدوا عن رقابة مجتمعاتهم، ووجدوا في أنفسهم عاطفة إلى الأهل والوطن، فانقلبت

---

(١) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ص٢٤٣، ٢٤٤.

هذه العاطفة إلى رغبة في الجنس، لتحل محلها، أو تفكير في إيجاد الأهل وبناء الأسرة، ولما لم تكن لديهم الإمكانات الكافية للزواج وبناء الأسرة، فقد انقلب هذا الفقر أو الضعف إلى حقد على الأغنياء أو أصحاب الأرض، وأهل الفتيات، وحدثت رغبة جامحة في الحصول على الفتيات والنساء بأي شكل وأية طريقة، وكان الجهل يطغي على أكثر أولئك الزراع، الأمر الذي يجعل الوازع عندهم ضعيفا فيمكن إيقاعهم في الحبائل، وجعل النساء لهم شركا عظيما يندفعون وراءه ليحققوا رغباتهم، ويؤمنوا شهواتهم، لذا كانت النساء المصيدة الأولى لهم، والسلاح الماضي الذي استعمله القرامطة»(١).

أما قبائل البدو، فقد كان أفرادها بحاجة إلى المال لتأمين بعض الحاجيات الضرورية، الأمر الذي جعلهم ينظرون إلى المال على أنه غاية بحد ذاته، فوجدوا في حركة القرامطة ملاذا يلوذون بها للوصول إلى المال، عن طريق القتل والنهب، والوازع الديني عندهم كان ضعيفا لجهلهم، «فالجهل والفقر مع غياب الإيمان يعدان من أكبر العوامل التي تجعل الإنسان يسير وراء كل ناعق، أو مع كل متاجر بالألفاظ من أجل الاصلاح أو الخير - حسب زعمهم - لتجد النفس لها المسوغ»(٢).

«لذا كانت هذه النماذج كلها، الشباب ذوو الطاقات، والفقراء أصحاب الامكانات، والأعراب المتقلبون، مع الجهل الذي يجمعهم جميعا، كانوا هم عماد الحركة القرمطية، بل أساس كل ثورة تمنيهم، وتلوح لهم بالحاجات التي يسعون إليها، فهي العلف الذي يقدم لهم ويركضون وراءه، ويسيرون حسب حركته كالسوائم من القطيع تتحرك وراء قبضة العشب، وما على المستغلين إلا أن يوجهوهم»(٣).

ولن نبتعد عن الحقيقة إذا أيقنا أن اليد اليهودية التي كانت وراء ظهور الحركة الشيوعية في القرن الحالي، هي نفس اليد التي كانت تحرك الحركة القرمطية في القرون الماضية.

---

(١) القرامطة / محمود شاكر ص١٤، ١٥.

(٢) القرامطة / محمود شاكر ص١٤، ١٥.

(٣) المصدر السابق.

الفصل الخامس

إخوان الصفا وخلان الوفاء

نبذة عن إخوان الصفاء، ظهورهم وصلتهم بالإسماعيلية

أقدم مصدر ذكر إخوان الصفاء هو أبو حيان التوحيدي[(١)] في كتابه (الامتاع والمؤانسة)، يجيب فيه على سؤال للوزير أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥هـ، عن زيد بن رفاعة وحقيقة معتقده، حيث يفيدنا أبو حيان التوحيدي عن هذا الرجل فيقول: «أنه أقام بالبصرة زمانا طويلا، وصادق بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم (أبو سليمان محمد بن معشر البيستي، ويعرف بالمقدسي)، (وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني)، (وأبو أحمد المهرجاني) (والعوفي) وغيرهم، فصحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك لأنها حاوية بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة، علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرسة وسموها (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء)، وكتموا أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ولقنوها للناس»[(٢)].

ومن خلال جواب التوحيدي يتبين لنا أن هذه الجماعة قد عرفت في منتصف القرن الرابع الهجري، ويرجع الأستاذ عمر الدسوقي ظهورهم بين سنتي ٣٣٤ - ٣٧٣تقريبا[(٣)]،

---

(١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، فيلسوف عاش في القرن الرابع الهجري وتوفي سنة ٤٠٠هـ، وله كتب كثيرة، وقد كتب الإمتاع والمؤانسة للوزير أبي عبدالله الحسين أحد وزراء صمصام الدولة البويهي، وهي ما دار من مسامرات بين التوحيدي وهذا الوزير.

(٢) كتاب الامتاع والمؤانسة / أبو حيان التوحيدي جـ٢ص٤، ٥.

(٣) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص٦٨.

وهذه السنوات كانت أياما سيئة على العالم الإسلامي، فقد بلغت فيها الخلافة العباسية من الضعف حدا جعل الأمور تفلت من يدها، فاستقل كل أمير بمقاطعته، مما شجع آل بويه الشيعة على دخول بغداد والاستيلاء على مقر الخلافة العباسية، وكان هذا نذير شر على العالم الإسلامي، حيث تجرأ على الخلافة العباسية كل ناعق وكل زنديق، ويظهر أن إخوان الصفاء كانوا من هؤلاء الذين تشجعوا بمجيء آل بويه الشيعة، فأظهروا من أمرهم ما كان خافيا، وتجرأوا على إظهار رسائلهم.

غير أن دعاة الإسماعيلية يزعمون أن مؤلف رسائل إخوان الصفاء هو أحد أئمتهم المستورين الذي يدعى بـ (أحمد بن عبدالله بن محمد)، ويستدلون على ذلك بأن أول من ذكر رسائل إخوان الصفاء من الإسماعيلية، هو أحد دعاتهم المعروف بـ (الحامدي) المتوفى سنة ٥٥٧هـ في كتابه كنز الولد، الذي ذكر الرسائل واعتمد في مناقشاته على آراء الشخص الفاضل صاحب الرسائل الجامعة نظرياته، وينقل أثناءها عبارات كثيرة من الرسائل يدعم فيها أقواله[١]. ويأتون بعد ذلك على ما رواه الداعي الإسماعيلي إدريس عماد الدين في كتابه عيون الأخبار المصنف ما بين سنة ٨٣٢هـ وسنة ٨٧٢هـ، الذي يزعم ويقول: ولما خشي السيد أحمد بن عبد الله أن يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية إلى علوم الفلسفة، ألف رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، وجمع فيها من العلوم والحكمة والمعارف الإلهية والفلسفة الشرعية[٢]. وينقلون أيضا عن صاحب كتاب قلائد الجواهر المصنف بالفارسية قوله: إن العلامة الفهامة أحمد بن عبدالله هو مصنف اثنتين وخمسين رسالة موسومة بإخوان الصفا وخلان الوفا[٣]. وجاء أخيرا الداعي الإسماعيلي أبو المعالي في رسالته المسماة (الأصول والأحكام) وزعم: أنه لما انتقل محمد بن إسماعيل إلى دار البقاء تسلمها ولده المستور أحمد الوفي، وهو أول من ستر نفسه عن الأضداد من أهل عصره المخالفين، لأن

---

(١) انظر إخوان الصفا / لمصطفى غالب ص٢٧ - ومقدمة مصطفى غالب لكتاب كنز الولد ص٨.

(٢) إخوان الصفا / الدسوقي ص٦٣.

(٣) إخوان الصفا / مصطفى غالب ص٢٧.

زمانه كان زمان فترة ومحنة، وكان المتغلبون من ولد بني العباس يطلبون من يشار اليهم منهم حسدا وبغضا... فأوجب ذلك الاستتار المعروف للأئمة وكنيت الدعاة بأسمائهم تقية عليهم مما هم فيه... حتى قالوا إن الإمام من ولد محمد بن إسماعيل هو (عبدالله بن ميمون) أو (عبدالله بن مبارك) أو (عبدالله بن حمدان)، وأن هؤلاء الأربعة قد اجتمعوا مع غيرهم وصنفوا رسائل طويلة في شتى العلوم والفنون، عددها اثنتان وخمسون رسالة[١].

ويزعم آغاخان زعيم الطائفة الإسماعيلية في العصر الحالي في كتابه (نور مبين حبل الله المتين) المصنف باللغة الأوردية: إن سبب تأليف رسائل إخوان الصفا، أن عامة المسلمين توجهوا إلى الإمام (وفي أحمد) ليعرفهم الفرق بين الدين والفلسفة فاستجاب لهم، وألف رسائل إخوان الصفا في اثنتين وخمسين رسالة وأخفى اسمه لأسباب سياسية[٢].

ويمكننا القول بعد استعراض الأقوال السابقة، أن رسائل إخوان الصفاء تمثل نموذجا باطنيا ليس من حيث المضمون فقط، بل من حيث الشكل أيضا، لأن عدم تصريح واضعي الرسائل بأهدافهم الحقيقية ينسجم بشكل أكيد مع أسلوب الدعوة الإسماعيلية في كيفية عرض عقائدها على الجمهور الواسع غير الملتزم بهذه العقائد وغير المنخرط في صفوف الدعوة[٣].

ومما يذكر أن رسائل إخوان الصفاء، تتكون من اثنتين وخمسين رسالة قسموها إلى أربعة أقسام: الرسائل الرياضية التعليمية، وهي أربع عشرة رسالة، والرسائل الجسمانية الطبيعية وهي سبع عشرة رسالة، والرسائل النفسانية العقلانية وهي عشر رسائل، والرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية وهي إحدى عشرة رسالة، ويذكر إخوان الصفا في رسائلهم فهرست هذه الرسائل ويقولون: إن الرسالة الجامعة ستأتي بعد هذه الرسائل، وأنها ستكون جامعة لخلاصة ما في هذه الرسائل كلها، وقد ظهرت هذه الرسالة

---

(١) إخوان الصفا / مصطفى غالب ص٢٩.

(٢) إخوان الصفا / الدسوقي ص٦٣.

(٣) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ص١١١.

الجامعة بتحقيق الأستاذ جميل صليبا، ثم جاء عارف تامر الإسماعيلي وحققها من جديد، وتبعه بعد ذلك في تحقيقها من جديد كاتب إسماعيلي آخر منافس له هو مصطفى غالب.

ويشير الأستاذ سامي العياش إلى تسمية إخوان الصفا بقوله: إن هذه التسمية تسترعي بعض الاهتمام، فهي تسمية تطلق اصطلاحا على الجماعة التي وضعت الرسائل المنسوبة إلى هذا الاسم، غير أن هذه التسمية وكاصطلاح أيضا تعبر عن مدلول أشمل لأننا نجد أن كلمة (إخوان) تتكرر في كثير من الكتابات الباطنية، وحتى في بعض الرسائل الدرزية، حيث تقترن كلمة (الإخوان) أحيانا بتسمية (الموحدين)، فالثانية تطلق على كافة الباطنيين، كدلالة على الانتماء المذهبي والمنحنى العقائدي عندهم، فـ(إخوان) في المصطلح الباطني هم (الرفاق) في الاصطلاحات الحزبية المعاصرة... ويضيف الأستاذ العياش قوله: ونستطيع أن نرجح من ذلك أن (إخوان الصفا) ليسوا سوى الإخوان الإسماعيليين الموحدين، وقد لا نغالي في الافتراض إن رجحنا كون الرسائل قد وضعت من قبل جماعة الإخوان الإسماعيليين وموجهة إلى كافة الإخوان وهادفة أيضا إلى استقطاب الثوري للقرامطة في النصف الثاني من القرن الثالث، فالإخوان ليسوا مجموعة مستقلة تماما عن مجمل الدعوة الإسماعيلية، بل هم واحد من مبتكرات التنظيم والفلسفة الباطنيين[1].

على أية حال، فإنه مما لا جدال فيه أن رسائل إخوان الصفا ليست من تأليف شخص واحد، بل من تأليف جماعة متعددة، تتباين معارفهم وأساليبهم، وهذا واضح جدا في رسائلهم، وربما كان منهم بعض أئمة الإسماعيلية المستورين، أو أن هؤلاء الأئمة قد أوعزوا لدعاتهم بكتابة هذه الرسائل لتكون لسان دعاية لمذهبهم، وهذا الذي جعل أبا حيان التوحيدي يتوهم أن زيد بن رفاعة وجماعته قد ألفوا هذه الرسائل، والحقيقة أن هؤلاء ما كانوا إلا وسيلة تنطلق من خلالهم أفكار الإسماعيلية وفلسفتها عن طريق هذه الرسائل.

أما ادعاء الإسماعيلية، بنسبة هذه الرسائل إلى أحد أئمتهم، فليس بجديد على الإسماعيلية، فإن من عادتهم دائما أن يردوا كل علم إلى أئمتهم، فما من علم إنسان إلا وقد

---

(١) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية / سامي العياش ص١١٢ - ١١٣.

ألفه أحد هؤلاء، وما من مؤلف له قيمته إلا وينسبونه إلى الإسماعيلية. ورغم ذلك فاننا لا يمكن أن ننكر أن رسائل إخوان الصفاء متصلة اتصالا وثيقا بعقائد الإسماعيلية، وأنها وسيلة فكرية أرادت بها الإسماعيلية أن تغزو أفكار الناس بدون أن يشكوا بغاياتها ومآربها.

والإسماعيلية في القرنين الماضيين اعتبرت رسائل إخوان الصفاء، رسائل مقدسة تصل في قدسيتها إلى مرتبة القرآن الكريم، ويزعم أحد دعاتهم المعاصرين الدكتور حسين الهمداني وهو من الإسماعيلية الطيبية: أن القرآن الكريم كتاب العامة، ورسائل إخوان الصفاء كتاب الأئمة[1].

فكأن الرسائل عند الإسماعيلية أصبحت متساوية مع القرآن الكريم، بل هي أكثر من ذلك لأنها من كلام الأئمة، وهذا إبراهيم السيفي داعية الإسماعيلية الطيبية المطلق المتوفى سنة ١٢٣٦هـ يزعم في كتابه (تحفة رسائل الإخوان) ويقول: وسمعت بعض العلماء يقولون إن رسائل إخوان الصفاء هي القرآن بعد القرآن، وهي قرآن العلم، كما أن القرآن قرآن الوحي، وهي قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة[2].

فعلاقة إخوان الصفاء بالإسماعيلية في رأيي لا تشوبها شائبة، فجميع الشواهد التاريخية والفكرية التي تغص بها الرسائل تؤيد هذه العلاقة وتدل عليها، ومما يؤيد هذا الرأي أيضا عدة شواهد أهمها: اقرار رسائل إخوان الصفاء بوجود علوم سرية توارثها أهل بيت النبي ﷺ باعتبارهم خزنة علم الله، وكذلك دعوة الرسائل إلى إمام مستور، والحديث عن دور الكشف ودور الستر للأئمة[3]، وهذه الأمور جميعها هي عقائد الإسماعيلية، وتدل دلالة واضحة على العلاقة العضوية بين واضعي هذه الرسائل وبين الإسماعيلية، مع أن مزاعمهم بأنها من وضع إمامهم أحمد بن عبدالله لا يمكن الاستناد إليها، لأن أسلوب الرسائل يدل على كتابتها من قبل عدد من الأشخاص.

---

(١) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص١٢٢.

(٢) إخوان الصفاء / عبد الكريم خليفة ص٢٥.

(٣) انظر المصدر السابق ص٢٧، ٢٨، وكذلك رسائل إخوان الصفاء جـ٤ ص٢٣٤ الرسالة السابعة.

وبالإضافة إلى الشواهد التي سبق ذكرها، فإن الإسماعيلية بجميع فروعها تعظم هذه الرسائل، فرغم الخلاف العميق بين النزارية والمستعلية، إلا أن كلا الفريقين يقدسان هذه الرسائل، فالمستعلية أو الطيبية تقدس هذه الرسائل وتستشهد بها، وكذلك النزارية وهو ما أوضحه أغاخان زعيم الاسماعلية النزارية، حتى إن الحشاشين المعروفين بغلوهم كانت الرسائل تدرس في قلاعهم، وينقل (كازانوفا) المستشرق المعروف عن إحدى المخطوطات التي عثر عليها: أن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين، زعيم الحشاشين في بلاد الشام قد خدم في (آلموت) قبل انتقاله إلى الشام، حيث زاول علوم الفلسفة هناك، وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف، وأكب على مطالعة رسائل إخوان الصفا[١].

ويضيف مستشرق آخر هو (ماكدونالد) قوله: وحينما استولى المغول على قلعة آلموت وجدوها غنية برسائل إخوان الصفاء وبآلات هندسية ورياضية وفلكية من كل نوع، إذ من المحتمل أن تكون تعاليم إخوان الصفاء وما تخفيه في طياتها هي الآراء الخفية للفاطميين والحشاشين والقرامطة والدروز[٢].

ولو رجعنا إلى نصوص رسائلهم، لوجدنا أن إخوان الصفاء يظهرون النزعة الشيعية في القسم الرابع من مجموعة الرسائل، ويتجلى ميلهم هذا في كثير من المقاطع[٣]. اذ يصرحون بأسماء بعض الأئمة، ويحتجون بكلام الحسين[٤]، كما أنهم يشيرون في مكان آخر إلى كربلاء عند ذكرهم تعريض الأنبياء أجسامهم للهلاك في سبيل رسالتهم فيقولون: «ومما يدل على أن أهل بيت نبينا عليهم السلام كانوا يرون هذا الرأي تسليم أجسامهم إلى القتل يوم كربلاء... وصبرهم على العطش والطعن والضرب حتى فارقت نفوسهم أجسادهم، ورفعت إلى ملكوت السماء، ولقوا آباءهم الطاهرين محمدا وعليا والمهاجرين والأنصار»[٥]. وهكذا نرى ذكر علي وآل البيت والحسين بنوع خاص يتردد في كتاباتهم إلى

---

(١) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص٩٨.

(٢) المصدر السابق ص٩٩، ١٠٠.

(٣) انظر إخوان الصفاء / جبور عبد النور ص١٨ - ٢٠.

(٤) رسائل إخوان الصفاء جـ٤ص٧١ الرسالة الأولى.

(٥) الرسائل جـ ٤ص٩٨ الرسالة الثالثة.

أن يصلوا إلى مقطع من تلك الرسائل فيعلنوا بدون التواء انتماءهم إلى العلوية، ويأخذوا بنقد جماعات شريرة من الناس جعلوا التشيع سترا لهم[1]، كقولهم في مخاطبة أحد المتشيعين: «ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيته الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين»[2]. وهذه الطريقة في الدعوة تشبه طريقة دعاة الإسماعيلية، وتشكلهم بما يلائم الحال، ومخاطبتهم الناس على حسب أهوائهم وأمزجتهم.

ولذلك فإن البحث عن الهدف السياسي لإخوان الصفاء، الذي دأب الكثير من المؤلفين عنهم البحث عنه، لا يجدي شيئا في إبعاد حقيقة انتمائهم الإسماعيلي.

وإلى جانب ذلك فإن في الرسائل نصوصا تظهر نقمة على السلطة الشرعية، ومسعى للثورة عليها، وهو هدف الإسماعيلية النهائي، فنجدهم في هذه الرسائل يتنبأون بانتهاء الحكم الحاضر وذلك كما يزعمون: «لأنه قد تناهت قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنقصان... وأن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان ودور وقرآن من أمة إلى أمة ومن أهل بيت إلى أهل بيت ومن أهل بلد إلى أهل بلد... وأن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد ويتفقون على رأي واحد ودين واحد ومذهب واحد، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا بأنهم يتناصرون ولا يتخاذلون ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضا»[3]. بل ويصل بهم الأمر إلى توجيه الرسل لتنبيه الصحب والأتباع قرب مجيء اليوم، وظهور الأمر، ويطلبون من خاصتهم الاتصال بالأمراء والقواد والموالين لهم لاطلاعهم على ما يتم في مقبل الأيام من ثورات، وما تؤول إليه الحوادث من تطور ليكون هؤلاء الأمراء والقواد على استعداد عند وقوع المنتظر من نصرة الدين وفتح البلاد والاستيلاء على القلاع والبقاع[4].

---

(١) إخوان الصفاء / جبور عبد النور ص٢١.

(٢) رسائل إخوان الصفاء / جـ ٤ص٢٤٢ الرسالة السابعة.

(٣) الرسائل جـ٤ص٢٣٥ الرسالة السابعة.

(٤) إخوان الصفاء / جبور عبد النور ص٢٤.

أما القول بأن إخوان الصفاء: علويون وباطنيون وإسماعيليون ومعتزلة وفيثاغوريون وأفلاطنيون ومجوس، وأن في نفوسهم ميلا إلى الوثنية[1]. فهذا في الحقيقة يؤكد بأن رسائل إخوان الصفاء إسماعيلية، لأن هذا الخليط من العقائد والفلسفات هو مصدر العقائد الإسماعيلية، فالكتاب الإسماعيليون يستشهدون بأقوال الفلاسفة والأنبياء جنباً إلى جنب، باعتبار أن الفلاسفة عند هؤلاء في مصاف الأنبياء، والفلسفة عند إخوان الصفاء هي «التشبه بالإله بحسب طاقة الإنسان»[2]. كل هذا يدلنا على أن اتخاذ الفلسفة أداة للدعوة موجود عند الإسماعيلية وعند إخوان الصفاء، فعن طريقها يجذبون الناس نحو ضلالاتهم.

كما أن ذكر الكواكب والأفلاك وأثرها في عالم الكون والفساد الطاغية في الرسائل، لا تختلف في أي ناحية منه عما هو موجود في كتب الإسماعيلية، فمعالم الوثنية الموجودة في الرسائل والتي تحدث عنها الأستاذ جبور عبد النور هي معالم عقيدة الإسماعيليين.

وقبل أن نختتم هذه النبذة عن إخوان الصفاء وعلاقتهم بالإسماعيلية، لا بد أن نأتي على ذكر أمرين هامين يضافان إلى جملة الشواهد التي سبق ذكرها، وهما القول بالتقية والأبوة الروحانية، وهذا من الاعتقادات الهامة عند الإسماعيلية، وكذلك لدى إخوان الصفاء، حيث نجد للتقية وحفظ السر وكتمانه ذكرا وتأكيدا في رسائلهم[3]، كما أن للأبوة الروحانية وأهمية تلقي العلم من معلم موثوق ومعصوم، وجود في رسائل إخوان الصفا، حيث أفردوا لها رسالة كاملة وهذا يدل على أهميتها[4].

هذه نبذة قصيرة عن إخوان الصفاء وخلان الوفاء، تظهر مصدر هؤلاء وحقيقة مذهبهم، ولعل الفصل القادم الذي يتحدث عن عقائد إخوان الصفاء، تزيدنا تأكيدا ووضوحا في أن مصدر عقائد الإخوان والإسماعيلية واحد، لا اختلاف فيه.

---

(١) انظر المصدر السابق ص٢٦.

(٢) الرسائل جـ١ ص٢٢١ الرسالة الثامنة.

(٣) انظر الرسائل جـ١ ص٢٠.

(٤) انظر الرسائل جـ٤ ص١١٣ الرسالة الرابعة.

الفصل السادس

الجانب الباطني في رسائل إخوان الصفاء

١ - نظرتهم إلى الألوهية والتوحيد:

أخذ إخوان الصفاء في رسائلهم بنظرية الفيض الأفلاطونية للتدليل على آرائهم بالألوهية، وقد عمل إخوان الصفاء على تلفيق عدة نظريات فلسفية في محاولتهم إظهار صحة معتقدهم في الألوهية، «فأخذوا بنظرية الفيض عند أفلوطين ومزجوها بفلسفة فيثاغورس في الأعداد، وبفلسفة الفلاسفة الطبيعيين من القول بالعناصر الأربعة، بالإضافة إلى فلسفة أرسطو القائلة بالهيولى والصورة»[١].

ومما يذكر أن نظرية الفيض ترجع إلى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وأول من قال بها أفلوطين مؤسس هذه المدرسة، وهي النظرية التي تقول بها الإسماعيلية عند حديثها عن الألوهية ومراتب الوجود[٢].

وقد لخص إخوان الصفاء نظريتهم في الفيض بالرسالة الأولى من المجلد الثالث بقولهم: «إن الله تعالى لما كان تام الوجود كامل الفضائل عالما بالكائنات قبل كونها قادرا على إيجادها متى شاء، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ولا يفيضها. فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين الشمس النور والضياء، ودام ذلك الفيض منه متصلا متواترا غير منقطع فيسمى أول ذلك الفيض العقل الفعال وهو جوهر بسيط روحاني نور محض في غاية ذلك الفيض العقل الفعال وهو جوهر بسيط روحاني نور محض في غاية التمام والكمال والفضائل، وفيه صور جميع الأشياء، كما تكون في فكر العالم صور المعلومات. وفاض من العقل الفعال فيض آخر دونه في الرتبة يسمى العقل المنفعل وهي النفس الكلية وهي جوهرة روحانية بسيطة قابلة للصور

---

(١) تاريخ الفكر العربي / د. عمر فروخ ص٣٨٦.

(٢) انظر تفصيل ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

والفضائل من العقل الفعال على ا لترتيب والنظام... وفاض من النفس أيضا فيض آخر دونها في الرتبة يسمى الهيولى الأولى، وهي جوهرة بسيطة روحانية قابلة من النفس الصور والأشكال بالزمان شيئا بعد شيء»[(١)].

وكما تزعم الإسماعيلية أن الفيض الذي يؤمنون به يختلف عن الإبداع الذي تقول به الفلاسفة، كذلك يزعم إخوان الصفاء بهذا الاختلاف، «فهم يرون أن كل موجود تام فإنه يفيض منه على ما دونه فيض ما، وأن ذلك الفيض هو من جوهره، يعني صورته المقومة التي هي ذاته، أما الإبداع فهو يعني أن الأمور أبدعت وأخرجت من العدم إلى الوجود، وخاصة الأمور الروحانية الإلهية التي هي العقول»[(٢)].

وعندما يمزج إخوان الصفاء بين نظرية الفيض الأفلاطونية ونظرية العدد الفيثاغورية في أن الواحد أصل الوجود يقولون: إن الباري أول ما أبدع من (نور وحدانيته) جوهرا بسيطا يقال له العقل الفعال، كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار، وأنشأ (النفس الكلية الفلكية) من (نور العقل)، والهيولى الأولى من (حركة النفس)، وأنشأ أخيرا سائر المخلوقات في العالم من الهيولى بتوسط العقل والنفس، كما أنشأ سائر الأعداد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها، وبهذا الاعتبار يصح القول عن الباري أنه المبدأ الأول للأشياء جميعها، تماما كما يعتبر الواحد المبدأ الأول للأعداد جميعها[(٣)].

وقد كان لنظرية الفيض هذه التي اعتنقها إخوان الصفاء أثر في الإسماعيلية، وتطور آرائهم في الإمامة، وفكرة الإمامة عندهم لم تكن إلا قناعا ستروا وراءه برامجهم الهدامة، ولم تكن إلا تكأة إسلامية المظهر اعتمدوا عليها كأداة للتقويض والتدمير، «وقد بدأ الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية، تلك التي بنى عليها إخوان الصفا فلسفتهم الدينية في رسائلهم، واستنبطت الإسماعيلية من هذه الفلسفة أعمق نتائجها وأشدها تطرفا،

---

(١) الرسائل جـ٣ص١٩٧، ١٩٨، الرسالة الأولى.

(٢) إخوان الصفاء / مصطفى غالب ص٤٦.

(٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية / د. ماجد فخري ص٢٣٢.

فوضعوا بذلك نظاما فلسفيا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكوني التي وضحتها هذه الفلسفة، وقد بينوا فيه المظاهر الدورية للعقل الكلي، التي بدأت سلسلتها بآدم وانتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، واختتمت بالإمام الذي ولي الإمام السادس عند الشيعة - وهو إسماعيل وابنه محمد - مكونين حلقة سبعية من (الناطقين)، وكل مظهر من هذه المظاهر الدورية للعقل الكلي يبدو في وقته حتى يكمل إنجاز العمل الذي أداه المظهر السابق،[1] أي أن الوحي الإلهي لا ينقطع ولا ينتهي في فترة زمنية من فترات تاريخ الخليقة، وبهذا النظام الدوري المتكرر، يلي المهدي الناطق السابع، آتيا برسالة تعد من حيث هي مظهر من المظاهر الدورية أكمل وأعظم مما سبقها، بل تفوق رسالات من سبقه حتى رسالة النبي محمد ﷺ.

وهذا التطبيق لفكرة المهدية يهدم إحدى دعائم الإسلام الأساسية وهي أن محمد ﷺ خاتم النبيين، «وينبئ عن زيغ في العقيدة، وإن لم يظهر أثر هذا التطبيق في رسائل إخوان الصفاء كما ظهر في آراء من اتخذوا رسائلهم كتابا يقتدى به أو دستورا للعقيدة وهم الإسماعيلية، فالنظرية في ذاتها تهدم العقيدة الإسلامية في الإله وقدرته، فهم وان قالوا بأن الله علة العالم، لكنهم قرروا أنه لا يستطيع خلقه وأن العالم صدر عنه كما يصدر الضوء عن الشمس فهو لازم له لا يستطيع حبسه ومنعه، وهذا القول ينفي القدرة الإلهية كما يفهمها المسلمون وينفي الإرادة الإلهية كما يقول بها الإسلام، ويصف الله - جل وعلا - بأنه لا حيلة له في خلق العالم، ولا شأن له به، ولا رأي له فيه»[2].

ولا شك كذلك أن نظرية الفيض التي جاء بها إخوان الصفا وآمنت بها الإسماعيلية، توحي لمن يتمعن بها بأن هذا العالم قديم، باعتبار أن الله قديم، فالعالم الذي فاض عنه قديم مثله، ولهذا فلا نهاية له أيضا، فالله الذي فاض منه هذا العالم باق، فالفيض الذي فاض منه باق ببقائه. ويصف الأستاذ عمر الدسوقي في النهاية التي يصل إليها كل مؤمن بهذه

---

(١) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص١٥٠.

(٢) المصدر السابق ص١٥٠.

النظرية بقوله: وعلى هذا فلا داعي للشرائع والتكاليف، لأنه لا يوجد حساب أو عقاب أو قيامة، لأن الله لم يكن له شأن في خلق هذا العالم، ولم يوجده لغاية، ولم يتصل به أي اتصال، فكيف يكلفه وهو لم يرد خلقه لشيء معين يريده هو؟![1].

ومع أن هذه النظرية تثبت قدم العالم، إلا أن إخوان الصفاء ناقضوا أنفسهم وحاولوا التلفيق بإثبات أن العالم حادث، وأن له نهاية ليبرهنوا أن نظريتهم لا تتناقض مع العقيدة الإسلامية، فقالوا: إن وجود العالم عن الله سبحانه ليس كوجود الدار عن البناء إذا فرغ من بنائها لم تعد في حاجة إليه، ولا كوجود الكتاب عن الكاتب إذا انتهى من كتابه صار له وجود مستقل منه، ولكنه كوجود الكلام عن المتكلم، فإن سكت بطل وجود الكلام، فالكلام يكون موجودا ما دام المتكلم يتكلم، ومتى سكت بطل وجوده، أو كوجود نور السراج في الهواء، ما دام السراج باقيا فالنور باق موجود، أو كوجود ضوء الشمس في الجو فإن غابت الشمس بطل وجود الضوء وكما أن كلام المتكلم ليس جزءا منه بل هو فعل له، وعمل أظهره بعد أن لم يكن، وكذلك صدور النور عن الشمس ليس جزءا منها، بل هو فيض وفضل منها، وكذلك حرارة النار المنتشرة من حولها ليست بجزء من الشمس بل هي فيض منها، فكذلك وجود العالم عن البارى، ليس بجزء منه سبحانه، بل فضل تفضل به، وفيض أفاضه، وفعل فعله بعد أن لم يكن فعل، كما أن المتكلم فاه بكلامه بعد أن لم يكن[2].

وبذلك تكون هذه النظرية في نظرهم قد تلاءمت مع العقيدة الإسلامية، مع أن هذا التبرير ما هو إلا تدعيم لها وتصديق بخرافاتها.

٢- نظرتهم إلى الأنبياء والرسل:

أفرد إخوان الصفاء الرسالة السادسة من الجزء الرابع من رسائلهم للبحث في ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة، وهم يرون أن أرفع منزلة يرتفع إليها الإنسان هي منزلة الأنبياء، ويليهم في

---

(١) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص١٥٠، ١٥١.

(٢) المصدر السابق ص١٥٢.

المرتبة الفلاسفة والحكماء، وأن تمام منزلة النبي في ست وأربعين خصلة من فضائل البشرية أولها الرؤية الصادقة. فإذا اجتمعت هذه الخصال في واحد من البشر، في أي وقت من الزمان، فإن ذلك الشخص هو المبعوث وصاحب الزمان، والإمام للناس ما دام حيا[1].

وهذا يعني أنهم لا يؤمنون بـ (ختم النبوة)، وأن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فعلى حد زعمهم: كلما توفرت هذه الخصال في إنسان أصبح نبيا مرسلا؟! فالنوبة عندهم هي درجة يرتقي إليها العلماء والفلاسفة، فهي عندهم أرقى الدرجات، «ولذلك فقد اعتبروا كل فيلسوف كبير نبي، ومن أجل ذلك نراهم يجمعون بين موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وزرادشت وسقراط وفيثاغورس وعلي والحسين في طبقة واحدة»[2].

ويزعم إخوان الصفاء بأن الشريعة الإلهية المنزلة على الأنبياء: «جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية في جسد بشري بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية بإذن الله تعالى في دور من الأدوار والقرانات وفي وقت من الأوقات، لتجذب بها النفوس الجزئية وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة»[3].

ويرى إخوان الصفاء رأي الإسماعيلية، «في أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة وهي الألفاظ المقروءة المسموعة، ولها تأويلات خفية باطنة وهي المعاني المفهومة المعقولة... وفي استعمال أحكامها الظاهرة صلاح للمستعملين في دنياهم، وفي معرفة أسرارها الخفية صلاح لهم في أمر معادهم وآخرتهم، فمن وفق لفهم معاني الكتب الإلهية وأرشد إلى معرفة أسرار موضوعات الشريعة... فإن تلك النفوس هي التي إذا فارقت الجسد ارتفعت إلى رتبة الملائكة التي هي جنات لها... ومن لم يرشد لهم تلك المعاني ولا معرفة تلك الأسرار... فإن تلك النفوس عند مفارقتها ا لجسد تبقى محفوظة على صورة الإنسانية»[4].

---

(١) انظر رسائل إخوان الصفاء / جـ٤ص١٧٨، ١٧٩ الرسالة السادسة

(٢) تاريخ الفكر العربي / عمر فروخ ص٣٩٠.

(٣) رسائل إخوان الصفاء / د ـ٤ص١٨٢ الرسالة السادسة.

(٤) رسائل إخوان الصفاء / جـ٤ص١٩٠ الرسالة السادسة.

ومما يسترعي الانتباه في رسائلهم، الموقف الذي وقفه إخوان الصفاء من الأديان الأخرى، فقد نادوا بوحدة الأديان وقالوا: «بأن غرض الأنبياء عليهم السلام وواضعي النواميس الإلهية أجمع غرض واحد وقصد واحد، وان اختلفت شرائعهم وسنن مفترضاتهم وأزمان عباداتهم وأماكن بيوتهم وقرابينهم وصلواتهم، كما أن غرض الأطباء كلهم غرض واحد ومقصد واحد في حفظ الصحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة، وان اختلفت علاجاتهم... وهكذا غرض الأنبياء عليهم السلام وغرض جميع واضعي النواميس الإلهية من الفلاسفة والحكماء[1]؟!».

فالتوراة والإنجيل، والقرآن، وغيرها من الكتب الدينية عندهم سواء، فما دام الرب والخالق والرازق واحد، فلا حاجة إذن للاختلاف في الآراء والمذاهب والديانات، لأن المقصود بهذه الديانات واحد وهو التوجه إلى الله، من أجل ذلك فهم يعتقدون أن أهل الديانات يقتتلون طلبا للملك والرئاسة، فكل واحد من واضعيها يريد انقياد الناس أجمع لسنة دينه وأحكام شريعته؟![2].

ومما يقوم شاهدا على أن مرادهم كان استيعاب الديانات كلها في دين واحد، ومذهب واحد، «وهو موقفهم السمح من النصرانية وإقرارهم بأصالة الأناجيل، فنراهم يستشهدون بالأناجيل، وفي الاقتباس منها، مسلمين ضمنا بمحتواها، ومع أن القرآن يعتبر صلب المسيح تشبيها، نراهم يشيرون إلى هذا الصلب بعبارات توحي بالتصديق والإثبات، أما أسفار المسيح ومعجزاته فأكثر ما يوردونها كما جاءت في الأناجيل، لا كما وردت في القرآن»[3].

وعندما يتحدث إخوان الصفاء عن صلب المسيح، نراهم يقرون هذا الصلب، ويرون رأي النصارى في أن المسيح لما صلب فارق لاهوته ناسوته، ويذكرون قول النصارى على

---

(١) الرسائل / جـ٢ص١٢٠، ١٢١ الرسالة السادسة.

(٢) الرسائل / جـ٢ص٣٠٨ الرسالة الثامنة.

(٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية / د. ماجد فخري ص٢٤٥،٢٤٦.

لسان المسيح: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وأنا أوصيكم بوصية قبل مفارقة لاهوتي... فإني إذا فارقت ناسوتي فإني واقف في الهواء على يمنة عرش أبي وأبيكم»[1].

لهذا فقد كان موقف إخوان الصفاء ووصيتهم إلى أتباعهم: «أن لا يعادوا علما من العلوم، أو يهجروا كتابا من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأيهم ومذهبهم يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها»[2].

ويصف الأستاذ عمر الدسوقي هذه العبارة بقوله: «وهذه عبارة واضحة من أنهم يلبسون لكل حال لبوسها، ويظهرون الموافقة لأصحاب الديانات الأخرى، والمذاهب المتباينة، ثم يستدرجونهم إلى عقيدتهم ومذهبهم»[3].

والخلاصة، إن إخوان الصفاء لا يعترفون بأن محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، ويجعلون سقراط وأفلوطين وفيثاغورس في مصاف الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وبالتالي فهم يرون أن جميع الأديان والمذاهب هدفها واحد، وإن وجد اختلاف في وسائلها، فهذا لا يعني التناقض، ولا يوجد الخلاف؟! وكأن الهدف النهائي لإخوان الصفاء من هذه النغمة المريبة هو محو الأديان والوقوف على أطلالها. وهذا الذي جعل الكاتب الإسماعيلي مصطفى غالب يقول: «وهذا هو دين الحب الإنساني الذي بشروا به ودعوا إليه. ومن الطبيعي أن يتأثر بأفكارهم هذه عباقرة الفلاسفة من المتصوفين، وعلى رأسهم محي الدين بن عربي[4] الذي نادى بدين الحب ووحدة الوجود ووحدة المعبود»[5].

---

(١) الرسائل / جـ٤ ص٩٧ الرسالة الثالثة.

(٢) الرسائل / جـ٤ ص١٠٥ الرسالة الرابعة.

(٣) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص١٠٦.

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي، من غلاة الصوفية، ولد بالأندلس ثم انتقل إلى مصر فصدرت عنه أمور تدل على الكفر فأريق دمه، فهرب إلى دمشق حيث دعا هناك إلى وحدة الوجود والقول بالحلول فقتل سنة ٦٣٨هـ.

(٥) إخوان الصفاء / مصطفى غالب ص١١١٧، ١١٨.

٣- نظرتهم إلى الأمور الغيبية:

لا يؤمن إخوان الصفاء - شأنهم شأن الإسماعيلية - بالثواب والعقاب الحسي الموجود في الجنة والنار، ويزعمون: «أن جهنم هي عالم الكون والفساد التي هي دون فلك القمر، وأن الجنة هي عالم الأرواح وسعة السموات، وأن أهل جهنم هم النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم»[(١)]. ويرون «أن البعث والقيامة أمور تقال لعامة الناس، ولمن لا يعرف من الأمور شيئا، أما الخاص ومن قد نظر في العلوم، فإن هذا لا يصلح لهم، وذلك لأن كثيرا من العقلاء والحكماء ينكرون خراب السموات ويأبون ذلك إباء شديدا، والجيد لهم إذن أن يعتقدوا أمر الآخرة، أن لها وجوداً متأخرا عن الكون في الدنيا، كما كان في الدنيا موجودا متأخرا عن الكون في الرحم، وكما كانت أيام الشيخوخة متأخرة عن أيام الشباب... وهي أحوال تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد إذا هي انتبهت من نوم غفلتها في الدنيا واستيقظت من رقدة جهالتها قبل المات»[(٢)].

فجهنم في عرفهم هي (عالم الكون والفساد) الواقع تحت فلك القمر، والجنة هي (عالم الأرواح وسعة السماء)، فمتى بلغت النفس عالم الأفلاك بأعمالها الحسنة في عالم الكون والفساد، نالت النعيم الدائم، ونجت من المصائب والأهوال التي تلحق بالأجساد، فهم إذن يؤمنون بقدم العالم وخلوده، لأن الجنة والنار تعني عندهم شيئا آخر.

ولهذا ينكر إخوان الصفاء اليوم الآخر كما جاء به القرآن ويؤمن به المسلمون، ويعتبرون الجنة والنار والبعث والحساب صالحة للعوام فقط. وهم في سبيل البرهان على صحة ذلك يعمدون إلى تأويل الآيات القرآنية التي تتحدث عن عذاب جهنم ونعيم الجنة، فعلى زعمهم أنه من «الآراء الفاسدة من يرى ويعتقد أن الله الرحيم الرؤوف يعذب الكفار والعصاة في خندق في النار غيظا عليهم وحنقا، وكلما احترقت أجسادهم وصارت لحما

---

(١) الرسائل جـ٣ص٧٨ الرسالة السادسة عشرة.

(٢) الرسائل جـ٤ص٤٠ الرسالة الأولى.

ورمادا عادت فيها الرطوبة والدم لتحرق ثانية، فهذا الرأي - على حد زعمهم - يعني الإساءة لله، والاعتقاد بأنه قليل الرحمة شديد القسوة - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-»[1].

ومن الآراء الفاسدة أيضا عندهم: «أن يعتقد الإنسان بأن أهل الجنة أجسادهم لحمية، وأجسامهم طبيعية مثل أجساد أبناء الدنيا قابلة للتغير والاستحالة متعرضة للآفات، فإذا تأمل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب ولا يذوقون فيها نصب ولا يذوقون فيها الموت... لأنه لا يليق بالعقلاء أن يعتقدوها، فضلا عن عقول الحكماء بل النساء والجهال والصبيان جيد لهم، فإن هذا الرأي يليق بأفهامهم ويصلح لهم... وأما من رزقه الله قليلا من التمييز والعقل والفهم، ونظر في علوم الحكمة فإن هذا الرأي لا يصلح له، ولا يليق به لأنه إذا عرضه على عقله أنكره»[2].

وأما قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[3]، فيزعمون في تأويلها: بأنه «إنما قيل أن جهنم لها سبع طبقات، لأن الأجسام التي دون فلك القمر سبعة أنواع، أربع منها هي الأمهات المستحيلات، التي هي الأركان الأربعة، وهي النار والهواء والماء والأرض، وثلاث هي المولدات الكائنات الفاسدات التي هي المعادن والنبات والحيوان... وإنما قال لها سبعة أبواب، لكل باب منهم جزء مقسوم، لأن كل ما يجرى في عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة، وإنما قال «عليها تسعة عشر»[4]، لأن دلائلها لا تظهر في عالم الكون والفساد إلا بمسيرها في هذه البروج الاثنا عشر فجملتها تكون تسعة عشر، وهي التي بها يكون تقلب أحوال الدنيا وما تقتضيه موجبات أحكامها من مواليد هذه الأجساد...»[5].

---

(١) الرسائل جـ٤ ص٦١، ٦٢ الرسالة الأولى.

(٢) الرسائل جـ٤ ص٦٢ الرسالة الأولى.

(٣) سورة الحجر آية ٤٣، ٤٤.

(٤) يشيرون إلى قوله تعالى ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة المدثر آية ٢٦ - ٣٠.

(٥) الرسائل جـ٣ ص٧٩ الرسالة السادسة عشرة.

ويضيفون إلى مزاعمهم: «بأنه ليس غرض الأنبياء عليهم السلام فيما وصفوا من مجلس الجنان ولذات أهلها هو الإقرار باللسان حسب بلا اعتقاد... بل الغرض هو التصور لها بحقائقها... فتارة وصفها أوصافا جسمانية على قدر طاقة القوم... تارة وصفها بأوصاف روحانية على قدر فهم المتوسطين... فإنه قال مثل الجنة على سبيل التشبيه والتمثيل ليقرب من الفهم تصورها، لأنه يقتصر الوصف عنها بحقائقها»[1].

وهكذا فهم يرون أن من الاعتقادات والآراء المحيرة والتي تبعث على الشك والريبة، أن يعتقد الإنسان أنه يباشر في الجنة مع الأبكار ويلتذ منها، ومن لا يرجو الجنة إلا بعد خراب السموات وطيها كطي السجل للكتب، ومن يعتقد أن أعمال الإنسان تجعل في كفتين من كفتي الميزان، أو من يعتقد سؤال منكر ونكير في القبر من جسد الميت، ومثل من يعتقد ويرى أن في الجحيم تنانين وثعابين وأفاع يأكلون الفساق... وما شاكل هذه من الاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها[2].

ويبدو أن مزاعم إخوان الصفاء حول الجنة والنار لم تكن إلا قناعا ستروا وراءه معتقدهم الأساسي في هذا الموضوع وهو القول بالتناسخ، ومع أنهم لم يصرحوا بهذه العقيدة في رسائلهم، إلا أنها واضحة جلية بين السطور التي تتحدث عن النفس والجسد، فكان الخوف أو التقية سببا في عدم ذكرها صراحة في رسائلهم.

ومع الأسف، فإن جميع من درسوا رسائل إخوان الصفاء، لم يتنبهوا لهذه العقيدة الوثنية رغم وضوحها، إلا الأستاذ سعيد زايد في بحثه عن إخوان الصفاء، فقد لمح إليها تلميحا بعد أن أورد نصا من نصوص الرسائل فقال: «وهذا القول قريب من فكرة التناسخ التي يقول بها الفيثاغوريون»[3]. والنص الذي يستشهد به الأستاذ زايد هو قولهم: «أن النفس الجزئية إذا تستتم بالعلوم والمعارف فإنها ما دامت مرتبطة بالأجساد البشرية

---

(١) الرسائل جـ٣ص٩٠ – ٩٢ الرسالة السادسة عشرة.

(٢) الرسائل جـ٣ ص٨٧ الرسالة السادسة عشرة.

(٣) تراث الإنسانية / بحث للأستاذ سعيد زايد عن رسائل إخوان الصفاء – مجلد ٧ص٣٤٨.

متهيء لها إدراك المحسوسات فلا تستكمل صورها بمعرفة حقائق الأشياء ما دام لها العقل والتمييز والروية، ولا هي تهذيب بالأخلاق الجميلة ما دام يمكنها الاجتهاد والعزيمة، ولا هي قومت اعوجاجها من الآراء الفاسدة وقد أرهقتها أعمالها السيئة وأثقلتها أفعالها القبيحة، فإنها عند مفارقة الأجساد لا تنتفع بجوهرها ولا تستقل بذاتها، ولا يمكنها النهوض إلى الملأ الأعلى من ثقل أوزارها ولا يعرج بها إلى ملكوت السماء ولا تستأهل للدخول في زمر الملائكة وتغلق دونها أبواب السماء ويفوتها ذلك الروح والريحان... فإذا فاتها ذلك المكان الشريف بقيت مقيدة في الهواء تهوي دون السماء وتجرها شياطينها التي تتعلق عليها من الشهوات الجسمانية والآراء الفاسدة، والاهتمام بالأمور الهيولانية راجعة إلى قعر الأجساد المدلهمة وأسر الطبيعة الجسدانية، وتدفعها أمواج الشهوات المحرقة المؤدية إلى أودية الهلاك حيث لا أنيس لها وتجرها الشياطين كما تجر العميان والزمنى»[1].

فالأجساد عند إخوان الصفاء كالخيل، والنفوس كالفرسان، والنفس محبوسة في هذا الجسد، وما دامت كذلك فهي في شقاء وآلام، لأن الجسد ينبوع لكل قاذورات[2]، فإذا عملت النفس - وهي داخل الجسد - صالحا، ارتفعت إلى عالم الأرواح والملائكة، وإذا لم تعمل صالحا، بقيت في جهنم - أي في عالم الكون والفساد[3]، أي تبقى النفس تتعذب بتقلبها بين الأجساد وتنال بذلك الآلام والأوجاع.

ولذلك نرى إخوان الصفاء يكثرون من الحث على التخلص من ربقة المادة والجسد، لأن في ذلك - على حد زعمهم - رأى الأنبياء والفلاسفة، فهؤلاء يرون أن هذه الأجساد حبس للنفوس أو حجاب لها.... ويستدلون على صحة قولهم: بأن البراهمة يحرقون أجسادهم وهم حكماء الهند، وذلك لأنهم يرون ويعتقدون أن هذه الأجساد لهذه النفوس الجزئية بمنزلة البيض للفرخ... وهكذا حال النفس مع الجسد إنما تشفق على الجسد

---

(١) الرسائل جـ٣ص٢٦، ٢٧ الرسالة الثالثة عشرة.

(٢) الرسائل جـ٣ص٦١، ٦٥، الرسالة الخامسة عشرة.

(٣) انظر الرسائل جـ٣ص٧٨ الرسالة السادسة عشرة.

وتصونه وتحن عليه، ما لم تعلم بأن لها وجودا خلوا من الجسد، وأن ذلك الوجود خير وأبقى وألذ وأحسن من هذا الوجود والبقاء الذي مع الجسد، لأنها ما دامت في قعر الأجسام فهي مبتلاة بخدمة الأجساد[1] وبهذا الاعتقاد صح عندهم أن النفس هي جوهر غير الجسم، وأنها هي الحاملة له المبتلاة به[2].

وينقل مصطفى غالب عن الرسالة الجامعة وصفا للعذاب الذي يحل بأهل النار كما يتصوره إخوان الصفاء بقولهم: «فأما كيفية صورة أهل النار الكبرى التي هي العذاب الأليم والذل المقيم، فهي أن النفوس العاصية المنكرة لباريها المتخلفة عن الطاعة... فإنهم إذا حل الموت بهم ونزلت الملائكة الغلاظ الشداد إليهم، وهي روحانيات زحل والمريخ، إلى الأشخاص التي هي مستولية على مواليدها، مخصوصة بنفوسها، وهي البرزخ المظلم، وهي أول طبقة جهنم ويتولى عذابها الملائكة المنبثة بأمر الله في الدنيا بالعذاب الأليم للأنفس المستخرجه من الصور الإنسانية بكمال المعصية والجحود، والإنكار، ولا تزال تلك الروحانيات تتبع لها تارة بعد تارة بأنواع العذاب، من القتل، والذبح، والموت، إلى أن تستكمل السلوك في السلسة التي ذكرها الله تعالى بقوله وأمره للملائكة ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾[3].. ولا يزال ذلك دأبها ما دامت السموات والأرض، فهي موكلة بها أعمالها السيئة التي اكتسبتها مدة صحبتها للأجسام في أيام الحياة الدنيا، فهذه معرفة جهنم وصورة أهلها إذا حلوا بها ونزلوا بساحتها[4]».

والدارس لرسائل إخوان الصفاء يستطيع أن يجزم بأن إخوان الصفاء لا يؤمنون بالأمور الغيبية مطلقاً، بل يحاولون أن يؤولوا جميع الأمور الغيبية إلى أمور حسية، كما لاحظنا في تأويلاتهم للجنة والنار، لذلك فهم ينكرون أيضا وجود إبليس والشياطين،

(١) الرسائل جـ٤ص٩١، ٩٢ الرسالة الثالثة.

(٢) انظر إخوان الصفاء / جبور عبد النور ص١١٦ نقلا عن الرسائل جـ٤ص٢٩٦.

(٣) سورة الحاقة آية ٣٠ – ٣٢.

(٤) إخوان الصفا / مصطفى غالب ص١٥٩، ١٦٠ نقلا عن الرسالة الجامعة.

فالاعتقاد بوجودهم - على حد زعمهم - من الآراء الفاسدة ويقولون: ومن الآراء الفاسدة من يعتقد أن الله خلق خلقاً ورباه وأنماه وأنشأه وسلطه وقواه على عباده متمكنا في بلاده، ثم ناصبه بالعداوة والبغضاء وهو إبليس وجنوده من الشياطين وهم يفعلون ما يريدون على رغم منه! وهو الجاعل لهم المشيئة والإرادة والعداوة والاستطاعة وطول العمر والمهلة وسعة الرزق والنعمة[١].

٤- أثر الفلسفة في عقائد إخوان الصفاء:

يشترك إخوان الصفاء مع الحركات الباطنية الأخرى في الاهتمام بالفلسفة، ولذلك نراهم قد عظموا من أمرها كثيراً، واعتبروها: «بأنها التشبه بالإله بحسب طاقة الإنسان[٢]»)، لأن من إحدى غاياتهم ووسائلهم مزج الدين بالفلسفة، فنراهم يأتون بشواهد من أقوال الفلاسفة والحكماء، بجانب الشواهد من أقوال الرسل والأنبياء، فبينما يستشهدون بأقوال أرسطو طاليس وفيثاغورس، إذ هم يثبتون أقوالا مأثورة عن المسيح والرسول عليهما الصلاة والسلام[٣] ففلسفتهم حسبما رددوا مرارا في رسائلهم، قائمة على التوفيق بل التلفيق، فقد جمعوا فيها بين ما جاءت به الأديان، وما جاء على لسان الحكماء، وما أنتجته قرائح الفلاسفة والعلماء، وأضافوا إلى ذلك أيضا بعض الشعوذات[٤].

وقد برر إخوان الصفاء سبب مزجهم الدين بالفلسفة لزعمهم: «أن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، فمتى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال[٥]».

---

(١) الرسائل جـ ٤ص٦٢ الرسالة الأولى.

(٢) الرسائل جـ ١ص٢٢١ الرسالة الثامنة.

(٣) إخوان الصفاء / عبد الكريم خليفة ص٣٨.

(٤) تراث الانسانية / بحث للأستاذ سعيد زايد عن رسائل إخوان الصفاء - مجلد ٧ص٣٤٦.

(٥) الإمتاع والمؤانسة / أبو حيان التوحيدي جـ٢ص٥.

فالعلوم الحكمية والفلسفية والشريعة النبوية، كلاهما عند إخوان الصفاء أمران إلهيان يتفقان في الغرض المقصود منهما الذي هو الأصل، ويختلفان في الفروع، «وذلك أن الغرض الأقصى من الفلسفة، هو ما قيل أنها التشبه بالإله بحسب طاقة البشر... وهكذا الغرض من النبوة والناموس فهو تهذيب النفس الإنسانية وإصلاحها وتخليصها من جهنم عالم الكون والفساد... وأما اختلافهما في الطرق المؤدية إليها، فمن أجل الطبائع المختلفة والأعراض المتغايرة التي عرضت للنفوس، وبذلك اختلفت موضوعات النواميس، وسنن الديانات، ومفروضات الشرائع[1]».

إذن فالخلافات التي قد تظهر بين الدين والفلسفة، هي على رأي إخوان الصفاء: «فروق في الفروع، وفي أسلوب الأداء التابع لأنواع الأمزجة ومختلف الحالات النفسية التي يتصف بها الأفراد، فكلما زادت النفس نقاوة وتحررا من قيود الجسد ومتطلباته، ازدادت قدرتها على إدراك المعاني الخفية المنطوية في الكلام الإلهي، وعلى الانسجام مع المعارف العقلية التي تقرها الفلسفة[2]».

وينقل أبو حيان التوحيدي عن المقدسي - أحد الذين يزعم التوحيدي أنه من مؤلفي إخوان الصفاء قوله: - إنما جمعنا بين الفلسفة والشريعة، لأن الفلسفة معترفة بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة لها، وإنما جمعنا أيضا بينهما لأن الشريعة عامة، والفلسفة خاصة، والعامة قوامها الخاص، كما أن الخاصة تمامها بالعامة، وهما متطابقتان إحداهما على الأخرى[3].

ولكن هل نجح إخوان الصفاء في محاولتهم العقيمة هذه؟ في الحقيقة إن الجواب الشافي كان من أستاذ التوحيدي أبي سليمان المنطقي السجستاني (محمد بن بهرام) حينما قال: «تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنّوا وما أطربوا، ونسجوا

---

(١) الرسائل جـ٣ص٤٨، ٤٩ الرسالة الرابعة عشرة.

(٢) تاريخ الفلسفة الإسلامية / د. ماجد فخرى ص٢٤٣.

(٣) الإمتاع والمؤانسة / التوحيدي جـ٢ص١٢.

فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا[1]، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدرسوا الفلسفة في الشريعة، وأن يضموا الشريعة للفلسفة. وهذا مرام دونه حدود، وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحد أنيابا، وأحضر أسبابا... فلم يتم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا منه ما أملوه، وحصلوا على لوثات قبيحة، ولطخات فاضحة، وألقاب موحشة، وعواقب مخزية، وأوزار مثقلة... فالشريعة مأخوذة عن الله - عز وجل - بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، على ما يوجبه العقل تارة، ويجوزه تارة، لمصالح عامة متقنة، ومراشد تامة مبينة، وفي أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه، والغوص فيه، ولا بد من التسليم للداعي إليه، والمنبه عليه، وهناك يسقط (لِمَ) ويبطل (كيف)، ويزول (هلا) ويذهب (لو) و (ليت) في الريح، لأن هذه المواد عنها محسوسة، واعتراضات المعترضين عليها مردودة، وارتياب المرتابين فيها ضار...[2]».

ومن ثم، فإن إخوان الصفاء بدل أن يزنوا الشريعة بميزان العقل، لم يفعلوا إلا أن خلطوا الدين بخرافات الفلسفة وأساطيرها، ولم يتعد أبو حيان التوحيدي الصواب حين حكم على رسائلهم بأنها فن بلا إشباع ولا كفاية، وأنها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات. وهم على حد تعبير الدكتور أحمد صبيحي: «لم تكن تعوزهم الروح النقدية في الفلسفة فحسب، وإنما أعوزتهم كذلك النزعة الوضعية في العلم، لقد هبطوا بالفلك إلى مستوى التنجيم، كما هبطوا بالعلوم عامة إلى مستوى السحر والخرافة، ولم تثمر نزعتهم التلفيقية بين مختلف المذاهب والأديان نسقا متسقاً، وإنما أنتجت مجموعة متنافرة من الآراء الأفلاطونية الحديثة في ثوب إسلامي قد نسج من الفيثاغورية والغنوصية والهرمسية[3]».

---

(١) أي جعلوا الشعر، شديد الجعودة.

(٢) الإمتاع والمؤانسة / التوحيدي ص٦، ٧.

(٣) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي / د. أحمد محمود صبحي ص٣٠٦.

وقد أورد أبو حيان التوحيدي أيضا ردا مفحما على هؤلاء من قبل شخص يدعى (الحريري)، نستدل منه على مقدار التناقض الذي وقع به إخوان الصفاء حين خلطوا الدين بالفلسفة فيقول (موجها كلامه إلى المقدسي): «وأما قولك: الفلسفة خاصة والشريعة عامة، فكلام ساقط لا نور عليه، لأنك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم - وهم العامة -، والفلسفة ينتحلها قوم - وهم الخاصة -، فلم جمعتم رسائل إخوان الصفاء ودعوتم الناس إلى الشريعة وهي لا تلزم إلا للعامة؟ ولم تقولوا للناس: من أحب أن يكون من العامة فليتحل بالشريعة؟ فقد ناقضتم، لأنكم حشوتم مقالتكم بآيات من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلول عليها بالشريعة، ثم الشريعة مدلول عليها بالمعرفة، ثم ها أنت تذكر أن هذه للخاصة، وتلك للعامة، فلم جمعتم بين مفترقين، ومزقتم بين مجتمعين؟ وهذا والله الجهل المبين، والخرق المشين. وأما قولك: إنا جمعنا بين الفلسفة والشريعة، لأن الفلسفة معترفة بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة للفلسفة، فهذه مناقضة أخرى، وإني أظن أن حسك كليل، وعقلك عليل، لأنك قد أوضحت عذر أصحاب الشريعة، إذ جحدوا الفلسفة، وذلك أن الشريعة لا تذكرها ولا تحض علي الدينونة بها، ومع ذلك فليس لهم علم بأن الفلسفة قد حثت على قبول الشريعة، ونهت عن مخالفتها، وسمتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم... ثم قال الحريري: حدثني أيها الشيخ: على أي شريعة دلت الفلسفة؟ أعلى اليهودية، أم على النصرانية، أم على المجوسية، أم على الإسلام، أم ما عليه الصابئون؟... أفتقول أن الفلسفة أباحت لكل طائفة من هذه الطوائف أن تدين بذلك الدين الذي نشأت عليه؟ ودع هذا ليخاطب غيرك، فإنك من أهل الإسلام بالهدى والجبلة والمنشأة والوارثة، فما بالنا لا نرى واحدا منكم يقوم بأركان الدين، ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعي معالم الفريضة ووظائف النافلة؟ وأين كان الصدر الأول من الفلسفة؟ أعني الصحابة، وأين كان التابعون منها؟ ولم خفي هذا الأمر العظيم - مع ما فيه من الفوز والنعيم - على الجماعة الأولى والثانية والثالثة إلى يومنا هذا... لقد أسررتم حسو

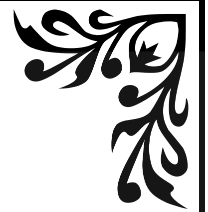
الارتغاء[1]، واستقيتم بلا دلو ولا رشاء... وأردتم أن تقيموا ما وضعه الله، وتضعوا ما رفعه الله، والله لا يغالب، بل هو غالب على أمره، فعال لما يريد[2]».

وكل هذا يدل على أن إخوان الصفاء، يضاف إليهم جميع الحركات الباطنية، قد اتخذوا من الفلسفة أداة لدعوتهم يشككون بها الناس في دينهم وعقيدتهم، فيهدمون الدين، ويرفعون بدله أطلال فلسفة الأوثان المهدومة.

---

(١) الارتغاء: أخذ الرغوة، وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد خلافه.

(٢) الإمتاع والمؤانسة / التوحيدي ص١٣، ١٤ جـ٢.

الباب الثاني

الدروز والأصول الباطنية التي قام عليها مذهبهم

الفصل الأول: نبذة عن نشأة الدروز وعلاقتهم بالإسماعيلية.

الفصل الثاني: الجانب الباطني في عقائد الدروز.





الذخيرة العربية

الفصل الأول

نبذة عن نشأة الدروز وعلاقتهم بالإسماعيلية

«الدروز في اللغة، فارسي معرب، ويقال للقمل والصئبان: بنات الدروز، وبنو درز: الخياطون والحاكة، وأولاد درزة: الغوغاء. والعرب تقول للدعي: هو ابن درزة، وذلك إذا كان ابن أمة تساعي فجاءت به من المساعاة فلا يعرف له أب[1]».

أما طائفة الدروز، فهي من الطوائف الباطنية التي انشقت عن الإسماعيلية في عصرها العبيدي، واتخذت لها مبادئ مخالفة في ظاهرها لمبادئ الإسماعيلية، وإن كانت لم تخالفها في جوهرها.

وتقيم هذه الطائفة في مناطق عديدة من بلاد الشام، فمنهم من يقيمون في الشوف بلبنان، وقسم آخر يقيمون بجبل الدروز في جنوب سوريا، وكذلك في هضبة الجولان المطلة على فلسطين، وآخرون يقيمون في شمال فلسطين.

والدروز يزعمون أنهم من القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية في الجاهلية إلى وادي تيم في بلاد الشام، واعتنقوا الإسلام هناك، ولكن المذهب الإسماعيلي انتشر بينهم بعد ذلك في أيام الدولة العبيدية، وكان لاعتناقهم هذا المذهب أثر كبير في سرعة استجابتهم لمذهب الدروز، وذلك حينما هرب إليهم محمد بن إسماعيل الدرزي، أحد دعاة تأليه الحاكم بأمر الله - والذي يقوم عليه المذهب الدرزي -، فقام بالدعوة لمذهبه هناك، فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه، وانتسبوا إلى اسمه، رغم أنهم يكرهونه في الوقت الحاضر.

لهذا فإن عقيدة الدروز في الحقيقة هي جزء مهم من عقيدة وتاريخ الإسماعيلية في عصرها العبيدي، لأنها تعبير حي عن حقيقتها وجوهرها، وهي بالتالي سجل تاريخ مهم لحقبة مهمة من تاريخ الدولة العبيدية. لذلك فإن الكتابة عن الدروز تبقى ناقصة وبلا فائدة، إذا لم تظهر وبشكل واضح العلاقة العضوية للدروز بالإسماعيلية.

---

(١) لسان العرب / ابن منظور جـ٥ ص٣٤٨.

ولكي نتابع تاريخ نشأة الدروز، لا بد لنا أن نتابع ونلم بتاريخ وعقائد الإسماعيلية، وكما مرّ سابقا[١] فقد تبين لنا كيفية ظهور المذهب الإسماعيلي على يد ميمون القداح، الذي كان تلميذا مخلصا لأبي الخطاب واضع اللبنة الرئيسية في الباطنية عموما. فاتخذ القداح هذا من إسماعيل بن جعفر وابنه محمد وسيلة لتحقيق أهدافه وغاياته المريبة والحاقدة لتدمير الإسلام وعقائده[٢]. وعلى هذه الطريق سار أحفاده وتلاميذه في تأسيس دولة في المغرب وتأجيج ثورة إلحادية في المشرق عرفت باسم القرامطة[٣].

وكما ذكرنا سابقا فإن عبيد الله المهدي استطاع أن يؤسس الدولة العبيدية في المغرب عام ٢٩٦هـ، بدعوى أنه من نسل آل البيت، حيث استطاعت هذه الدولة أن توطد أركانها هناك، وتتطلع إلى فتح مصر، وتمّ لها ذلك على يد أحد قوادها وهو جوهر الصقلي عام ٣٥٨هـ في عهد المعز لدين الله، الذي نقل بعد ذلك عاصمة ملكه من المغرب إلى مصر حيث بنى مدينة هناك سميت بالقاهرة وبقي المعز على سدة الملك حتى مات عام ٣٦٥هـ، فخلفه ولده العزيز بالله، الذي بقي في الملك حتى عام ٣٨٦هـ، فتولى الملك بعده ولده أبو علي المنصور، الذي لقب بـ (الحاكم بأمر الله)، والذي هو محور حديثنا عن نشأة الدروز وتاريخهم، لأن عقيدة هذه الطائفة تقوم على تأليهه وعبادته.

تولى الحاكم بأمر الله الحكم وعمره إحدى عشرة سنة، حيث عهد والده إلى ثلاثة من كبار رجال الدولة برعايته وتولي شؤون الدولة، وبقي الأمر كذلك حتى عام ٣٩٠هـ حينما استطاع الحاكم قتل أحد الأوصياء عليه، وتولى منذ ذلك الحين زمام الأمور هناك[٤].

وقد بدأ الحاكم حكمه بقتل عدد من كبار رجال الدولة، وإصدار سجلات غريبة شاذة يحرم فيها أشياء كثيرة، ثم يعود بعد ذلك إلى إباحتها بشكل متناقض، وكان أثناء

---

(١) يراجع في هذا الموضوع الأول من الباب الأول لهذه الرسالة.

(٢) يراجع في هذا الموضوع وبتفصيل أكثر كتاب عقيدة الدروز للمؤلف.

(٣) يراجع في هذا الموضوع الفصلين الثالث والرابع من الباب الأول لهذه الرسالة.

(٤) انظر في هذا الموضوع كتاب: أخبار الدول وآثار الأول / للقرماني ص١٨٩ - ١٩١، وكذلك كتاب سمط النجوم العوالي / للعصامي المكي جـ٣ص٤١٤، ٤١٥، ٤٢٤.

ذلك يقتل الكثير من خدم قصره، وكتبته، وكذلك من عامة الناس، وكان كل هذا تمهيدا لإعلان ما يعتلج في نفسه من ادعاء بالربوبية(١).

وفي سبيل ذلك أسس الحاكم بأمر الله مركزا لإعداد وتوجيه دعاة الإسماعيلية أسماه (دار الحكمة)، ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفي الذي أريد أن يتخذه هذا المعهد، والذي يعتبر محور العقائد الإسماعيلية، لذلك فقد استقطب هذا المركز الدعاة الإسماعيليين من كل مكان(٢).

وقد احتشد في دار الحكمة طائفة من دعاة الإسماعيلية الملاحدة، فالتفوا حول الحاكم بأمر الله، وزينوا له فكرة (ألوهيته) التي كانت تعتلج في نفسه، مما جعله وراء هذه الدعوة يرعاها ويرقب تطوراتها، ويتصرف على ضوئها، ويشجع دعاتها، حتى إنه كان كثيرا ما يلتقي بهم في القرافة(٣) ليظهر عطفه وتودده إليهم، وليعرف منهم مدى ما وصلت إليه هذه الدعوى من نجاح(٤).

وليس من شك أن هذه التصرفات كان أساسها الشذوذ النفسي في شخصية الحاكم بأمر الله، وكذلك بسبب السلطات المطلقة التي تمتع بها والتي كانت معززة بالهالة القدسية مما أفسد آخر الأمر عقله(٥).

ومن الأدلة على ذلك أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض الناس، وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها، ثم تقديم تقارير إليه في اليوم التالي، فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للمثول بحضرته وأخبرهم بما حدث في دورهم، كما اتخذ

---

(١) انظر أيضا المصدرين السابقين، الأول ص١٩١، والثاني ص٤٢٤ - ٤٢٩.

(٢) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص١٦٤.

(٣) مكان في جانب القاهرة يدفن به الموتى.

(٤) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٥٥.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية / كارل بروكلمان ص٢٥٤.

جواسيس عهد إليهم أن يقدموا تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث في الطرقات[1]، حتى صار دعاته يزعمون أنه يعلم الغيب.

والصورة الواضحة عن الحاكم لا تكون إلا من كتب التاريخ، لذلك لا بد لمن يريد أن يؤرخ لهذه الشخصية الغامضة، أن يستعرض أقوال المؤرخين وخاصة المعاصرين لعهده أو القريبين منه، لأن عند هؤلاء أخباراً وحوادث تقطع الحق من الباطل فيما قيل عن الحاكم وشخصيته.

وابن تغرى بردى من المؤرخين الذين تناولوا هذه الحقبة بشيء من التفصيل، ومما قاله عن الحاكم: «وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء. وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط. وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع عن دخول الحمام، وأقام سنين يجلس في ضوء الشمع ليلا ونهارا، ثم عنّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة. وقتل من العلماء والكتاب والأماثل مالا يحصى، وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم في سنة خمس وتسعين وثلثمائة، ثم محاه في سنة سبع وتسعين»[2].

أما أبو يعلى حمزة بن القلانسي في كتابه (ذيل تاريخ دمشق) فيقول: «وكان غليظ الطبع، قاسي القلب، سفاكا للدماء، قبيح السيرة، مذموم السياسة، شديد التعجرف والاقدام على القتل، غير محافظ على حرمة خادم ناصح ولا صاحب مناصح»[3].

وابن العبرى يقول في كتابه (تاريخ مختصر الدول): «وكان جوادا بالمال، سفاكا للدماء، وكانت سيرته عجيبة، أمر بسب الصحابة وكتب إلى سائر عماله بذلك. ثم أمر بعد

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية / د. حسن إبراهيم حسن ص٣٥٨، وكذلك الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص١٧.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / ابن تغرى بردى جـ٤ ص١٧٦، ١٧٧.

(٣) ذيل تاريخ دمشق / أبي يعلي القلانسي ص٨٠.

ذلك بمدة بالكف عن السب، وهدم بيعة القيامة وكتب إلى سائر عماله بذلك، وحمل أهل الذمة على الإسلام أو المسير إلى مأمنهم أو لبس الغيار، فأسلم كثير منهم. ثم كان منهم بعد ذلك من يلقاه فيقول له: أريد العودة إلى ديني فيأذن له»[1].

ويروي ابن خلكان عن الحافظ أبي الطاهر السلفي[2]: «أن الحاكم كان جالسا في مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته، فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[3] والقارئ في أثناء ذلك يشير إلى الحاكم[4]، فلما فرغ من القراءة، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر، وكان رجلا صالحا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[5]. فلما أنهى قراءته تغير وجه الحاكم، ثم أمر لابن المشجر المذكور بمائة دينار، ولم يطلق للآخر شيئا، ثم إن بعض أصحاب ابن المشجر قال له: أنت تعرف الحاكم وكثرة استحالاته، وما نأمن أن يحقد عليك، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت، ثم يؤاخذك بعد هذا فتتأذى معه، ومن المصلحة عندى أن تغيب عنه. فتجهز ابن المشجر للحج، وركب في البحر فغرق، فرآه صاحبه في النوم، فسأله عن حاله، فقال: ما أقصر الربان معنا، أرسى بنا على باب الجنة، رحمه الله تعالى، وذلك ببركة جميل نيته وحسن قصده»[6].

---

(١) تاريخ مختصر الدول / غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبرى ص١٨٠.

(٢) هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي، ولد في أصبهان عام ٤٧٥هـ وطلب الرحلة للحديث حتى استقر في الإسكندرية توفي عام ٥٧٦هـ.

(٣) سورة النساء آية ٦٥.

(٤) أي أن قارئ الآية كان يشير في قراءته لهذه الآية إلى الحاكم ويعنيه بها من حيث تأليهه وعبادته

(٥) سورة الحج آية ٧٣ - ٧٤.

(٦) وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان / ابن خلكان مجلد ٥ ص٢٩٥.

ويقول السيوطي: «إن الحاكم أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفا إعظاما لذكره، واحتراما لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين. وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدا، حتى إنه يسجد بسجودهم من في الأسواق وغيرهم، وكان جبارا عنيدا، وشيطانا مريدا، كثير التلون في أقواله وأفعاله»(1).

ومن أفعاله «أنه كان يعمل الحسبة بنفسه، فكان يدور بنفسه في الأسواق على حمار له - وكان لا يركب إلا حمارا -، فمن وجده قد غشّ في معيشة، أمر عبدا أسود معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى»(2).

وقد بنى بين الفسطاط والقاهرة مسجدا، أراد أن ينقل إليه جسد النبي ﷺ، ولكن محاولته فشلت بعد أن كشفت من قبل سكان المدينة المنورة(3).

ويصف كتاب (أخبار الدول المنقطعة) أعمال الحاكم المتناقضة وسفكه للدماء بلا حساب، بأنها أشياء مقصوده أراد أن يموه بها على عقول أصحابه السخيفة، فيعتقدون أن له في ذلك أغراضا صحيحة استأثر بعملها وتفرد عنهم بمعرفتها(4). وهذا بالطبع كان تمهيدا لإعلان ألوهيته.

وكان أشد الناس تعرضا لهذه النزعات الدموية، أقرب الناس إلى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة، ولم يكن عامة الناس أيضا بمنجاة منها، فكثيرا ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الشاذة التي توالى صدورها طوال حكمه، وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرتجفون رعبا وروعا أمام هذه المذابح الدموية، وكان التجار وذوو المصالح والمعاملات يشاطرونهم الروع.

---

(١) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة جـ١ ص٦٠١.

(٢) البداية والنهاية / ابن كثير جـ١٢ ص٩.

(٣) الروض المعطار في خبر الأقطار / الحميرى ص٤٥٠.

(٤) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٥٩.

وكان الحاكم في سبيل ذلك يفتعل بعض الأفعال الدموية والإرهابية حتى يدخل الخوف والرعب في صفوف الشعب المصري بمختلف طبقاته، حتى إن المسبّحي[1] صديق الحاكم ومؤرخه يروي حادثة من حوادثه تلك، حينما أمر الحاكم بعمل مقصلة كبيرة للإعدام، فارتاع الناس حتى إن كل جماعة حسبت أنها معدة لها، مما جعلهم يسترحمون الحاكم ويقبلون الأرض بين يديه، طالبين العفو والرحمة، بسجل مكتوب وموقع من الحاكم[2].

وليس لدينا بعد ذلك من شك بأن القتل كان في نظر الحاكم خطة محكمة ومقررة، ولم تكن فورة أهواء فقط.

ومن أهم الظواهر التي تدلنا على ذلك، معاملة الحاكم للذميين، حيث كانت بلا ريب سياسة مقررة، ولم تحمل في مجموعها طابع التناقض.

ففي عام ٣٩٥هـ أصدر الحاكم أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار، ولبس العمائم السود. وفي عام ٣٩٩هـ أمر بهدم كنائس القاهرة ونهب ما فيها، وصدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس، وفي العام التالي صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى في لبس الغيار وتقليد الزنار، وألغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس والشهيد. وقد خفت هذه المعاملة للذميين تباعا، وخاصة قبل مقتل الحاكم عام ٤١١هـ، إذ أصدر عدة سجلات بإلغاء ما أصدره من قبل في حقهم، ومما يلحظ في هذا الصدد أن موقف الحاكم إزاء النصارى واليهود هو من المواقف القليلة التي ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة، وأنه لم يجنح فيه من الشدة إلى اللين إلا في أواخر عصره، حينما ظهر دعاة تأليهه، يدعون إلى دين جديد وعقائد جديدة[3]. فكان لا بد من

---

(١) هو محمد بن عبدالله المسبحي، مؤرخ وعالم بالأدب، ولد بمصر عام ٣٦٦هـ، اتصل بخدمة الحاكم وحظي عنده وولاه ديوان الترتيب. وله كتب كثيرة ألفها، توفي عام ٤٢٠هـ.

(٢) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٥٥.

(٣) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٧١، ٧٨، ٩٢.

تغيير طريقة المعاملة، في محاولة منه لاستمالتهم إلى دعوى تأليهه، وهذا مما سنتبينه بعد ذلك في رسائلهم، وخاصة في رسالة خبر اليهود والنصارى، والتي يحاول فيها مؤلفها حمزة بن علي أن يثبت لهم أن الحاكم هو الشخص الموعودون به[١].

أما موقف الحاكم من أحكام وأركان الإسلام، فكان فيه التناقض والاضطراب، فقد أمر عام ٤٠٠هـ بإلغاء الزكاة والنجوى (أو رسوم الدعوة)، وأعيدت صلاة الضحى والتراويح (بعد أن منعها). وفي بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية كالحج، الذي أمر بإلغائه في بعض السنوات[٢].

وفي عام ٣٩٥هـ أمر بسب السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم)، وكتب ذلك على أبواب المساجد، وأبواب الحوانيت والمقابر، ولون بالأصباغ والذهب[٣]. حتى أنه أمر نائبه في دمشق أن يضرب رجلا مغربيا، ويطاف به على حمار، ونودي عليه: هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر، ثم أمر به فضربت عنقه[٤]. ولكنه في عام ٣٩٧هـ عاد وأمر بمحو ما كتب على المساجد والدور وغيرها[٥].

وبقي الأمر كذلك حتى عام ٤٠١هـ حينما أصدر سجلا ينهى فيه عن صلاة التراويح والضحى، وينهى كذلك عن معارضته فيما يأمر به من أمور وأحكام، ويأمر أيضا في نفس السجل بإعادة (حي على خير العمل)[٦] في الآذان، وإسقاط (الصلاة خير من النوم[٧])[٨].

---

(١) يراجع في هذا الموضوع الفصل الثاني من هذا الباب عند الحديث عن عقائد الدروز وموقفهم من بقية الفرق والأديان والأخرى.

(٢) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٧٦.

(٣) المصدر السابق ص٧٨.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم متز جـ١ ص١٣٢.

(٥) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٦٦.

(٦) وهي عبارة تذكر في الآذان عند الشيعة على اختلاف طوائفهم.

(٧) وهي العبارة التي أمر بها ﷺ في آذان الفجر.

(٨) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٦٦.

وكان الحاكم شغوفا بالليل، حتى إنه كان يعقد مجالسه ليلا، ويسير في شطر كبير من الليل في الأزقة والشوارع، وجنح في هذه الفترة إلى نوع من التصوف المدهش، فأطلق شعره حتى تدلى على أكتافه، وأطلق أظافره، ولبس الثياب السود[1].

ومن أموره الشاذة أيضا: أنه كان يؤثر ركوب الحمير، ولا سيما الشهباء منها، ويطوف بها في شوارع القاهرة، فلقي ذات مرة عشرة من الناس سألوه الإحسان فأمر أن ينقسموا إلى فريقين يتقاتلان، حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فني منهم تسعة وبقي واحد، فألقى عليه الدنانير، فلما انحنى ليأخذها عاجله حرسه بقتله[2].

والواقع أن ما أوردناه من سيرة الحاكم، لم يكن مجرد سرد تاريخي لحياته، ولكنه من صلب عقيدة الدروز، فكل هذه الأفعال والتناقضات أصبحت عند هذه الطائفة أمورا تدل على ألوهيته، لأن لها ظاهرا وباطنا، والمعروف للإنسان العادي هو الظاهر فقط من تلك الأفعال، أما باطنها فهو من اختصاص الدروز وحدهم.

هذا وقد بدأت الدعوة الجهرية وبشكل واضح لألوهية الحاكم عام ٤٠٨هـ، على يد ثلاثة من دعاة الإسماعيلية وهم: حمزة بن علي الزوزني، ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بـ (نشتكين)، والحسن بن حيدرة الفرغاني. إلا أن هذه الدعوة في الواقع كانت موجودة وبشكل سري منذ عام (٤٠٠هـ)[3].

يقول الأستاذ مصطفى غالب (الكاتب الإسماعيلي المعاصر): إن حمزة بن علي بن أحمد الزوزني[4] وفد على مصر سنة ٤٠٥هـ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يترددون

---

(١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص٦٢، ٦٣. أما عن لبس الحاكم للسواد، فهذا ما يقوم به إلى الآن (أجاويد) طائفة الدروز تمثلا بما فعله الحاكم.

(٢) المصدر السابق ص٨٧.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٧٥.

(٤) هو المؤسس الرئيسي لمذهب الدروز، بعدما استطاع إبعاد منافسة اللدود محمد بن إسماعيل الدرزي، وسيفصل الكلام عنه في الفصل الثاني من هذا الباب عند الحديث عن (الحدود الخمسة) في عقيدة الدروز.

إلى دار الحكمة لحضور مجالس الحكمة التأويلية. وما عتم أن أصبح ممثلا لدعاة الفرس، وهمزة الوصل بينهم وبين الحاكم بأمر الله، الذي ضمّه إلى حاشيته، وأسكنه في قصره، - ويضيف قائلا: - وفي بعض الوثائق الإسماعيلية السرية ما يشير إلى أنه أصبح من الدعاة الذين يكونون دائما في معية الإمام. ولا يفارقون مقر قيادته أبدا. وسرعان ما أصبحت له حظوة عند الحاكم، بعدما أظهره من إخلاص، وما ساهمه مساهمة فعالة في خوض غمار الجدل الديني، وفلسفة المذهب الذي يبشر به، واستطاع أن يجمع حوله بعض الدعاة، ويتفقون سرا للدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، معتمدا في دعوته هذه على أصول وأحكام استنبطها من صميم الأصول والأحكام الإسماعيلية[١].

وهذا الكلام يبين لنا أن هذه الحركة قامت على أيدي دعاة الفرس ومن كان على شاكلتهم، الذين كانوا يقدسون ملوكهم، ويؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس.

وكما ذكرنا سابقا، فقد التف حول حمزة بن علي اثنين من دعاة الإسماعيلية هم: محمد بن إسماعيل الدرزي[٢]، والحسن بن حيدرة الفرغاني[٣]، وكما يظهر من رسائل حمزة فإنه كان قد اتفق مع دعاته ألا يجهر أحد أو يكشف عن حقيقة المذهب إلا بعد تلقي الأوامر منه، ولكن الدرزي تسرع في الكشف عن أسرار الدعوة، مما أثار حفيظة حمزة وغضبه، ودفع عامة الناس لمحاربة الدعوة الجديدة المخالفة للعقيدة الإسلامية، حتى إن الجنود الأتراك حاولوا قتل الدرزي لولا حماية الحاكم له، حيث فرّ إلى قصر الحاكم، وهربه من هناك إلى بلاد الشام، فدعا فيها إلى المذهب الجديد، واستمال الكثير من سكان وادي تيم[٤]

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٢٤١.

(٢) أحد أصحاب الدعوة إلى تأليه الحاكم، وإليه نسبت الطائفة الدرزية، مع أن الدروز إلى الآن يتبرأون منه بسبب انشقاقه عن حمزة، تركي الأصل على الأرجح ويقال فارسي، هرب إلى الشام من قبل الحاكم بعد مهاجمته من قبل الناس في مصر، وقتل في بلاد الشام عام ٤١١هـ.

(٣) أحد الذين جاهروا بتأليه الحاكم بأمر الله، وهو الذي سلم القاضي ابن العوام رقعة من حمزة تطلب منه الاعتراف بألوهية الحاكم، وقد قتل بعد ذلك على يد أهل السنة بمصر عام ٤٠٩هـ.

(٤) هو ما يعرف الآن (بالشوف)، وكذلك المناطق المجاورة له في لبنان.

الذي نزل فيه، ولكنه انحرف بعد ذلك عن مبادئ حمزة، مما دفعه - أي حمزة - إلى الأمر بقتله[١].

أما حمزة، فقد هاجمه الناس أيضا بعد الجهر بتأليه الحاكم، وذلك في مقر إقامته في مسجد ريدان بالقاهرة، وكان معه كما يقول في رسائله: اثنا عشر رجلا فقط، ولو لم يصدر أمر الحاكم بوقف القتال لقتل حمزة[٢].

أما الداعي الآخر: الحسن بن حيدرة الفرغاني، المعروف بالأخرم أو الأجدع، فقد كان وسيلة مهمة من وسائل الإعلام للمذهب الجديد، فكان يبعث بالرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى العقيدة الجديدة، وكان يطلب من العلماء وكبار الدعاة الإسماعيلية أجوبة على رقاعة، مما حمل الحاكم على إكرامه وإركابه في موكبه، غير أنه لم تمض على ذلك عدة أيام حتى وثب على الفرغاني رجل من أهل السنة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه، بينما كان يسير معهم بالقاهرة، فغضب الحاكم وأمر بإعدام قاتله، ودفن الأخرم على نفقة القصر. وممن كتب إليهم الأخرم، الداعي الإسماعيلي أحمد حميد الدين الكرماني، يعرض عليه المذهب الجديد، مما جعل الكرماني يرد عليه برسالة عنوانها (الرسالة الواعظة)، ومما قاله الأخرم في رسالته للكرماني: «من عرف منكم إمام زمانه حيا فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي أو وصي أو إمام... وأن من عبدالله من جميع المخلوقين، فعبادته لشخص لا روح فيه... وقد قامت قيامتكم، وانقضى دور ستركم...»[٣].

وبعد اختفاء الدرزي والأخرم، أصبح المسرح خاليا لحمزة، وصار أمر المذهب إليه، لذلك سارع إلى تلقيب نفسه بعدة ألقاب منها (هادى المستجيبين) و(قائم الزمان) و(العقل) باعتباره نبي الحاكم... إلى غير ذلك من ألقاب كثيرة يجدها الباحث في رسائله.

---

(١) رسالة الغاية والنصيحة.

(٢) رسالة الغاية والنصيحة.

(٣) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٢٤٥، ٢٤٦.

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى في هذه النبذة، لا بد أن نؤكد على أن هذه الحركة كان الحاكم يغذيها ماديا ومعنويا في جميع المجالات. وأن زعماءها كانوا على اتصال وثيق به، رغم ما يقوله الأستاذ عبدالله النجار[١] في كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) من نفي الصلة بين الحاكم وحمزة، ولكن هذا الزعم تبطله كل الشواهد التاريخية وكذلك أقوال الدروز أنفسهم ابتداء من حمزة وانتهاء بكتابهم في الوقت الحاضر، فهذا حمزة في رسالة الغاية والنصيحية بعد عرضه لكيفية مهاجمته من قبل الناس في مسجد ريدان، وأمر الحاكم بوقف القتال عنه يقول: معاشر الموحدين قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون[٢]، قاتلوا أقواما نكثوا أيمانهم (يعني عهدهم) وهموا بإخراج الرسول، وهو قائم الزمان، وهم بدؤوكم أول مرة، (يعني دفعة الجامع)، فلا تخشوهم فمولانا جل ذكره أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين. فما استتمت كلامي لهم، حتى صار أمر مولانا جل ذكره وتجلى للعالمين بقدرته سبحانه، فصعقت من في السموات والأرض، فانقلبوا المنافقين على أعقابهم خائبين، فلمولانا الحمد والشكر أبد الآبدين»[٣].

---

(١) سياسي لبناني، من طائفة الدروز، تقلد عدة مناصب رفيعة في الدولة اللبنانية، وألف كتابا عن الدروز أسماه (مذهب الدروز والتوحيد)، حاول فيه أن يبين ويظهر عقيدة طائفته للناس، ولكن الدروز، وخاصة مشيخة العقل، هاجموه بشدة، وأتلفوا كتابه، وأصدروا كتابا للرد عليه بعنوان (أضواء على مسلك التوحيد) اشترك في تأليفه الدكتور سامي مكارم والزعيم الدرزي اللبناني كمال جنبلاط، ويقال إن الدروز استغلوا أحداث لبنان الأخيرة وقتلوا النجار.

(٢) يحرف حمزة هذه الآيات بشكل واضح من أجل أهدافه المريبة، والآيات الصحيحة هي كما يلي: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة التوبة آية ١٢ – ١٤.

(٣) رسالة الغاية والنصيحة.

ويقول في رسالة أخرى: فتأييد مولانا سبحانه واصل إليَّ، ورحمته وأفضاله ظاهره وباطنه علي، وجميع أصحابي المستجيبين عزيزين مكرمين في الشرطة، والولاية، وأصحاب السيارات، مقضون الحوائج دون سائر العالمين، ورسلي واصلة بالرسائل والوثائق إلى الحضرة اللاهوتية التي لا تخفى عليها خافية، لا في السر ولا في العلانية، وقد أوعدني مولانا جلت قدرته في ظاهر الأمر مضافا إلى مواعيده الحقيقية التأييدية، وهو منجز مواعيده وقت يشاء وكيف يشاء بلا تقدير عليه[1].

وهناك رسالة من رسائل حمزة، عنوانها (الرسالة المنفذة إلى القاضي أحمد بن العوام)[2] تبين أن حمزة أصبح في مكانة كبيرة استطاع من خلالها أن يخاطب قاضي القضاة بمثل هذا الخطاب التهجمي، ولو لم يكن وراء حمزة من يحميه ما كان يجرؤ على كتابة هذا الخطاب الذي يأمره فيه بأن لا ينظر في قضايا أتباع حمزة، ومما قاله حمزة: فقد تقدمت لنا إليك رسالة تسألك عن معرفتك بنفسك، فقصرت عن الإجابة، قلة علم منك بالحق وإهجانا به، وكيف يجوز لك أن تدعي هذا الاسم الجليل وهو قاضي القضاة، وليس لك علم بحقائق القضايا والأحكام، فقد صح بأنك مدع لما أنت فيه، فيجب عليك أن تعلم نفسك وتدربها... إلى أن يقول: وإياك ثم وإياك أن تنظر لموحد في حكم لا أنت ولا عادلتك، في شهادة نكاح ولا طلاق، ولا وثيقة، ولا عتق، ولا وصية. ومن جلس بين يديك على حكم فتسأل عنه أن يكون موحدا فترسله إلي مع رجالك لأحكم أنا عليه، بحكم الشريعة الروحانية[3]، التي أطلقها أمير المؤمنين سلامه علينا، فانظر لنفسك فقد أعذرتك مرة بعد أخرى وأنذرتك[4].

---

(١) رسالة الصبحة الكائنة.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن أبي العوام السعدي، قاضي مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمين، من فقهاء الحنابلة، مصري ولي القضاء في أيام الحاكم عام ٤٠٥هـ، وفي أيامه مات الحاكم، وتوفي عام ٤١٨هـ.

(٣) من هذا الكلام يتبين أن حمزة فرق بين جماعته من جهة، وبين السنة والشيعة من جهة أخرى، وذلك بمنعه للقاضي أن يقضي على جماعته.

(٤) الرسالة المنفذة إلى القاضي أحمد بن العوام.

أما الدروز في الوقت الحاضر، فإنهم يعتبرون إنكار صلة الحاكم بالمذهب وانتسابه إليه، تقويضا لمعتقدهم ومذهبهم، ذلك أن حمزة أَخَذ وغَرَف عقيدته من مجالس الحكمة التي كان يعقدها الحاكم(١).

لذلك نستطيع أن نقول: إن سلوك الحاكم المتناقض والشاذ، إنما كان بتأثير فكرة الألوهية، وإن كل ما صدر عن الحاكم بأمر الله من أعمال وأقوال إنما كان بدافع واحد هو تأليهه، لذا فإن ارتباط الحاكم بهذه الدعوة أمر غير قابل للنقاش لا من الناحية التاريخية ولا من الناحية الموضوعية.

فالحاكم تولى مقاليد الحكم وهو صغير السن، وقد أحيط بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الإسماعيلية على أئمتها، فتأثر بهذه العقائد، إلى جانب أنه رأى حاشيته ورعيته يسجدون له كلما مر بهم، فشاء طموحه أن يكون إلها مثل الملوك الأقدمين، - من الفراعنة - واختمرت هذه الفكرة في نفسه، ولكنه لم يعلنها للناس، ولعله أسر بها إلى بعض الدعاة حوله، فتسابقوا إلى إشباع نزواته وتنميتها مع مرور الزمن(٢).

والشيء المؤكد إذن أن هذه السياسية التي اتبعها الحاكم كانت مقررة، ليفهم من أفعاله أنه هو الخالق، وأنه هو المحيي والمميت، والرازق والوهاب، إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى، وصفاته الجلى، فها هو الحاكم بأمر الله يسرف في القتل ليقال عنه: إنه مميت، ويرزق الناس ويهبهم ليقال: إنه رزاق وهاب، ويعفو عمن يستحق القتل ليقال: أنه محيي(٣).

لذا فإن القول أن الحاكم كان مخلصا لدولته، كفؤ لحمل أعبائها، وأن أخبار التاريخ عن شذوذه واضطرابه هي افتراءات من أعداءه، أخذها كل مؤرخ عن الآخر(٤)، إن هذا القول - وكما مر معنا - مردود وليس له أي أصل تاريخي أو موضوعي.

---

(١) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص٧٢، ٧٣.

(٢) أضواء على العقيدة الدرزية / أحمد الفوزان ص٢٣.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٤٤.

(٤) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية / د. أحمد شلبي ص١١٦ - ١٢٢.

هذه نبذة موجزة عن نشأة الدروز، والواقع أن هذه الاعتقادات ظهرت في ظل أجواء ومعتقدات إلحادية منحرفة هي العقيدة الإسماعيلية، لذلك لن نكون مغالين إذا قلنا إن عقيدة الدروز لم تخرج في جوهرها عن جوهر المذهب الإسماعيلي الذي لم يكن مكشوفا لعامة الناس، ولعل الحاكم حينما أعلن مذهبه كان يرى أن الوقت قد حان للكشف عن بعض العقائد البالغة السرية، على حين خالفه في ذلك معظم الدعاة والسطات الفاطمية الرسمية[1]، لأن هذا كان في اعتبارهم عقائد باطنية لا يجوز البوح بها لكل الناس، لذلك فقد دبرت على هذا الأساس مؤامرة ضد الحاكم قُـتِـل فيها، حيث اعتبرت أعماله هذه مساساً بباطنية مذهب الدولة، وكذلك بأمنها وبقائها.

وقد قامت بهذه المهمة أخته (ست الملك)، كان ذلك وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي بسبب أمرين:

أولاهما: أنها خافت أن يخرب بيت الخلافة الفاطمية على يديه، بعدما كرهه جميع الناس بمختلف طبقاتهم وفئاتهم.

ثانيهما: أنها خافت على نفسها من بطشه، بعدما اتهمها بسوء سلوكها، فآثرت أن تقضي عليه قبل أن يقضي عليها[2].

وتؤكد الروايات التاريخية هذين الأمرين، فأبو يعلى حمزة بن القلانسي يؤكد الأمر الأول حينما شكاه الناس إليها فأنكرت ما أنكروه، ورتبت على هذا الأساس أمر اغتياله[3] أما ابن تغرى بردى فيورد الأمرين معاً، ويؤكد أن أخته ست الملك قد حذرته من أعماله وخراب الدولة على يديه، فكان يسمعها كلاماً قاسياً ويتهمها في نفسها[4].

---

(١) فرقة النزارية – تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية – / د. السيد محمد الغزاوي ص٤.

(٢) مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوى مجلد ٢ص٦٠٩.

(٣) ذيل تاريخ دمشق / أبو يعلى حمزة بن القلانسي ص٧٩.

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / ابن تغرى بردى جـ٤ص١٨٦.

لذلك فقد سارعت ست الملك لتدبير أمر اغتياله بالاتفاق مع ابن دواس (أحد شيوخ كتامة)[1]، الذي كان يكره ويخاف من بطش الحاكم، فتحالفت معه على قتل الحاكم[2]. فعمل على تجهيز عبدين من عبيده وأمرهما بقتل الحاكم عندما يخرج في الليل إلى جبل المقطم، حيث أنزلاه عن حماره وقطعا يديه ورجليه، وبقرا بطنه، وأتيا به إلى ابن دواس، فحمله إلى أخته فدفنته في مجلس دارها[3] وحينما بدأ الناس بالبحث عنه لم يجدوا إلا ثيابه فقط وأثر السكاكين فيها[4].

ومع أن المقريزى ينفي تلك المؤامرة ويأتي برواية لتأكيد ذلك وهي إقرار أحد الناس عام ٤١٥هـ بقتل الحاكم[5] إلا أن جميع الدلائل والمؤشرات تنفي قول المقريزي، فهو الوحيد من المؤرخين الذي ينفي ذلك.

ولعل رسالة (مباسم البشارات) التي كتبها الكرماني، أحد أكابر الدعاة الإسماعيليين في ذلك الوقت، ما يؤكد قولنا أن قتل الحاكم كان مؤامرة معدة بإحكام من قبل سلطان الدولة الرسمية وبمباركة دعاة الإسماعيليين أنفسهم.

فالرسالة تبين اضطراب الأحوال في مصر بعد دعوة تأليه الحاكم بعدما تقلبت أحوال الناس، فالعالي قد اتضع، والسافل قد ارتفع، وكل واحد يرمي صاحبه بالإلحاد، وبعضهم غالى في رأيه.. إلى غير ذلك مما ورد في الرسالة[6]. وكل هذا يظهر لنا أن الحاكم قد فقد الورقة الأخيرة وهي دعم دعاة الإسماعيلية له، وخاصة بعدما كرهه جميع الناس بسبب المقتلة الكبيرة التي أعدها لأهل مصر بعدما قتلوا دعاة تأليهه، فقد أمر عبيده وجنوده

---

(١) كتامة هي القبيلة المغربية التي كانت عوناً وسنداً للفاطميين في إقامة دولتهم في المغرب، وبالتالي كانوا عنصراً مهماً في الدولة الفاطمية.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ابن الجوزى ص٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) البداية والنهاية / ابن كثير مجلد ٦ جـ٢٢ص١٠.

(٤) الكامل في التاريخ ابن الأثير مجلد ٩ص٣١٤.

(٥) الخطط المقريزية / المقريزي جـ٣ص٢٥٣.

(٦) وردت الرسالة كاملة في كتاب الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٢٠٥ – ٢٣٣.

بالإغارة على أهل مصر وسلبهم وقتلهم انتقاما لما فعلوه، وكان عندما يشتكي الناس إليه ذلك، يتأسف ويتوجع ويبقى الأمر كما هو، ولولا خوفه من الجنود الأتراك والمغاربة الذين هددوه باقتحام القاهرة إذا لم يضع حداً لتلك الجرائم، لما انتهت تلك المقتلة، بعد أن استمرت بضعة أسابيع[1].

من كل هذه الأمور مجتمعة، كان لا بد من قتله، تخليصا للناس من بطشه وفتكه، وحتى لا يتهدد أمن الدولة ومذهبها، لذلك سارعت أخته ست الملك إلى تنفيذ هذا الأمر حتى لا يخرج الأمر من يدها، بعدما ظهر أن وجوده فيه تهديد لبقاء أسرتها في الحكم.

ولما تأكد قتل الحاكم، سارع دعاة تأليهه للزعم بأنه لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عندما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا. ولكن رغم هذا الزعم إلا أن أحوال أتباعه وأفكارهم اضطربت، مما جعل أحد دعاتهم هو بهاء الدين يطلب منهم أن يحسنوا الظن بالحاكم لأنه سيكشف لهم عن أبصارهم ويريهم الحقيقة[2].

ويبدو أن قتل الحاكم قد خوّف حمزة إلى حد اختفائه عن الأنظار وهربه إلى بلاد الشام حيث يكثر أتباعه، ومع ذلك بقي في بلاد الشام متواريا عن الأنظار يدير أمر أتباعه عن طريق بهاء الدين، وهذا ما يصرحه في رسالته (الإعذار والإنذار)، حيث يبرر غيابه بسبب غياب المعبود (أي الحاكم)[3].

وبقي الأمر كذلك حتى موت حمزة، بعدها كثرت الآراء الجديدة من معتنقي المذهب الجديد، غير التي دعا إليها حمزة مما جعل بهاء الدين يهدد أتباعه باعتزال الدعوة، وبالفعل اعتزلها عام ٤٣٤هـ.

---

(١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص١١٩، ١٢٠ نقلا عن كتاب أخبار الدولة المتقطعة للوزير جمال الدين.

(٢) رسالة الغيبة / لبهاء الدين.

(٣) رسالة الإعذار والإنذار / لحمزة.

أما الأصول التي قامت عليها الدرزية، فإن هذا يرجعنا إلى بعض العقائد الأساسية عند الإسماعيليين، فالمذهب الإسماعيلي يقول: إنه سبحانه وتعالى أبدع العقل الكلي، ومنه انبثقت النفس الكلية، وبواسطة العقل والنفس وجدت المخلوقات كلها العلوية والسفلية، فالخالق الحقيقي عندهم إذن هو العقل.

ولذلك فإن معبود الإسماعيلية الحقيقي هو العقل، ويعتبرونه الصورة الخارجية لله، ولهذا يقولون: «إذا كان لا يصلى لكائن لا يدرك، فإن الصلاة تتجه نحو صورتها الخارجية وهي العقل»[١].

وبسبب هذا فإنهم يعتقدون بنظرية المثل والممثول، التي تقول أن هناك حدوداً روحانية هي في السماء يمثلها على الأرض حدود جسمانية، وبتطبيق هذه النظرية نستطيع أن نعرف أن الإمام الفاطمي هو العقل الكلي، وأن جميع مناقب وصفات العقل الكلي تطلق أيضا على الإمام، فهو الواحد الأحد، والفرد الصمد، والمحيي المميت[٢].

وقد أخذ حمزة نظرية الحدود عند الإسماعيلية، ولكنه لم يعترف بتقسيمها إلى روحاني وجسماني، فالحدود الروحانية عند حمزة هم أنفسهم الحدود الجسمانية، وبهذا خالف العقيدة الإسماعيلية حيث اعتبر أن المعبود (أي الحاكم في دوره الأخير) أبدع من نوره العقل الكلي الذي هو قائم الزمان حمزة بن علي[٣]، وحور بعد ذلك جميع مراتب الحدود وجعلها مخالفة لمذهب الإسماعيلية.

نستنتج من هذا، أن الحاكم وأتابعه لم يخرجوا عن جوهر وباطن المذهب الإسماعيلي، ولكن سياسة الدولة كانت تمنع أن ينتشر هذا بين عامة الناس خوفا من ثورتهم على الدولة لأن غالبيتهم كانت من أهل السنة.

---

(١) خطط الشام / محمد كرد علي جـ٦ ص٢٥٧.

(٢) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٨٧.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٠.

هذا وصف موجز لبداية نشأة الدروز، والأجواء والمعتقدات التي قاموا من خلالها، أما عقائدهم فيمكننا أن نقدم ملخصاً لأصولها وقواعدها لنستطيع من خلالها أن نتطرق بالتفصيل لكل العقائد التي يقوم عليها هذا المذهب.

فهم يعتقدون بألوهية الحاكم بأمر الله، وفي رجعته آخر الزمان، وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً، غير أنهم ينتسبون ظاهرا إلى الإسلام، ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمون، وذلك لأنهم عاشوا في وسط إسلامي، ودول مسلمة، غير أنهم يتظاهرون أمام النصارى أيضا بأنهم قريبون منهم، لأن المسيح في نظرهم هو حمزة بن علي.

ويتظاهرون الآن بالتقرب إلى اليهود، وبعض كبار مفكريهم المعاصرين يحجون إلى الهند متظاهرين بأن عقيدتهم نابعة من حكمة الهند.

والحقيقة أنهم يبغضون في الباطن جميع أبناء الأديان الأخرى، ولا سيما المسلمين، ويستبيحون أموالهم ودماءهم عند المقدرة، ويعتقدون أن الشياطين هم باقي الملل. ولا يأخذون بشيء من أحكام وعبادات الإسلام، بل ينكرون أركان الإسلام جميعها، والشريعة الإسلامية كلها.

وقد جعل الدروز بدل أركان الإسلام، سبعة خصال توحيدية. وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح، وانتقالها إلى الأجساد الإنسانية، لهذا فإنهم لا يعتقدون بالجنة والنار، والثواب والعقاب، فالثواب يكون بانتقال الروح إلى منزلة أرفع حينما تنتقل من جسد إلى جسد، ويكون العقاب بتدني منزلتها. أما القرآن الكريم فإنهم يقولون أنه من صنع سلمان الفارسي، والذي هو حمزة في عصر الحاكم.

وقد بقيت العقيدة الدرزية جامدة على هذه الأصول والعقائد الموجودة في رسائل حمزة وبهاء الدين طيلة القرون الماضية، معتمدة الطائفة خلالها على شروح عقالها[1] في هذه

---

(١) لفظ يطلقه الدروز على مشايخهم ودعاتهم، وهم الذين يعرفون أسرار العقيدة الدرزية، ولا يسمحون لغيرهم بالاطلاع عليها، وذلك لأن المجتمع الدرزي ينقسم إلى قسمين: عقال وجهال، فالجهال لا يعرفون شيئا من مذهبهم إلا الأمور الرئيسية، ولا يدخل في العقال إلا بعد امتحان طويل.

الرسائل، إلى أن ظهر في هذا القرن الزعيم الدرزي اللبناني (كمال جنبلاط)[1]، الذي حاول أن يطور دينه بعدة طرق، منها محاولته أن يرجع أصول مذهبه إلى كل مسالك الحكمة - كما يزعم - المتقدمة في أدوار التاريخ: في مصر الفرعونية، والهند، وإيران، وبابل وأشور، واليونان، ثم بعد ذلك في الإسلام مرورا بالنصرانية واليهودية، ولكنه يسارع بعد ذلك ويؤكد على صلة - مسلكه التوحيدي - بحكماء الهند والسند، وارتباط الدروز بحكماء الهند، لأن الحكمة - في نظر جنبلاط - واحدة في كل مثوى وزمان، لا تتجزأ ولا تختلف في الجوهر[2].

ورغم تأكيد جنبلاط على صلة مذهب الدروز بحكم الهند[3]، ووجود بعض أوجه الشبه بينهما، إلا أننا في الواقع لا نجد أن هذه الصلة حقيقية كما يصورها جنبلاط، وذلك لأن هدف جنبلاط من كل هذا هو إظهار أن الدرزية مذهب مستقل تطور عن الحكمة والحكماء. لهذا فقد قام بكتابة (المصحف المنفرد بذاته)[4] في محاولة منه لتأكيد هذا الوهم، ولكي يجعل طائفته تتفق على شيء محدد في كتاب معين، مع أن هذا المصحف هو تلفيق من عدة مصادر أهمها: القرآن الكريم، والحكمة الهندية، رتبها جنبلاط لتحقيق هدفه في بقاء الأصول والعقائد التي وضعها حمزة وبهاء الدين.

وقبل أن ننهي حديثنا عن نشأة الدروز، لا بد أن نسلم ببعض الحوادث التاريخية التي كان لها الأثر الواضح في تاريخ الدروز، وهي في الوقت نفسه تعطينا وضوحا في طريقة

---

(١) زعيم درزي لبناني معاصر، وهو من السياسيين اللبنانين، ومعروف بثقافته واطلاعه على ديانات الهند القديمة، ويحاول كثيرا أن يقارب بينها وبين عقيدة الدروز، وقد قتل في لبنان عام ١٣٩٧ هـ-١٩٧٧.

(٢) انظر كتاب أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم - مقدمة الأستاذ كمال جنبلاط لهذا الكتاب ص٢٦، ٥١.

(٣) وهذا التأكيد على حكمة الهند وصلتها بالدرزية يفسر لنا سبب زيارات جنبلاط المتكررة (قبل مقتله) إلى الهند وإشادته بحكمتها .

(٤) سيأتي ذكر هذا المصحف وما يحويه في الصفحات القادمة .

تعامل الدروز مع المتغيرات والأحداث التي حدثت في العالم الإسلامي ونتعرف من خلالها كذلك على العقلية الباطنية التي تسير الطائفة الدرزية.

فعندما جاء الزحف المغولي إلى بلاد الشام سنة ٦٥٧هـ بزعامة هولاكو، كانت السيطرة على لبنان بيد أمراء الدروز التنوخيين، ولما دخل (كتبغا) ابن هولاكو دمشق جاءه الأمير التنوخي جمال الدين حجي الثاني معلنا خضوعه له، مما جعل (كتبغا) يقر الأمير الدرزي أميراً على مقاطعة الغرب، ولكن مجيء بيبرس من مصر على رأس جيش المماليك لمقاتلة المغول، قلب موازين القوى - في ذلك الوقت -، وهنا ارتأى الدروز أن (يلعبوا على الحبلين)، وذلك أن يبقى أحد جانب المماليك، بحيث يكون على قول صالح بن يحيى: (أي: من انتصر من الفريقين كان أحدهما معه فيسد خلة رفيقه وخلة البلاد)، لأن الانحياز إلى أحد القوتين كان يعني المجازفة بمصيرهم فيما لو خسر الجانب الذي قد ينضمون إليه[١]؟!

وبعد انتصار المماليك على المغول، استولوا على بلاد الشام دون أن يتعرضوا لمناطق الدروز بسوء، ولذلك وجهوا اهتمامهم لاحتلال المناطق الساحلية التي كانت لا تزال بيد الصليبيين، ولكن بيبرس كانت تساوره الشكوك في حقيقة موقف الدروز، وغدا مليئا بالشك والحذر منهم، وذلك بعدما نبا إلى علمه أن الأمراء الدروز على اتصال بوالي طرابلس الصليبي، فأمر بسجنهم ليتسنى له أن يلتفت لغدر الصليبيين[٢].

وكل هذا كان قبل قيام الدولة العثمانية، أما بعد قيامها، فقد راودتهم الأحلام القديمة بقيام دولة مستقلة لهم، وخاصة أنهم رأوا الفرصة سانحة لهم لانشغال العثمانيين بقتال الدول الأوربية المجاورة. فكان أن عملوا على تحقيق هذه الأحلام في عهد الأمير فخر الدين الثاني المنحدر من المعنيين، الذي اتخذ في سبيل ذلك أسلوب المداورة عن طريق حروبه المحلية لبسط نفوذه على سائر بلاد الشام، ولكن سياسته هذه جعلت العثمانيين يوجسون

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب تاريخ الموحدين الدروز السياسي / د. عباس أبو صالح ود. سامي مكارم ص١١٢، ١١٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك أيضا في المصدر السابق ص١١٣، ١١٤.

منه خوفا، بيد أن تحركه على الصعيد الخارجي عززت تلك المخاوف وأثارت شكوك الباب العالي في ولاءه للعثمانيين، وخاصة أن أهدافه الحقيقية بدأت بالوضوح عندما عقد مع دوق توسكانا معاهدة تجارية تضمنت بنودا سرية عسكرية ضد الدولة العثمانية؟! فقرر السلطان العثماني التخلص من فخر الدين، فجرد عليه حملة قوية برا وبحرا سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م، فهرب إلى أوروبا عن طريق ميناء صيدا بمساعدة سفينتين إحداهما فرنسية وأخرى هولندية، وهناك أراد أن يؤلب الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية، فسعى جاهدا للحصول على مساعدات عسكرية من اسبانيا وفرنسا والفاتيكان ضد العثمانيين، ولكن مسعاه فشل لأن الظروف الدولية في ذلك الوقت كانت في غير صالحه[١].

وبحكم علاقة فخر الدين أمير الدروز الوطيدة بدول أوروبا فقد كان يعطف على الإرساليات الأوروبية ويسمح بإنشاء مراكز لها في لبنان وفلسطين، وفضلا عن ذلك فقد بسط يد الحماية لجميع النصارى في بلاد الشام، حتى صار الأوربيون يدعونه (حامي النصارى في الشرق)، وكان عطف الأمير على الموارنة وتحالفه معهم من أبرز مميزات سياسته الداخلية، وكانت أيضاً عاملا في هجرة الموارنة من مناطقهم إلى مناطق المسلمين، وانتشارهم في أكثر من ثلثي لبنان الحالي، مما قوى مركزهم السياسي في لبنان بعد ذلك[٢]؟!

وفي سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، قام الدروز بتمرد على محمد علي باشا، في جبل الدروز بحوران بسبب تجريدهم من السلاح وتجنيدهم في الجيش، وبقي هذا التمرد مشتعلا، وخاصة بعد أن انضم إليه دروز وادي التيم، رغم محاولات محمد علي القضاء عليه، إلى أن جرد عليه حملة قوية سنة ١٢٥٦هـ.

وبعد أن وجدت الدول الأوربية الضعف بالدولة العثمانية، عملت على استمالة الأقليات الموجودة داخله، وخاصة في لبنان، الذي كانوا يرون فيه مدخلا جيدا لكل مؤامرتهم على الدولة العثمانية، وكانت فرنسا ترى في نفسها مدافعا شرعيا عن موارنة

---

(١) انظر أيضا كتاب تاريخ الموحدين الدروز السياسي ص١٣٣ - ١٣٦.

(٢) المصدر السابق ص١٤٢، ١٤٣.

لبنان، وقد اتخذت هذه الحجة الواهية ذريعة في سبيل زيادة تدخلها في شؤون الدولة العثمانية، وهذه السياسة الفرنسية خوفت بريطانيا مما جعلها سنة ١٨٤١م تستميل الدروز إليها وتقيم علاقة رسمية وودية معهم ومع زعمائهم، ويظهر أن الإنجليز قد فهموا أحلام الدروز بإقامة دولة لهم، فاستغلوها لاستمالتهم وإقامة العلاقة الوطيدة معهم[1]. وقد بات هذا واضحا عند ثار الدروز في جبلهم على الدولة العثمانية سنة ١٨٥١م إذ امتنعوا عن دفع الضرائب، فجردت الدولة العثمانية حملة لتأديبهم، فتدخلت بريطانيا لدى الباب العالي، وصدرت الأوامر من الأستانة بحل المشكلة الدرزية سلما، وجاء في برقية الصدر الأعظم الموجهة إلى مدحت باشا (والي الشام) بهذا الصدد (إن الإنكليز لا يسرون بما تتخذه من التدابير لتأديبهم). وهذا التدخل شجع الدروز، إذ ما لبثوا أن اعتدوا على الكرك وأم الولد وحرقوا زرعهما في سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٨٢م، وعلى قرية (المسمية) في حوران سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

ثم ثاروا في سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م و ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥م وكذلك في سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م. وكانت اعتداءات الدروز على أهالي حوران قد أثيرت في مجلس المبعوثان العثماني، حيث ندد مبعوث حوران باعتداءات الدروز، مطالباً الدولة باتخاذ الاجراءات العسكرية الرادعة ضدهم بعد اعتدائهم على الجيش والأهالي، وأنهى خطابه بمطالبة الحكومة بسوق قوة عسكرية على حوران (لصيانة العرض والدين والمال وتأمين الرعية من الخوف)[2].

مما تقدم يتضح لنا بأن دروز حوران كانوا في شبه ثورة دائمة ضد الدولة، وعندما كانت الولاية تعرض عليهم برامج الإصلاح وتطلب من زعمائهم مساعدتها في تطبيقها، كان الزعماء يقبلون ذلك ثم يرفضونه وهكذا، وبالرغم من ذلك فلقد حاولت ولاية سورية إصلاح الأوضاع الإدارية في منطقة جبل الدروز عن طريق نشر التعليم بين الدروز

---

(١) المصدر السابق ص٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) انظر كتاب الإدارة العثمانية في ولاية سورية / محمد عبد العزيز عوض ص١٩٣، ٢٩١، ٢٩٢.

بإنشاء المدارس وتعليمهم مبادئ الدين الإسلامي، واتبعت سياسة اللين والرفق مع رؤسائهم الروحانيين، وذلك باستدعائهم إلى دمشق وبذل المساعي لاقناعهم بقبول الإصلاحات، فيبدي الزعماء رضاهم التام لدرجة المطاوعة والانقياد، ولكنهم لم يثبتوا على ذلك طويلا[1]. وهكذا يبدو أن ثورات الدروز المستمرة ضد الدولة العثمانية وخاصة بعد سنة ١٨٤١م، كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى الاستقلال عن الدولة وبسط السيطرة الدرزية على لواء حوران بمساعدة وتأييد بريطانيا.

هذا ملخص لمذهب الدروز وتاريخهم، نجعله كبداية للدخول في الفصل الثاني، وهو تفصيل لكل العقائد التي يؤمن بها أبناء هذه الطائفة، والذي سيختم بحكم الإسلام في هذه الطائفة وعقيدتها.

---

(١) المصدر السابق ص٢٩٣.

الفصل الثاني

الجانب الباطني في عقائد الدروز

١- دعوى ألوهية الحاكم عندهم، ونظرتهم للاهوت والناسوت

العقيدة الرئيسية التي يركز عليها حمزة بن علي ونراها في رسائله، ورسائل غيره من دعاة الدروز، هي ألوهية (الحاكم بأمر الله)، باعتبار أن له حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام، ولا تعرف بالرأي ولا بالقياس، مهما حاول الإنسان أن يعرف كنهها، لأن هذا اللاهوت ليس له مكان، ولكن لا يخلو منه مكان، وليس بظاهر كما أنه ليس بباطن. حتى إنه لا يوجد اسم من الأسماء، ولا صفة من الصفات يطلق عليه.

وهكذا - وكما يقول الدكتور محمد كامل حسين -: يتفق ذكر التوحيد في رسائل الدروز، وحديثهم عن لاهوتية المعبود، يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد في كتب الدعوة الإسماعيلية عن الله سبحانه وتعالى. ففي كتاب «راحة العقل» لأحمد حميد الدين الكرماني، الذي كان معاصرا لحمزة بن علي، نجد سورا كاملة ذا سبعة مشارع في التوحيد والتقديس، وحديثه في ذلك كله هو حديث رسائل الدروز. فقد جعل الكرماني المشرع الأول: في بطلان كونه تعالى ليسا[1]، والمشرع الثاني: في بطلان كونه تعالى أيسا[2]، والمشرع الثالث: في أنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات، وأنه لا بجسم ولا في جسم، ولا يعقل ذاته عاقل... ثم ختم المشرع السابع، الذي جعله من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى»[3].

وعلى هذا الأساس الإسماعيلي، فإن الدروز لا يعتقدون أن الله دخل في جسم - تعالى الله عن ذلك -، ولكنهم يعتقدون أنه سبحانه اتخذ له حجاباً وصورة ناسوتية، احتجب بها

---

(١) أي محال ليسيته، إذ لو كان ليسا لكانت الموجودات أيضا ليسا، فلما كانت الموجودات موجودة، كانت ليسيته باطلة.

(٢) أي موجود مثل سائر الموجودات المخلوقة.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١٠٤، ١٠٥.

أمام الناس، ويعبر حمزة عن ذلك في «الرسالة الموسومة بكشف الحقائق» فيقول: «أنتم جميع المسلمين واليهود والنصارى، تعتقدون بان الله عز وجل خاطب موسى بن عمران من شجرة يابسة، وخاطبه من جبل جامد أصم، وسميتموه كليم الله لما كان يسمع من الشجرة والجبل[١]، ولم ينكر بعضكم على بعض، وأنتم تقولون بأن مولانا جل ذكره ملك من ملوك الأرض، ومن ولي على عدد من الرجال، كان له عقل الكل، ومولانا جل ذكره يملك أرباب ألوف كثيرة ما لا يحصى ولا يقاس فضيلته بفضله، شجرة أو حجر، وهو أحق أن ينطق الباري سبحانه على لسانه، ويظهر للعالمين قدرته منه، ويحتجب عنهم منه. فإذا سمعنا كلام مولانا جل ذكره قلنا: قال الباري سبحانه: كذا وكذا. لا كما كان موسى يسمع من الشجرة هفيفا فيقول: سمعت من الله كذا وكذا، وهذه حجة عقلية لا يقدر أحدكم ينكرها... فالذي يعقل ويفهم أحق أن يكون حجاب الله ممن لا يعقل ولا يفهم، وكيف يجوز البارى سبحانه أن يحتجب في شجرة ويخاطب كليمه منها ثم تحرق الشجرة ويتلاشى حجابه سبحانه الإله المعبود عما يصفون»[٢].

والدروز يعتقدون أن الصورة الناسوتية للإله المعبود ظهرت في الأدوار الماضية، ويعتقدون أنها سبعة أدوار - كما تعتقد الإسماعيلية في أئمتها - والإله المعبود أظهر ناسوته في هذه الأدوار عشر مرات أو مقامات، فهو في نظرهم واحد لا يتغير في كل دور أو مقام، «فهو القائم، وهو المعز، وهو العزيز، وهو الحاكم جل ذكره، يظهر لنا في أي صورة شاء كيف شاء»[٣].

أما المقامات الناسوتية التي يعتقد الدروز أن المعبود ظهر فيها فيرتبونها كما يلي:

«١- العلي ٢- البار ٣- أبو زكريا: ظهر في وقت السماء الثالثة سنة ٢٢٠هـ. ٤- علي: ظهر في وقت السماء الرابعة. ٥- المعل: ظهر في وقت السماء الخامسة.

---

(١) كلام حمزة هذا يبين لنا تكذيبهم وإنكارهم أن يكون موسى كليم الله.

(٢) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق.

(٣) رسالة السيرة المستقيمة.

٦- القائم: كان طفلا استودعه مع سر إمامته أبوه المعل برعاية سعيد المهدي الملقب بـ (عبيد الله) سنة ٢٨٠هـ، وكان سعيد في العشرين من عمره، هرب بالقائم من وجه العباسيين إلى مصر سنة ٢٨٩هـ، ثم إلى شمال إفريقيا سنة ٣٠٨هـ، وهو مؤسس الدولة الفاطمية. تلاه المنصور الذي حكم من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٣٤١هـ، ثم المعز من سنة ٣٤١هـ إلى سنة ٣٦٥هـ، وهما مع القائم يعتبرون في المذهب الدرزى ذاتا واحدة.

٧ - العزيز: من سنة ٣٦٥هـ إلى سنة ٣٨٦هـ، وأخيرا الحاكم بأمر الله[(١)]».

والاعتقاد بهذه المقامات العشرة، واجب مؤكد على الدرزى، حيث تقول إحدى رسائلهم المخطوطة: «ويجب معرفته تعالى في المقامات العشرة الربانية وهم: العلي، والبار، وأبو زكريا، وعليا، والمعل، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، وكلهم إله واحد لا إله إلا هو. فالعلي الأعلى... لم يكن قبله شيء وظهر في أول الدنيا، ثم البار... وظهوره في أواخر أدوار الدنيا... ثم بعد غيبة مقام البار سبحانه وتعالى، ظهر آدم الجزي... وأما ظهور أبي زكريا وعليا والمعل، كان بإمامة مستورة في دور محمد بن إسماعيل، ثم بعد سعيد المهدي ظهر البار سبحانه في مقام القائم والمنصور والمعز والعزيز، وذلك في الخلافة الظاهرة والإمامة الباطنة. وأما مقام الحاكم فظهر بالثلاث منازل المذكورة، ثم تجرد بالوحدانية وكشف توحيده مدة من السنين[(٢)]».

ويقول الدكتور محمد كامل حسين: «وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة، إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبي زكريا القرمطي كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله[(٣)]».

أما لماذا ظهر اللاهوت بصورة ناسوتية، فيجيب حمزة عن ذلك ويقول: «لكنه سبحانه أظهر لنا حجابه الذي هو محتجب فيه، ومقامه الذي ينطق منه ليعبد موجودا ظاهراً، رحمة منه لهم، ورأفة عليهم. والعبادة في كل عصر وزمان لذلك المقام الذي نراه ونشاهده ونسمع كلامه

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص٩٥، ٩٦.

(٢) مخطوطة ذكر ما يجيب أن يعرفه الموحد ويعتقد به ويحفظه ويسلك بموجبه.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١٠٧.

ونخاطبه[1]». فلما كان العبيد عاجزين عن النظر إلى التوحيد بربهم إلا من حيث هم وفي صورهم البشرية، أوجبت الحكمة والعدل أن يتسمى بأسمائهم حتى يدركوا بعض حقائقه[2].

ولكي يبرهن دعاة الدروز أن عبادتهم للصورة الناسوتية هي العبادة الصحيحة، فإنهم يحاولون أن يشككوا في عبادة باقي النحل والأديان الأخرى، باعتبارها عبادة عدم، تمت بلا معرفة ولا مشاهدة. يقول بهاء الدين: «وذلك أن جميع أهل النحل والأديان يعترفون وينكرون إذا دعوا إلى حقيقته كما قال[3]: «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها[4]». أي يقرون أن لهم باريا، فإذا دعوا إلى معرفة توحيده أنكروا وجوده، وكلهم أعني من قدمت ذكره من جميع أهل النحل والأديان، يوجبون على أنفسهم عبادة يرجون بها ثوابه ويفرون بها من عقابه، والعقل يقطع ويشهد ويوجب أن الثواب لا يصح ولا يثبت إلا من بعد معرفة المثيب إذا كان الخلق إلى معرفة المثيب هم أحوج منه إلى معرفة ثوابه، وأيضا جميع أهل الشرع والمذاهب المتقدمة[5]».

ولم يكتف بهاء الدين بهذه الأوهام، بل حاول أن يشكك في وجود الله سبحانه وتعالى فوق سبع سماوات فيقول: «وجميع العالم على شك، والشك هو الكفر لأنهم يعبدون من لا يسمع ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، ولا يدرون هل عبادتهم مراده، أو أراد منهم شيئا مما أجازته عقولهم. وأيضا فقد تقدم القول بأن المولى جل ذكره عادل غير جائر، تعالى وجل عما يقوله الملحدون علوا كبيرا، فأي عدل يقتضي أن يكون فوق سبع سماوات على كرسي فوق السماء السابعة كما يزعم المشركون[6]، وقد كلفنا مع هذا عبادته ومعرفته، فهل في

---

(١) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق.

(٢) رسالة السيرة المستقيمة.

(٣) هذه هي طريقة حمزة ودعاته فإنهم عندما يأتون بآية من القرآن، يذكرون قال بدون ذكر القائل.

(٤) يشير إلى الآية الكريمة ((يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)) سورة النحل، آية ٨٣.

(٥) الرسالة الموسومة بالشافية لنفوس الموحدين.

(٦) من هذا يتين لنا أن دعاة الدروز يعتبرون إثبات العلو لله سبحانه وتعالى شركا، أما قولهم أن الحاكم - والذي هو عبد من عباده سبحانه - هو الله - تعالى عن ذلك - فلا يعتبر شركا، فيا سبحان الله فإنها (لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).

وسع أحد أن يعرف ما خلف الجدار الذي هو أقرب إليه من كل قريب إن لم يكشف عنه وينظره بعينه، فنعوذ بالمولى أن ننسبه إنه احتجب بهذه الحجبة، ثم كلفنا مع ذلك عبادته ومعرفته، بل ظهر الله تعالى بهذه الصورة الناسوتية التي تشاكلنا من حيث المجانسة والمقابلة، فهذا نفس العدل...

فلما صح عند ذوى العلم والمعرفة والفهم، أن ابن آدم أفضل الأشياء كلها وجب أن يحتجب البارى جلت قدرته في أجل الأشياء[١]».

وهم بالاضافة إلى تلك التبريرات السخيفة التي يسوقنها في سبب ظهور اللاهوت بصورة ناسوتية. يأتون أيضا بشيء آخر، وهو أن الناس لا تطيق مقابلة الأهوة، فلو انكشف لها من غير تأنيس ولا تدريج لصعقت لقدرته وخرت، فأظهر صوره الناسوتية رفقا بالناس وطمأنينة لقلوبهم[٢].

وهناك اعتقاد مهم آخر، يجب على الدرزى أن يؤمن به، وهو أن الناسوت لا ينفصل عن اللاهوت، ذلك أن الحجاب هو المحجوب، والمحجوب هو الحجاب، فالناسوت في اللاهوت مثل الخط من المعنى[٣].

ويوضح هذه النقطة الدكتور سامي مكارم فيقول: «ويمكننا أن نقول: إن الناسوت من اللاهوت كالخط من المعنى، وكما أن فكر الإنسان المحدود بالكيفية والاضافة والزمان وما شابه ذلك لا يستطيع أن يدرك المعاني مجردة من الخط أو الصورة أو الصوت، كذلك لا يمكن أن يدرك اللاهوت بوجه من الوجوه، وإنما يتجلى الله في الناسوت، ويكون هذا الناسوت قد تنزه عن كل ما ليس هو في حقيقته وشموله، فأضحى تشخيصاً للإنسان الكامل، أي ناسوتا مجرداً متطهراً مثالياً متنزلا بتجرد الباقي السرمدى فيه عن التوهم. هذا هو التأنيس بالنسبة للآخرين[٤]».

---

(١) رسالة من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن.

(٢) مخطوطة شرح الميثاق / محمد حسين.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٢٨.

هذه هي نظرتهم للاهوت والناسوت، تظهر لنا بجلاء أن الدروز يؤمنون بظهور الله في شخص إنسان، لأن الإنسان في نظرهم هو الأولى باحتجاب الله في صورته، بصفته أفضل المخلوقات. وأن ظهور الله - سبحانه وتعالى عما يقولون - بصورة ناسوتية سببه - كما يزعمون - رحمة الله للناس، وعدلا منه لهم في مشاهدتهم إياه ليؤمنوا به وبوجوده.

وبما أن الحاكم بأمر الله هو الصورة الناسوتية الأخيرة لله - كما يزعمون، فهم لهذا يعبدونه ويقدسونه، وينتظرون ظهوره بعد غيبته - أو مقتله -. وهذا المعتقد هو المرتكز الرئيسي التي تقوم عليه عقيدة الدروز، (وميثاق ولي الزمان) يعبر تعبيراً واضحاً عن حقيقة هذه العبادة، والتي لا تتم إلا بعد ان يتبرأ الإنسان من كل الأديان والمعتقدات الأخرى، وهذا العهد وضعه حمزة بن علي، ليؤخذ على كل من دخل بدعوته، بصفته دين جديد، وفيما يلي نص هذا الميثاق: ؟

«توكلت على مولانا الحاكم الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان، إقرارا أوجبه على نفسه، وأشهد به على روحه، في صحة من عقله وبدنه، وجواز أمره، طائعاً غير مكره ولا مجبر.

أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات، كلها على أصناف اختلافاتها، وأنه لا يعرف شيئا غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره، والطاعة هي العبادة. وأنه لا يشرك في عبادته أحدا مضى أو حضر أو ينتظر، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، وغير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره.

ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به روحه، أو أشار به إلى غيره، أو خالف شيئا من أوامره. كان بريا من الباري المعبود، واحترام الإفادة من جميع الحدود، واستحق العقوبة من البار العلي جل ذكره.

ومن أقر أن ليس في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين.

كتب في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا من سنين[١] عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد، هادى المستجيبين، المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا جل ذكره، وشدة سلطانه وحده»[٢].

ولا يزال هذا الميثاق يأخذ به الدروز إلى الآن، حيث يقسم به الجاهل منهم حين دخوله في سلك العقال، والدليل على ذلك وروده في مصحف الدروز الذي وضعه كمال جنبلاط، ولكن يبدو أن جنبلاط قد أضاف شيئا آخر إلى هذا الميثاق، وهو (العهد) مما يعطي انطباعا لقارئ مصحفهم أن العهد والميثاق متلازمان في العقيدة الدرزية، ولأهمية نصوص هذا العهد، والتي توضح كذلك بقاء هذه العقيدة في نفوس الدروز، وهي عبوديتهم للحاكم إلى الآن، نورد نص هذا العهد:

«آمنت بالله، ربي الحاكم، العلي الأعلى، رب المشرقين، ورب المغربين، وإله الأصلين والفرعين، منشئ الناطق والأساس[٣]، مظهر الصورة الكاملة بنوره، الذي على العرش استوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، وآمنت به، وهو رب الرجعى، وله الأولى والآخرة، وهو الظاهر والباطن.

وأمنت بأولي العزم من الرسل، ذوي مشارق التجلي المبارك حولها، وبحاملي العرش الثمانية، وبجميع الحدود[٤]، وأؤمن عاملا قائما بكل أمر ومنع ينزل من لدن مولانا الحاكم، وقد سلمت نفسي وذاتي وذواتي، ظاهرا وباطنا، علما وعملا، وأن أجاهد في سبيل مولانا، سرا وجهرا بنفسي ومالي وولدي وما ملكت يداي، قولا وعملا، وأشهدت على هذا الإقرار جميع ما خلق بمشارقي، وما مات بمغاربي.

---

(١) وضع حمزة لأتباعه تقويما خاصا بهم، ويسمى الآن عند الدروز (تقويم حمزة) وتبدأ السنة الأولى في هذا التقويم من عام (٤٠٨)هـ، والتي كان بها إظهار الدعوة لتأليه الحاكم.

(٢) مخطوط ميثاق ولي الزمان.

(٣) هذه المصطلحات هي مصطلحات شيعية لكل فرق الشيعة، فالناطق تعني النبي، والأساس تعني الوصي أو الإمام.

(٤) أي الحدود الخمسة التي سيأتي تفصيلها في هذا الفصل.

وقد التزمت وأوجبت على هذا: نفسي وروحي بصحة من عقلي وعقيدتي، وإني أقر بهذا، غير مكره أو منافق، وإنني أشهد مولاي الحق الحاكم، من هو في السماء إله وفي الأرض إله، وأشهد مولاي هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين المرتدين، حمزة بن علي بن أحمد، من به أشرقت الشمس الأزلية، ونطقت فيه وله سحب الفضل: أنني قد برأت وخرجت من جميع الأديان والمذاهب والمقالات والاعتقادات قديمها وحديثها، وآمنت بما أمر به مولانا الحاكم الذي لا أشرك في عبادته أحدا في جميع أدواري[1].

وأعيد فأقول: إنني قد سلمت روحي وجسمي وما ملكت يداي وولدي لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضيت بجميع أحكامه لي أو علي، غير معترض ولا منكر منها شيئا، سرني ذلك أم ساءني، وإذا رجعت أو حاولت الرجوع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره، والذي كتبته الآن واشهدت به على روحي ونفسي، أو أشرت بالرجوع إلى غيره، أو جحدت أو خالفت أمرا أو نهيا من أوامر مولاى الحاكم جل ذكره ونواهيه. كان مولاي الحاكم جل ذكره، بريئا مني واحترمت الحياة من جميع الحدود، واستحقت علي العقوبة في جميع أدواري من بارئ الأنام جل ذكره، وعلى هذا أشهدك ربي ومولاي، من بيدك الميثاق، وأقر بأنك أنت الحاكم الإله الحقيقي المعبود، والإمام الموجود جل ذكره، فاجعلني من الموحدين الفائزين الذين جعلتهم في أعلى عليين، ثلة من الأولين وقليل من الأخرين، مولاي إن تشاء آمين»[2].

وقد أورد القلقشندي نصا غريبا ليمينهم هذه، لا يتوافق مع معتقداتهم، وخاصة بالنسبة للدرزي، الذي يصفه هذا القسم بأنه: «الحجة الرضية»[3]، وهذا لا يقبله الدروز.

---

(١) أي في جميع الأجسام التي يظهر بها، لان الدروز كما سيأتي يؤمنون بالتناسخ، أي أن النفس لا تموت ولكن الجسم هو الذي يبلى فينتقل إلى جسم آخر.

(٢) المصحف المنفرد بذاته / عرف العهد والميثاق ص١٠٧ – ١١٠.

(٣) انظر صبحى الأعشى / القلقشندي جـ١٣ص٢٩٤ ؟

وهكذا فإن هذا الميثاق وغيره يبتر أي صلة بين الدرزي وكل المذاهب والأديان الأخرى، ويدفعه لتلقي كل ما يرويه حمزة وتلاميذه، - ابتداء ببهاء الدين وانتهاء بجنبلاط وأمثاله -، عن الحاكم وألوهيته بالرضى والتسليم.

ولعل حمزة بن علي في رسالته المسماة بـ «كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل»، يوضح هذا الدافع، حيث جعل في هذه الرسالة جميع أقوال وأفعال الحاكم دليل على ألوهيته، لأنها رموز وإشارات لها تأويل باطني لا يفقهه الناس، لذلك فقد انبرى حمزة ليظهر هذه الرموز والإشارات.

ولهذه الرسالة أيضا أهمية خاصة فيما يتعلق بتأييد الأخبار المروية عن كتب المؤرخين عن أفعال الحاكم الغريبة الشاذة والمتناقضة، إذ فيها دليل قاطع على أن هؤلاء المؤرخين لم يتفروا شيئا، ولم ينقلوا إشاعات كاذبة[1].

وحمزة لم يكتب هذه الرسالة إلا بعد أن كثرت الأقوال والشائعات عن تصرفات الحاكم الغريبة والشاذة، لذا نجده يقول في بداية هذه الرسالة: «أما بعد، معاشر الإخوان الموحدين، أعانكم المولى على طاعته، إنه وصل إلي من بعض الإخوان الموحدين[2]- كثر المولى عددهم وزكى أعمالهم، وحسن نياتهم - رقعة يذكرون فيها ما يتكلم به المارقون من الدين، الجاحدون لحقائق التنزيه ويطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعالهم الردية، وما تميل إليه أديانهم الدنية - فيما يظهر لهم من أفعال مولانا - جل ذكره - ونطقه، وما يجري قدامه من الأفعال التي فيها حكمة بالغة شتى... ولم يعرفوا بأن أفعال مولانا - جل ذكره. كلها حكمة بالغة، جدا كانت أم هزلا، يخرج حكمة ويظهرها حين... فكيف أفعال من لا تدركه الأوهام والخواطر بالكلية، وحكمته اللاهوتية هي من رموزات وإشارات لبطلان النواميس، وهلاك الجواميس... ولو نظروا إلى أفعال مولانا جلت قدرته بالعين الحقيقية،

---

(١) انظر مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ٢ص٧٥٧.

(٢) هذا اللقب يطلقه حمزة وأتباعه على أنفسهم، ويحبون أن يطلقه عليهم الناس.

وتدبروا إشاراته بالنور الشعشعاني، لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية، والسلطان الأبدية... وعلموا حقيقة المحض في جده وهزله»[1].

ثم يبدأ حمزة بعد هذا في الدفاع عن تصرفات الحاكم، محاولا تبريرها بكل الوسائل، باعتبار أن لها تأويلا باطنيا لا يعرفه إلا هو، ومما قاله حمزة من هذه التبريرات قوله «ثم إن مولانا علينا سلامه ورحمته، ظهر لنا في الناسوت البشرية، ونزوله عن الحمار إلى الأرض، وركوبه محاذي باب المسجد، دليل على تغيير الشريعة، وإثبات التوحيد، وإظهار الشريعة الروحانية على يد عبده حمزة بن علي بن أحمد... ونزوله عن الحمار إلى الأرض وركوبه الآخر كان في نفس أذان الزوال، وصلاة الزوال دليل على الناطق، وتغيير مولانا جل ذكره الحمار في نفس وقت الأذان، دليل على إزالة الظاهر.... أما ما يرونه من وقوفه في الصوفية، واستماعه لأغانيهم، والنظر إلى رقصهم، فهو دليل على ما استعمل من الشريعة[2] التي هي الزخرف واللهو واللعب.... وأما لعب الركابية بالعصي والمقارع، قدام مولانا جل ذكره فهو دليل على مكاسرة أهل الشرك والعامة وتشويهم بين العالم، وإظهار أديانهم المغاشم، ويكشف زيفهم باستجرائهم على المخاطبة بحضرته. أما الصراع، فهو دليل على مفاتحة الدعاة بعضهم لبعض، وقد كان للعالم في قتل سويد والحمام عبرة لمن اعتبر، ونجاة من الشرك لمن تدبر، لأنهما كانا رئيسين في الصراع، ولكل واحد منهما عشيرة وأتباع، وهما دليلان على الناطق والأساس[3]، وقتلهما دليل على تعطيل الشريعتين التنزيل والتأويل[4]، والهوان بالطائفتين أهل الكفر والتلحيد... وأما ما ذكره الركابية من ذكر الفروج والأحاليل، فهما دليلان على الناطق والأساس، وقوله: «أرني قمرك» يعني اكشف عن

---

(١) رسالة«كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل».

(٢) اي الشريعة الإسلامية.

(٣) يقصد بالناطق (محمد ﷺ)، والأساس هو علي بن أبي طالب.

(٤) يقصد بالشريعتيين، الإسلامية والإسماعيلية، فالتنزيل هو الإسلام، والتأويل - أي التأويل بالباطن - هو المذهب الإسماعيلي التي قامت عليه الدولة الفاطمية.

أساسك، وهو موضع يخرج منه القذر، دليل على الشرك، فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله، أي عبادة أساسه، نجا من العذاب والزيغ في اعتقاده، ومن شك هلك.

كما أن الإنسان إذا لم يبل ولا يتغوط أخذه القولنج فيهلك. والنار ها هنا علم الحقيقة، وتأييده جل ذكره، فيحرق ما أتت به الشريعتان، كما أنهم يحرقون فروج بعضهم بعضا في النار، دليل على احتراق دولتهما وانقضاء مدتهما، وإظهار توحيد مولانا جل ذكره بغير شاك فيه»[1].

وبالإضافة إلى الرسالة السابقة، هناك رسالة أخرى لحمزة هي: «رسالة السيرة المستقيمة» يعطينا بها حمزة المزيد من تأويلاته الحلزونية لأفعال الحاكم الغريبة، ومما جاء فيها: «ومن رسوم مولانا جل ذكره الركوب في الهاجرة، والمسير في الرمضاء وفي الشتاء، إذا كان يوم ريح جنوب صعب وغبار عظيم يتأذون الناس في بيوتهم من ذلك الريح والغبار، ثم يركب المولى سبحانه في ظاهر الأمر إلى حجر الجب، ويرجع وما في الموكب أحد إلا وقد دمعت عيناه من الغبار والريح، وكلّت ألسنتهم عن النطق الفصيح، وناهم من المشقة والتعب ما لم يقدر عليه أحد، ومولانا سبحانه على حالته التي خرج بها من الحرم المقدس، ولم يره أحد قط في وقت الهاجرة الهائلة والسموم القاتلة قد اسود له وجه في ظاهر الأمر، ولا لحقه شيء من تعب، ولا يقدر أحد منهم يقول بأنه لحقه شيء من ذلك..... ولا يقدر أحد يقول ممن حضر مع مولانا سبحانه في ظاهر الأمر في مواضع لا يحضرها كل الناس، أنه شاهده يفعل شيئا مما ذكرناه من تعب أو أكل أو شرب حاشاه سبحانه عن ذلك... فكيف من يزعمون أنه مريض، وليس يقدر يمشي، وقد قتل جبابرة الأرض وملوكهم، ويمشي بينهم في محفة، وهو الذي ذكرته لكم في هذه السيرة وأضاف هذه الأفعال ليس هي فعل أحد من البشر، وما هو شيء يستعظم للمولى سبحانه»[2].

---

(١) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل.

(٢) رسالة السيرة المستقيمة.

وهكذا نرى أن حمزة لم يأتي بجديد في موضوع ألوهية الحاكم وإن فاق الكثير دهاء ومكرا وعداوة للإسلام، وتلاعبا بالألفاظ، فتواضع الحاكم وشجاعته وشدته دليل على ألوهيته، بل سدل شعره وارتداؤه الصوف واللعب بالأحاليل والفرج دليل كذلك.

وإن الإنسان العاقل وهو يقرأ هذه السخافات لا يستطيع إلا أن يرثي لحال هؤلاء الذين - لا يزال حمزة وتلاميذه - يلعبون بعقولهم فيؤمنون بأقواله وسخافاته المهينة للعقل الإنساني.

والدروز بالاضافة لما سبق ينفون عن الحاكم أنه ابن العزيز، أو أبو علي، أو له أب أو ولد، وهذا ما ينفيه حمزة في أحد رسائله فيقول: «فالحذر الحذر، أن يقول واحد منهم بأن مولانا جل ذكره: ابن العزيز، أو أبو علي، لأن مولانا سبحانه هو في كل عصر وزمان يظهر في صورة بشرية وصفة مرئية كيف يشاء حيث يشاء.... إلى أن يقول: وهو سبحانه لا تغيره الدهور ولا الأعوام ولا الشهور، وإنما يتغير علكيم بما فيه صلاح شأنكم، وهو تغيير الاسم والصفة لا غير... وأما من قال واعتقد بأن مولانا جل ذكره، سلم قدرته ونقل عظمته إلى الأمير علي[1].... فمن منكم يعتقد هذا القول فليرجع عنه ويستقيل منه ويستغفر المولى جل ذكره.... فلا يجوز لأحد يشرك في عبادته ابنا ولا أبا، ولا يشير إلى حجاب يحتجب مولانا جل ذكره فيه إلا بعد أن يظهر مولانا جل ذكره أمره.... فحينئذ لا مرد لقضائه[2].

أما لماذا تسمى الإله المعبود بأسماء العباد؟ وخاصة باسم الحاكم؟ فيجيب عليه حمزة في عدد من رسائله ويقول: «فإن قال قائل: فلم تسمى المولى سبحانه باسم العبد، وما الحكمة فيه؟ قلنا له بتوفيق مولانا جل ذكره وتأييده: إن جميع ما يسمون الباري جل ذكره في القرآن وغيره فهو لعبيده وحدوده، وأجل اسم عندهم[3] في القرآن (الله)... فلما كانت

---

(١) هو ولي عهد الحاكم وابنه، والذي تسمى بـ (الظاهر).

(٢) رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد.

(٣) أي عند المسلمين.

العبيد عاجزين عن النظر إلى توحيد باريهم إلا من حيث هم وفي صورهم البشرية، أوجبت الحكمة والعدل أن يتسمى بأسمائهم حتى يدركون بعض حقائقه»[1]، «وأراد بالحاكم، أي يحكم على جميع النطقاء والأسس والأئمة والحجج ويستعبدهم تحت حكمه وسلطانه، وهم عبيد دولته ومماليك دعوته الحاكم بذاته... وكذلك: ترك الاعتراض فيما يفعله مولانا جل ذكره، ولو طلب من أحدكم أن يقتل ولده لوجب عليه ذلك بلا إكراه قلب، لأن من فعل شيئا وهو غير راض به لم يثب عليه، ومن رضي بأفعاله وسلم الأمر إليه، ولم يراء إمام زمانه، كان من الموحدين الذين لا خوف عليهم»[2].

وفي شرح «ميثاق ولي الزمان» يوضح الشارح معنى معرفة الحاكم وطاعته والتي وردت في ميثاق ولي الزمان فيقول: «والمعرفة هنا بالفعل لا بالعلم، يعني أنه لا يدخل في عبادة الحاكم سبحانه ولا يعتقد سواه.... والطاعة هي العبادة، لأن العبادة في هذا الموضع تأليه وتقديس، وفي غير هذا الموضع العبادة هي الاتباع والطاعة مطلقا»[3].

لهذا فإن مصحف الدروز يتوعد الذين لا يعرفون الحاكم هذه المعرفة ولا يطيعونه هذه الإطاعة بالعذاب الشديد ويقول: «لئن ينتعل أحدكم بنعلين من نار، يغلي بهما دماغه من حرارة نعليه، إنه لأهون، وأدنى عذابا، من رافض دعوة مولانا الحاكم، بعد إذ تبين الرشد من الغي... إلى أن يقول: ولو أن من في الأرض استغفر لهم لن يغفر الله مولاهم الحاكم الصمد، والفرد بلا عدد، والواحد الأحد، خطيئاتهم، ولو افتدى أحدهم بما في الأرض جميعا فلا ينجيه»[4].

وهذا ولا يزال الدروز إلى الآن يترقبون عودة الحاكم - الغائب -، لأن الحاكم في نظرهم لم يمت، بل غاب لأنه غضب على كل خلقه ما عدا الموحدين؟ ولذلك أغلق باب

---

(١) رسالة السيرة المستقيمة.

(٢) رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد.

(٣) شرح الميثاق / مخطوط كتبه محمد حسين.

(٤) المصحف المنفرد بذاته / عرف الإنذار والحساب ص١٩ - ٢٥.

دعوته فغاب إلى داخل السور المسمى (سد الصين) ليبقى إلى أن يشاء ثم يظهر يوم الدين[١].

أما متى يكون يوم الدين هذا، فإن حمزة ودعاته لم يحددوه لنا، ولكنهم يقولون: «إنه متى حلت الساعة، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين، ويقصدون إلى مكة في كتائب جرارة، وفي غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليماني من الكعبة، وهو يشهر بيده سيفا، ثم يدفعه إلى حمزة فيقتل به الكلب والخنزير وهما عندهم رمز الناطق والأساس. وبعد ذلك يأخذ السيف محمد (الكلمة)[٢]، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة، ويسحقون المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض، ويملكون العالم إلى الأبد، وحينئذ يتفرق الناس إلى أربع فرق: الأولى: الموحدون، والثانية: أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود، الثالثة: أهل الباطن وهم النصارى والشيعة، والرابعة: المرتدون وهم الجهال[٣]، فيدمغهم حمزة في الجبين واليد، ويفرض عليهم الجزية وغير ذلك من فروض الذلة والطاعة»[٤].

ويبدو أنه قد حدث تساؤل من قبل الدروز عن سبب أن يكون هذا هو الظهور الأخير للإله المعبود، وقد أجاب بهاء الدين عن ذلك بقوله: «واعلموا معاشر الإخوان، أن لو كان المعبود سبحانه ينتقل بعد هذا الظهور في الأقمصة المختلفة لكان هذا الأمر لا نفاذ له، وأمد لا آخر له، وكانت تنفذ الديانة الآن»[٥].

هذه هي اعتقادات الدروز اتجاه الحاكم، وإنني أعتقد أن النصوص السابقة والتي سقتها، وأخرى كثيرة مثلها، تدل صراحة على تأليه الحاكم من قبل الدروز، وأمام وضوحها وجلائها لا يمكن لهم أن ينكروا هذا المعتقد، لأنها لا تجعل مجالا لأي تعليق أو توضيح.

---

(١) انظر كتاب طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١٠٩.

(٢) أحد الحدود الخمسة عند الدروز.

(٣) وهم القسم الثاني من الدروز، الذين لا يعرفون من المذاهب إلا الشيء القليل.

(٤) مخطوطة في تقسيم جبل لبنان / مؤلف مجهول.

(٥) رسالة بني أبي حمار.

ولعل القارئ الكريم يتساءل معي: لماذا يحاول الدروز إلى الآن أن ينفوا ظاهرا هذا التأليه عن معتقدهم؟ مع أنهم يؤكدونه في مجالسهم الخاصة، وفي خلواتهم، وإني أكتفي برد الأستاذ عبدالله النجار (وهو درزي) والذي يقول: «واني لأذكر عتاب كبير الأشياخ الثقات، لأني ذكرت في أحد الكتب المطبوعة: أن أم الحاكم كانت صقلبية، إذ قال لي: إن الحاكم لا أم له مرددا ما جاء في الرسالة ٢٦: حاشا مولانا جل ذكره من الابن والعم والخال، «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»[(١)].

مما تقدم نستطيع أن نقول: إن ادعاء الحاكم الألوهية كان مظهرا من مظاهر الكفر والإلحاد الذي كان يسيطر على المجتمع الإسماعيلي ودعاته، وكذلك كان فيه جنون العظمة، والرغبة بالحكم والسلطان، وشهوة الظلم والقتل والاعتداء على الآخرين، حتى تخيل أنه الإله، وزين له ذلك الأذناب الذين التفوا حوله من دعاة الإسماعيلية المجوس أمثال حمزة بن علي والفراغاني وغيرهم، فازداد قتله وبطشه بالناس، وأخذه أموال الناس بغير حق، وإعطائها بغير حق أيضا، ليقال عنه: المميت والمحيي، والرزاق والمانع.

والواقع أن فكرة تجسد الإله في صورة إنسانية، هي فكرة جاء الإسلام لمحوها من عقول الناس، لأنها مستقاة من مذاهب وفلسفات تقوم على الشرك والوثنية[(٢)]، وهي بالتالي اجتراء على الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[(٣)].

لذلك جاءت آيات كثيرة تكشف كفر اليهود والنصارى لقولهم واعتقادهم في حلول الله بإنسان، ويكفي أن نقول إن إرسال الرسل والأنبياء مِن قبل الله تعالى، يدحض كل مزاعمهم تلك، إذ بظهوره في صورة إنسان، ما كانت هناك حاجة لهؤلاء الرسل والأنبياء.

ولو أن هؤلاء الذين لا زالوا يعتقدون بألوهية الحاكم، وما زالوا في الضلالات والمتاهات التي وضعها حمزة بن علي وأذنابه، أصغوا إلى نداء عقولهم وفطرتهم ما بقي

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١٠٥، ١٠٦، وهنا يشير إلى الآيتين الكريمتين في سورة الاخلاص آية ٣ - ٤.

(٢) راجع في هذا المجال باب التمهيد في مصادر الفكر الباطني.

(٣) سورة الشورى آية ١١.

واحد منهم على هذا الاعتقاد الواهي، الذي لا يصدقه عقل، ولا تستسيغه نفس. فهدف حمزة وأذنابه من كل هذه الاعتقادات هو هدم الإسلام وتحطيم المسلمين ليروّوا حقدهم الدفين ضده حين استطاع الإسلام بوضوحه وصفائه أن يهدم أركان مجد أجدادهم في فارس وغيرها من بلاد الله، وصدق الله العظيم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾[1].

٢- عقيدتهم في تناسخ الأرواح:

يعتقد الدروز بالتناسخ والتقميص، أي بانتقال النفس من جسم بشري إلى جسم بشري آخر، باعتبار أن النفس لديهم لا تموت، بل يموت قميصها (الجسم)، ويصيبه البلى، فتنتقل النفس إلى قميص آخر.

وهذا الاعتقاد بالتناسخ، يخالف اعتقاد طائفة النصيرية، والذين لا ينحصر التناسخ عندهم بين الناس، بل يكون أحيانا بينهم وبين البهائم أو النبات أو الجماد[2].

وعقيدة الدروز تنكر اعتقاد النصيرية هذا بالتناسخ، ولذلك عبرت عن التناسخ بكلمة (التقميص)، وذلك لاعتقادهم أن انتقال النفس إلى جسم حيوان أو شيء جامد ظلم لها، ولأن الثواب والعقاب بني - حسب ما يزعمون - على قاعدة العدل الإلهي في محاسبة الأرواح بعد مرورها في الدهر الطويل، لا في مدى حياة واحدة، بخيرها وشرها، وقصرها أو طولها، بحيث يمنحها الدهر الطويل فرص الاكتساب والتطور[3].

ومع أن الدروز لا ينكرون المسخ - أي انتقال النفس إلى جسم حيوان - إلا أنهم يعتقدون بالمسخ المعنوي أو المجازي، ويعبر عن ذلك الأستاذ عبدالله النجار بقوله: «المسخ في اللغة: تحويل الصورة إلى أقبح منها، فيقال مسخه الله قردا، وهذا دينيا، ورد ذكره،

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٠.

(٢) راجع الباب القادم في الفصل الثاني منه عند الحديث عن معتقدات النصيرية.

(٣) انظر كتاب مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص٦٢.

مجازي معنوي، المقصود منه التحقير، والذم، والتوبيخ، وهو تعبير مجازي وليس حسيا على الإطلاق»[1].

ومن اعتقاداتهم في هذا الموضوع: أن العالم قد خلق دفعة واحدة، وأن البشر خلقوا سوية وليسوا بمتناسلين من أب واحد، بل من حين الخليقة وجد الحايك في نوله، والبناء على الحائط، وأن عدد أنفس البشر لا يزيد ولا ينقص[2].

ولذلك فهم يزعمون أن عددهم لا يزيد ولا ينقص، لأن التقمص عملية دائمة متواصلة بين أرواحهم[3].

وفي هذا المعنى يقول بهاء في أحد رسائله: «أليس قد صحّ عند كل ذي عقل ومعرفة بالحقيقة والفضل، أن هذه الأشخاص، أعنى عالم السواد الأعظم لم يتناقصوا ولم يتزايدوا، بل هي أشخاص معدودة من أول الأدوار إلى انقضاء العالم والرجوع إلى دار القرار... أليس لو زاد العلم في كل ألف سنة شخصا واحدا لضاقت بهم الأرض. ثم إنه لو نقص في كل ألف سنة شخص واحد لم يبق منهم أحد، فصح عند كل ذي عقل راجح... أن الأشخاص لم تتناقص ولم تتزايد، بل تظهر بظهورات مختلفة الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر»[4].

ويردون بصورة ساذجة على الذين يقولون أن الأنفس حين تموت تكون بين الأرض والسماء، أو فوق السماء فيقولون: «عرفوني يا شيوخ التجريد هذا القوي الذي يفارق الأجسام أين مستقرها؟ وأين يكون ثباتها؟ فإن قلتم: فيما بين الأرض والسماء، فهي لكثرة النشوء تسد ما بين العالمين، وتخالط الهوى وتأتي عليها الطبائع ويدخل عليها من التضاد والفساد ما يدخل على غيرها، وإن أوجبتم أن ثباتها فوق السماء فهي تملأ الأفق»[5].

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد/ عبدالله النجار ص٦١.

(٢) الدروز والثورة السورية/ كريم ثابت ص٣٤.

(٣) من حديث شخصي مع الزعيم الدرزي كمال جنبلاط أجراءه معه الدكتور مصطفى الشكعة عن معتقدات الدروز في كتابه إسلام بلا مذاهب ص٢٨٨.

وانظر كتاب تعليم الديانة الدرزية في جواب السؤال (٢١).

(٤) رسالة من دون قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن.

(٥) رسالة في ذكر الرد على أهل التأويل الذي يوجبون تكرار الإله في الأقمصة المختلفة.

وبناء على اعتقادهم هذا بالتقمص، فإنهم يؤمنون أن العذاب الواقع على الإنسان يكون بنقلته من درجة عالية إلى درجة دونها، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد، وهو أثناء ذلك تقل منزلته ويقع عليه العذاب. أما الثواب عندهم فيكون تنقله بين الأجساد وارتفاعه أثناء ذلك من درجة إلى درجة[1].

وهكذا فالنفس تمر أثناء دورانها بالأجساد في حالات مختلفة، وتبقى على هذه الحالة حتى تتطهر - هذا إن كانت صالحة كما يزعمون-، أما النفس الشريرة وغير المؤمنة فتبقى معذبة بانتقالها من منزلة إلى منزلة أدنى منها.

فإذا مات أحد من مذهبهم، فإنه يولد ثانية على نفس هذا المذهب ولهذا فإنهم لا يقبلون أحدا في مذهبهم حتى ولو اطلع الإنسان على كتبهم وعرف ديانتهم وسلك بموجبها، لأن باب الدخول إلى مذهبهم - كما يزعمون - أغلق ولهذا فلا فائدة من دخوله. وكذلك - يزعمون - أنه إذا انتقل أحد من مذهبهم إلى غيره، فإنهم لا يعترفون بذلك، لأن روحه في النقلة الأخرى ستعود إلى مذهبه القديم[2].

يقول الدكتور سامي مكارم عن هذا الاعتقاد: «ففي عقيدتهم أن الذين تقبلوا الدعوة وتعرضوا إلى الحقيقة في الماضي لا يزالون يولدون من تقبل الدعوة. كذلك فإن التقمص في معتقد التوحيد ليس تطورا للروح في هذا الدور، بل هو تقلب الروح في شتى الأحوال، لكي يتسنى لها أن تختبر هذه الأحوال.

فمن لم يتقبل نداء الحق، حسب معتقد التوحيد، لا يمكنه إلا أن يحصد نتيجة أعماله في حيواته التالية، وكذلك هي الحال بالنسبة لمن تقبل هذا النداء وتعرف إلى الحقيقة»[3].

ونتيجة لاعتقادهم بالتقمص، يعتقدون أيضا بالنطق، والنطق - حسب ما يزعمون-: هو أن الروح تنتقل من جسد إلى جسد تحمل معلومات عن دورها في الجسد السابق -

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٢٦٣.

(٢) انظر مخطوط كتاب تعليم الديانة الدرزية جواب السؤال (٢٠)، وكذلك كتاب الدروز والثورة السورية لكريم ثابت ص٤٧.

(٣) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٢١ - ١٢٢

يعني في الجسم الذي كانت تتقمصه قبل قميصها الحالي -، وفي هذه الحالة تتحدث أو تنطق بما تذكره من وقائع عن حياتها السابقة[1].

لهذا فإن كثيرين من عامة الدروز يتناقلون كثيرا من القصص الخرافية حول هذا الموضوع، وكيف استطاع إنسان أن يتذكر ما جرى في حياته السابقة. غير أن الكاتب الدرزي المعاصر عبدالله النجار كذّب هذا الاعتقاد واعتبره أمراً خرافياً ومن سذج العامة، ويستشهد على ذلك بنصوص من رسائلهم[2].

ولكن الدكتور سامي مكارم - والذي ينطق باسم مشيخة عقل الدروز - يقول في معرض رده على الأستاذ النجار: «ويمكننا القول إن منطق عملية التقمص لا يتعارض مع تذكر الماضي، خاصة عندما ندرك أن نزعات الفكر اللطيفة، حسب عقيدة التوحيد، تنطوي عند الموت، في أعماق النفس المتنقلة من جسد إلى جسد. وهذه النزعات والأفكار اللطيفة، كبذور انطلاقة الحياة التالية، هي التي تحدد وضع التقمص المقبل، فلا بد لبعض الأذهان إذا صادفت بعض الحالات المناسبة، أن تتذكر الماضي المباشر الذي كانت تعيش فيه»[3].

وبسبب هذا الاعتقاد فإنهم يزعمون أن ذوي العاهات والمصابين كالأعمى والأعرج والفقير والجاهل، كان مصابهم هو قصاص عن ذنوبهم في مدة حياتهم السابقة[4].

ويتضمن التقمص عند الدروز أيضا، تمييزا جنسيا، فالذكر حين يموت يولد ذكراً، والأنثى أنثى[5].

ومن ذلك نشأ اعتقادهم أن نفوس الأنبياء والمرسلين تنتقل من دور إلى دور، بجميع صفاتها، فحمزة بن علي - كما يزعمون - في دور الحاكم هو نفس سلمان الفارسي في دور

---

(١) اسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٢٨٠.

(٢) انظر مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار.

(٣) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٢٧.

(٤) الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص٤٨.

(٥) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٢٢.

النبي ﷺ[1]. لهذا فالحلول عندهم - أي حلول الذات الإلهية في الإنسان - نوع من التقمص الذي يؤمنون به[2].

ويحاول الدروز أن يجعلوا من آيات القرآن الكريم التي تدل على البعث والنشور، دليلا على اعتقادهم بالتقمص، فهذا أحد كتابهم المعاصرين الأستاذ فؤاد الاطرش يأتي بعدة آيات يزعم أنها تدل على التناسخ والتقمص ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[3]، وقوله ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[4]، وقوله عز وجل ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[5]... ويزعم الأطرش بعد مجيئه بالآيات بقوله: إن تشبيه النفس بالأرض إثبات مادي على أنّ التقمص لا يقبل الجدل، فلنتأمل في أدوار الأرض ومواسمها وموتها ثم حياتها[6].

ويكفي القول للأطرش وأمثاله، في أن الاستدلال بشيء لا يعني أبدا صحة هذا الاستدلال، وخاصة عندما يأتي به من لا يعرف معناه وأراد به التشويه لا غير، وما على الأطرش وأمثاله إلا أن يعرفوا قيمة الإيمان بالبعث والحساب وحقيقته قبل أن يأتوا بآية من القرآن.

والحقيقة أن عقيدة التناسخ، هي دخيلة على هذه الأمة ودينها، فكل من ينظر في معتقدات الأمم التي جاءت قبل الإسلام، يرى أن جميعها يؤمن بهذا المعتقد، ابتداء بالبوذية التي تقول إن بوذا ظهر على هيئة حيوانات وطيور وشجر وصور إنسية حوالي

---

(١) أصل الموحدين الدروز / أمين طليع ص١٠٠ - ١٠١.

(٢) المصدر السابق ص١٠٠.

(٣) سورة النساء آية ٥٦.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٨، وقد وردت الآية هكذا في الكتاب، ويلاحظ أن كلمة (نعمة) التي أوردها الكاتب محرفاً القرآن غير موجودة في الآية والصحيح (كيف تكفرون بالله).

(٥) سورة الروم، آية ١٩.

(٦) الدروز، مؤامرات وتاريخ وحقائق / فؤاد الأطرش ص١٨٧ - ١٨٨.

ألف مرة[1]، ومرورا بالديانة الهندوكية التي تعتقد أن إلههم (شيفا) ظهر بعدة صور إنسانية، وانتهاء بمذاهب فلاسفة اليونان الذين تظهر آلهتهم في صور مختلفة[2].

وهكذا نستطيع أن نربط هذا الاعتقاد، بتلك المذاهب التي كانت سائدة في فارس والهند واليونان، والتي جاء الإسلام لتحرير الإنسان منها.

فالتناسخ في حكم الإسلام، عقيدة باطلة تؤدي إلى الكفر، لأن الأخبار اليقينة التي جاءت عن طريق القرآن والرسول ﷺ بينت بطلان هذا الاعتقاد، وأن الإنسان بعد موته يسأل في القبر.

فقد ثبت في القرآن والسنة سؤال الملكين بعد الموت، وفي القبر، هذا يدل بوضوح على بطلان ما يتوهم به البعض من أن الأرواح تظل متنقلة بين الأجسام، كلما انتسخ وجود واحد منها في جسدها التي هي فيه، انتقلت منه إلى جسد آخر، وهكذا دواليك.

فالله سبحانه وتعالى يرسل ملكين إلى الإنسان عقب وفاته، يسألانه عن دينه الذي عاش عليه، وعما علمه من أمر محمد ﷺ، فإما أن يتعرض إلى لون من العذاب، أو لون من النعيم، إذن فالروح مشغولة بصاحبها محبوسة له أو عليه، كما قال الله عز وجل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[3] ولا يمكن أن تنصرف مولية عنه لتسكن جسدا آخر تستقبل فيه سلوكاً جديداً ووجوداً آخر[4].

قال تعالى مخبراً عن حياة البرزخ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنَ

---

(١) انظر كتاب البوذية وتأثيرها في الفكر والفرق الإسلامية المتطرفة / محمد علي الزعبي وعلي زيعور ص١٤٧ - ١٤٩.

(٢) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١٠٩.

(٣) سورة المدثر آية ٣٨.

(٤) انظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية / د. محمد سعيد رمضان البوطي ص٢٩٦.

أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾[1]، وقوله ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾[2] أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، وقوله: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[3]، واليقين ما بعد الموت، كما قال ﷺ: «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه. وذكر تعالى عذاب القيامة والبرزخ معا في ذكره قصة آل فرعون فقال: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾[4]، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ لما أتى المشركين يوم بدر في القليب ناداهم: «يا فلان، يا فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً[5]». وهذا دليل على وجودهم وسماعهم، و أنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[6]، وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾[7]، وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت النوم، ثم منها ما يمسك فلا يرسل إلى بدنه وهو الذي قضي عليه بالموت، ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى[8].

وقد أخبرنا تعالى أيضا بأن هذه الأبدان التي فيها أرواحنا ستشهد علينا يوم القيامة بما عملت، قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ

---

(١) سورة الواقعة آيات ٨٣ - ٩٤.

(٢) سورة ق آية ١٩.

(٣) سورة الحجرات آية ٩٩.

(٤) سورة غافر آية ٤٥، ٤٦

(٥) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد.

(٦) سورة آل عمران آية ١٦٩.

(٧) سورة الزمر آية ٤٢.

(٨) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية مجلد ٤ص٣٦٣ - ٣٧٠.

سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[١].

مما تقدم من الآيات والأحاديث، دليل شرعي حاسم على بطلان التناسخ، وأن القول به كفر، إذ بذلك ينتفي العدل الإلهي عن بني آدم.

أما بطلان التناسخ عقلا، فإن هذا الاعتقاد لم يقم على برهان حسي أو عقلي، وقد قامت الأدلة على حدوث العالم، وما كان حادثا فلا بد له من نهاية[٢]. وكذلك فإن تساوى نفسين في جميع الخصائص أمر غير ممكن، فليس في العالم كله شيئان متشابهان بجميع أعراضهما اشتباها تاما من كل وجه، وإنما يقال هذا الشيء يشبه على معنى أن ذلك في أكثر أحوالهما لا في كله، ولو لم يكن ما قلنا ما فرق أحد بينهما البتة[٣].

هذا من ناحية النفس، أما من ناحية الأخلاق، فإن الأخلاق تتباين، والأخلاق محمولة على النفس التي هي محل لها، ومتى تباينت الأخلاق تباينت النفوس من ناحيتها، وإذا تباينت النفوس كانت نفس كل بدن من الأبدان من أي نوع كان، خلاف التي في غيره من أبدان ذلك النوع بالضرورة، وهذا يبطل القول بانتقال نفس من بدن هي مستعدة له إلى آخر من نوع ذلك البدن تصلح نفس أخرى لها خصائصها وأخلاقها[٤].

وينقل ابن حزم عن القائلين بالتناسخ قولهم: «إلى أن التناسخ هو على سبيل الجزاء، ذلك أن الله تعالى عدل حكيم رحيم كريم، فإذا هو كذلك فمحال أن يعذب من لا ذنب لهم بالجدري والقروح، فعلمنا أنه تعالى لم يفعل ذلك إلا وقد كانت الأرواح عصاة مستحقة للعذاب بكسب هذه الأجساد لتعذيب فيها[٥]».

---

(١) سورة فصلت آيات ١٩ – ٢٢.

(٢) الفرق الإسلامية / محمد البشبيشي ص٨٨.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم الظاهري جـ١ ص٩٣.

(٤) الفرق الإسلامية / محمد البشبيشي ص٨٨.

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم الظاهري جـ١ ص٩٣.

وهذا مشابه لما مرّ من اعتقاد الدروز، أن من يلد أعمى أو به عاهة، إنما كان ذلك لعصيان روحه في حياتها السابقة.

ويرد ابن حزم على هذا الزعم بقوله: «ويكفي بطلان هذا الأصل الفاسد أن يقال لهم إن الحكيم العدل الرحيم على أصلكم لا يخلق من يعرضه للمعصية حتى يحتاج إلى إفساده بالعذاب بعد إصلاحه، وقد كان قادرا على أن يطهر كل نفس خلقها ولا يعرضها للفتن ويلطف بها ألطافا فيصلحها بها حتى تستحق كلها إحسانه والخلود في النعيم، وما كان ذلك ينقص شيئا من ملكه»[(١)].

نستنتج من هذا أن اعتقاد التناسخ باطل من كل الوجوه، شرعيا وعقليا وحسيا، وأما زعمهم أن أنفس العالم لا تزيد ولا تنقص، وأنهم بالذات لا يزيدون ولا ينقصون، فهو في الحقيقة زعم سخيف وتافه لا يقف أمام التفكير المنطقي الصحيح، لأنه نابع من الأساطير والخرافات التي لا تمت للحقيقة بصلة، ولا أجد ردا على هذا الزعم، إلا الإحصاءات السكانية التي تتوالى من أقطار الأرض عن الانفجار السكاني، وتزايد أعداد السكان في العالم يوما بعد يوم. وهو ما تحذر منه الأمم المتحدة، لقلة الغذاء في العالم، وموت الكثير من الناس جوعا.

لأجل هذا فإن الإنسان على قدر ما نال من التقدم والرقي في ميدان العقل والعلم صارت تبطل في نظره عقيدة التناسخ، لأنها في الأصل عقيدة تعادي المدنية والحضارة، والصحيح أنها ما بقيت إلى الآن إلا في أمم همجية أو متخلفة جدا في ميدان الرقي العلمي والعقلي[(٢)].

٣- عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب:

اليوم الآخر عند الدروز ليس يوم القيامة، إذ ليس فيه موت للأرواح، ولا قيامة لها، ولا بعث، وهم لذلك يقولون إن الحياة البرزخية[(٣)] غير موجودة ولا يؤمنون بها[(٤)].

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٩٣، ٩٤.

(٢) انظر كتاب (الإسلام) / لسعيد حوى جـ ٤ ص١٣٠.

(٣) هي حياة القبر والتي تكون بين الموت والبعث وفيها عذاب وثواب.

(٤) من المقابلة الشخصية التي أجراها الدكتور مصطفى الشكعة مع الزعيم الدرزي كمال جنبلاط حول عقائد الدروز في كتابه إسلام بلا مذاهب ص٢٨٨.

فالأرواح - كما يزعمون - لا تموت لتبعث، ولا تنام لتوقظ، بل إن يوم الحساب - في نظرهم - نهاية مراحل الأرواح وتطويرها في الأجساد، إذ يبلغ في هذا الوقت (التوحيد) غايته من الانتصار على العقائد الشركية[(١)]، وينتهي الانتقال والمرور في الأقمصة المختلفة[(٢)].

وفي تصورهم أن يوم الحساب سيكون فيه ظهور (المعبود) أي الحاكم بأمر الله، ومع أنهم لم يحددوا تاريخ هذا اليوم، إلا أن رسائلهم تقول إنه سيكون في شهر جمادى أو رجب، ولهذا اليوم علامات محددة عندهم[(٣)].

أما مكان ظهور الحاكم، وماذا سيحدث بعد ذلك، فتحدثنا عنه رسالة الأسرار فتقول: «سيكون ذلك في بلاد الصين، يخرج وحوله قوم يأجوج ومأجوج - ويسمونهم القوم الكرام -، ويكونون مليونين ونصف من العساكر مقسمة إلى خمسة أقسام، كل قسم منها يترأس عليها أحد الحدود[(٤)] فيدخلون مكة المكرمة.

وفي صباح ثاني يوم وصولهم، يتجلى لهم الحاكم بأمر الله على الركن اليماني من الكعبة، ويتهدد الناس في سيف مذهب، يدفعه إلى حمزة فيقتل فيه الكلب والخنزير - يريدون فيهما الناطق والأساس[(٥)] - ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد (الكلمة)، الذي هو أحد الحدود الخمسة، وحينئذ يهدمون الكعبة ويفتكون بالمسلمين والنصارى في جميع جهات الأرض ويستولون عليها إلى الأبد، ومن بقي يكون عندهم في الذل والهوان، وتصير الناس إلى أربعة فرق:

أولاً: الموحدون (وهم عقال الدروز)، وهم الوزراء والحاكم والسلاطين.

ثانياً: أهل الظاهر، وهم المسلمون واليهود.

ثالثاً: أهل الباطن، وهم النصارى والشيعة.

رابعاً: المرتدون، وهم جهال الدروز.

---

(١) يقصدون بالعقائد الشركية (الإسلام والنصرانية، واليهودية).

(٢) انظر كتاب مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص٨١.

(٣) انظر كتاب طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١٢٤.

(٤) أي الحدود الخمسة والذي سيأتي الحديث عنهم.

(٥) الناطق في اصطلاحهم هو النبي، والأساس هو الوصي أو الإمام، والمقصود بذلك هما محمد ﷺ وعلي بن أبي طالب.

ويجعل حمزة لكل طائفة غير أصحابه سيمة في جبينه أو يده، وعذابا يتأذى به، وجزية يؤديها كل عام، ونحو ذلك من الهوان»[1].

ويصور لنا مصحف الدروز هذا اليوم بقوله: «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصارهم، أبصار الذين كفروا، يا ويلتنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين، لقد نسي هؤلاء هذا اليوم، وقد وقع لهم، ووقعوا فيه، وهم لا يشعرون، وكبكبوا على وجوه قبلتهم[2]، حتى غشيتهم الغاشية. أو لم ير هؤلاء كيف مد لهم مولانا الحاكم الحياة أمدا، الآن حصحص الحق»[3].

حتى إن التميمي - أحد حدودهم الخمسة - يجعل جميع الشرائع والأديان زخارف وأباطيل، افتعلها أعداء حمزة حتى يبعدوا الناس عنه، لهذا فإنه يصف لنا هذا اليوم وكيف ينادي حمزة ويقول: «أين شركائي[4] الذي زعمتم أنهم فيكم شفعاء، لقد انقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون[5]، يعني يوم القيامة القائم صاحب القيامة بالسيف، فيناديهم: أين شركائي، يعني رؤساء أهل الظاهر وشياطينهم، الذين أضلوهم بغير علم، وأحلوهم دار البوار التي هي الشريعة[6]، وما ألقوه من التكاليف الشرعية، التي هي من حيث العقل النار بالفعل، وما تمسكوا به من زخاريف أهل الجهل وأباطيلهم، فلم يستطيعوا جوابا، إلا أن يقولوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما طاغين»[7].

---

(١) مخطوطة في تقسيم جبل لبنان / مؤلف مجهول.

(٢) يقصد بهذا الكعبة عندما يهدموها ويقتلوا المسلمين - كما يزعمون -.

(٣) المصحف المنفرد بذاته / عرف كتاب أبي اسحق أو مراتب العباد ص٨٥.

(٤) أي الأنبياء الذين أرسلوا بالأديان السماوية.

(٥) يشير إلى الآيتين الكريمتين ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة القصص آية ٦٢ و ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾سورة الأنعام آية ٩٤.

(٦) أي الشريعة الإسلامية وتكاليفها.

(٧) رسالة الزناد / للتميمي. ويشير هنا إلى الآية الكريمة ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ صورة المؤمنون آية ١٠٦.

وحمزة في هذا اليوم - كما يزعمون -، هو صاحب الجزاء والقصاص بصفته صاحب القيامة، وهذا ما يزعمه في أحد رسائله ويقول: «يوم قيامي بسيف مولانا الحاكم سبحانه، ومجازاتي للخلائق أجمعين، وأخذي لكم الحق والقصاص، وإنالة إحساني لأهل الوفاء منكم والاخلاص»[1].

وعلى هذا الأساس فإنه - كما مر سابقا - ينكرون الثواب والعقاب في الجنة والنار، فالعذاب الواقع على الإنسان - في زعمهم - هو نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات دينهم، وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد، تقل درجته ومنزلته. أما الثواب فهو زيادة درجته في دينهم - عندما يصبح من الموحدين الدروز - وانتقاله من درجة إلى درجة أعلى منها كلما انتقلت روحه من جسد إلى جسد آخر.

فالغيبيات في نظرهم لا يمكن الإيمان بها، لأنها أمور غير محسوسة، لهذا فهم لا يؤمنون بالجنة والنار، وكذلك الملائكة والجن، فالملائكة في زعمهم هم أتباع مذهبهم، والشياطين هم مخاليفهم.

ورسائلهم مليئة بالسخرية من الغيبيات، وخاصة الجنة والنار، من ذلك رسالة لأحد دعاتهم وحدودهم الخمسة (التميمي) إذ يقول: «وأما زعمهم بأن الجنة عرضها السموات والأرض[2] فقد جهلوا معنى هذا القول، فإذا كان عرضها السموات والأرض، فكيف يكون طولها؟ وأين تكون النار فيها؟ ولو عرفوا الطول عرفوا العرض، وكل شيء طوله أكثر من عرضه. وإذا رجعنا إلى المعاني الحقيقة التي بها يتخلص الموحدون من جهلهم من داء الشرك[3]: وأما معنى الطول والعرض، فإن طولها هو العقل الكلي، الذي هو قائم الزمان[4] إمام المتقين القائم بالحق، ومجرد سيف التوحيد، ومفني كل جبار عنيد... وأما

---

(١) الرسالة الموسومة بالإعذار والإنذار / لحمزة.

(٢) يشير إلى الآية الكريمة ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ سورة آل عمران آية ١٣٣.

(٣) هنا يبدأ بعرض وجهة نظره في معنى الجنة والنار وكيف تخلص الدروز من معناها عند المسلمين.

(٤) هو حمزة بن علي.

النار فهي من حيث المحسوس المحرقة للأجسام... وأما النار الكبرى والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فإنها مثل العقل لأنه مطلع على سرائر العالم»[١].

ومن المفارقات العجيبة والمضحكة حول انتظارهم ليوم القيامة كما يتصورونه، قصة رواها مؤلف (أيها الدرزي عودة إلى عرينك): عن أن أحد مشايخ الدروز ويدعى الشيخ داود أبو شقرا، أعلن أن يوم القيامة سيكون في ١٦آب ١٩٥٢م - وهو يوم القيامة التي وعدت به الرسائل المخطوطة معتمدا في ذلك على مستند الحروف والجمل -، وبالفعل فقد اقتنع بذلك كثير من شيوخ لبنان وحوران الدروز، وذاع الخبر حيث ترقبوه بفارغ الصبر..... حتى نفذ صبرهم والقيامة لم تقم[٢]؟؟!!

والحقيقة أن هذا الاعتقاد باليوم الآخر، هو اعتقاد دخيل على أمة الإسلام، وهو من الخرافات والأساطير التي اندثرت بعد أن دك الإسلام حصون الشرك خاصة حصون مجوس الفرس. لذا فاننا نستنتج بأن هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام ظاهرا من بقايا إمبراطورية المجوس وغيرها، أمثال دعاة الدروز وخاصة حمزة، لم يهدأ لهم بال وهم يرون الإسلام الصافي منتصرا، لذلك حاولوا بحقدهم الدفين هذا أن يهدموا أركان الإسلام وأصوله، متظاهرين بالإسلام، وكان اليوم الآخر الأمر الثاني المهم بعد الإيمان بالله، والذي حاولوا هدمه وزعزعته في نفوس المسلمين عن طريق تلك النظرية الوثنية الخرافية (التناسخ)، وكل من ينظر إلى آيات الله في القرآن الكريم، يجد ذلك الترابط القوى بين الإيمان بالله واليوم الآخر، فلا تتحدث آية عن الإيمان بالله إلا ويقترن معها الإيمان باليوم الآخر، بما فيه من حساب وجزاء، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٣]. وقوله عز من قائل

---

(١) رسالة الزناد / التميمي.

(٢) أيها الدرزي عودة إلى عرينك – مخطوط – / مؤلف مجهول ص٩٠.

(٣) سورة البقرة آية ١٧٧.

مخبراً عن عذاب وثواب الآخرة ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾[١]. وكذلك بين لنا تعالى أن العذاب يكون في النار، والثواب يكون في الجنة من ذلك قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[٢]. وقوله أيضا: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾[٣].

لهذا فإن الله سبحانه وتعالى بين حقيقة الذين لا يؤمنون بالآخرة ونفسياتهم المريضة المستكبرة، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[٤]. وقوله عز من قائل ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ ﴾[٥] وبعد هذا فإن الله سبحانه وتعالى أمرنا بمقاتلة الذين لا يؤمنون بالآخرة كما جاء في سورة التوبة: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[٦].

مما تقدم من الآيات، دليل قرآني واضح على بطلان زعم الدروز أن العذاب والثواب يكون بارتفاع المنزلة أو تدنيها، وإنما يكون ذلك بالجنة أو النار. وحكم الشريعة أن كل قول لم يأت عن أحد من الأنبياء عليهم السلام القول بهذا الزعم فقد أصبح قولهم هذا خرافة وكذباً وباطلا أرادوا به أن يحيوا مجدهم المدفون.

---

(١) سورة الحديد آية ٢٠.

(٢) سورة هود آية ١٦.

(٣) سورة الحديد آية ٢١.

(٤) سورة النحل آية ٢٢.

(٥) سورة سبأ آية ٢٠، ٢١.

(٦) سورة التوبة آية ٢٩.

٤- عقيدتهم في الحدود الخمسة:

يعتقد الدروز أن معبودهم أبدع من نوره حدوداً خمسة، ظهروا مع هذا المعبود في جميع ظهوراته، وآخرها عند ظهورهم مع الحاكم بأمر الله. وهؤلاء الحدود في اعتقادهم ليسوا مولودين ولا يمسهم الموت، إذ هم الروح الحقيقي الذي لا يخلو منه عصر، وإن أخذوا أسماء مختلفة وأقمصة مختلفة[(١)]، على مر العصور.

أما الألقاب التي يطلقها الدروز على هؤلاء الحدود فهي على الشكل التالي كما وردت في أحد رسائلهم[(٢)]:

أولاً: العقل الكلي وهو الحد الأول الذي أبدعه المعبود من نوره، ويطلقون عليه أيضا: ذومعه، وعلة العلل، والآمر قائم الزمان، والإرادة، والإمام الأعظم، وهادى المستجيبين، وهو حمزة بن علي بن أحمد. والحد الأول أي العقل الكلي هو الذي أوجد باقي الحدود.

ثانياً: النفس وهو الحد الثاني الذي أوجده العقل الكلي، ويطلقون عليه أيضا: ذو مصة، والمشيئة، وإدريس زمانه، وأحنوخ أوانه، وهرمس الهرامسة، والحجة الصفية الرضية، والشيخ المجتبي، وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي، صهر حمزة بن علي.

ثالثاً: الكلمة، وهو الحد الثالث ويطلقون عليه أيضا: سفير القدرة، وفخر الموحدين، وبشير المؤمنين، وعماد المستجيبين، والشيخ الرضي، وهو أبو عبدالله محمد بن وهب القرشي.

رابعاً: السابق، وهو الحد الرابع ويطلقون عليه: الجناح الأيمن، ونظام المستجيبين، وعز الموحدين، وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري.

خامساً: التالي، وهو الحد الخامس والأخير ويطلقون عليه أيضا: الجناح الأيسر، ولسان المؤمنين، وسند الموحدين، ومعدن العلوم، والذي يقوم بالأفعال الصحيحة المعلومة، والناصح لكافة الخلق أجمعين، وهو الشيخ المقتني بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي المعروف بـ (الضيف).

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١١٢.

(٢) رسالة ذكر معرفة الإمام وأسماء الحدود العلوية روحانية وجسمانية.

والملاحظ في اعتقاد الدروز هذا، أن المبدأ الأساسي فيه قد أخذ عن العقيدة الإسماعيلية التي استقى الدروز منها الكثير من اعتقادهم، ففي العقيدة الإسماعيلية مبدأ أساسي وهام في معنى التوحيد عندهم هو أن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية، والحدود الجسمانية، والإيمان بهم وطاعتهم طاعة تامة، وهذه الحدود هي: العقل، والنفس، والجد والفتح، والخيال، وهذه الحدود العلوية ممثولات للحدود الجسمانية وهم: النطقاء، والأوصياء، والأئمة، والحجج، والدعاة[١].

وذهب الإسماعيليون كذلك إلى أن الله تعالى أبدع العقل الكلي وبوسطاته وجدت النفس الكلية، وبوساطتها وجدت المخلوقات كلها، فالعقل الكلي عندهم هو الخالق الحقيقي، ومن هنا قالوا إن أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم هي أسماء للعقل الكلي، واعتبروا الإمام الفاطمي ممثل للعقل الكلي، وأن جميع مناقب العقل الكلي وصفاته تطلق أيضا على الإمام[٢].

وجاء حمزة ودعاته وأخذوا هذا المبدأ عن الإسماعيليين وحوروه حتى يتفق مع مآربهم، فقالوا إن الحدود الروحانية أو العلوية هي نفسها الحدود الجسمانية، فلا يوجد عندهم مثل أو ممثول[٣] حتى إن حمزة في أحد رسائله يعتبر اعتقاد الإسماعيلية هذا في الحدود كفر وشرك، لأنه يعتقد أن البارى سبحانه وتعالى وحدوده يجب أن يظهروا بأنفسهم للناس حتى يعرفوا الفرق بين العبد والمعبود[٤].

وهكذا عمد حمزة إلى إظهار حدوده في صورة تختلف عن الصورة الإسماعيلية، فبدل وغير في أسمائهم ومراتبها، فجعل مرتبة التالي في المرتبة الخامسة، وجعل الكلمة هي المرتبة الثالثة، بينما كانت عند الإسماعيليين مكونة من السابق والتالي.

---

(١) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٠.

(٢) أضواء على العقيدة الدرزية / أحمد الفوزان ص٣٥.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٠.

(٤) رسالة كشف الحقائق.

وحتى يكون التوحيد شاملا في نظر حمزة ودعاته، جعلوا لمرتبة العقل سبعين حجة، وعن هؤلاء الحجج السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاة ومأذونين ومكاسرين[١]. ويطلقون على الحدود الأربعة الذين يلون العقل الكلي (الأربعة الحرم[٢]). وجميع الحدود الحرم وغير الحرم كلهم من قبل العقل (أي حمزة)، يسقط من يريد ويرفع درجة من يشاء، والحدود السبعة - كما يزعمون - هم الذين أتى على ذكرهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[٣] يعني حدود دعوة التوحيد سلسلة بعضها في بعض وهم سبعون رجلا موزعين ومنظمين حسب الشكل التالي:

أولاً: النفس الكلية، ولها اثنتا عشرة حجة في الجزائر[٤]، وسبعة دعاة للأقاليم.

ثانياً: الكلمة، ولها اثنتا عشرة حجة وسبعة دعاة.

ثالثاً: الكلمة، وله اثنتا عشرة حجة فقط.

رابعاً: التالي، وله اثنتا عشرة حجة فقط.

خامساً: الداعي المطلق، وله مأذون واحد ومكالبان أو مكاسران[٥].

وقد أوضحت «الرسالة الموسومة بكشف الحقائق» هذه السلسلة والحدود بقولها: «فهؤلاء الحدود السبعون التي ذكرناهم، هم أذرع السلسلة الذي قال[٦] في القرآن: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾[٧]، أي ضد الإمام إذا بلغ غايته وتمت نظرته، خذوه بالحجج العقلية وغلوه

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٣٦٢.

(٢) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٤.

(٣) سورة الحاقة آية ٣٢.

(٤) تقسم الإسماعيلية الأرض إلى عدة جزر، وكل جزيرة تحوي عدة أقاليم، فالحجة مسؤولة عن الجزيرة، والداعية عن الأقاليم، وقد أخذ حمزة ذلك عن الإسماعيليين.

(٥) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٣٦٢، ٣٦٣.

(٦) هذه عادة حمزة ودعاته حينما يستشهدون بالقرآن لا يذكرون من القائل لأنهم لا يعترفون بأنه من عند الله سبحانه وتعالى.

(٧) سورة الحاقة آية ٣٠.

بالعهد وهو الذبح الذي قالوا بأن القائم يذبح إبليس الأبالسة، ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾[1]، أي غوامض علوم قائم الزمان الذي يتحتم العلماء والفهماء عند علمه، أي يصمتوا ويتخيروا، ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ أي ميثاق قائم الزمان الذي هو سلسلة بعضها في بعض، وهم سبعون رجلا في دعوة التوحيد[2] وبعد هذا التفسير العجيب الغريب لآيات الله نجد حمزة في هذه الرسالة يعيب على المسلمين الذين يفسرون هذه الآيات بأنها تهديد لأهل النار ويقول: «فهذه السلسلة الحقيقية ومعانيها، لا كما ذكره الجهال الحشوية[3]، فإن قالوا: بأن الله أراد بالسلسلة تهديد أهل النار والتعظيم عليهم، فقد بطلت حجتهم ها هنا لأنه قال سبعون ذراعاً، ولو كان بسبب التعظيم لكان يجب أن يكون ألف ذراع، فلما لم يذكر غير سبعين ذراعاً، أعلمنا أنه أراد بذلك أشخاصاً معروفة دينية توحيدية لا يجوز لأحد أن يتجاوز حدهم ولا يزيد ولا ينقص»[4].

والحدود في نظر الدروز هم أنبياء الحاكم الخمسة، وثلاثة من الحدود هم الذين وصفوا وكتبوا حكمة المولى سبحانه (أي الحاكم)، وهؤلاء الثلاثة هم: حمزة وإسماعيل وبهاء[5].

وهؤلاء الحدود يظهرون في كل عصر وفي صور مختلفة وأسماء متباينة، فمثلا عندما ظهر المعبود في صورة زكريا، ظهر حمزة في صورة قارون، وظهر إسماعيل التميمي - النفس الكلية - في صورة أبي سعيد الملطي[6] وعندما ظهر حمزة في صورة سلمان الفارسي في زمن محمد ﷺ، ظهرت الحدود الأربعة الأخرى بصورة أربعة من الصحابة وهم: المقداد، وأبو ذر، وعمار بن ياسر، والنجاشي[7].

---

(١) سورة الحاقة آية ٣١.

(٢) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق.

(٣) يقصد المسلمين.

(٤) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق.

(٥) رسالة في معرفة سر ديانة الدروز.

(٦) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٤.

(٧) الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص٣٦، واعتبار النجاشي صحابياً لا يصلح بالتعريف المعتمد، لأنه لم يشاهد النبي ﷺ

ويسمى الأربعة حدود التي تلي حمزة بالأربعة الحرم، وسبب تسميتهم بذلك أن حمزة مقامه منهم مقام الرجال وهم نساؤه، فهم عنده بمنزلة النساء في طاعتهم له[1].

ومما يذكر أن الحد الخامس وهو التالي - بهاء الدين - له ثلاثة حدود يعاونونه وهم:

١- الجد: وهو أيوب بن علي.

٢- الفتح: وهو فراعة بن عبد الوارث.

٣- الخيال: وهو محسن بن علي.

وهؤلاء الثلاثة يتلقون أوامرهم من بهاء الدين، وليس لهم المكانة التي للحدود الحرم[2].

ويوضح إسماعيل التميمي - الحد الثاني - في الرسالة الموسومة بالشمعة وضوئها فيقول: «فاللطيف فيه لسان العالي الأحمر الذي تعتريه زرقة يختفي مرة ويظهر مرة، فذلك دليل على قائم الزمان حمزة بن علي بن أحمد، والنار الذي يوقد الشمع دليل على حجته: إسماعيل بن محمد بن حامد، والشمع دليل على الكلمة محمد بن وهب، والقطن دليل على السابق سلامة بن عبد الوهاب، والطست الذي هو الحسكة دليل علي التالي علي بن أحمد السموقي فهذه الخمسة حدود[3]».

ويصف كتاب (النقط والدوائر) وهو أحد كتبهم الرئيسية الحدود بما يلي: «فالأصلان القديمان: هما العقل الكلي والنفس الكلية، والكلمة البسيطة هو مولاي الكلمة سلام الله عليه، والنور البسيط هو مولاي أبو الخير، والحكمة اللطيفة هو مولاي بهاء الدين، فصارت أربعة جوانب، أي الحدود الأربعة جوانب حول العقل الكلي لأنهم له بمحل الأجنحة، كما قال: «أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع»[4].

---

(١) مخطوطة ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به / ومخطوطة رسالة في معرفة سر ديانة الدروز.

(٢) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٤.

(٣) مخطوطة الرسالة الموسومة بالشمعة.

(٤) كتاب النقط والدوائر. وهنا يشير إلى الآية رقم ١ في سورة فاطر.

ويقولون إن (بسم الله الرحمن الرحيم) والمكونة من تسعة عشر حرفا تشير إلى حدود حمزة وهم تسعة عشر رجلا، فلذلك يُبدئونها في جميع رسائلهم ويلحقونها بقوله: حدود عبده الإمام[1].

فعندهم أن «بسم الله» والمكونة من سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة، و «الرحمن الرحيم» والمكونة من اثناء عشر حرفا دليلا على اثنى عشر داعية أصحاب الاثنى عشر جزيرة[2].

ويعتقد الدروز أيضا أن الحدود الخمسة يضاف إليهم حدود التالي الثلاثة: الجد والفتح والخيال هم الثمانية الذين يحملون العرش[3].

لهذا فإن نظرة الدروز إلى الحدود، هي نظرة الاحترام والتقديس، لأن الاعتقاد بهم معتقد أكيد، فهم - كما يزعمون -: وسائط الله تعالى وأبواه وسفراؤه، ومنهم الوصول إليه، ولا مطمع لأحد من الخلق في الوصول إلى الخالق أبدا إلا بهم ومنهم وعلى يدهم وبتعليمهم وإرشادهم[4].

كذلك فإن عدم معرفة هؤلاء الحدود، يعني عدم معرفة دعوة التوحيد والتي هي دعوة الدروز[5]. لذلك فعلى الدرزي معرفتهم والإيمان بهم، فهم أشرف خلق الله تعالى - كما يزعمون - بعد سيدهم الإمام الأعظم، وهم معصومون عن الزواج والخطايا[6]. يقول حمزة في أحد رسائله: واعرفوا الحدود بأسمائهم وصفاته. ونزلوهم في رتبهم، ومنازلهم، فإنهم أبواب الحكمة، ومفاتيح الرحمة[7].

---

(١) مخطوطة الموسومة برسالة النساء الكبيرة.

(٢) مخطوطة الرسالة الموسومة بسبب الأسباب.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١١٥.

(٤) مخطوطة شرح الميثاق: محمد حسين.

(٥) الرسالة الموسومة بالشمعة.

(٦) مخطوطة ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به.

(٧) رسالة التحذير والتنبيه.

مما تقدم تتضح أهمية ومكانة الحدود في العقيدة الدرزية، لهذا سأتحدث عن كل واحد منهم على انفراد، وعن أهميته عند الدروز وأبدأ بحمزة:

أولاً: حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، وهو الأول من الحدود الخمسة، وسمى نفسه بـ (العقل). ويدعي الدروز أن حمزة ولد في مدينة (زوزن) في خراسان مساء الخميس في الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة ٣٧٥هـ، وهو اليوم الذي ولد فيه الحاكم بمصر، ولعل ذلك هو السبب في أن الدروز يقيمون صلاتهم الأسبوعية أو - خلوتهم - مساء كل خميس[١].

وقد اختلف المؤرخون في زمن وفوده إلى مصر، فالبعض منهم يجعلها متقدمة كثيرا في عام ٣٩٥هـ[٢]، وغالبية المؤرخين تؤكد أن موعد قدومه إلى مصر كان عام ٤٠٥هـ أو قبلها بقليل[٣].

وبعد وفوده إلى مصر انتظم حمزة بين الدعاة الإسماعيليين الذين كانت تغص بهم القاهرة يومئذ، ولكن الدكتور محمد كامل حسين يرجح أنه لم يكن من الدعاة، بل كان يؤدي عملا في القصر، وكان على اتصال دائم بالحاكم، ويضيف قائلا: «ويغلب على ظني أن حمزة كان أحد الخدم الخصوصيين للحاكم، وكان خادما ذكيا لبقا ذا حيلة ودهاء وخيال خصب، وكان بحكم عمله في القصر يستمع إلى مجالس الحكمة التأويلية[٤] فوعاها وحفظ منها الكثير، وربما قرأ كتب الدعوة بالقصر فأفادته في تلوين عقليته وتوجيه أفكاره إلى ما يرضي طموحه ويحقق أماله، وظل هذه السنوات يهيء نفسه لذلك»[٥]. وكما يقول الدكتور محمد كامل حسين، فإن الذي يؤكد هذا الرأي ركاكة ألفاظه وأسلوبه في رسائله، وهذا يبين أنه لم يكن من الكتاب[٦].

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١٢٣.

(٢) أضواء على العقيدة الدرزية / أحمد الفوزان ص٢٨.

(٣) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص١١٣ - وكتاب الأعلام / خير الدين الزركلي جـ٢ ص٣١٠ - والقاموس الإسلامي / أحمد عطية جـ٢ص١٥٦.

(٤) وهي المجالس التي كان يعقدها ملوك بني عبيد لدراسة العقيدة الإسماعيلية.

(٥) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٧٦.

(٦) المصدر السابق ص٧٦.

وسرعان ما أصبحت لحمزة حظوة عند الحاكم، بعدما أظهر الإخلاص والطاعة له، واستطاع بحنكته ودهائه أن يجمع حوله بعض الدعاة ويتفقوا سرا للدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، ومن هؤلاء كان محمد بن إسماعيل الدرزي.

والواضح في رسائل حمزة، أنه قد اتفق مع دعاته ألا يجهر أحد منهم بالدعوة إلى المذهب الجديد إلا بعد تلقي الأوامر منه، ولكن الدرزي بسبب صراعه مع حمزة على رئاسة هذا المذهب تسرع في الكشف عن أسراره عام ٤٠٧هـ، مما أثار الناس، وأثار حمزة أيضا وحمله على الكشف عن دعوته عام ٤٠٨هـ. وهذا ما جعل حمزة يهاجم وبشدة الدرزي في كثير من رسائله.

ويوضح حمزة بداية الخلاف مع الدرزي في أحد رسائله فيقول: «وغطريس هو نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين، وهو الضد الذي سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الإمام ويدعي منزلته... إلى أن يقول: وكذلك الدرزي كان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب، والثوب هو الداعي، والسترة التي أمره بها إمامه حمزة بن علي بن أحمد الهادي إلى توحيد مولانا جل ذكره»[(١)].

ومهما يكن من شيء فإن الدعاة إلى المذهب الجديد ظلوا في سترهم مدة طويلة يعملون في الخفاء، ويدعون الناس سرا لمبادئهم وتعاليمهم تحت رعاية وتأييد الحاكم بأمر الله، حتى قام الدرزي وأعلن الدعوة سنة ٤٠٧هـ، والذي كما يقال: قد فتح سجلا في مساجد القاهرة تكتب فيه أسماء المؤمنين بألوهية الحاكم، فاكتتب من أهل القاهرة سبعة عشر ألفاً كلهم يخشون بطش الحاكم[(٢)].

إلا أن هذا الأمر قد أزعج حمزة وخاصة في موضوع زعامة هذا المذهب، مما حمله على القيام بالجهر به وبنفسه عام ٤٠٨هـ وكما ذكرنا سابقا، ثار أهل مصر على هؤلاء الدعاة الملحدين ثورة شديدة ساعدهم فيها الجند والأتراك، مما جعل الدرزي يختفي في قصر

---

(١) رسالة الغاية والنصيحة.

(٢) الأعلام / خير الدين الزركلي جـ٨ ص٢٤٦٤.

الحاكم خوفا من الناس، حيث عمل على تهريبه بعد ذلك إلى وادي التيم في بلاد الشام، والذي كان يقطن فيه التنوخيون، الذين كانوا يعتنقون الإسماعيلية فانضموا إليه وآمنوا بدعوته.

وبسبب شدة الثورة التي قام بها أهل مصر، على حمزة وأتباعه، فإنه قرر الاختفاء عن الناس سنة ٤٠٩هـ، واعتبرها سنة اختفاء وغيبة، ويصف هذه السنة ومقصده من هذه الغيبة بقوله: إنها سنة المحنة والامتحان والعذاب، وأن القصد من الغيبة أن يمتحن الخلق بغيبته، والمحنة هي غيابه الذي عاقبهم فيه[(١)].

مما تقدم تتضح بداية الخلاف بين حمزة والدرزي، والذي تفاقم بعد هروب الدرزي إلى الشام، حيث دعا هناك إلى آراء جديدة خالف بها آراء سيده حمزة، من ذلك تسمية نفسه، بـ (سيف الإيمان وسيد الهادين)[(٢)]، وكذلك دعوته للحرية الجنسية[(٣)].

والواقع أن هذه الخلافات، لم تكن بتلك الأهمية لتأجج الخلاف بينهما، وإنني أرى أن جوهر الخلاف - وكما يفهم من كتابات حمزة - إنما كان بسبب رئاسة المذهب الجديد، مما زاد في غضب حمزة وحقده على الدرزي، فعزله من منصبه في الشام، وألب عليه أتباعه هناك فقتلوه سنة ٤١١هـ.

وفي هذا الصدد يقول حمزة: «وكذلك الدرزي سمى نفسه في الأول بسيف الإيمان، فلما أنكرت عليه ذلك وبينت له أن هذا الاسم محال وكذب، لأن الإيمان لا يحتاج إلى سيف يعينه، بل المؤمنون محتاجون إلى قوة السيف وإعزازه، فلم يرجع عن ذلك الاسم وزاد عصيانه، وأظهر فعل الضدية في شأنه، وتسمى باسم الشرك وقال: أنا سيد الهادين، يعني أنا خير من إمامي الهادي!؟»[(٤)].

هذا وكانت مدة ظهور حمزة بعد إعلانه عن مذهبه ثلاث سنوات هي: ٤٠٨، ٤١٠، ٤١١هـ، وأما سنة ٤٠٩هـ فإنها - وكما سبق ذكره - كانت سنة غيبة له. وقد اختفى

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١١٥.

(٢) رسالة الغاية والنصيحة.

(٣) بنو معروف (الدروز) سعيد الصغير ص٢٣٦.

(٤) رسالة الغاية والنصيحة.

كذلك بعد سنة ٤١١هـ، وهي السنة التي قتل فيها الحاكم، حيث مرت سنوات من الكتمان، لم يظهر أيضا فيها، لأنه طورد من قبل الظاهر بن الحاكم، مما جعله يهرب إلى أتباعه في بلاد الشام.

«وبقي حمزة مختفيا هناك حتى أزيح الستار قليلا عن نشاطه، برسائل أرسلت إلى سواه وذكر فيها، أو وجهت إليه، بعد قرابة عشرين سنة من غيابه، منها رسالة المواجهة، التي يتبين منها، أن حمزة كان لا يزال على اتصال سري بدعاته، وعلى الخصوص بـ(المقتنى) بهاء الدين كاتب الرسالة، والذي يبدأها بـ (السلام على الإمام) موجها إليه (عبيده الزائرين... رسل العبد الذليل»[1].

أما غيبة حمزة الأخيرة والتي مات فيها، «فإن رسالة بهاء الدين في (رسالة السفر) والتي يطلب فيها من المؤمنين، الإيمان برجوع حمزة، وإلى طاعة ولي الحق الإمام المنتظر، توضح هذه الرسالة - والتي كتبت في السنة الثانية والعشرين من سني حمزة أي سنة ٤٣٠هـ - أن حمزة قد اختفى أو مات سنة ٤٣٠هـ»[2].

لهذا فإن مكانة حمزة عند الدروز، الإعظام والإجلال، باعتباره نبي الحاكم الذي دل الخلق على عبادته، مع أن حمزة لم ينسى أن يخص نفسه بعدة ألقاب رنانة، لم يسبغها نبي من الأنبياء على نفسه، فهو: الإمام، وقائم الزمان، وهادي المستجيبين المنتقم من المشركين، وعلة العلل، والعقل الكلي، والإرادة، والقلم، والطور والكتاب المسطور، وهو أيضا المسيح الحق، وصاحب البعث والنشور والنافخ في الصور، وناسخ الشرائع ومهلك العالمين، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وهو كذلك الذي أملى القرآن على محمد ﷺ... إلى غير ذلك من الألقاب التي أطلقها على نفسه وامتلأت بها رسائله.

ولم يكتف حمزة بذلك، ولكنه اعتبر جميع الصفات الإلهية التي ذكرت في القرآن واقعة عليه باعتباره العقل، والإله منزه عن كل هذه الصفات فيقول: «وهو سبحانه منزه عن

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١٢٥.

(٢) المصدر السابق ص١٢٦.

الكل، وجميع ما في القرآن والصحف، وما تركه على قلبي من البيان والأسماء الرفيعة فهو يقع على عبده الإمام»[1].

وكما ذكرنا سابقا فإن جميع الحدود قد ظهروا في جميع الأدوار التي ظهر فيها إلههم المعبود، ومنهم إمامهم العقل، فقد ظهر بأسماء مختلفة في كل هذه الأدوار وهي:

١- في دور آدم كان اسمه شطنيل[2].

٢- في دور نوح كان اسمه فيثاغورس[3].

٣- في دور إبراهيم كان اسمه داوود.

٤- في دور موسى كان اسمه شعيب.

٥- في دور عيسى كان اسمه المسيح يسوع، وهو المسيح الحقيقي صاحب الإنجيل.

٦- في دور محمد ﷺ كان اسمه سلمان الفارسي.

٧- في دور الحاكم كان اسمه حمزة»[4].

هذا وقد حاول دعاته أن يبرهنوا لأتباعهم صحة إمامة حمزة باعتباره الإمام الذي دعا إلى عبادة موجود ظاهر وإله في جميع الأمور قادر، يقول بهاء الدين في أحد رسائله: «وأول دليل على إمامة القائم أنه أتى بضد العالم، لأن جميع النطقاء والأسس وأصحاب الأدوار والأكوار أشاروا إلى عدم موهوم، وأبعدوه عن حواس العالم، وأن قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن عليه من المولى السلام دعا إلى موجود ظاهر وإله في جميع الأمور قادر، وكل من دعا إلى الحاكم المعبود والإله الموجود فقد أنصف نفسه... إلى أن يقول: وأيضا فإن عمارة الكنائس، وإزالة حمل الصلبان، وعزهم على المسلمين في كل مكان أدل دلالة على أن

(١) الرسالة الموسومة بسبب الأسباب.

(٢) لعل حمزة يقصد بهذا الاسم كلمة (شانطي) الصينية التي يطلقها الصينيون على الرهبان النصارى.

(٣) أحد الفلاسفة اليونان والذين استقت الباطنية منهم مبادئها وعقائدها.

(٤) مخطوطة (ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به)، ومذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١٢٣.

الإسلام قد اضمحل وبطل[1]، وأنه الحق قد أنار واشتعل، والحق هو توحيد مولانا جل ذكره الحاكم بذاته المنفرد عن مبدعاته»[2].

ومن أدلة إمامته أيضا: «أنه صاحب القيامة والجزاء، لأنه الملك المظفر المسعود، ديان القيامة أي القهار والقاضي والحاكم والسايس والمحاسب والمجازي»[3].

وكما أشرت سابقا، فإن الدروز يجلون ويعظمون حمزة، فالمقتنى بهاء الدين أحد حدوده ودعاته يخاطبه في أحد رسائله بعبارات تدل على ذلك فيقول: «فما كان يا مولاي في هذه الصحائف والمراسلات والكتب التي سيرها العبد[4] من خطاب جزل، ومنطق صائب، وقول فصل، فهو منة إمام العصر ومراد قائم الزمان، وما كان فيها من خطأ وخطل فهو منسوب إلى العبد الأصغر، الملهوف الظمآن، يتوسل في تقصيره إلى لطف مولاه»[5].

والملاحظ أن هذا التعظيم ازداد في كتبهم وبين شيوخهم، ففي كتاب النقط والدوائر - وهو من كتب الدروز الدينية المعروفة - يصف حمزة بأوصاف لم يطلقها هو على نفسه، يقول هذا الكتاب «فهو صلوات الله عليه النور الكلي، والجوهر الأزلي، والعنصر الأولي والأصل الجلي، والجنس العلي، فيه بدأت الأنوار، ومنه برزت الجواهر، وعنه ظهرت العناصر، ومنه تفرعت الأصول، وبه تنوعت الأجناس... إلى أن يقول: فهو الإمام، والدليل على عبادة الله، والداعي إلى توحيد الله، والناطق بحق الله، والبرهان على الله، والرسول الذي أرسله الله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»[6].

---

(١) وهذا الكلام يدل على الحقد الدفين الموجود في نفوس هؤلاء ضد الإسلام.

(٢) رسالة من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن.

(٣) مخطوط (شرح الميثاق) / محمد حسين.

(٤) يقصد نفسه.

(٥) رسالة المواجهة.

(٦) كتاب النقط والدوائر ص٩ – ١٢.

وجاء أيضا في إحدى مخطوطاتهم: «أنه من تسليم الروح معرفة العقل صفي الرب صلى الله عليه، وتمييزه عن إخوته الأربعة، وهم: النفس، والكلمة، والسابق، والتالي، وتمييزه عنهم بأحوال كثيرة»[١].

وفي شعر مخطوط لدرزي يسمى بـ (الشيخ أبي عبيد) يقول فيه:

«ألا صلوا على قلم القضايا

رسول الله أفضل من أجابا

رسول الله حمزة يا خليلي

فأولى من أتانا بالكتابا[٢]

أما نظرة الدروز في القرن الحالي إلى حمزة، فما زالت كما هي إن لم تزدد، وخاصة بعد محاولات كمال جنبلاط أن يعطي لمعتقدهم هذا سندا فلسفيا ويغطيه بعبارات براقة تخفي وراءهنا كثير من اعتقادات الدروز الأصلية، يقول كمال جنبلاط في مقدمته لكتاب أضواء على مسلك التوحيد: «ويجب أن يبقى أبناء التوحيد محافظين على هذا التكريس والتهيؤ التقليدي، والاجتباء الإنساني لفكرة الولاية، لأنه في النهاية وفي الحقيقة، لا ولاية على الموحدين، ولا على الأنام كافة، إلا للعقل الأرفع، صلوات المهيمن عليه»[٣].

أما مؤلف الكتاب الدكتور سامي مكارم فيضيف على قول جنبلاط هذا حول الإيمان بالعقل أو بـ (حمزة) بقوله: «وهذا المعتقد التوحيدي يعتمد العقل في استكشافاته، ولا يراد بالعقل الأدنى، أي البشري أو الدنيوي إن صح التعبير، بل العقل الأرفع أو الكلي الذي هو المبدع الأول[٤]، أبدع من النور الشعشعاني المحض صورة صافية كاملة فتضمن في سره

---

(١) شرح ميثاق ولي الزمان / مخطوط في جامعة شيكاغو.

(٢) مخطوط في جامعة شيكاغو رقم ٣٧٣٧ / وأخذت عن نسخة الجامعة الأردنية رقم ٢٩.

(٣) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص٢٠.

(٤) هذا الكلام مأخوذ عن فلسفة أفلاطون أحد فلاسفة اليونان والتي أخذت عنه الباطنية والدروز خاصة الكثير من معتقداتهم وآرائهم.

معنى ما كان وما يكون دفعة واحدة بدون زمان، فكان قوة كاملة وفعلا تاما، وكان علة العلل وأصل الوجود وغايته معا»[1]. ويزيد على ذلك بقوله: «فهو مصدر انبثاق جميع الكائنات، وهو عين بقائها في هذا الوجود الظاهر، ومنه ابتدعت، فهي لا تنفصل عنها من حيث العلة والمعلول، فالعقل الأرفع من هذا القبيل يحل في أسرار جميع الكائنات.... على أن العقل الأرفع هو واسطة الكشف والمعرفة، وأداة المشاهدة في كل نفس مؤمنة[2]».

هذه هي اعتقادات الدروز بحمزة، اعتقاد العاقل والجاهل والمثقف، لا تختلف إلا في العبارات، أما الجوهر والحقيقة فتبقى كما وضعها حمزة نفسه باعتباره قائم الزمان والهادي إلى طاعة الرحمن؟!.

أما الحد الثاني من الحدود الخمسة:

النفس: وهو أبو إبراهيم، إسماعيل بن محمد التميمي، ثاني الموحدين، «باعتبار أن النفس فيض من العقل، وجزء متمم له انبثقت عنه، فنسبت إلى العقل كنسبة العقل إلى الخالق[3]».

وكان حمزة كلما قلد واحداً من الحدود، أرسل إليه مرسوم تقليد، ولهذا أرسل إلى التميمي مرسوم تقليد أسماه «سجل المجتبى» جاء فيه: «إلى أخيه وتاليه، وذى مصة علمه، وثانيه آدم الجزوى، الذي اجتباه بعلمه وهداه بحلمه، وغذاه بسلمه، أحنوخ الأوان، وإدريس الزمان، هرمس الهرامسة أخي وصهرى أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد التميمي... إلى أن يقول: إني نظرت إليك بنور مولانا جل ذكره، وبما أيدني به مولانا علينا سلامه ورحمته... فجعلتك خليفتي على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين.. وأسميتك بصفوة المستجيبين وكهف الموحدين وذي مصة علم الأولين والآخرين، وجعلت لك الأمر والنهي على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين... وجعلت لك الأمر والنهي على سائر الحدود، فتولي من شئت وتعزل من شئت[4]».

---

(١) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص٨١.

(٢) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٢٣، ١٢٤.

(٣) سجل المجتبى.

(٤) الحركات الباطنية في الإسلام / مصطفى غالب ص٢٥١.

ولا شك أن التميمي كان من أكثر أعوان حمزة التصاقاً به، حتى إنه في رسائله التي يوجهها إليه يطلق عليه لقب (الصهر)، مع أنه لم يثبت أن التميمي صاهر فعلا حمزة، وهذا بالطبع يخالف معتقد الدروز التي تقول إن هؤلاء الحدود لا يتزوجون ولا ينجبون لأنهم منزهون عن كل هذه الأمور، «هذا وتؤكد النصوص التاريخية أن حمزة كان يعتمد على التميمي اعتماداً كبيراً، والذي كان ينفذ بدقة ونشاط أصعب المهمات وأشدها خطراً[1]».

وقد كتب التميمي عدة رسائل من مجموعة رسائل الدروز منها: (رسالة في تقسيم العلوم) و (رسالة الزناد) و (الشمعة) و (رسالة الرشد والهداية)، وله أيضا شعر يمجد فيه الحاكم يلقب بـ (شعر النفس).

ومع أن للتميمي هذه القيمة عند الدروز، إلا أنه بعد اختفاء حمزة، إثر مقتل الحاكم عام ٤١١هـ، لم تذكره رسائل الدروز مطلقاً، ولا كتب التايخ، غير أن الأستاذ عبدالله النجار يفترض أنه بقي حيا حتى عام ٤٢٧هـ، وهذا يعني أنه اختفى مع حمزة ودعاته حتى مات في هذه السنة.

أما الحد الثالث فهو:

الكلمة: وهو أبو عبدالله محمد بن وهب القرشي، ثالث الحدود، وأول الثلاثة الذين أضيفوا إلى العقل والنفس.

ومعلوماتنا عن هذا (الحد) لا نجدها إلا في التقليد الذي قلده إياه حمزة واسمه (تقليد الرضى سفير القدرة)، وذلك بعد أن رفعت درجته، وعين خلفاً للمرتضى الذي مات.

يقول هذا التقليد: «هي المنزلة التي كانت للشيخ المرتضى قدس الله سره، وأنت تسلمت علومه وحده، وقد سلمت إليك جميع كتبه التوحيدية، وجعلتك مقدما على جميع الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين والمستجيبين والموحدين، لا فوق أحد أعلى غير صفوة المستجيبين وكهف الموحدين[2]».

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١٤٠.

(٢) تقليد الرضى سفير القدرة.

وكما أن التميمي ليس له أي ذكر بعد موت الحاكم، كذلك ابن وهب لم يصلنا عنه أي خبر بعد هذا التقليد.

والحد الرابع هو:

السابق: وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري، رابع الحدود، ولم نجد في رسائل الدروز الموجودة الآن، تقليد خاص للسابق أسوة بسواه ممن قلدوا من قبل حمزة.

ولكن الأستاذ عبدالله النجار يفترض أن السابق قد قلد بمرسوم لم ينقل إلينا، ويستدل على ذلك بالعبارة الموجودة في تقليد (المقتنى) وهو الذي يلي السامري في الحدود، إذ يقول حمزة في هذا التقليد: «إذا كان الأيمن قد تقدمك، وهو سلامة بن عبد الوهاب المصطفى»[1].

أما الحد الخامس والأخير فهو:

التالي: وهو أبو الحسن علي بن أحمد السموقي، خامس الحدود، اشتهر باسم بهاء الدين، بالاضافة إلى الاسماء والنعوت التي أطلقت عليه مثل: (لسان المؤمنين) و (سند الموحدين) و (العبد المقتنى)، وغير ذلك من الألقاب التي أطلقها عليه حمزة.

ويعتبر بهاء الدين، من أخطر دعاة الدروز بعد حمزة، إذ قام بأعظم قسط في بقاء المذهب الدرزي بعد اختفاء حمزة، فلولا جهوده لما بقى لهذا المذهب أثر يذكر.

ومما يذكر أن مرتبة بهاء الدين في مذهبه هي مرتبة الجناح الأيسر، والواضح أن من يشغل هذه المرتبة يعتبر لسان الدعوة والمعبر عن رأيها، لذلك فإن له من الحدود الذين يساعدونه ثلاثة: الجد، والفتح، والخيال.

وبسبب هذه الصفة فإنه كتب كثيراً من الرسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها للدخول في عقيدته، كما كتب إلى الذين خرجوا عن المذهب بعد أن كانوا من دعاته أمثال (سكين[2])، الذي ادعى أنه الإله المعبود، وأنه الحاكم بأمر الله.

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد / عبدالله النجار ص١٤١.

(٢) أحد دعاة الدروز الأوائل، وكان يشبه الحاكم في كثير من ملامحه، فلما قتل الحاكم واعتقد الدروز أنه غاب، قام هذا الداعية وادعى أنه الحاكم، فاجتمع حوله بعض الناس، واستطاع أن يدخل قصر الحاكم، ولكن لم يلبث أن عرف الحراس حقيقته فقتل، ويعتبره الدروز مارقا وخارجا عن دينهم.

والكثير من رسائل الدروز كتبها بهاء الدين، ومن هذه الرسائل: (التنبيه والتأنيب والتوبيخ)، (ورسالة التعنيف والتهجين)، (ورسالة القسطنطينية)، (ومن دون قائم الزمان)، (ومثل ضربة حكماء الديانة)، (والإيقاظ والبشارة)، (ورسالة اليمن)، (ورسالة الهند)، وغير ذلك من رسائل كثيرة كتبها، وأغلبها في الرد على الآراء الجديدة التي ظهرت في دينه، وحاول الخارجون عليه أن يشوها، لذلك تحمل أكثر العناوين من رسائله التأنيب والتوبيخ والتعنيف.

هذا وقد جاء في نسخة تقليده التي أرسلها إليه حمزة ما يلي: «فاخدم ببركة المولى في الحد الجليل الذي أهلت له، واستعد له كأخيك الجناح الأيمن ثلاثين حدا دعاة ومأذونين ونقباء ومكاسرين، واعلم أن أول السبعة المفترضات: سدق اللسان[1]، والسدق هو المولى وضده الكذب، والسدق والكذب يتشابهان في التخطيط، كذلك الصدق يتشبه بالمولى، لأن المولى جل اسمه لا ضد له.

وكذب ثلاثة أحرف، وسدق ثلاثة أحرف، فإذا حسبناها في حساب الجمل افترقا، لأنك تقول: (ك) عشرون، (ذ) أربعة، (ب) اثنتان، الجميع ستة وعشرون حرفا... والسدق: (س) ستون، (د) أربعة، (ق) مائة، فذلك مائة وأربعون وستون حرفا دليل على مئة وأربعة وستين حدا، يكون للإمام منها تسعة وتسعون حدا، كما قال[2]: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»، أي لإمام التوحيد تسع وتسعين داعياً من عرفهم دخل حقيقة دعوته»[3].

والملاحظ أن بهاء الدين، كان على اتصال مع حمزة، أثناء غيابه بعد مقتل الحاكم، وكان أيضا على معرفة بمقره السري الذي اختبأ به، وكان يتلقى منه الأوامر والتوجيهات.

---

(١) يبدل الدروز حرف الصاد بحرف السين في كلامهم وكتبهم، لأن السين في حساب الجمل تساوي ستين.

(٢) يقصد النبي ﷺ

(٣) تقليد المقتنى.

ولما شعر بهاء الدين باضطراب الأحوال، بعد أن كثرت الآراء الخارجة على دينه، أخذ يهدد أتباعه باعتزال الدعوة، وبالفعل اعتزلها ٤٣٤هـ، بـ (منشور الغيبة)، والذي أعلن فيه إقفال باب الاجتهاد في العقيدة الدرزية، وذلك ليحافظ على آراء حمزة وحدوده، والأحكام التي وضعوها.

ومما يذكر في هذا المقام أن لكل حد من الحدود الخمسة لون مخصص له، فاللون الأخضر مخصص لحمزة، والأحمر مخصص للتميمي، والأصفر مخصص للقرشي، والأزرق لسلامة السامري، أما الأبيض فهو لبهاء الدين، ولهذا عندما أعلن الاستعمار الفرنسي قيام (إمارة جبل الدروز المستقلة) ارتفع علم ذو ألوان خمسة مكون من الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق والأبيض على المراكز الرسمية في الجبل، ولا يزال هذا العلم يرتفع على بيت الطائفة الدرزية في بيروت[1].

هؤلاء هم دعاة الدروز وحدودهم، ولا شك أن حمزة كان إمامهم وداعيتهم، فقد كان طموحاً داهية، كارهاً للإسلام حاقداً عليه، ظن أنه يستطيع بذلك أن يقوض أركان الإسلام ودعائمه، فلم ينفعه ذكاؤه ولا دهاؤه، بل حفظ الله هذا الدين، وخابت كل طموحاته.

وفي ختام حديثنا عن حدود الدروز، لا بد أن نلم قليلا باثنين من دعاتهم، واللذين كانا أول من أعلن هذا المذهب، وهما: محمد بن إسماعيل الدرزي، والحسن بن حيدرة الفرغاني، ورغم أن الدرزي ينسب إليه اسم الدروز في الوقت الحاضر إلا أنهم يكرهونه ويعتبرونه مارقاً من دينهم لأنه عصى حمزة، ونبدأ بالدرزي أولا:

وهو محمد بن إسماعيل الدرزي الملقب بـ (نشتكين)، وقد سبق أن تحدثنا عن كيفية كشفه لعقائد المذهب الدرزي عام ٤٠٧هـ، والذي أغضب حمزة وأجبره على الإعلان والكشف عن دعوته لتأليه الحاكم عام ٤٠٨هـ.

---

(١) انظر بتفصيل مذكرة (أيها الدرزي عودة إلى عرينك) ص١١٢.

أما عن أصل الدرزي، فالأرجح أنه ينحدر من أصل تركي، ويذكر المؤرخون أن وفادته على مصر كانت عام ٤٠٧هـ، فخدم الحاكم وتقرب إليه، ولكن الذي يرجحه الدكتور محمد كامل حسين: أن الدرزي كان قبل هذا التاريخ في مصر واتصل بحمزة بن علي مدة طويلة قبل إظهار الدعوة، وعملا معاً في رسم خططها[١]. ومما يؤكد هذا الترجيح ما صرحه حمزة في رسالة (الغاية والنصيحة): بأن الدرزي كان يضرب الدنانير والدراهم[٢]، وهذا يعني أيضا أنه كان قريباً من حمزة والحاكم.

ولا شك أن الدرزي كان من أقوى رسل حمزة وأشدهم عزماً وجرأة، وكان يسير على طريقة حمزة في الدعوة، ولكن طموحاته كانت تتعارض مع طموحات حمزة مما أجج الخلاف بينهما، وخاصة بعد قيام الدرزي بالكشف عن العقيدة الجديدة بدون إذن من حمزة، حيث تأكد له أنه يريد جزءاً من الغنيمة التي كانوا يخططون لها.

أما عن مصير الدرزي بعد أن كشف عن المذهب، فيختلف المؤرخون في ذلك، فمنهم من يقول بقتله في ذلك الوقت على يد الأتراك، ومنهم - وهو الأرجح - من يقول بأنه لم يقتل في هذا الظرف، ولكنه اختفى في القصر أياماً بحماية الحاكم حتى هدأت العاصفة وسكن الجند والناس، ثم دبر الحاكم له سبيل الفرار، وعاونه بالمال، فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس[٣] وأذاع في الناس دعوته، فكانت أصل مذهب الدروز الذي سمي باسمه، وهناك حاول بالفعل أن ينقلب على حمزة ويدعي الإمامة والرئاسة له حيث تسمى بـ (سيف الإيمان) و (سيد الهادين)، ولكن حمزة كان يترقب هذه اللحظة فحرض أتباعه عليه فقتل على يدهم سنة ٤١١هـ.

ويفهم من رسائل حمزة بأن الدرزي لم يكن وحيداً، بل كان معه دعاة آخرون أمثال: البرذعي، وعلي بن أحمد الحبال، وهذا ما ذكره في رسالة الغاية والنصيحة، ويذكر أيضا في

---

(١) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٧٩.

(٢) رسالة الغاية والنصيحة.

(٣) هما بلدان على الساحل السوري - وهو المقصود -، والآخر قرب القنيطرة بالجولان.

رسالة الصبحة الكائنة أن الدرزي استجاب إلى دعوته على يد علي بن أحمد الحبال، ولكنه نكث على حمزة بعد ذلك.

أما الحسن بن حيدرة الفرغاني[1] والذي يلقب بـ (الأخرم)، فهو الداعية الذي لا نعرف عنه إلا الشيء القليل، مع أن له باع طويل في خدمة حمزة ومذهبه، وقد ظهر الفرغاني في مدينة القاهرة عقب ظهور حمزة بقليل، ويحدد ابن العماد ظهوره في الثاني من رمضان سنة ٤٠٩هـ[2].

وكانت دعوة الفرغاني مثل دعوة حمزة، حيث دعا إلى مثل ما دعا إليه من التناسخ والحلول وألوهية الحاكم، «وقد لاقت دعوته رواجا بين المغامرين والمرتزقة، فاستدعاه الحاكم وخلع عليه وركبه فرسا مطهما، وسيره في موكبه[3]». غير أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل، حتى وثب رجل من أهل السنة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه، فغضب الحاكم وأمر بإعدام قاتله ودَفن الأخرم على نفقة القصر في حفل رسمي[4].

ويفهم من رسائل حمزة أنه لم يكن ضد الأخرم، بل كان في الحقيقة رسوله يرسله إلى الناس يطلب منهم الإيمان بدعوته، والرسالة الواعظة لأحمد حميد الدين الكرماني أحد كبار دعاة الإسماعيلية، تفيدنا بعض الشيء عن مهمة الأخرم تلك، وهي رسالة موجهة إلى الأخرم من الكرماني ردا على رقعة بعث بها الأخرم إليه، حيث يتضح من هذه الرسالة أن الأخرم هو الذي كان يقود حركة الدعاية للمذهب الجديد، وأنه هو الذي كان يبعث بالرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى عقيدته الجديدة، وكان يطلب من العلماء وكبار الدعاة أجوبة، وهذا مما أفزع دعاة الإسماعيلية فكتب إليه الكرماني (الرسالة الواعظة).

---

(١) نسبة إلى فراغان، بالفتح، مدينة واسعة متاخمة لبلاد التركستان، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً. انظر معجم البلدان جـ ٤ص ٢٥٣.

(٢) شذرات الذهب / ابن العماد جـ ٣ص١٩٤.

(٣) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / محمد عبدالله عنان ص١١٥.

(٤) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٧٨.

ومما جاء في هذه الرسالة: «ولا تخلو أن تكون في تظاهرك بولاء أمير المؤمنين عليه السلام، إما متبعاً له، أو غير متبع، فإن كنت متبعاً فبمخالفتك إياه فيما أمرك به من السجلات المكرمة من السلام عليه في جمع المكاتبات وقعودك عن الاقتداء فيما يفعله من تصدير سجلاته وجميع مكاتباته وخطبه بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، والاستفتاح به، والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين والتبرك بها قد كفرت[1].

ومن الأفكار التي قالها الأخرم في رقعته للكرماني: «من عرف منكم إمام زمانه حيا، فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي أو وصي أو إمام... وإن من عبد الله من جميع المخلوقين، فعبادته لشخص واحد لا روح فيه، ويتساءل عن معنى الآية الكريمة ﴿ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴾[2]، وعن: الإسلام وشرائطه؟ وعن الذي يتقرب إلى المعبود؟ وهل الشريعة محدثة أم قديمة مع الدهر؟ وما النفس؟ وما العقل؟ ثم ينتهي إلى القول: إلى أن الشريعة والتنزيل والتأويل خرافات وقشور وحشو ولا تتعلق بها نجاة، وأن الناس لا يوجهون وجوههم إلى القبلة لأنها حائط، وأن المعبود هو الحاكم[3].

وهذا يدل على أن الأخرم كان من مؤسسي هذه الدعوة، وكان لسان دعايتها، ولا ندري تماما مرتبته بين الحدود، لأنه قتل قبل أن يتبلور مركز الحدود ومراتبهم، ولا ندرى ماذا يكون مصيره مع حمزة لو قدر له أن يعيش؟!.

٥- إسقاطهم أركان الإسلام:

لقد كانت شريعة الإسلام وأركانه وما زالت شوكة صلبة في حلوق أعداء الإسلام، لهذا نجد أن كل حاقد على هذا الدين يحاول في البداية التشكيك بهذه الشريعة الربانية بشتى الصور والأشكال، وقد سارع حمزة وأتباعه بعد إعلانهم ألوهية الحاكم إلى اتباع هذا

---

(١) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٧٩.

(٢) سورة الإنسان، آية ١٨.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٧٩.

الطريق المخادع، حتى يبرهنوا أنهم جاءوا بشريعة جديدة نسخت الإسلام وأركانه، لأن حمزة - كما أعلن - هو ناسخ الشرائع ومبيد الأديان وهادم القبلة[1]؟!

فلا نعجب بعد ذلك إذا وجدنا رسائل الدروز وبالأخص حمزة حافلة بالاستهزاء بأركان الإسلام والتشكيك في شريعة الله، وعلى هذا الأساس أعلن حمزة إسقاط أركان الإسلام الخمسة، وألزم أتباعه بدلها سبع خصال توحيدية تغني عن الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، يقول حمزة في أحد رسائله: «ويجب على سائر الموحدات أن يعلمن أن أول المفترضات عليهن معرفة مولانا جل ذكره وتنزيهه عن جميع المخلوقات، ثم معرفة قائم الزمان وتمييزه عن سائر الحدود الروحانيين، ثم معرفة الحدود الروحانيين بأسمائهم ومراتبهم وألقابهم....

فإذا علمن ذلك وجب أن يعلمن أن مولانا جل ذكره قد أسقط عنهن السبع دعائم التكليفية الناموسية، وفرض عليهن سبع خصال توحيدية دينية، أولها وأعظمها: سدق اللسان، وثانيها: حفظ الإخوان، وترك ما كنتم عليه وتعتقدوه من عبادة العدم والبهتان، ثم البراءة من الأبالسة والطغيان، ثم التوحيد لمولانا جل ذكره في كل عصر وزمان ودهر وأوان، ثم الرضى بفعله كيف ما كان، ثم التسليم لأمره في السر والحدثان. فيجب على سائر الموحدين والموحدات حفظ هذه السبع خصال والعمل بها وسترها عمن لم يكن من أهلها»[2].

ونفهم من هذه الرسالة أن المولى قد أسقط عنهم سبع دعائم تكليفية ناموسية، وفرض عليهم سبع خصال توحيدية:

١- **أولها وأعظمها: سدق اللسان** - ونلاحظ دائماً أن الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد، إنما ينطقونها ويكتبونها بالسين، وسبب ذلك هو حساب الجمل، فالسين تساوي ستين، والدال تساوي أربعة، والقاف مائة، فيكون المجموع مائة وأربعة وستين وهم عدد حدود الدروز، ذلك أن حد الإمامة تسعة وتسعون (أي أسماء

---

(١) رسالة التحذير والتنبيه.

(٢) رسالة ميثاق النساء.

الله الحسنى)، أي أن للإمام تسعة وتسعين داعيا، ولكل من الجناح الأيمن والجناح الأيسر ثلاثون داعيا مجموعهم ستون داعيا. يضاف إلى ذلك أربعة حدود علوية، فالمجموع الكلي مائة وثلاثة وستون حدا، يبقى بعد ذلك حد، وهو قائم الزمان حمزة بن علي، ومن هنا نطقوا كلمة صدق ومشتقاتها وكتبوها بالسين حتى تتفق مع حروف الجمل على هذا النحو -.

٢- **حفظ الإخوان:** وهذا لا يعني الأخوة الإنسانية، بل تعني بالأخ من شاطرها هذه الخصال.

٣- **ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان:** أي أن كل عبادة تقدم لسوى الحاكم لا تصادف إلا عدما.

٤- **البراءة من الأبالسة والطغيان** - والمقصود الأنبياء -.

٥- **التوحيد للمولى** - أي الحاكم - **في كل عصر وزمان.**

٦- **الرضا بفعله** - أي الحاكم - **كيفما كان.**

٧- **التسليم لأمره في السر والحدثان.**

ولا عجب في تفاني حمزة بالحث على الرضى والتسليم، إذ يعلم أن القوم سوف يقرأون ما كتبه عن أفعال الحاكم مما يثير الاعتراض وسوء الظن، ولذا شدد على ذلك وقال في رسالة الرضى والتسليم: «إياكم أن تكرهوا شيئا من أفعال مولانا فيكم، أو تظنوا به ظن السوء»، ولكن هذا التحذير لم يجد شيئا فالذي نقرأه في رسالة بهاء (الجزء الأول من السبعة أجزاء) توحي أن الشجار والتناحر بينهم قد دب بسبب هذه الخصال السبعة، مما جعله يكتب شرحا لها كان أولها هذه الرسالة.

وهذه الفرائض السبع التي فرضها حمزة هي عوض عن أركان الإسلام الخمسة بالاضافة إلى الجهاد والولاية[1]:

«فصدق اللسان عوض الصلاة.

وحفظ الإخوان عوض الزكاة.

---

(١) هي من الفرائض التي فرضها الشيعة على أتباعهم ويقصدون بها ولاية الإمام، والملاحظ من هذا أن حمزة يريد أيضاً إسقاط فرائض الشيعة.

وترك عبادة العدم والبهتان عوض الصوم.

والبراءة من الأبالسة والطغيان عوض الحج.

والتوحيد لمولانا عوض الشهادتين.

والرضا بفعله كيفما كان عوض الجهاد.

والتسليم لأمره في السر والحدثان عوض الولاية»[١].

وما هذا النقض والإسقاط والإبدال إلا لاعتقادهم أن مسلكهم التوحيدي قد تجاوز الدعائم الإسلامية من حيث معناها المادي الظاهر، ليسموا بها إلى معانيها ومقاصدها الحقيقية[٢].

وقد خصص حمزة إحدى رسائله الكبرى لإثبات سقوط فرائض الإسلام وتجاوزها حتى بمعناها الباطن والتي تقول به عقائد الإسماعيليين، وهي العقيدة التي استقى منها حمزة أكثر عقائد طائفته، وعنوان هذه الرسالة وهو (الكتاب المعروف بالنقض الخفي)، وقد حاول فيها حمزة أن يبرهن أن أعمال الحاكم بصفته الإله المعبود قد بينت وأظهرت نسخ شريعة وأركان الإسلام، ظاهرها وباطنها، وقد بدأ حمزة هذه الرسالة بقوله: «أما بعد، فقد سمعتم قبل هذه الرسالة نسخ الشريعة بإسقاط الزكاة عنكم، وأن الزكاة هي الشريعة بكاملها. وقد بينت لكم في هذه الرسالة نقضها دعامة دعامة، ظاهرها وباطنها، وأن المراد في النجاة من غير هذين جميعا، وقد سمعتم بأن يصير هذا الباطن المكنون الذي في أيديكم ظاهرا، والظاهر يتلاشى ويظهر معنى حقيقة الباطن المحض، وهذا وقته وأوانه وتصريح بيانه للموحدين، لا للمشركين، إلى أن يظهر السيف فيكون ظاهرا مكشوفا، طوعا وكرها، وتؤخذ الجزية من المسلمين والمشركين كما تؤخذ من الذمة، وقد قرب إن شاء مولانا وبه التوفيق»[٣].

---

(١) مخطوط (ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به) مكتبة القديس بولس / الجامعة الأمريكية / بيروت.

(٢) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١١٢.

(٣) الكتاب المعروف بالنقض الخفي.

وبعد أن يبشر حمزة أتباعه بقرب أخذ الجزية من المسلمين، وللإسراع في ذلك يبتدئ بهدم أول الأركان وهو شهادة أن (لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)، حيث يبين أن الجملتين دليل على السابق والتالي، وبما أنها سبعة كلمات فهي دليل على النطقاء السبعة، والأوصياء السبعة، وكذلك هي اثنا عشر حرفا، دليل على اثنتى عشرة حجة، وبهذا التعليل السخيف يزعم أن هذا الركن ليس كما يفهمه المسلمون ويؤمنون به وإنما هو دليل على هذه الأمور فقط.

وأما الصلاة فإنه يبرهن على إسقاطها، بتصرفات الحاكم (الإله المعبود) والذي لم يصل بالناس سنين كثيرة، ولم يصل أيضا لا في جنازة ولا في عيد مدة طويلة، فدل هذا الترك من قبل الحاكم أنه قد نقض الصلاة ورخص لعبيده بتركها.

ويأتي بعد ذلك للزكاة، ليستدل أيضا بمنع الحاكم أخذ الزكاة من الناس، فدل هذا - كما يزعم - على إسقاطها من قبل المولى المعبود، وبما أن الحاكم قد أمر الناس بتكذيب حديث رسول الله ﷺ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وأمرهم أيضا بالإفطار في ذلك اليوم الذي يعتقد المسلمون كلهم بأنه خاتم الصوم، فهذا يعني عند حمزة نقض الصوم وفريضته، لأن فعل الحاكم هذا دليل على إسقاط الصوم.

وعندما يتحدث حمزة عن الحج، يصف أركانه وشروطه بأنه ضرب من ضروب الجنون، فكشف الرؤوس، وتعرية الأبدان، ورمي الجمار، والتلبية، كل هذا من الجنون في زعم حمزة. لهذا فإن الحاكم منع الناس من الذهاب إلى الحج سنين عديدة، وكذلك قطع عن الكعبة كسوتها، وقطع الكسوة عند حمزة هو الكشف والهتك، فدل هذا أن الحاكم بين للناس أن ذهابهم إلى الحج هو بلا منفعة بعد أن كشفه الحاكم.

أما الجهاد فقد نقضه أيضا الحاكم وأسقطه عن الناس. حتى الولاية - التي يقول بها الشيعة ومنهم الإسماعيلية - أعلن حمزة إسقاطها ونقضها لأن الحاكم فعل ذلك على رؤوس الأشهاد عندما أعلن نقض ولاية علي وذريته.

وفي خلال ذلك، كان حمزة ينقض كذلك المعاني الباطنية لأركان الإسلام والتي تقول بها الإسماعيلية، فالإسماعيلية تقول بأن لكل شيء معنى ظاهرا وباطنا، وخاصة أركان الإسلام

الخمسة، لهذا فقد حرص حمزة وهو ينقض أركان الإسلام، أن ينقض أيضا ما يدعيه الإسماعيلية من المعاني الباطنية، وذلك ليكون المجال أمامه مفتوحا عندما يدعو لمذهبه الجديد.

مما سبق نستطيع أن نلخص ما ورد في رسالة حمزة (الكتاب المعروف بالنقض الخفي) بما يلي:

١- أن الشهادتين تدلان على عبادة الحاكم، وعلى حدود الدروز، ولا تدل على ما يقصده أهل السنة، ولا الإسماعيلية أيضا.

٢- وأن الصلاة هي صلة قلوب الدروز بعبادة الحاكم على يد الخمسة حدود، وهذه هي الصلاة الحقيقية في زعمهم.

٣- وأما الزكاة فهي عبادة الحاكم، وتزكية قلوبهم وتطهيرها وترك ما كانوا عليه.

٤- وفيما يتعلق بالصوم، فهو صيانة قلوبهم بتوحيد مولاهم الحاكم.

٥- وكذلك الحج صار له معنى مختلف عند حمزة، هو توحيد الحاكم.

٦- أما الجهاد فقد أسقطوه عن الناس، لأن الجهاد الحقيقي - في زعمهم - هو السعي والاجتهاد في توحيد الحاكم ومعرفته وعدم الإشراك به.

وهكذا فإن هدم الشريعة الإسلامية هو الهدف الأول والأخير من جميع الحركات الباطنية ومن بينها الدروز، وإذا صنفنا الهدامين جاء حمزة في طليعتهم، ولذا لا نعجب إذا مهد لهذا بهذه الرسالة، وحذا حذوه بعد ذلك أتباعه وتلاميذه قديما وحديثا الذين ألفوا الرسائل والكتب يحاولون من خلالها أن ينالوا من الإسلام وشرائعة بالاستهزاء تارة وبالتشكيك تارة أخرى، فهذا بهاء الدين تلميذ حمزة المخلص يصف في رسالته (الموسومة برسالة السفر إلى السادة) جميع اعتقادات الأمم ومنها الإسلام تمويهات ولا يؤمن بها إلا أشباه الحيوانات ويقول: «وهذه الفرق من الأمم وهي النصرانية والمسلمين واليهودية والمجوسية أعني الإبراهيمية الحشوية، ومن المذاهب كالنصيرية والقطعية وأصحاب اسحق الأحمر وهم الحمراوية[1]، وجميع من لم نسميه فقد بطلت دعاويهم لأنها تمويهات

---

(١) الحمراوية فرقة انفصلت عن النصيرية وجرت بينهم حروب طويلة، مع أن مذهبهم يتشابه مع مذهب النصيرية في كثير من الاعتقادات.
انظر الباب الثالث من هذه الرسالة.

على الأمم وغير جائزة إلا على أشباه البقر والغنم، والعقل يقطع، والحق يدفع ويمنع صحة قول كل أحد من جميع من ادعته هذه الفرق»[١].

وحتى يضمنوا أتباعهم يحذرهم التميمي في رسالة (الشمعة) من التمسك بأي شيء من الشرع لأن هذا إلحاد وكفر وإبطال وكذب[٢]، على حد زعمه.

أما في العصر الحالي فقد ساروا على نفس الطريق والأسلوب، فكمال جنبلاط في مصحفه الذي ألفه ينكر القرآن ويعتبره فرية ويقول: «لقد ضل الذي جحدوا الحكمة واتبعوا فرية صحف اكتتبوها، فهي قبلة آبائهم، يتلونها بكرة وعشيا، وقالوا هذا من عند الله المعبود[٣]»، ويضيف قائلا في مكان آخر من مصحفه عن القرآن: «وقال الذين كفروا منكم، إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وعليه وجدنا آباءنا، قل لو كنتم على الهدى لآمنتم به، ولكنكم لا تعلمون غير ما تهواه أنفسكم، وأنتم تجهلون، نحن أعلم بما في أيديكم ونحن المنزلون. لقد ضل هؤلاء الذين يريدون أن يحكموا بالقرآن، ويتخذوه سبيلا، ثم به يكفرون بعد أن تبين الحق، قل أليس الحق أن يتبع؟»[٤].

ولأن جنبلاط على طريق حمزة الهدام، فإن كذلك يدلي بدلوه في موضوع أركان الإسلام وعباداته، ويستعيذ من هؤلاء الذين يتقربون إلى الله بالعبادة ويقول مخاطبا مولاه الحاكم: «مولانا نستعيذ بك من أن نكون من الذين يتقربون إليك بالعبادة، أو الذين يعملون الصالحات لتقربهم إليك زلفى. أفٍ لتلك الأنفس وويل لها، لقد منيت بهوى شديد أضلها عن السبيل»[٥].

إذن فطريق حمزة وأتباعه القديم، هو نفسه طريق جنبلاط وطائفته حديثا في التشكيك بالإسلام وشرائعه.

---

(١) الرسالة الموسومة برسالة السفر إلى السادة.

(٢) رسالة الشمعة.

(٣) المصحف المنفرد بذاته / عرف عاقبه المكذبين ص٢٤١، ٢٤٢.

(٤) المصدر السابق / عرف المحرمات ص١٥٤، ١٥٥.

(٥) المصدر السابق / عرف الأعراف أو تسبيح مؤذني نواقيس الأختام ص٢٥٧.

والذي يلاحظ من خلال رسائل الدروز ومصحفهم هذا، أن نقض الشريعة الإسلامية والاستهزاء بأركانها ورسولها صلوات الله عليه، هما الشغل الشاغل لدعاة الدروز، باعتبار أن الإسلام هو عدوهم الأول، وتقويض أركانه - كما يتوهمون- يمهد لهم الطريق لما يريدون وما يبتغون.

ويؤكد هذا القول ما جاء في أحد رسائل حمزة، والتي ينفي فيها نبوة محمد ﷺ، ويثبتها لنفسه فيقول: «وأنتم تعلمون أن لمحمد أربعمائة سنة وعشر سنين لم يظهر دينه على الأديان كلها، واليهود والنصارى أكثر من المسلمين، والهند والسند والزنج والحبشة أكثر منهم... فلو كان الرسول محمد له أديان هؤلاء النطقاء لكان يجب أن يكون المسلمين أكثر العالمين وأغلبهم في الأولين والآخرين، فلما لم يصح للمسلمين ذلك علمنا بأن الرسول الحقيقي هو عبد مولانا جل ذكره وهاديا إليه وإماما على أمره لعبيده»[1].

أما بهاء الدين فيحاول في كلام استهزائي آخر عن فريضة الحج أن يثبت أن طائفته هي الطائفة النورانية الحقيقية في عبادتها للحاكم، بعكس المسلمين الذين يقبلون الحجر الأسود الأصم ويرفضون عبادة الحاكم الذي ظهر بألوهيته للناس، ويضيف قائلا: «ولعمري أنه ما تعجب إلا من قوم قطعوا المفاوز ولقوا في سفرهم الهزاهز إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس[2]، قصدا إلى حجر أسود وبيت جلمد ليس فيه حياة ولا نطق، فأي عجب أعجب من قوم هذا فعلهم. ثم إنهم أنكروا على هذه الطائفة النورانية المضيئة، أعني أهل التوحيد عبادة الواحد المجيد الحاكم على كل الأشياء شهيد، فيا ليت شعري ما نفعهم من تقبيل الحجر الأسود وما اكتسابهم من الفوائد العقلية والعلوم الحقيقية الإلهية، هل فعلهم إلا كفعل النصارى في الصليب، بل هم أشد عتوا»[3].

---

(١) رسالة الغاية والنصيحة.

(٢) يقصد الآية الكريمة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ سورة النحل الآية ٧.

(٣) رسالة من دون قائم الزمان.

ومع أن الدروز لا يجيزون صوم شهر رمضان، لأن حمزة أسقطه عنهم، لكونه من فرائض الإسلام، إلا أنهم يصومون في أيام خاصة، وهي التسعة أيام الأولى من شهر ذي الحجة، وصيامهم هو نفس الصيام الإسلامي من امتناع عن الأكل والشرب، ويبيحون أيضا الصوم في أي شهر غير شهر رمضان[١]، وعيدهم الأكبر والوحيد هو عيد الأضحى فقط[٢].

أما عن الصلاة، فقد بنى الدروز المساجد في قراهم ومدنهم تسترا من المسلمين الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم وتقربا منهم وتمويها عليهم، وذلك حتى يأمنوا على أنفسهم وينفوا عنهم تهمة الردة وحدها، ولكنهم بدأوا يبتعدون عن هذه السرية، ويعلنون بعض الحقيقة من أمرهم. «ولما قامت فتنة سنة ١٨٦٠م في لبنان بين الدروز والموارنة، بدأت آخر دلالة شعائرية بالانقراض، ونعني بها شعائر الصلاة في المساجد الكثيرة التي كانت منتشرة في القرى الدرزية، ولجأ الدروز بعد ذلك إلى الخلوات يقرأون بها رسائلهم وتركوا المساجد نهائيا»[٣].

وهذا الأمر هو شيء طبيعي، لأن حمزة أسقط عنهم الصلاة منذ زمن بعيد، كذلك فقد وصل بهم الأمر في الوقت الحاضر أن يمنعوا قيام المساجد للمسلمين الموجودين في قراهم، وقد حاول بعض المسلمين المقيمين في جبل الدروز بسورية إقامة مسجد في مدينة السويداء عاصمة جبل الدروز، ولكنهم عندما عادوا في اليوم التالي لإكمال البناء وجدوا ما بنوه مهدوما، ولم يقم هذا المسجد إلا بعد الاستعانة بقوة عسكرية لحمايته.

وقد اعترف شيخ عقل الدروز الشيخ محمد أبو شقرا أخيرا في حديث خاص أن صلاتهم في خلواتهم تختلف كليا عن صلاة جمهور المسلمين في عددها وفي طريقتها، لهذا فإنهم لا يعتقدون بالوضوء للمصلي، لأن الطهارة في اعتقادهم إنما هي في الداخل وليست في الخارج[٤].

---

(١) الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص٤٦، وطائفة الدروز / محمد كامل حسين ص١٢٣، وإسلام بلا مذاهب ص٢٩٣.

(٢) (٣) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعبة ص٢٠٨.

(٤) الحديث الشخصي للشيخ أبي شقرا في كتاب إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٢٩٢ – ٢٩٣.

٦- العقال والجهاد ونظام الخلوات عندهم:

ينقسم المجتمع الدرزي إلى عقال وجهال، وبمعنى آخر إلى: «روحاني وجثماني، فأما الروحاني فهو الذي بيده أسرار الطائفة، ويقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤساء، وعقلاء، وأجاويد.

والجثماني: هو الذي لا يبحث في الروحيات بل يبحث في الدنيويات، ويقسم إلى قسمين: أمراء وجهال»[1].

والروحانيون أو العقال - في مصطلح الدروز - ينقسمون إلى أقسام ثلاثة: فمنهم الطبقة التي تعرف بالمنزهين، وأصحاب هذه الطبقة في أشد العبادة والورع - للحاكم - فمنهم من لا يتزوج حتى يموت، ومنهم من يصوم كل يوم إلى المساء، ومنهم من لا يأكل اللحم في جميع حياته، والطبقة الأخرى: هي الشراح، ويرخص لهم بالاطلاع على ما كتبه الأمير عبدالله التنوخي أحد مشايخهم، أما الآجاويد فهم الطبقة الأخيرة من الطبقات الثلاثة، ويعرفون من أسرار دينهم أكثر بقليل من الجهال.

ويعرف المكان الذي يجتمع فيه عقال الدروز، ويقيمون فيه عبادتهم بـ (الخلوات)، حيث تتلى فيها كلمات الوعظ ورسائل الدروز. وبداية الخلوة تكون للجهال فقط، فيوعظون بأمور عامة ثم يطلب منهم الخروج، ثم تتلى بعض الرسائل البسيطة فتخرج الطبقة الدنيا من العقال، وبعد ذلك تتلى بعض الرسائل الأخرى، فتخرج الطبقة الثانية، بحيث لا يبقى إلا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق في سماع الأسرار العليا لعقيدتهم.

وتقسيم المجتمع الدرزي إلى عقال وجهال، دليل على نظام السرية الذي يحرص عليه الدروز طوال حياتهم، لهذا ظهر نظام الخلوات قبل قرنين من الزمان وبالتحديد عام ١٧٦٢م، لتكريس هذه السرية بشكل عملي، بعد أن انقرضت آخر شعيرة يستترون بها من المسلمين عن حقيقة دينهم وهي إقامة المساجد والصلاة في مدنهم وقراهم.

---

(١) الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص٣٢، ٣٣.

والحقيقة أن المتتبع لطريقة صلاتهم وعبادتهم - للحاكم -، لا بد أن يصل في النهاية إلى حقيقة ذلك النظام السري (الخلوات)، والذي يعطي صورة واضحة عن كيفية عبادة الدروز وطبقيتهم وكتمانهم، بحيث لا يعطى الأسرار العليا أي شخص حتى ولو كان من عقالهم، إلا لنخبة مختارة من شيوخهم وعقالهم.

ومن الأدلة على ذلك، أن الجاهل من طائفتهم لا ينتقل إلى طبقة العقال إلا بعد الأربعين من عمره، وبعد امتحان عسير شاق يستمر مدة سنتين، ليثق شيوخهم بأحقيته أن يكون واحدا منهم.

أما عن طريق دخول الجاهل في سلك العقال، فنجده في أحد رسائلهم وهي على طريقة السؤال والجواب، وفيما يلي نصه:

س: كيف يكون تقديم الجاهل؟

ج: يقدمه جماعة الموحدين إمام ويحرضه على حفظ السر ويعلن له الحقائق والطرائق، ويطعمه تينا، ويقول له: يا رجل أتؤمن بدين النبي[1]؟ وتريد أن تأخذ هذا الدين وتصير من جملة الموحدين، فيجيب: نعم أؤمن، فيسلم الحجاب ويصير واحدا منهم صحيحاً تماماً.

«س: كيف يجب أن يكون سلوكه بعد دخوله؟

ج: يجب أن يتظاهر بالحشمة والأدب وطول الروح، والكلام اللائق والهدوء، والسلام والكلام واللين، وبما يضاهي به إخوانه الموحدين.

س: ما هو العهد الواجب عليه وما هي صورته؟

ج: هذه صورته: باسم الإمام مولانا الأعظم المنزه عن العاهات والوالد القادر، الذي لم يخلق ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أنا فلان ابن فلان قد نويت وعزمت أن أضع نفسي وجسدي ومالي وحريمي وأولادي وأرزاقي وأعلامي، وكل ما تملك يدي تحت يد الطاعة، سيدي

---

(١) يقصد حمزة.

مولاي الحاكم بأمره العلي العلامة أمير الحاكم صاحب الجبروت القادر على جميع الكائنات قد سلمت حالي إليه، ووعدته باتكالي عليه، وأقر الإقرار التام، وأشهد أمام إخواني الموحدين وسيدي الإمام، أني قد تبرأت من الأديان، ولا أريد شيئا يخالف أو يناقض الوحدانية، ولا أقر أن في السماء إلها معبوداً، ولا في الأرض إماماً موجوداً سوى سيدى ومولاي الحاكم بأمره العالي المقتدر الحكيم بتدبيره، وهو نصيري ومجيري وإليه فوضت كل أمري وتدبيري، وكرهت ورذلت كل ما يبعدني عن عبادته وطاعته وصدقه... [1]».

هذا وللدروز رئيس ديني يلقب بـ (شيخ العقل) في كل دولة يقيمون بها، ويتولى منصبه بالانتخاب أو الاتفاق بين الزعماء وكبار رجال الطائفة في تلك الدولة، ولشيخ العقل أعوان في كل قرية أو بلد. علماً بأن شيخ العقل الآن في لبنان هو (الشيخ محمد أبي شقرا)، وفي فلسطين المحتلة وسورية شيخ للعقل أيضا لكل منهما.

ولإعطاء صورة واضحة عن نظام (الخلوات)، نقتطف من أحد الكتب المخطوطة لمؤلف مجهول فقرات عن كيفية إقامتها وطريقة الوعظ فيها فيقول: «قبل عام ١٧٦٢م، ولم يكن للدروز خلوات، أو كانت ولكن ليست ظاهرة، ولا شيوخ عقل بل كانوا تحت جناح الإسلام مباشرة، وبقي شيوخ العقل يتخبطون في خلواتهم بين الرسائل والشروح، إلى أن تسلم الرياسة الروحية في جبل حوران الشيخ إبراهيم البحري، فقرر قراءة الكتابين الأولين (أي ميثاق ولي الزمان وكشف الحقائق) مع شيء من الكتاب الثالث (أي مناجاة ولي الحق) على كل درزي تتوفر فيه الشروط الدينية.

ثم قسم الشيخ إبراهيم الكتاب الثاني والثالث إلى ثمانية أقسام، وعين لكل ليلة من ليالي الأسبوع قسماً منها، وضمّ لها أقساماً معلومة من رسائل أخرى، ودعا هذا كله دورا.

فدور مساء الخميس مثلا، الميثاق والكشف والتزيه وشعر النفس، ودور مساء الجمعة الميثاق والدامغة والرضا وشعر النفس... وهكذا لكل ليلة دورها الخاص، مع الملاحظة أن الاجتماع الرسمي هو مساء الخميس، والقراءة في الجمعة وسواها جماعية.

---

(١) رسالة تعليم دين التوحيد - المعروف بدين الدروز - ص٣٠ - ٣٢.

وهناك بعض فصول من الرسائل، رأى الشيخ إبراهيم وجوب قراءتها في كل صباح، وقد دعا هذا الترتيب فرضا، وما زال عليه الناس في جبل حوران وسواه حتى يومنا هذا، وان رأينا تعديلا في بعض المناطق، فهو لا يعدو إبدال فصل بفصل من رسالة واحدة أو رسالتين متغايرتين. وقد ثابر القوم على هذا المنهاج واعتبروه واجبا على كل درزي تتوفر فيه الشروط الدينية.

وعن هندسة هذه الخلوات يقول:

إن الشيخ إبراهيم أمر أن يقام في كل قرية درزية خلوة كبيرة تتسع لأكبر عدد من سكان القرية، وأطلق على هذا البناء اسم (مجلس حمزة) وهو يتألف من غرفة كبيرة تتوسطها مصطبة - طاولة ثابتة - بارتفاع سبعين سنتم تقريباً، يعلوها ستار من القماش السميك بارتفاع متر ونصف تقريباً، كأنها تقسم الغرفة قسمين وتحجب بينهما. يجلس الرجال في قسم والنساء في القسم الآخر، ولكل قسم باب ونافذة في مكان واحد.

ويجلس الإمام - شيخ عقل القرية - في صدر المجلس تقريباً من الزواية، ويولي ظهره للقاطع - المصطبة - ثم يجلس الشيوخ عن يمينه وشماله بصفوف غير منتظمة، تاركين أمامه فسحة صغيرة مستعدين لأداء الطقوس.

أما كيفية ترتيب الطقوس فهو كما يلي:

١- **الوعظ:** وهو قصص وحكايات صوفية، كقصص مالك بن دينار وذي النون المصري وإبراهيم بن أدهم وسواها من القصص الخفيفة التي نراها في كتاب (روض الرياضين). أما إذا كانت هذه الليلة ليلة العيد الكبير، ضموا للوعظ قصة (الثواب والعقاب) وهما تصوران ما يلاقيه الكافر والمرتد من أهوال التناسخ، وهذه الجلسة متاحة للجميع، يحضرها المدخن والسكير حتى ولو كان ليس درزيا.

٢- **الشرح:** المرحلة الأولى: ويجوز حضوره لكل درزي، ونرى الحاضرين فيه كثيرين في ليالي الجمعة وليالي العشر من ذى الحجة، يفتتحه الإمام قائلا: علينا أن نمسي الحدود

(أي نقول لهم: مساكم الله بالخير)، وقد يقول هذه الكلمة شخص آخر إذ هي مباحة لكل شخص من الحاضرين.

وتمسية الحدود هي تحية وسلام وتسبيح على كل حد من الحدود الثمانية: (العقل، النفس، الكلمة، السابق، التالي، الجد، الفتح، الخيال)، وهذه صيغة التمسية، يقدمونها أولا للعقل قائلين:

ألـــف المســـاء مســـاك   يـــا عقـــل مـــن مـــولاك

يـــا نـــور صـــاف محـــض   ســـبحان مـــن صـــفاك

يـــا لابـــس الأخضـــر   يـــا زينـــة المحـــضر

قلبـــي يميـــل إليـــك   عينـــي تريـــد رؤيـــاك

صـــلى عليـــك الله   يـــا نـــور عـــرش الله

صـــلى عليـــك ربي   نحـــن دخيـــل حمـــاك

ثم يتوجهون للنفس فيمسونه بنفس هذه الأبيات مع إبدال كلمة الأخضر الموجودة في صدر البيت الثالث بالأحمر، ثم يتجهون للكلمة بنفس الأبيات ويضعون بدل الأخضر كلمة أصفر، ثم يخصون السابق باللون الأبيض، والتالي باللون الأسود بنفس الأبيات والترتيب. أما الجد والفتح والخيال فتقدم لهم التمسية دون ذكر البيت الثالث، إذ الثلاثة الباقون ليس لهم كسوة خاصة.

وقد ترنم بعض الخلوات بهذه الترنيمة أيضاً:

صـــلوا عـــلى القائـــل   صـــاحب الجـــود والفضـــائل

صـــلوا عـــلى ولي الهـــدايا   صـــاحب الـــنعم والكفايـــا

صـــل وســـلم يـــا رب عليـــه   وأســـعدنا برضـــاه

صلوا على السيد الهادي الإمام الأعلى، نور القيام، المنتظر لنجاة الأنام، الهادي إلى طاعة المولى العلي حاكم الحكام، إمام الرضاة المظفر المصطفى، صل يا رب وسلم على سيدنا وحبيب قلوبنا ورجانا (حمزة بن علي).

وبعد الانتهاء من التحية الأدبية، يطلب الإمام من أحد الشيوخ أن يعظ الناس، وهذا يتلو بعض أخبار الصالحين من الصوفيين ويطلب من آخر أن ينشد بعض الأناشيد الدينية، ويختم المجلس بنشيدة جماعية.

المرحلة الثانية: يقف الشيخ - الإمام - فيقفون جميعا رجالا ونساء قائين بصوت واحد: يا سميع، احتراما للأمير عبدالله التنوخي ثم يجلسون، وفي هذه اللحظة ينصرف الجهال، كالقاتل والزاني والسكير وشارب التبغ... وسواهم من المحرومين الذين لا يستحقون سماع الشرح.

على أن بعض هؤلاء الجهال يقف متأدبا واضعا كفيه تحت إبطيه ويكلم المشايخ بأدب وتواضع قائلا: الله يمسيكم بالخير حضرات المشايخ، فيجيبون: الله يمسيك بألف خير، ثم يقول بذل وانكسار: نطلب الحلم وصفاء الخاطر من الله ومنكم، العبد يخطئ والسيد يعفو.

وهنا يتجه المشايخ إلى بعضهم قائلين: احلموا علينا وعليه يا مشايخ، وفي هذه اللحظة يأتي دور الإمام وله أن يفوه بأحد كلمتين: إما أن يسمح عن ذلك المستشفع قائلا: تفضل اقعد، وهذه معناها السماح بحضور المرحلة الثانية فقط، وإما أن يقول: ما قدامنا وقدامكم إلا الخير، وهذه معناها الإصرار على إبعاده وعم السماح له بالجلوس، وهنا يخرج المستشفع خجلا كسير النفس.

وبعد خروجه تبدأ المرحلة الثانية فيقرأ الإمام أو يكلف أحد الشيوخ بتلاوة شرح إحدى الرسائل المقررة، وبعد الانتهاء من القراءة يقفون جميعا قائلين: يا سميع.

وفي هذه الفترة يخرج الذين لا يجوز لهم حضور المرحلة الثالثة: وإذا طلب أحد هؤلاء السماح يبقى واقفا متأدبا مكررا الكلمات السابقة، وليس له إلا أحد الجوابين السابقين، وقد يوكل أحد الشيوخ فيقف هذا موقف المذنب التائب، ويتكلم بالنيابة عن المستشفع وبنفس الجمل، وهنا إما أن يجاب أو يرفض.

المرحلة الثالثة: ثم يتوجه الإمام للمشايخ قائلا: تفضلوا احلموا، وهنا تبدأ قراءة الدور قراءة جماعية، وكلهم يحفظ الدور الواجب تلاوته، فيبدأون بالميثاق، ثم بالرسائل

المقررة لتلك الليلة، ويجعلون شعر النفس ختاما، ويسجدون عند كلمة (هو الحاكم المولى بناسوته يرى...) ويرفعون أيديهم مبتهلين، ثم ينصرفون مرددين بعض الأدعية.

هذه الخلوات، تشبه بعضها بعضا، وان اختلف بناؤها باختلاف القرى أو تخلفها، وفي مقدمتها من حيث التاريخ خلوات الزنبقية قرب كفر نبرخ بلبنان، وإن فاقتها الآن خلوات البياضة (حاصبيا لبنان) وحلت محل الصدارة.

أما الشيوخ الذين يقومون بإدارة تلك الخلوات، فيتفاوتون ليس بالعلم أو الخدمة العامة، بل بشهادة السلوك والمثابرة على الخلوات والزهد الذي قد يصل لدرجة رهبان البراهمة، ذلك أنهم يخالون العكوف على دراسة الرسائل كل شيء في العالم، ولذا ضاق أفقهم...)[1].

والعقال الدروز يعرفون بعمائهم ولبس القباء الأزرق الغامق، ويطلقون لحاهم[2]، على أن الذين يسند إليهم وظائف حكومية يباح لهم ترك هذه الملابس وارتداء الزي الذي يتطلبه منصبه الرسمي والنساء في المجتمع الدرزي، ينقسمن أيضا إلى عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماما، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوبا اسمه (صاية)[3].

والعقال أيضا يحرمون مال أولياء الأمور من أي جهة كانت، وجميعهم يستحلون أموال التجار من أي جهة كانت، فإذا قبضوا دراهم محرمة أتوا بها إلى التاجر ليبدلونها منه فتصبح حلالا[4].

والجاهل في نظر عقلاء الدروز كالحارس الذي يحرس بيتا في الخارج ويجهل معرفة أسراره الداخلية، وهكذا يعيش الجاهل منهم - إذا لم يدخل سلك العقال - درزيا ولا يعلم

---

(١) كتاب مخطوط بعنوان (أيها الدرزي عودة إلى عرينك) مؤلف مجهول ص٩٧ - ١٠٠.

(٢) هذا على الغالب، وأما ترك الشارب فهو عند الجميع.

(٣) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٣٢.

(٤) مخطوط بعنوان (في تقسيم جبل لبنان) في الجامعة الأمريكية ببيروت / ومخطوط بعنوان رسالة في معرفة سر ديانة الدروز.

من الدرزية سوى شيء يسير جدا، كالاعتقاد بألوهية الحاكم، وإمامة حمزة والأربعة حدود، والتقمص، والعلامة السرية التي يجعلونها بينهم لمعرفة بعضهم البعض[1].

٧- تسترهم على عقائدهم:

يرتبط الحديث عن العقال والجهال ونظام الخلوات السري، بعقيدة هامة من عقائد الدروز، وهي عقيدة السرية والكتمان، والتي أصبحت ملازمة للدرزي في كل أمر من أمور حياته، لأنها عقيدة التصقت بنفسيته وتكوينه. وهذا يفسر لنا تقلب الدروز في الولاء للدول والزعماء والأديان، مما أظهرهم دائما بمظهرين، المظهر الحقيقي الباطني والذي لا يعرفه إلا الدرزي فقط، والمظهر الخارجي والذي يتقلب حسب المصالح والأهواء.

لذا فإن الطائفة الدرزية تصنف وتعد من الطوائف الباطنية الموجودة في بلاد الإسلام، والتي تؤمن بالتقية، والقول بالباطن، وبسرية العقائد.

والحقيقة أن السرية هذه جاءت إلى عقائد الدروز عن طريق الإسماعيلية، والتي هي الأصل المهم لعقائدهم، - فكما سبق-[2] فإن من أهم عقائد الإسماعيليين القول بالظاهر والباطن، والظاهر هو لجمهور الناس وعامتهم، أما الباطن فلا يقال إلا لمن ارتفع في مستواه وتفكيره فوق عقول هؤلاء العامة.

وأصول عقيدتهم هذه - كما هو معروف[3] - خليط من نظريات فلاسفة اليونان وغيرهم، والذين كانوا أول من وضع أصول السرية، والتي تقول بحجب آرائهم وأفكارهم الحقيقية عن عامة الناس.

ومع أن الدروز يزعمون أن اعتقادهم بالسرية كان تمشيا مع أفكار فلاسفة اليونان وغيرهم، إلا أن الواقع يبين أن هذه العقيدة جاءت إلى الدروز عن طريق الإسماعيلية،

---

(١) الدروز والثورة السورية / كريم ثابت ص٣٣.

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الأول في هذه الرسالة عن عقائد الإسماعيليين.

(٣) انظر باب التمهيد من هذه الرسالة في مصادر الفكر الباطني.

والإسماعيليون هم الذين أخذوها عن اليونان، وهذا الرأي يصرح به جنبلاط حينما يعترف بأخذ الدروز الكثير من عقائدهم عن إخوان الصفا، بل واعجابهم بهم لأنهم تشابهوا مع الدروز في مزجهم الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية[١]، وإخوان الصفا - كما هو معروف[٢] - طائفة من طوائف الإسماعيلية.

والدروز يفاخرون دوما باتباعهم لطريقة أفلاطون وفيثاغورس وغيرهم من فلاسفة اليونان، يقول الدكتور سامي مكارم في معرض رده على الأستاذ عبدالله النجار: «لقد أصاب باعتبار أفلاطون، وأتباع فيثاغورس من مصادر السرية في مسلك التوحيد، ولكن لم يصب في تجاهله مصادر أخرى لهذه السرية كان لها من الأهمية ما لأفلاطون وفيثاغورس وأتباعه، فهناك هرمس، وهو معروف بصيانته الشديدة للأسرار، وهو مكرم عند الدروز، ينظرون إليه بعين التقديس ويجعلونه في مصاف الأنبياء»[٣].

ولذلك فالدروز يحرصون أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية، وينكرون ما يؤخذ منها، بل قد يذمونها أمام المعترضين رياء واستتارا، وقد حرص الدروز على هذا الكتمان المطبق لأصول مذهبهم وعقائدهم طيلة القرون، ولم تعرف خفايا مذهبهم إلا منذ قرن حينما غزا إبراهيم باشا[٤] مناطقهم الجبلية[٥]، ووقع الغزاة على بعض كتبهم المقدسة، وعرفت محتوياتها[٦]. حيث نقلت هذه الكتب بعد ذلك إلى مكتبات أوروبا وأمريكا كمخطوطات هامة.

وهكذا نرى أن الكتمان لا يعني إلا التظاهر بشيء أو تفسير الأصول والعقائد بشيء، والتكتم على شيء آخر، فأصبح عادة مستحكمة عند الباطنيين تحمل على النفاق، وتفرض

---

(١) من الحديث الخاص الذي أدلى به كمال جنبلاط للدكتور مصطفى الشكعة في كتابه إسلام بلا مذاهب ص٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) انظر الفصل الخامس من الباب الأول لهذه الرسالة في صلة إخوان الصفاء بالإسماعيلية.

(٣) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٤٥.

(٤) هو ابن محمد علي باشا الوالي الألباني الذي عينته الدولة العثمانية واليا على مصر.

(٥) مع أن الكتب التي كتبت عنهم قبل هذا الوقت، ذكرت شيئا من عقائدهم.

(٦) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية / د. محمد عبدالله عنان ص٢٠٣.

على الشخص أن يغاير ما بنفسه ويتظاهر بما لا يؤمن فهو درس في وجوب الكذب الصريح.

فالعقيدة الدرزية تأخذ السرية على أنها مسلك ونهج أساسي وأصل من عقيدتهم، وليست تقية في المعنى والقصد العادي الشائع وهو الخوف والاستتار من المكروه[1]. فهي كما يزعمون وقاية للحقيقة، وللمستضيئين بها، ولمن لا يستطيعون إدراكها[2].

يقول حمزة في إحدى رسائله: «إن أكبر الآثام وأعظمها إظهار سر الديانة وإظهار كتب الحكمة، والذي يظهر شيئا من ذلك يقتل حالا اتجاه الموحدين ولا أحد يرحمه... ويقول: عليكم أيها الإخوان الموحدون في دفن هذه الأسرار ولا يقرأها إلا الإمام على الموحدين في مكان خفي، ولا يجوز أن تظهر كتب الحكمة الذي كلها رسم ناسوت مولانا سبحانه، وإن وجد شيء من هذه الأسرار في يد كافر فيقطع إربا إربا، فأوصيكم أيها الموحدون بكنة الأسرار»[3].

ويقول أيضا في رسالة أخرى: «وصونوا الحكمة عن غير أهلها، ولا تمنعوها لمستحقها، فإن من منع الحكمة عن أهلها فقد دنس أمانته ودينه، ومن سلمها إلى غير أهلها فقد تغير في اتباع يقينه، فعليكم بحفظها وصيانتها عن غير أهلها والاستتار بالمألوف عند أهله»[4].

وفي شرح الميثاق (ميثاق ولي الزمان)، يعتبر - كاتبه - التستر والكتمان من صحة العقيدة، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يظهر أي شيء مخالف لعقيدته وينافق في سبيل ذلك فيقول: «حتى ولو أخر الإنسان بعض رسائل الحكمة بلا حفظ، ويحفظ ما يقيم المساترة، كان ذلك واجبا، لأن الإنسان إذا غرس بستان ولم يصنه بشيء لم يسلم أبدا، وإذا غرسه ونقص بعض غراسه، وجعل عوض ذلك النقص حاجزا يصونه كان ذلك أقرب لسلامته وأنتج فيه. وكذلك مذهب التوحيد ما يصح لأحد كاملا إلا بالاستتار بالمألوف هو: إن

---

(١) من توطئة بايزيد في كتاب أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص٦٥.

(٢) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص٩٧.

(٣) الرسالة الموسومة بحفظ الأسرار من مخطوطة لبعضهم قول وجيز في الجامعة الامريكية ببيروت.

(٤) رسالة التحذير والتنبيه.

كان المحق ساكنا بين أهل الظاهر التنزيلية[١] فليساتر بمذهبهم من صلاة وصيام وحج وتقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي ابن أبي طالب وغيره. وإن كان ساكنا بين التأويلية في بلاد غلب عليها الشيعة، فيتساتر بمذهب التأويل، ويتزايا بزيهم ويقدم علي بن أبي طلب على الصحابة كلهم، ويسب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة، ويكون موافقهم في دينهم بظاهر الأمر. وإن كان بين النصارى فيتزايا بزيهم وهذا الحال رحمة من الله على أهل التوحيد، أن يكون توحيده في قلوبهم، ويتزايوا بزي كل طائفة[٢] في ظاهرهم[٣]».

ويورد الدكتور عبد الرحمن بدوي شرحا آخر للميثاق[٤]، ومما جاء فيه عن هذا الموضوع ما يلي: «لا يحل لأحد يتمسك بدين التوحيد أن يهمل المساترة، بل يجب عليه أن يعرف موجبات الصلاة والوضوء ونواقضه، ويقرأ ما تيسر من القرآن قراءة صحيحة على شيخ، وإن كان ذا يسر فيزكي من ماله، ويعرف أمر الصيام ومفطراته، بحيث لا ينكشف عن الشرائع أمر دين التوحيد»[٥]. حتى إن صلاة الجنازة التي يصلونها على موتاهم هي كصلاة المسلمين وما تشبههم بالمسلمين إلا للاستتار أمام المسلمين عن حقيقتهم[٦].

وتعظيمهم للصدق، باعتباره من الفرائض السبع التي فرضها حمزة عليهم، لا يعني ذلك على غير الدروز، فالصدق لا يكون من الدرزي إلا لأخيه الدرزي، فلا يجوز له أن يصدق أهل الطوائف والأديان الأخرى حتى ولو كان ذلك في جريمة قتل، بل يجب عليه الكذب، يقول بهاء الدين في أحد رسائله: «وليس يلزمكم أيها الإخوان أن تسدقوا لسائر الأمة أهل الجهل والغمة والعمي والظلمة، وأن لا يلزمكم فيه شيئا لهم، وليس لأحد من

---

(١) يقصد المسلمين.

(٢) يلاحظ هنا مطاطية هذا التعبير، والذي يمكن أن يؤخذعلى تآويل كثيرة.

(٣) شرح الميثاق / محمد حسين - مخطوط في جامعة شيكاغو.

(٤) نقلا عن مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٣٦ عربي.

(٥) مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ٢ص٦٨٨.

(٦) من رد على سؤال في رسالة في معرفة سر ديانة الدروز / مخطوط في جامعة بيل.

الموحدين فسحة من الكذب لإخوانه إلا أن يكون هناك ضد[1] حاضر لا يمكن كشف الأمور إليه، ولا شرحها بين يديه، وإن أمكن الصمت فهو أحسن، وإن لم يكن فلا بأس أن يحرف القول بحضرته أعني الضد، ويجب عليه أن يرجع يسدق الحديث لإخوانه بعد خلوهم من الشيطان. ولا بأس بالسدق فيما لا يضر عند الأضداد لأنه يرفع... ومثل أن يكون أحدكم قد قتل رجلا من عالم السواد، فإذا سألوه عن ذلك جاز أن لا يسدقهم وألا يحققوا عليه القتل بإقراره... وما أشبه ذلك مثل أن يكون قد أخذ لأحدهم شيئا أو غصبه على ريع أو مال، أو كان للضد عنده دَيْنٌ بغير وثيقة أو وديعة أو بينه، وكان معسرا عن وفائه غير واصل إلى رضائه، يجوز له الإنكار وقلة السدق عند الإعسار، وخيفة من ثبوت البينة عليه»[2].

أما التظاهر بإنكار ألوهية الحاكم، فهو أيضا من المساترة، لأن المقر بألوهية الحاكم، أمر بالمساترة عند الشرائع الأخرى، فالإنكار لا يكون إلا باللسان فقط[3]. وكذلك فإن التظاهر بسبِّ ولعن حمزة لا مانع منه عند الدروز[4].

مما تقدم يتضح أن التستر والكتمان نهج أساسي من أصول عقيدتهم، فهم دوما مع القوي والمتمكن، يتظاهرون بالدين الغالب في أي قطر، ومصداق ذلك ما نراه منهم في فلسطين المحتلة بإخلاصهم التام لليهود هناك.

وهم بالاضافة إلى ذلك إذا تمكنوا فإنهم يستحلون قتل من خالفهم، وسلب أموالهم وغشهم بما استطاعوا[5].

وإغلاق باب القبول في العقيدة الدرزية كان أيضا من التدابير السرية التي أرادها حمزة لدينه[6]، ليبقي المجتمع الدرزي مغلقا على نفسه لا يؤمن إلا بحمزة وأذنابه.

---

(١) المقصود بـ (الضد) غير الدرزي.

(٢) رسالة الجزء الأول من السبعة أجزاء.

(٣) شرح الميثاق / محمد حسين – مخطوط في جامعة شيكاغو.

(٤) منشور الغيبة لبهاء الدين.

(٥) مخطوطة (حسر اللثام عن الإسلام) رزق حسونة الحلبي – في الجامعة اليسوعية ببيروت.

(٦) انظر رسالة في معرفة سر ديانة الدروز / أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم ص١٥٢.

وبسبب هذا الانغلاق التام على أنفسهم، وإظهارهم عكس ما يبطنون، فهم لا يقبلون مطلقا التحدث عن دينهم واعتقادهم، وبالتالي لا يسمحون للغير أن يبحث في حقيقة عقيدتهم، وإذا حدث وتم هذا فهم لا يناقشون هؤلاء مناقشة موضوعية، بل يحاولون أن يلصقوا به الصفات القبيحة ويشتمونه بأقدح الشتائم، وهذا ما حدث مع الشيخ زيد بن عبد العزيز الفياض عندما بدأ بكتابة حلقات عن حقيقة مذهبهم في مجلتي المنهل وراية الإسلام[(١)] اللتين كانتا تصدران في جدة والرياض ردا على فتوى - سياسية - من شيخ الأزهر باعتبارهم مسلمين[(٢)].

فقامت حينئذ ضجة شديدة بين الدروز وقدم كبارهم الاحتجاج، وأصدر شيخ العقل في لبنان فتوى ضده، وردوا على الشيخ الفياض بأقذع الألفاظ والشتائم في عدة صحف ومنها صحيفة الصفاء البيروتية، والتي كان مدير تحريرها شخص اسمه محمد آل ناصر الدين، حيث لم يستطيعوا أن ينفوا هذه الحقائق عن دينهم، فما كان منهم إلا أن ناقشوه بالسب والشتم ليستروا بذلك على الحقيقة المرة فاتهموه بالإلحاد والزندقة والصهينة وغير ذلك من الاتهامات الموجودة في قاموسهم[(٣)].

---

(١) انظر المنهل جـ٣ مجلد ٢٠ شهر ربيع ثاني ١٣٧٩هـ، وراية الإسلام الأعداد الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر من السنة الأولى ١٣٨٠هـ، والعددان الأول والثاني من السنة الثانية ١٣٨١ هـ.

(٢) كان شيخ الأزهر قد أعلن عام ١٣٧٩هـ الموافق ١٩٥٩م أن الدروز موحدون مسلمون مؤمنون؟!
فقد نقلت جريدة السياسة اللبنانية بلسان صاحبها أسعد المقدم في العدد ٨١٠ تاريخ ٢٦ محرم ١٣٧٩هـ الموافق آب ١٩٥٩م ما يلي: بعد أن تحدث فضيلة شيخ الأزهر عن اقتراح تقدم به لسيادة الرئيس جمال عبد الناصر بإنشاء مجمع علمي أكاديمي يضم علماء الشيعة والسنة يلتقون فيه لتحقيق الوحدة المنشودة. سأله أسعد المقدم: هل ستدعون الدروز؟ إلى المجمع المقترح.
أجاب: لقد أرسلنا من الأزهر بعض العلماء كي يتعرفوا أكثر على المذهب الدرزي وجاءت التقارير الأولى تبشر بالخير.
فالدروز موحدون مسلمون؟! نقلا عن مجلة المنهل الصادرة في جدة جـ٣ مجلد ٢٠ ربيع الثاني ١٣٧٩هـ.

(٣) انظر صحيفة الصفاء البيروتية العدد رقم ٣١٨٥ وتاريخها ٣١ كانون الثاني ١٩٦١م.

وكان أن قام الأستاذ عبدالله النجار - وهو من طائفة الدروز - بعد هذه الحادثة بسنوات قليلة بإصدار كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) حاول أن يبين حقيقة دينه، فقامت ضجة أشد من الأولى على هذا الكتاب وصاحبه، بسبب انتمائه إلى الدرزية، ولهذا فقد حاكمه مشايخ الدروز لفضحه أسرار دينه، وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها، وصدر بأمر من مشيخة العقل كتاب ألفه الدكتور سامي مكارم وقدم له الأستاذ كمال جنبلاط يرد فيه على كتاب الأستاذ النجار[١].

ويظهر أن الدروز قد غيروا هذه المرة من استراتيجيتهم فعملوا بشيء من الموضوعية، ولكن للأسف كانت هذه الموضوعية سترا يتسترون به على ما يريدون القيام به، حيث يقال إنهم استغلوا أحداث لبنان الأخيرة وقاموا باغتيال الأستاذ النجار.

وللحقيقة أذكر أن هذه الأمور مجتمعة قد حدثت معي شخصيا، حينما تم طبع ونشر كتابي (عقيدة الدروز - عرض ونقض) وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٠هـ، حيث ظهر وبشكل واضح طريقة التعامل القذر الذي يتم مع كل من يحاول أن يبحث عن حقيقتهم، فقد توالت علي المكالمات الهاتفية التي تهدد بالقتل، وجاءعلى أثرها الكثير من الرسائل، والتي تتوعدني بالويل والثبور إن لم أعتذر عن كتابي وما ورد فيه ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على جمع ما يستطيعون من نسخ الكتاب المذكور وإحراقه[٢]، وكذلك عملوا على مطالبة المسؤولين في كثير من البلاد العربية بمنع الكتاب، فكان أن منع في عدد من البلاد العربية؟!

هذه الأمثلة تدل دلالة ساطعة على خطورة موضوع التستر في عقيدتهم، وعن كيفية تعاملهم مع من يكشف عن حقيقة دينهم.

ومما يذكر في هذا المجال أن أقلاما عديدة من الدروز طالبوا بشدة مشيخة عقل الدروز بالإفراج والإعلان عن حقيقة العقيدة الدرزية، ولكن مشيخة العقل أصمت أذنيها عن

---

(١) انظر كتاب أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية).

(٢) وهذا ما تم أيضا مع كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي (مذاهب الإسلاميين).

كل هذه الأصوات وخاصة أصوات الدروز في المهجر وفي مقدمتهم الدكتور نجيب العسراوي الذي ما فتىء يطالب بذلك، وعندما يئس من ذلك أصدر كتابا عن هذه العقائد باللغة البرتغالية حتى لا يقرأه كل الناس.

وقد ذكر هذا الموضوع بتفصيل صاحب مذكرة (أيها الدرزي عودة إلى عرينك)، ومما قاله: «الدكتور نجيب العسراوي رئيس الرابطة الدرزية بالبرازيل استشار الأمير شكيب أرسلان عام ١٩٢٧م بشأن الإفراج عن العقائد الدرزية المدفونة بالرسائل فأجابه: بعدها عجرا؟!

وكأن العسراوي وأمثاله كعدنان بشير رئيس الرابطة الدرزية في استراليا وجدوا تلك العجرا أصبحت سائرة في طريق النضوج، فأخذوا يكاتبون مشيخة العقل طالبين شيئا يعرضونه على أطفالهم الذين يعرفون الدرزية بـ (ليست إسلامية ولا مسيحية ولا يهودية)، وشعر أحد لامعي المهاجرين في البرازيل وعدنان بشير رشيد رئيس الرابطة الدرزية في استراليا عاقبة هذا البعد وألحا على مشيخة العقل طالبين تأليف ما يستطيع منه الدروز فهم دينهم، ولكن هذه اعتصمت بالمواعيد، فاضطر العسراوي أن يصدر كتابه (الدرزية) باللغة البرتغالية، ومنه عرف الناس شيئا.

جعلت مشيخة العقل أصابعها في أذانها واستهانت بأصوات المنادين بوجوب التأليف حول الدرزية، ولم تعترف بجهود العسراوي رغم أنه سد ثغرة كانت هي الأجدر بسدادها، وبعد أن أصدر عبدالله النجار كتابه تزحزحت وكلفت سامي مكارم بتأليف (أضواء على مسلك التوحيد) بعد اعتذار عجاج نويهض.

ألف مكارم وجنبلاط، ولكن لا ليسدا فراغا بل ليردوا على عبدالله النجار في كتابه المحجوز الذي سد فراغا أو بعض الفراغ، وباركا الكتمان والسرية والتمسا عذرا للدرزية، ورأياها نابعة عن العقل الأرفع الذي لا يحتمل الخطأ... أما سواها من أهل المذاهب والأديان فمن العقل الطبيعي المعرض للخطأ»[1].

---

(١) أيها الدرزي عودة إلى عرينك ص١٢٣.

ومع أن جنبلاط في مقدمته لكتاب مكارم يزعم أنه يريد أن يتجنب ويتفادى عزلة فكرية وفاصلاً ومعنوياً بين مشايخ الدروز ومثقفيهم، بل ويتساءل: كيف يتسنى لمن لا يعرف شيئا عن مبادئ دينه أن يسترشد به أو أن ينطبع بقالبه[1] إلا أن جنبلاط يسارع ويلتمس لتلك السرية التبرير من فلسفة اليونان والأديان الوثنية الأخرى[2]، وما هذا التناقض إلا طريق من طرقهم الملتوية المؤدية إلى لا شيء، ومزيد من النفاق.

٨- عقيدتهم في الأنبياء:

من العقائد الرئيسية التي ركز عليها حمزة وأتباعه في رسائلهم، إنكار ومحاربة جميع الأنبياء والرسل وشرائعهم، لأنهم كانوا يدعون إلى إله لم يظهر، وما استطاعوا أن يعرفوا الإله الظاهر - أي الحاكم وظهوراته -.

فالدروز بناء على هذا الزعم ينكرون جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وينسبونهم إلى الجهل، وذلك أنهم كانوا يشيرون إلى توحيد العدم، وما عرفوا المولى - أي الحاكم -.[3].

وعلى هذا فإن حمزة يرى وجوب محاربة جميع الأنبياء، أصحاب الشرائع الظاهرة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ووجوب البراءة من شرائعهم وعقائدهم الفاسدة وأديانهم المضللة، إذ هي - في زعمه - النار والهاوية.

«فالناطق والأساس[4] عندهم هما إبليس والشيطان، فالأول - أي إبليس - ظهر في جسم آدم ثم انتقل إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، ثم إلى محمد، ثم إلى سعيد. وأما الثاني - أي الشيطان - فظهر أولا في جسم شيث بن أدم، ثم في سام، ثم في

---

(١) أضواء على مسلك التوحيد / د. سامي مكارم – مقدمة جنبلاط ص٩، ١٠.

(٢) المصدر السابق ص١١.

(٣) خطوط الشام / محمد كرد علي جـ٦ ص٢٦٤.

(٤) هو مصطلح شيعي، فالناطق يقصدون به كل نبي، والأساس الوصي.

إسماعيل، ثم في يشوع بن نون بعدها هارون، ثم في شمعون الصفا، ثم في علي بن أبي طالب، ثم في قداح»[١].

ولذلك فهم يقذفون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسماء وألفاظ فاحشة، كالقبل والدبر والغائط والبول، ولا يتركون مجالسا من التشنيع عليهم، وأكثر كراهيتهم متجهة نحو المسلمين[٢].

لهذا فإن رسائلهم مليئة بالكلام الفاحش حول رسول الله ﷺ، فيقولون عنه عليه الصلاة والسلام وعن زوجاته: بأنهم حروف الكذب، وهي ستة وعشرون وهم: دليل إبليس وأولاده وزوجاته، وهم: محمد وعلي وأولاده الاثنا عشر[٣]. بل ويعتبرون معرفة هذه الأشياء واجبا وفرضا عليهم، وهذا ما يقوله شارح ميثاقهم: ويعرف تكملة حروف الكذب الستة وعشرين معرفة عددا، لا معرفة فلان ابن فلان، بل يعرف أن محمد بن عبدالله هو إبليس اللعين، وأن علي بن أبي طالب هو وزوجته، اثنا عشر حجة ظاهرة، ولعلي بن أبي طالب اثنا عشر حجة باطنة كملت الستة وعشرين حروف الكذب... ويعلم أن كل ما في الخلق من المعاصي والعقائد الفاسدة والفواحش الظاهرة والباطنة هي منهم وهم ينابيعها وأصلها ومركزها[٤].

حتى إنهم يزعمون أن الرسول عليه الصلاة والسلام طمس الرسالة ولم يبلغها وهذا ما ورد في إحدى رسائلهم إذ تقول: فما بلغها كما أمر الله تعالى، بل طمس معالمها بالظلم والإبلاس، وجميع أصحاب الشرع فعلى هذا السنن يجرون[٥].

---

(١) مخطوطة (في تقسيم جبل لبنان) / الجامعة الامريكية ببيروت - ومخطوطة (لبعضهم قول وجيز) الجامعة الامريكية ببيروت.

(٢) مخطوطة (في تقسيم جبل لبنان) السابق ذكرها.

(٣) مخطوطة (ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به) / الجامعة الأمريكية ببيروت.

(٤) شرح الميثاق / محمد حسين - مخطوطة في جامعة شيكاغو.

(٥) الرسالة الموسومة بالإسرائيلية.

ويصف أحد كتبهم المقدسة رسول الله ﷺ بأنه كان كثير العتو والظلم والفساد(١).

ويزعمون أيضا: أن القرآن قد أوحي حقيقة إلى سلمان الفارسي - أي حمزة بن علي، لأنهم يعتقدون أن حمزة ظهر بالتناسخ بعدة ظهورات منها بصورة سلمان الفارسي - وأنه كلامه، وأن محمدا أخذه وتلقاه عنه، حتى زعموا بأن خطاب لقمان الذي خاطب به ولده: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(٢) هو خطاب سلمان لمحمد(٣).

بل ويصل الأمر بهم لوصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالكافر المشرك، ولهذا فهم ينكرون نبوته لأنه مشرك ابن مشرك(٤).

حتى إن الحاكم عندما يظهر ويتجلى في الركن اليماني من الكعبة، لا يأمر إلا بقتل اثنين فقط، يأمر حمزة بقتلهما وهما: محمد ﷺ، وعلي بن أبي طالب، ثم يرسل الصواعق على الكعبة فتدك دكا(٥).

أما عن صحابة رسول الله ﷺ فيطلقون عليهم أشنع الأوصاف القبيحة والشتائم، فيصفون أبا بكر وعمر بأنهما الفحشاء والمنكر، ويؤولون الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾(٦) بأن المراد بها الخلفاء الراشدين الأربعة، لأنهم من عمل محمد بن عبدالله(٧).

وهم لا يعتبرون أن آدم عليه السلام أول الخلق وأبو البشر، ولكنهم يزعمون أنه كان أكثر من آدم في ذلك الدور وهم: آدم الصفا الكلي، وآدم العاصي الجزوى، وآدم الناسي

---

(١) كتاب النقط والداوئر ص٩٥.

(٢) سورة لقمان آية ١٧.

(٣) خطط الشام / محمد كرد علي جـ٦ ص٢٦٥، ٢٦٦.

(٤) مخطوطة (في تقسيم جبل لبنان) – والرسالة المستقيمة لحمزة.

(٥) مخطوطة (حسر اللثام عن الإسلام) / رزق حسونة الحلبي – الجامعة اليسوعية / بيروت.

(٦) سورة المائدة آية ٩٠.

(٧) مخطوطة في تقسيم جبل لبنان.

الجرماني، وينكرون على هذا الأساس أن يكون آدم قد خلق من تراب، بل من تزاوج الذكر بالأنثى، لأن الله لا يخلق خليفته من أهون الأشياء[1].

وحواء عندهم ليست زوجة آدم، وإنما هي حجته وأحد دعاته، ولقبت بهذا الاسم لأنها احتوت جميع المؤمنين[2].

أما موقفهم من موسى عليه السلام، فهم ينكرون عليه أن يكون (كليم الله) أو أنه كلمه من خلال الشجر والجبل، لأن هذا في زعمهم لا يليق بالله[3].

وكلمة (الضد) عندهم لها مدلول معين، وخاصة أنهم يكررونها في رسائلهم كثيرا، والمقصود بها أولا وآخرا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم، وقد يطلقونها بصورة صريحة على النبي عليه الصلاة وإسلام والمسلمين بشكل عام.

كذلك كلمة (عجل) لها مدلول خاص في ذكرهم لها، وهذا ما يفسره صاحب مذكرة - أيها الدرزي عودة إلى عرينك - بقوله: «إن هذه الكلمة تحمل معنى لا يدركه إلا الراسخون في الحمزاوية، إذ هي مشتقة من الاستعجال» ولذا حاول (العجل) أن يشبه نفسه بحمزة، أي حاول رسول الله محمد ﷺ أن يأتي بشريعة كشريعة حمزة... ويضيف قائلا: ولا ريب أن الحمزوى العميق يدرك المقصود من هذه الكتابات، إذ لا يخفى أن حمزة سار بالنظر لسيدنا محمد ﷺ وسيدنا علي رضي الله عنه تدريجيا، إذ رآهما أولا مستخدمين عند الحاكم دالين على مدلول هذا المقصود، ثم حرمهما من هذه المنزلة (منزلة العبودية للحاكم)... فدعا محمدا (ضدا وعجلا)، وسلب من علي درجة الأساس ودعاه اللعين... بل كثيرا ما أردف تلاميذه هاتين الكلمتين أو (لعنة الله) أو (أبعده الله من الرحمة) كما هو في كتاب النقط والدوائر»[4].

---

(١) رسالة السيرة المستقيمة لحمزة.

(٢) رسالة السيرة المستقيمة.

(٣) راجع مبحث ألوهية الحاكم من هذا الباب.

(٤) أيها الدرزي عودة إلى عرينك / ص٧٧، ٧٨.

بهذه النظرة الشريرة ينظرون إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، نظرة الحقد والكراهية، ويخصون بها نبي الإسلام وخاتم الأنبياء محمد ﷺ، لأن رايته التي رفعها حطمت أحلام دعاة الإلحاد والوثنية، فلم يجدوا مفراً من الاحتماء تحت رايته ظاهرا ليتحينوا الفرص في النيل من هذا الدين الرباني، فكان أن جاء حمزة سليل أولئك الحاقدين على الإسلام والمسلمين محاولا أن يخرق ذلك الجدار الإيماني الموجود في المجتمع المسلم، فجاء بتلك السخافات والترهات الدالة على الحقد والكراهية للإسلام ولنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام.

٩- شريعتهم في الأحوال الشخصية:

الشريعة الدرزية خليط من الأديان السماوية وخاصة الإسلام، وكذلك الفلسفة اليونانية، بالاضافة إلى الأديان الوثنية الأخرى كالبوذية والفرعونية[١]. ورغم ذلك كثيرا من تشريعات الدروز في الأحوال الشخصية مأخوذ من الشريعة الإسلامية مع بعض التحريفات التي ابتدعها حمزة.

وطريقة الطلاق عندهم، ينبغي أن تتم حسب ما يكون عليه الحال بين الزوجين، فإذا كانت الزوجة خارجة عن طاعة زوجها وترغب في الطلاق، فللزوج من جميع ما تملكه الزوجة النصف، وذلك إذا شهد الشهود بتعديها عليه وانصافه لها. أما إذا شهد الشهود بظلم الرجل لزوجته، أخذت كل مالها وليس له أي شيء منه. وإن طلب الرجل طلاق زوجته بلا أي تبرير أو ذنب اقترفته فلها النصف من كل ما يملكه[٢].

هذا وإذا طلق الدرزي زوجته فلا يجوز له أن يتزوجها مرة أخرى، سواء بمحلل أو غير محلل، بطلاق رجعي أو غير رجعي[٣].

---

(١) من حديث خاص لكمال جنبلاط للدكتور مصطفى الشكعة في كتابه إسلام بلا مذاهب ص٢٨٨.

(٢) رسالة شرط الإمام صاحب الكشف.

(٣) مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ٢ص٦٦١.

ولا يجوز عنده زواج الدرزية من غير الدرزي، ولا زواج الدرزي من غير الدرزية، فإذا حدث زواج من هذا القبيل فإنه يكون باطلا[١]، كما لا يجوز عندهم تعدد الزوجات، والتزوج بأكثر من واحدة، فإذا تم ذلك فإنهم لا يعترفون به[٢].

والوصية عندهم تجوز بجميع المال لوارث ولغير وارث، فللدرزي أن يوصي قبل موته بأملاكه لمن يشاء، ولكن بشرط أن تكون الوصية بالمال الذي اكتسبه بسعيه هو نفسه، أما إذا كان قد ورثه فلأولاده أن يطلبوا القسمة إن كان قد ورث ما في يده عن آبائه، لأن ذلك - ما للبيت - تستوي فيه الأصول والفروع[٣].

ولهذا فإن المصحف المنفرد بذاته يطالب الموسرين من الدروز أن يوصوا بجزء من أموالهم لعقالهم ومساكينهم الذين يقومون على شؤون دينهم ويصونونه[٤].

١٠- موقفهم من الأديان والفرق الأخرى:

نظرة الدروز إلى الأديان والفرق الأخرى تتلخص في عدة رسائل تبين موقفهم من اليهود والنصارى وطائفة باطنية أخرى هي النصيرية.

أما موقف الدروز من اليهود والنصارى، فقد سبق أن ذكرنا موقف الحاكم بأمر الله منهم[٥]، وكيف عمل على اضطهادهم وهدم كنائسهم وبيعهم في أول عهده، ثم تحول هذا الاضطهاد إلى ود بعد ظهور دعوة تأليهه على يد حمزة وأتباعه.

والملاحظ أن موقفهم النهائي من اليهود، لم يتبلور إلا على يد بهاء الدين في أحد رسائله المسماة (الرسالة الموسومة بالاسرائيلية الدامغة لأهل اللدود والجحود أعني الكفرة من أهل شريعة اليهود).

---

(١) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٢٩٣.

(٢) أصل الموحدين الدروز / أمين طليع ص١٣٠.

(٣) مخطوطة في تقسيم جبل لبنان.

(٤) المصحف المنفرد بذاته / عرف الوصية ص١٢٦.

(٥) انظر الفصل الأول من هذا الباب.

وفي هذه الرسالة يحاول بهاء الدين أن يطالب اليهود بالإيمان بالدين الدرزي الذي ظهر على يد حمزة بن علي بصفته المسيح الذي بشر به موسى عليه السلام. ولذلك فإنه يأتي بنصوص من التوراة ليستدل على قوله هذا، وليقرر بعد ذلك أن اليهود يترقبون ذلك المسيح الذي سيكون الفرج على يديه، لأن الصفات الموجودة في التوراة لا تنطبق إلا على المسيح الحق حمزة بن علي، وعلى هذا الأساس لا بد من إيمان اليهودية وإلا بقوا في ضلالهم وسكرتهم.

هذا هو الموقف الديني للدروز اتجاه اليهود، ولكن هذا الموقف في الوقت الحاضر انقلب بسبب تغير المصالح ومراكز القوى في العالم، فقد أصبح الود والتأييد أمرا ظاهرا بين الطرفين، مما حدا بالكثير من أبناء الدروز إلى الالتحاق بجيش الدفاع الاسرائيلي؟!

ومن منطلق إيمانهم بأن المسيح الحق هو حمزة بن علي، يظهر موقفهم من النصارى، فالدروز يعتقدون أن المسيح الذي صلب، هو المسيح الكذاب هو الذي ولد من مريم ويصفونه بأنه ابن يوسف النجار، ولهذا فهم يزعمون أن حمزة كان يعلم المسيح بن يوسف الإنجيل، ولما خالفه ألقى في قلوب اليهود بغضه ولهذا صلب[١].

ويمكن تلخيص موقف الدروز الديني من النصارى من بعض الرسائل التي تتحدث عن ذلك وهي:

١ - رسالة خبر اليهود والنصارى.

٢ - الرسالة الموسومة بالمسيحية، وأم القلائد النسكية، وقامعة العقائد الشركية.

٣ - الرسالة الموسومة بالقسطنطينية، المنفذة إلى قسطنطين متملك النصرانية.

٤ - الرسالة الموسومة بالتعقب والاقتفاء لأداء ما بقي علينا من هدم شريعة النصارى الفسقة الأضداد.

والرسالة الأولى هي التي تحدد الموقف الأول والمبدئي الذي وقفه حمزه اتجاه اليهودية والنصرانية، والذي حاول فيه أن يتودد إلى أتباع هاتين الملتين عن طريق تلفيق قصة ليس لها

---

(١) رسالة في معرفة ديانة الدروز على طريقة السؤال والجواب.

أي أساس تاريخي، وتتلخص في أن زعماء اليهود النصارى قد اجتمعوا بالحاكم وناقشوه في أمور الدين، فأطلعهم وبرهن لهم أن النبي الذي كانوا ينتظرونه هو حمزة بن علي ولهذا فيجب عليهم الإيمان به، وقد أثبت الدكتور عبد الرحمن بدوي كذب هذه الرواية تاريخيا وموضوعيا وبين أنها من أوهام حمزة وخرافاته[1].

وقد حاول الدروز بعد ذلك على يد بهاء الدين التودد للنصارى عن طريق الدولة الرومانية، وقد أرسل بهاء الدين في سبيل هذه المحاولة رسالة إلى قسطنطين الثامن إمبراطور الروم اسمها (القسطنطينية) حاول فيها أن يقرب بين دين الدروز والعقائد النصرانية ليصل في النهاية إلى القول بأن الفارقليط الذي أعلن المسيح قدومه هو نفسه حمزة بن علي.

ولكن يبدو أن محاولة التقريب هذه باءة بالفشل، ونستدل على ذلك من رسالتين لبهاء الدين هما: (الموسومة بالمسيحية)، (والموسومة بالتعقب والاقتفاء...) واللتان تظهران أن العلاقات بين الطرفين قد وصلت إلى طريق مسدود، حيث يوجه فيهما بهاء الدين أقسى الألفاظ وأفحشها للمسيحيين ولامبراطور الروم، ويتهمه فيهما باضطهاد أتباع ديانته.

وعلى مبدأ تقلب المصالح، فقد تغير موقف الدروز في القرنين الماضيين من النصارى، وخاصة في لبنان رغم القتال الذي حل بينهم هناك حينما اختلفت المصالح والأهواء، يقول الكاتب الدرزي يوسف أبو شقرا عن هذا الود: «لم يكن فيما مضى ما بين الدروز والنصارى، ما كان بينهم منذ سنة ١٨٠٠م من الشقاق والنفور، بل كانت الطائفتان محبة إحداهما بالأخرى، آنسة إليها، وبعبارة أخرى كانت الجماعتان كجماعة واحدة تعملان على وتيرة واحدة»[2].

---

(١) انظر مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوي جـ٢ ص٧٧٢، ٧٧٣.

(٢) الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية / يوسف خطار أبو شقرا – ص٢٥.

وتقول المستشرقة (بول هنري بوردو): «وأعجبت بتساهل هذا الشعب الدرزي وإرساله صغاره إلى المدارس المارونية، وصلته في الكنائس والجوامع على السواء، حتى يلتبس على فلاحي لبنان الإجابة لو سئلوا: هل الدروز نصارى أم مسلمون؟!»[١].

أما الدكتور فيليب حتي فيصف علاقة الدروز بالنصارى بما يلي:

«وقد دهش فولتي وهو كونت وعالم فرنسي من شدة الشبه بين الدروز والموارنة من (المسيحيين) في أساليب العيش، وفي نظام الحكم، وفي اللهجة وفي العادات وفي الأداب العامة فإن عائلات درزية ومارونية تعيش جنبا إلى جنب متصافية متوادة، وأحيانا يصطحب الموارنة جيرانهم الدروز إلى الكنائس. ويؤمن الدروز بفعل الماء المقدس الذي يصلي عليه الكاهن وأحيانا إذا ألح المبشر في تبشير الدرزي فقد يقبل الدرزي سر المعمودية. وقد لاحظ ماريتي الراهب الإيطالي الذي زار البلاد سنة ١٧٦٠م قبل مجيء فولتي بقليل: أن الدروز يظهرون خالص الود والاحترام للنصارى ويحترمون دينهم، والدرزي يصلي في كنيسة للروم الأرثوذكسي كما يصلي في مسجد تركي، ولا يزال الدروز إلى يومنا هذا يشتركون مع جيرانهم النصارى في كثير من الاحتفالات والأعياد، ولهذا مغزاه العميق. ويقول فريدرك بلس: إن الدروز لكي يتخلصوا من الخدمة العسكرية التركية كانوا يعلنون أنهم بروتستانت، ويؤكد ضابط فرنسي كان مقر خدمته حوران: أن العائلات الدرزية الأرستقراطية إذا فقدت طفلا أو أكثر يعمدون الطفل الذي يولد بعده، وقد عمد الابن الثاني لسلطان الأطرش سنة ١٩٢٤م، وقد تكون ممارسة هذه التقاليد نوعا من التقية، وليس بمستغرب أن يتبرع درزي يقطن قرية أكثر سكانها من النصارى بالمال لكنيسة القرية»[٢].

---

(١) أميرة بابلية لدى الدروز / بول هنري بوردو ص٧٤.

(٢) لبنان في التاريخ / د. فيليب حتى ص٤٩٥، ٤٩٦.

ومع أن النصيرية من الطوائف الباطنية، إلا أن التنافس بينهما كان على أشده في كثير من الحالات وخاصة بسبب الاختلاف الرئيسي في العقيدة، فالدروز يؤلهون الحاكم، بينما النصيرية تؤله علي بين أبي طالب.

ويزعم الدروز أن النصيرية فرقة انفصلت عن الدروز[1]، وهذا الزعم ليس له أي أساس تاريخي، فالنصيرية فرقة ظهرت قبل الدروز بفترة طويلة تزيد على قرن من الزمان، وانفصلت أيضا عن الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، بينما الدروز فرقة انفصلت عن الإسماعيلية.

وبسبب التنافس الذي حصل بينهما، بعد التجاء الدروز إلى بلاد الشام، ووجود النصيرية قبل ذلك هناك، فقد ألف حمزة رسالة يحصن بها أتباعه من النصيريين وأسماها بـ (الرسالة الدامغة للفاسق في الرد على النصيري لعنه المولى في كل كور ودور)، يرد بها على النصيرية في كثير من اعتقاداتها، ومنها موضوع ألوهية علي، وكذلك قضية التناسخ التي يختلفون بها حيث تقول النصيرية بإمكانية التناسخ إلى حيوان وجماد ونبات، ثم يأتي بعد ذلك إلى موضوع إيمان النصيرية بألا يمنع النصيري أخاه في زوجته ومحارمه، وكذلك وجوب أن لا تمنع النصيرية أخاها في فرجها، فيرد حمزة على هذا الاعتقاد، ويبين بعد ذلك أن الطريق الصحيح هو الإيمان بالحاكم ونبيه حمزة لأنه طريق الخلاص للنصيريين؟!.

وعلاقة الدروز بالإسماعيلية ليست واضحة كل الوضوح، رغم أن الدروز فرقة انفصلت عن الإسماعيلية، إلا أن بعض كتابهم في الوقت الحاضر ينفي هذا الارتباط كليا، مع أن كل ممعن في عقائدهم يجد التشابه الكبير بينهم وبين الإسماعيلية، لكن الحساسية القديمة الموجودة منذ ظهور حمزة لا تزال موجودة إلى الآن، ولهذا فإن الكره والحقد قائم بينهم لا يدارونه إلا عندما تلتقي المصالح مع بعضها البعض في بعض الأحيان فلا يجدون مفرا من التفاهم فيما بينهم ليقفوا أمام أعدائهم؟!

---

(١) رسالة في معرفة سر ديانة الدروز على طريقة السؤال والجواب.

١١- رسائلهم وكتبهم المقدسة :

تعرف رسائل حمزة التميمي وبهاء الدين عند الدروز بـ (رسائل الحكمة) أو (كتاب الحكمة)، وهذه الرسائل هي المصدر الرئيسي لمذهب الدروز بالإضافة إلى الكتب الأخرى الشارحة لها، وتتألف هذه الرسائل من (١١١) رسالة، مقسمة إلى أربعة مجلدات. والملاحظ في هذه الرسائل أنها تتوالى بصورة مطردة في جميع المخطوطات المعروفة لهذه الرسائل قديمها وحديثها، ومثل هذا الاضطراد لا يمكن أن يكون قد تم عرضاً، وهذا يدل على أن تقنينها في هذه الصورة قد تم في وقت لاحق[١].

ومن الملاحظ أيضا في هذه الرسائل، أن بعضها يحتوي على سجلات صدرت في عصر الحاكم، وبعضها يحتوي على رسائل بعث بها حمزة بن علي إلى أشخاص كانوا يحتلون مكانة في الدولة مثل ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس، والقاضي أحمد بن العوام، أو رسائل بعث بها لدعاة الدعوة، ومنها ما كتبه حمزة عن العقيدة نفسها، ثم نجد بعد ذلك رسائل لمحمد بن إسماعيل التميمي، ورسائل لبهاء الدين[٢].

ومن الملاحظات كذلك على هذه الرسائل، أن أكثر رسائل حمزة كتبت في سنة غيابه عام ٤٠٩هـ، وهي السنة التي أراد بها أن يقوي مذهبه بعد ثورة الناس عليه، ثم إن غالبية هذه الرسائل كتبت من قبل بهاء الدين، الذي قاد المذهب بعد اختفاء حمزة عام ٤١١هـ.

وللدروز مصحف يسمونه (المصحف المنفرد بذاته)، وقد صدر حديثاً، ويعتقد أن كاتبه هو الاستاذ كمال جنبلاط الزعيم اللبناني المعروف والذي أغتيل قبل عدة سنوات، ويقال إنه تعاون في وضعه ووضع رسائل أخرى مع عاطف العجمي وبخط الشيخ عبد الخالق أبي صالح[٣].

ويتألف هذا المصحف من أربع وأربعين عرفاً، يحاكي فيه كاتبه. القرآن الكريم بترديد ما في رسائل الدروز القديمة، فيحاول أن يقلد أسلوب القرآن ويقتبس منه تارة ويضمن

---

(١) مذاهب الإسلاميين / د. عبد الرحمن بدوى جـ٢ ص٥١٤.

(٢) طائفة الدروز / محمد كامل حسين ص٩٢.

(٣) انظر (أيها الدرزي عودة إلى عرينك) ص٤٩.

كلامه بعض آيات القرآن الكريم تارة أخرى، وخاصة آيات النعيم والعذاب، حيث جعلها خاصة بمن يعبد الإله المعبود عندهم - الحاكم - فمن عبده فله النعيم، ومن كفر به فقد حق عليه العذاب، ويعلق أحد كبارهم (عاطف العجمي) على هذا المصحف بقوله: «يكاد يفوق القرآن بلاغة[1]».

ومن الكتب التي وضعها جنبلاط مع العجمي هذا أيضاً: رسائل بعنوان (الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم البسيط والكثيف) وهي تشبه المصحف المنفرد بذاته ويتكون من خمسة رسائل.

وهناك كتب أخرى تهتم بشرح عقائد الدروز من خلال رسائل حمزة وغيره منها (شرح ميثاق ولي الزمان) من تأليف محمد حسين، ويدل هذا الكتاب على كثير من اعتقادات الدروز وبشكل أوضح من الرسائل.

ومنها كذلك كتاب (النقط والدوائر) والذي يتحدث عن الكثير من العقائد الدرزية، وقد طبع في البرازيل سنة ١٩٢٠م، ويقال إن مؤلفه هو الشيخ عبد الغفار تقي الدين البعقليني المقتول سنة ٩٠٠هـ[2].

وهناك أيضا كتاب مهم من كتب الشرح بعنوان (ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به ويسلك بموجبه)، وهو عبارة عن تفصيل لكثير من عقائد الدروز.

١٢- حكم الإسلام فيهم وفي معاملتهم:

إن النتيجة التي يخرج بها الباحث في المذهب الدرزي، أن هذا المذهب لا صلة له بالإسلام والمسلمين، وكل مزاعم أتباع هذا المذهب عن إسلاميتهم إنما هو طريق من طرق السرية والنفاق أمام المسلمين.

---

(١) المصدر السابق ص٥٢.

(٢) المصدر السابق ص٥٤.

ومع أن هذا الأمر لا يعرفه عامة المسلمين، إلا أنه معروف لدى علماء الإسلام قديما وحديثا، ولم يعاملهم من يعرف حقيقتهم إلا على هذا الأساس. ولهذا فقد أفتى علماء المسلمين بعدم صحة حكم القاضي الدرزي على المسلمين، لأن الدرزي لا ملة له كالمنافق والزنديق وإن سمى نفسه مسلما[1]. ولا تقبل أيضا شهادتهم على أحد سواء كان مثلهم في الاعتقاد أو مخالفا لهم لعدم ولايتهم[2].

ويكفي أن نأتي بفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية لنعرف حكم الإسلام فيهم وفي معاملتهم، حيث أجاب فيها عن سؤال وجه إليه في هذا الموضوع فيقول: «هؤلاء الدرزية والنصيرية كفار باتفاق المسلمين لا يحل أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرون بالجزية فهم مرتدون عن دين الإسلام، ليسوا مسلمين، ولا يهود، ولا نصارى، ولا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، ولا بوجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما، وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد فهم كفار باتفاق المسلمين.... والدرزية هم أتباع هشتكين الدرزي، وكان من موالي الحاكم أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة، فدعاهم إلى إلهية الحاكم ويسمونه الباري العلام، ويحلفون به، وهم من الإسماعيلية القائلين بأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبدالله، وهم أعظم كفرا من الغالية، يقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية، الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله، أو مجوسا، وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس ويظهرون التشيع نفاقا.... وكفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم، لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين، بل هم الكفرة الضالون فلا يباح أكل طعامهم، وتسبى نساؤهم، وتؤخذ أموالهم، فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم، بل يقتلون أينما ثقفوا، ويلعنون كما وصفوا،

---

(١) حاشية ابن عابدين جـ٤ ص ٢٩٩.

(٢) تكملة حاشية ابن عابدين جـ١ ص٧٣ - وكتاب الدروز مؤامرات وتاريخ وحقائق / فؤاد الأطرش ص٣٦٠.

ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ، ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النوم معهم في بيوتهم، ورفقتهم، والمشي معهم، وتشييع جنائزهم إذا علموا موتها، ويحرم على ولاة أمور المسلمين إضاعة أمر الله من إقامة الحدود عليهم بأي شيء يراه المقيم ولا المقام عليه... ويضيف رحمه الله قائلا: ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا يصلى على من مات منهم.... وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم.... وإذا أظهروا التوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء، فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقر أموالهم عليهم، ومن لم يقبلها لم تنقل إلى ورثتهم من جنسهم، فإن مالهم يكون فيئا لبيت المال، لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة، لأن أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يعرف، وفيهم من قد لا يعرف، فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم، فلا يتركون مجتمعين، ولا يمكنون من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة، ويلزمون في شرائع الإسلام... ويجب على كل مسلم أن يقول أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم... والمعاون في كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب مالا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم»[(١)].

هذا وقد كان ابن تيمية من السباقين لتطبيق القول بالعمل، وما رواه ابن كثير في تاريخه يوضح لنا كيفية هذا التطبيق، وبما تم من حوادث سنة ٦٩٩هـ حيث يقول: «وفي يوم الجمعة العشرين من شوال ركب نائب السلطنة جمال الدين أقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتار وهربوا حين اجتازوا ببلادهم، وثبوا عليهم ونهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثير منهم. فلما وصلوا إلى بلادهم جاء

---

(١) فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ٣٥ ص١٥٥ – ١٦٢.

رؤسائهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير على أولئك المفسدين، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالا كثيرة يحملونها إلى بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله... وفي سنة ٧٠٤هـ عاد ابن تيمية رحمه الله إلى مقاتلة هؤلاء ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان فاستتابوا خلقا منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيدا ناصراً»[١].

واضح بعد هذا أن هؤلاء القوم مرتدون عن الإسلام، لتركهم عبادة الله تعالى، وإنكارهم فرائض الإسلام وشرائعه، ولكن لا بد من المطالبة بالعمل على نشر الإسلام بين صفوفهم، وأن يحال بينهم وبين مشايخهم، الذين لا يزالون يصرون على هذه السخافات والضلالات الخرافية المهينة للعقل الإنساني، فتزول بذلك الغشاوة عن أعين الكثير منهم الذين يعيشون في تخبط لا يجدون له نهاية، وهذا الشيء هو ما يطالب به الشيخ محمد رشيد رضا في أحد فتاويه التي سئل عنها[٢].

(١) البداية والنهاية / ابن كثير جـ ١٤ ص١٢، ٣٥.

(٢) انظر فتاوي الإمام محمد رشيد رضا جـ١ ص٢٧٦.




الباب الثالث

النصيرية والأصول الباطنية التي قامت عليها

الفصل الأول : نبذة عن نشأة النصيرية وأشهر دعاتها وأهم طوائفها .

الفصل الثاني : الجانب الباطني في عقائد النصيريين.

الفصل الثالث : مقارنة بين كل من عقائد الإسماعيليين والدروز والنصيرية .






الفصل الأول

نبذة عن نشأة النصيرية وأشهر دعاتها وأهم طوائفها

النصيرية: طائفة من الطوائف الباطنية، سميت بهذا الاسم نسبة إلى (محمد بن نصير النميري) الذي عاش في القرن الثالث الهجري، وهم من الشيعة الغلاة، وذلك لأنهم غلوا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقالوا بألوهيته، وهم بالاضافة إلى قولهم بألوهية علي يعتقدون بتناسخ الأرواح، والتأويل بالباطن.

ويزعمون أيضا أن الألوهية لها اسم ومعنى، أي ظاهر وباطن، فالظاهر هو أحرف معدودة تشير إلى أشخاص معلومة، والمعنوية قد استقرت أخيرا في علي بن أبي طالب. والأحرف الظاهرة من الله هي (اسم) يحتوي على ثلاثة أحرف - يبتدئون بأحرف الاسم من آخره - فيجعلون حرف الميم هو محمد بن عبدالله ﷺ ويسمونه السيد الميم، وحرف السين هو الباب وهو سلمان الفارسي، والألف هو المقداد بن أبي الأسود ويسمونه رب الناس. فالنصيرية يعتقدون أن علي بن أبي طالب قد خلق محمدا، ومحمدا قد خلق سلمان الفارسي، وسلمان قد خلق المقداد، والمقداد قد خلق الناس، ولذلك يدعونه رب الناس[١].

وبسبب معتقدهم هذا، فإن نظامهم الديني يدور حول أسماء ثلاثة، تكون تثليثاً شبيها بالتثليث الكائن في النصرانية، ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحرف (ع. م. س)[٢]. أي علي بن أبي طالب، ومحمد ﷺ، وسلمان الفارس.

والواقع أن ابن نصير وأتباعه يقدمون لنا مثلا واضحا لطائفة انتقلت مباشرة من الوثنية إلى طائفة الشيعة[٣]، فديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار، وما تزال تحتفظ

---

(١) مخطوط بعنوان (في تقسيم جبل لبنان) لمؤلف مجهول، مخطوط بالجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٣١، ويوجد شريط عنه في الجامعة الأردنية رقم ٦٩٩.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي / د. حسن إبراهيم حسن جـ٤ ص٢٦٦، ٢٦٧. الحركات الباطنية في العالم الإسلامي – ٢١.

(٣) المصدر السابق.

بمعالم واضحة تنبئ عن معتقدات هي مزيج من عناصر غير متجانسة من الإسلام والنصرانية والوثنية. والحقيقة وكما يقولها المستشرق جولد تسهير: فإن النصيرية انتسبت إلى الإسلام اسميا، هذا الإسلام الذي تمثله هذه الصورة المتخفية، الساترة للوثنية الآسيوية القديمة التي أضافت إليها أيضا، عندما تشكلت على هذه الصورة، الكثير من العناصر المسيحية كقداس الأطعمة والنبيذ، وإحياء الأعياد الخاصة بالمسيحية. وإن الروح العامة لهؤلاء الناس قد احتفظت في الواقع بالتقاليد الوثنية التي كانت لأجدادهم، وإن غيرتها من الناحية الظاهرية البحتة، وذلك عندما طبقها هؤلاء على الأوضاع الخارجية الجديدة التي للعبادات الإسلامية[١].

وعقيدتهم هذه سر من الأسرار العميقة لا يبوحون بها لسواهم، والمرأة عندهم لا تعطى هذا السر مطلقا، أما الرجل فلا يسلم السر إلا إذا بلغ الثامنة عشرة من عمره وبواسطة أستاذ يتخذه والدا روحيا، فيدخله هذا في عدة اجتماعات سرية يحضرها مشايخ الطائفة فيرتفع أثناءها من درجة إلى درجة أعلى منها حتى يلقن سر الديانة كاملا، وكل هذا يتم وسط مؤثرات شتى تساعد على فرض الأفكار الملتوية المعقدة في ذهن الشاب النصيري، منها وضع أحذية المشايخ على رأس هذا الشاب. وكذلك كؤوس الخمر التي تدار أثناء هذه الجلسات فيشربونه إياها مما يجعله مهيئا لقبول هذا السر بعد أن تتعطل إرادته، ولا يلقن هذا السر إلا بعد أن يأتي بشهود بأن لا يبوح به لأحد ولو أريق دمه[٢].

والتناسخ الذي يؤمنون به، يقوم على أن الأرواح الصالحة عندهم تحل في النجوم ولهذا يسمون عليا «أمير النحل» أي أمير النجوم. والأرواح الشريرة تحل في أجسام الحيوانات التي هي في نظرهم نجسة كالخنازير والقرود وبنات آوى[٣].

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص٢٤٧، ٢٤٩.

(٢) انظر مخطوط في تقسيم جبل لبنان لمؤلف مجهول، ودائرة معارف القرن العشرين / لمحمد فريد وجدي مجلد ١٠، ومخطوط ١٤٥٠ عربي في المكتبة الأهلية بباريس ابتداء من ورقة ١٥٥ب، والجذور التاريخية للنصيرية العلوية للحسيني عبدالله ص٦١.

(٣) العلويون أو النصيرية / السيد عبد الحسين مهدي العسكري ص٦٣.

والنصيرية مختلفة فيما بينها في مكان حلول علي بعد أن ترك ثوبه الآدمي، فمنهم من يتجه إلى القمر في عبادته لاعتقادهم أنه حال فيه وهؤلاء يسمون بالشمالية، والآخرون يتجهون إلى الشمس لاعتقادهم أنه حال فيها ويسمون بالكلازية[1].

وتسكن النصيرية في الجبال المسماة باسمهم من جبال اللاذقية في سوريا، ومنهم من يسكن جنوب تركيا، وأطراف لبنان الشمالي، وفارس وتركستان الروسية، وكردستان، ولهم أسماء محلية أخرى يعرفون بها في أماكن سكناهم مثل «التختجية» و «الحطابون» في غربي الأناضول بتركيا، «والعلي إلهية» في فارس، وتركستان، وكردستان[2].

أما ابن نصير مؤسس هذه الفرقة فكما ذكرت فإن اسمه (محمد بن نصير النميري) ويكنى بـ (أبي شعيب)، عاش في القرن الثالث الهجري، وتوفي حوالي عام ٢٧٠هـ، وعاصر ثلاثة من أئمة الشيعة الاثنى عشر وهم: علي الهادي (٢١٤هـ - ٢٥٤هـ)، والحسن العسكري (٢٣٠هـ - ٢٦٠هـ) ومحمد المهدي (٢٥٥هـ -...).

وقد زعم ابن نصير أنه «الباب» إلى الإمام الحسن العسكري، فتبعه طائفة من الشيعة سموا «النصيرية». ولكن الشيعة الاثنى عشرية تنكر مزاعم ابن نصير في أنه الباب للحسن العسكري - أي الممثل الوحيد له والمرجع للناس من بعده -، وتقول بأن المرجعية الدينية قد عهدت إلى أربعة أشخاص وهم: عثمان بن سعيد العمري، ومحمد بن عثمان بن سعيد، والحسين بن روح النوبختي، وعلي بن محمد السمري[3].

ولو رجعنا إلى المصادر الشيعية الاثنى عشرية وتتبعنا رأيها في ادعاءات واعتقادات ابن نصير لوجدنا إجماعا على بطلان هذه الادعاءات والاعتقادات، وهذا سعد بن عبدالله القمي - المتوفى عام ٣٠١هـ يقول: وقد شذت فرقة من القائلين بإمامة علي بن محمد في حياته، فقالت بنبوة رجل يقال له محمد بن نصير النميري كان يدعي أنه نبي رسول، وأن

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ١٠، والعلويون أو النصيرية / السيد عبد الحسين العسكري ص٦٣.
(٢) المصدر السابق ص٣١، ٣٢.
(٣) كتاب الغيبة / للطوسي ص٢٤١، ٢٤٢.

علي بن محمد العسكري أرسله، وكان يقول بالتناسخ، ويغلو في أبي الحسن (علي بن أبي طالب) ويقول فيه بالربوبية، ويقول بالإباحة للمحارم، ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضا في أدبارهم، ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل في المفعول به، وأنه من الفاعل والمفعول به إحدى الشهوات والطيبات، وأن الله لم يحرم شيئا من ذلك، وكان محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات[(١)] يقوى أسبابه ويعضده. أخبرني بذلك عن محمد بن نصير أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان أنه رآه عيانا وغلام له على ظهره، قال فلقيته فعاتبته بذلك، فقال: إن هذا من اللذات وهو من التواضع لله وترك التجبر[(٢)]. وهذا الرأي نجده أيضا في كتاب فرق الشيعة للنوبختي المتوفى عام ٣١٠هـ، فيوافق القمي على قوله في ابن نصير[(٣)]. ويصف الفقيه الشيعي أبو جعفر الطوسي ابن نصير بالإلحاد والجهل[(٤)].

والحقيقة أن محمد بن نصير لم يكن أول من زعم هذه المعتقدات، فلو تتبعنا تاريخ الغلاة والباطنيين، لوجدنا السبأية - أتباع عبدالله بن سبأ اليهودي - أول من ادعى أن عليا إله في الحقيقة، ثم تبعهم في ذلك (بيان) الذي زعم أن جزءا إلهيا حل في علي، واتحد بجسده وبه كان يعلم الغيب[(٥)]. وجاء بعد البيان أبو الخطاب، والذي يعتبر من الأصول التي اعتمد عليها ابن نصير، فادعى أن الأئمة آلهة، فلما بلغ ذلك جعفر الصادق لعنه وطرده، فادعى الألوهية لنفسه بعد ذلك[(٦)].

والخطابية هم أتباع محمد بن أبي زينب الكاهلي، وتزعم النصيرية أنه باب الإمام السابع من أئمة الشيعة (موسى الكاظم)[(٧)]. وهو أول من أخذت عنه النصيرية معتقداتها، ومن

---

(١) من المحتمل أن المقصود هنا الوزير ابن الفرات الذي سيأتي ذكره بعد قليل، فقد كان بالفعل من المتعاطفين مع الغلاة، ولذلك سجن ثلاث مرات وقتل بعد ذلك.

(٢) كتاب المقالات والفرق / سعد بن عبدالله القمي ص١٠٠، ١٠١.

(٣) فرق الشيعة / الحسن النوبختي ص٧٨.

(٤) كتاب الغيبة / للطوسي ص٢٤٤.

(٥) الملل والنحل / الشهر ستاني جـ٢ ص١١ على الهامش، والفرق بين الفرق / البغدادي ص٢٥٥.

(٦) كتاب المقالات والفرق، والفرق / سعد القمي ص٦٣.

(٧) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٥٤.

ذلك قوله: «إن المعنى وهو الذات الإلهية كان أول فيض منه هو الاسم، وأن المعنى قد مرّ بالطور المحمدي عبر الاسم بخمسة أسماء مختارة هي محمد وعلي وفاطم[1] والحسن والحسين، وهذه المجموعة الخماسية المتساوية هي خمسة المباهلة[2]، أما علي فيفوقهم جميعا لأنه متوحد مع المعنى، وقد تبنى النصيريون هذا الترتيب، وبذلك يكون علي إلههم الأزلي»[3].

وينبغي أن نلاحظ أن المفضل بن عمر الجعفي تلميذ أبي الخطاب المخلص تعتبر كتبه من الكتب المقدسة عند النصيرية، ويعتبرونه أيضا الباب للإمام الثامن من أئمة الشيعة[4]. فكتابه (الهفت والأظلة) من الكتب المقدسة عندهم، يصفه عارف تامر - الكاتب الإسماعيلي المعاصر - بأنه أحد الكتب الباطنية النادرة السرية المهمة، ويمثل عقائد فرقة المفضل الجعفي، ويضيف قائلا: وعندما أقول المفضلية لا أجزم بأن هذه الفرقة هي نفسها الفرقة العلوية الجعفرية الاثنى عشرية التي عرفت في غابر العصور (بالنصيرية) أو فرعا منها، ولكن الذي أجزم فيه أن للمفضلية بعض آراء تتقارب بأصولها وفروعها بالآراء العلوية، وربما الإسماعيلية، وقد تتباين هذه الآراء، وقد تندمج لتشكل أصلاً واحداً كشأن معتقدات باقي الفرق الإسلامية الباطنية المتعددة»[5].

وهكذا يمكننا القول أن محمد بن نصير كان امتدادا في أفكاره ومعتقداته لسابقيه، فأخذ عنهم وعن غيرهم تلك المعتقدان الغريبة، وطورها فكانت فرقة النصيرية. لذا فإن تأثير الأفكار الغنوصية والعرفانية الأفلاطونية على معتقدات هذه الفرقة وخاصة في قضية

---

(١) وتكشف هذه التسمية المذكرة لفاطمة عن اعتقاد النصيرية في أن النساء ليست لهن أرواح خاصة، ولا يسلمن سر الديانة.

(٢) أي الخمسة الذين تباهل بهم الرسول ﷺ مع نصارى نجران.

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية / مادة النصيري.

(٤) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٥٤.

(٥) مقدمة عارف تامر لكتاب (الهفت والأظلة) للمفضل بن عمر الجعفي ص٢٤.

الحلول (أي حلول الذات الإلهية في جسم شخص) واضحة جلية[1]. مما جعل تعاليم هذه الفرقة ستارا لحفظ البقايا الدينية للوثنية القديمة ممتزجة بالنصرانية، تتستر وراء الإسلام.

فإذا عدنا إلى تتبع تاريخ هذه الطائفة بعد ابن نصير، «فقد خلفه في رئاسة النصيرية محمد بن جندب، ثم أبو محمد عبدالله بن محمد الجنان الجنبلاني (٢٣٥ - ٢٨٧هـ)، وكان يقيم في فارس في بلدة جنبلا فلذلك اشتهر بـ (الفارسي)، وقد أحدث بين النصيرية طريقة صوفية تعرف بـ (الطريقة الجنبلانية)، وقد سافر الجنبلاني إلى مصر، وهناك أدخل الحسين بن حمدان الخصيبي في طريقته، وبعد رجوعه إلى بلده تبعه الخصيبي إلى هناك، ثم خلفه بعد وفاته وأصبح رئيسا دينيا للنصيريين[2]». ومما يذكر في هذا المقام أن هذه الفرقة قد لاقت عطفا وتأييدا من قبل الوزير ابن الفرات[3]، الذي كان على اتصال بالأفكار الشيعية، مما حمل المقتدر والمعتضد على سجنه ثلاث مرات وقتله بعد ذلك[4].

بعد وفاة الجنبلاني وترؤس الخصيبي لهذا المذهب، ترك الخصيبي مدينة جنبلا وقصد العراق، ويبدو أن ذهابه للعراق كان من أجل أن يكون تحت حماية (بني بويه) الشيعة الغلاة والذين استولوا على السلطة في الدولة العباسية، وكانوا عونا للغلاة ومنهم الإسماعيلية. لذا فالنصيرية تعتبر بني بويه أمثال: عضد الدولة، ومعز الدولة، وغيرهم من الذين اعتمد عليهم الخصيبي في الدعوة لمعتقدات النصيرية، أشخاصا مقدسين لديهم[5].

---

(١) انظر بتفصيل عن أثر الغنوصية في الحركات الباطنية في الباب الأول من هذه الرسالة (التمهيد).

(٢) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٥٦ - ٢٥٨.

(٣) هو علي بن محمد بن موسى، أبو الحسن، ابن الفرات عاش في الفترة ما بين عام (٢٤١ - ٣١٢هـ) حتى قتل في أيام المقتدر، وهذا يعني أنه عاصر أربعة من زعماء النصيرية وهم ابن نصير، وابن جندب، والجنبلاني، والخصيبي.

(٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية / مادة النصيري.

(٥) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٥٩، ٢٦٠.

ويذكر بروكلمان: «أن الخصيبي حبس في بغداد عندما جهر بدعوته، ولذا لجأ إلى سيف الدولة الحمداني في حلب لما استولى عليها، وكان يمت إليه بصلة القرابة، وعاش في كنفه، وقدم إلى سيف الدولة كتابيه: الهداية، والمائدة»[١].

ولكننا نتساءل هل أخفى الخصيبي حقيقة معتقداته عند لجوئه إلى سيف الدولة؟ في الواقع إن الجواب على هذا السؤال يحتاج لشيء من التحقيق والتمحيص، فكتاب (الهداية الكبرى) الذي ألفه الخصيبي وأهداه لسيف الدولة، والذي نشر حديثاً ضمن كتاب (العلويين بين الأسطورة والحقيقة[٢] ينفي هذا الشيء، لأن الكثير من معتقدات النصيرية وخاصة في التناسخ وتعظيم الخمر واضحة جلية في هذا الكتاب، مما يجعلنا نتساءل: هل كان الخصيبي يخفي معتقداته عند سيف الدولة؟ أم أنه وجد هناك من يؤازره ويعاضده؟ لا يمكننا أن نجيب سريعا على هذا السؤال، ولكن لا يمكننا أيضا أن نتجاهل أن النصيرية عندما يذكرون في كتبهم سيف الدولة وغيره من الحمدانيين، يذكرونهم بشيء من التقديس والتعظيم، ويعتبرونهم وكلاء الخصيبي في السياسة[٣].

وهذا يؤكد ما نقله هاشم عثمان في كتابه (العلويون بين الأسطورة والحقيقة) عن مقالات للشيخ عيسى سعود قاضي العلويين في اللاذقية في مجلة الأماني[٤] والذي أوضح قائلا: «أما نعتها بالنصيرية فيعود إلى عهد السيد أبي شعيب محمد بن نصير النميري العلوي بواب الإمام الحسن العسكري الذي جمع شتاتها بمساعدة الإمام الموما إليه بعد أن كادت تمزقها الحروب والأيام. وفي أيام إمارة بيت الدولة في حلب سنة ٢٨٣هـ، نبغ من

---

(١) تاريخ الأدب العربي / كارل بروكلمان - ترجمة د. عبد الحليم النجار جـ٣ص٣٥٧ / دار المعارف - ط٢ / ١٩٦٩م.

(٢) انظر كتاب العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان.

(٣) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٥٩، ٢٦٠، ومخطوط باسم (مسائل عن المراتب) في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ١٤١ أ، ب.

(٤) نقلا عن مجلة الأماني الصادرة في اللاذقية - العدد الأول / تشرين أول ١٩٣٠م.

العلويين شيخهم المعروف بالحسين بن حمدان الخصيبي، أحد أقارب سيف الدولة علي بن حمدان، وصاحب كتاب (الهداية الكبرى) فساعده هذا الأمير على بث دعوته وجمع كلمة هذه الطائفة، والتف حوله من الأمراء والشعراء والمؤلفين العدد الكثير، فأخذوا عنه ونشروا دعوته في سوريا والعراق ومصر وبلاد العجم وغيرها من البلدان... »[1]. وفي مقال آخر في العدد الثاني - تشرين ثاني ١٩٣٠م - كتب ما يلي:

«... إلى أن ضعف سلطان العباسيين في زمن المستكفي بالله حوالي سنة ٣٣٣هـ حيث استبد بملكهم بنو حمدان، وهناك تنفس العلويون الصعداء وأمن جانبهم وإذ ذاك قام بالدعوة شيخهم الكبير السيد أبي عبدالله الحسين بن حمدان الذي اتخذ الشهباء موطنا له وانتشرت في المدن والأمصار بسرعة مدهشة بمعاونة أمراء بني بويه في العراق والأهواز وفارس... »[2].

ومن هنا كان الخصيبي هو ألمع رؤساء النصيرية وأكثرهم أثرا في مذهبهم، «ساعده على ذلك عمر طويل (٢٦٠هـ - ٣٥٨هـ) وذكاء وقدرة على التأليف في المذهب وتطويره إياه حتى كان يلقب بشيخ الدين[3]، وقبره الآن في شمالي حلب وهو معروف باسم (الشيخ يابراق)»[4]. وبعد الخصيبي تناوب على رئاسة النصيريين عدد من الرؤساء مثل محمد بن علي الجلي في حلب، تبعه أبو سعيد الميمون الطبراني[5]، والذي ألف عدة مؤلفات في المذهب النصيري، وقد توفي عام ٤٢٣هـ، ودفن في اللاذقية ويعرف قبره باسم الشيخ محمد الطبراني ويقع داخل المسجد المعروف بمسجد الشعراني باللاذقية، وقد أجبرت الحروب

---

(١) العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص١٥٧.

(٢) العلويون بين الاسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص ١٦٠.

(٣) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٢١، ٣٢٢.

(٤) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٥٩.

(٥) ولد أبو سعيد في بلدة طبرية بفلسطين عام ٣٥٨هـ وهو معروف باسم الطبراني، ثم سافر إلى حلب، وسكن فيها عند الجلي وصنف هناك كتباً عديدة.

انظر تاريخ العلويين ص٢٦٣.

المتوالية ضد النصيرية أبا سعيد على مغادرة حلب واللجوء إلى اللاذقية وجبالها والسكن فيها وذلك في سنة ٤٢٣هـ[١].

وخلال وجود أبي سعيد في اللاذقية، تعرضت النصيرية للقتال من قبل أعدائهم (الإسحاقية)، والذين كانوا منافسين أقوياء للنصيريين، «ولكن مجيء بني هلال النصيريين أنقذ هؤلاء من حروب كادت أن تقضي عليهم»[٢].

ومما يذكر أن الاسحاقية، كان أول ظهورهم في بداية ظهور ابن نصير، عندما نافسه على ادعاء البابية شخص آخر هو (إسحاق الأحمر) - والذي ذكره الشهرستاني في الملل والنحل عند حديثه عن النصيرية -، وكانت مبادئه تشابه إلى حد كبير مبادئ ابن نصير ولكن الاسحاقية كانت أميل إلى تقرير أن عليا كان شريكاً في النبوة مع محمد ﷺ[٣]. وقد خلف اسحق الأحمر أتباعا كان رئيسهم (همام الأعسر) تبعه في الرئاسة (اللقيني) ثم (أبو ذهيبة) وهو إسماعيل بن خلاد البعلبكي المعاصر لأبي سعيد الطبراني، وكان يسكن أيضا في حلب، ثم انتقل إلى جبلة - القريبة من اللاذقية -، ثم اللاذقية نفسها حيث استطاع الاستيلاء عليها وجعل يقاتل النصيرية في هذه المناطق، وكاد أن يقضي عليهم لولا مجئ بني هلال - كما مر ذكره - الذين ألجأوه إلى أنطاكية فظلوا يطاردونه حتى قتل[٤].

وفي نهاية القرن السادس وبداية السابع الهجري لم يجد النصيرية بدا من طلب العون من الأمير المكزون السنجارى[٥] (النصيري)، بسبب مهاجمة الأكراد المسلمين لهم بسبب معتقداتهم الإلحادية، حيث جاء لنجدتهم سنة ٦١٧هـ في خمس وعشرين ألف فارس،

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٣.

(٢) المصدر السابق ص٢٦٣ - ٢٦٥.

(٣) انظر الملل والنحل / للشهرستاني جـ٢ص٢٤، ٢٥ على الهامش.

(٤) انظر بتفصيل تاريخ العلويين ص٢٦٢.

(٥) نسبة إلى سنجار، بكسر أوله، وسكون ثانيه، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة (سوريا) بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، معجم البلدان جـ٣ص٢٦٢.

ولكنه فشل فعاد أدراجه مهزوماً، فعاود الكرة عام ٦٢٠هـ في خمسين ألف مقاتل فانتصر على الأكراد هذه المرة، بعد أن كادوا يقضون على النصيريين[١].

ومما يذكر أن المكزون السنجارى بقي في جبال النصيرية بعد ذلك، وألف كتبا وأشعاراً في المذهب النصيري، «ولذا يعتبرونه من أعاظم مشايخهم[٢].

وكما يقول المستشرق (ماسينون) في دائرة المعارف الإسلامية، فإنه منذ القرن الثاني عشر الميلادي، كان تاريخ النصيريين في هذه المنطقة سلسلة من المصادمات والحروب وخاصة الحروب التي وقعت بينهم وبين الإسماعيلية بسبب التنافس الشديد بينهم، فقد استطاع النصيريون أن يحتلوا مدينة (قدموس) في شمال سوريا من الإسماعيلية، ولكن الإسماعيلية استعادوها، وما لبث أن احتلها النصيريون مرة أخرى، وهكذا دواليك نجد في تاريخ هذه المنطقة سلسلة من الحروب بين هاتين الطائفتين[٣].

والملاحظ في تاريخ النصيريين، أنهم نزلوا إلى السواحل من جبالهم أثناء الحروب الصليبية وحروب التتار، وبعد اندحار هؤلاء نجدهم يرجعون إلى جبالهم، وهذا يؤكد لنا الروايات التاريخية التي تتحدث عن التعاون الوطيد بين النصيرية والصليبيين والتتار ضد المسلمين.

أما تعاونهم مع الصليبيين وتأثرهم بهم فهذا واضح في معتقداتهم وأعيادهم فهم يؤمنون بالثالوث (ع. م. س.) ونجد الكثير من مخطوطاتهم وكتبهم تحاول أن توفق بين ثالوثهم هذا والثالوث النصراني (الأب، والابن، والروح القدس)، وهم بالإضافة إلى ذلك يقدسون الخمر والنبيذ ويحتفلون بعيد الميلاد والغطاس والبربارة وغيره من الأعياد النصرانية، حتى أن أدعيتهم وصلواتهم يسمونها (قداسات).

---

(١) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٢٣.

(٢) تاريخ العلويين ص٣٦٢.

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية (مادة نصيري).

وتاريخ العلويين ٣٦١، ٣٦٢.

وهذا كله يدل دلالة واضحة على اندماجهم الكلي في المجتمع الصليبي أثناء الحروب الصليبية، يقول الكاتب النصيري المعاصر محمد أمين غالب الطويل: «حتى أصبح الشعب العلوي يملك سجايا وميزات بنيوية تقارب جميع بقية الطوائف العربية والتركية، من مسيحية ويهودية ورومية وغير ذلك»[(١)].

وهذا الاندماج مع الأمم المعادية للإسلام يوضحه لنا كاتب نصيري أخر وبطريقة أخرى بقوله: «ومن أظهر ما يعرف به العلويون عنايتهم بالفلسفة الروحية العالمية ومقابلتها بالأديان الإلهية، وتوفيق ما يمكن توفيقه... ويستنتجون من كل ذلك وحدة الأديان ووحدة غايتها... هذه الظاهرة الفكرية التي يمتاز بها العلويون، هي ما جعلت بعض الجهلاء وذوى الغايات الدنيوية يلصقون بهذه الطائفة تهمات الوثنية والكفر وينسبونهم إلى أديان أخرى غير الإسلام»[(٢)].

وفي كتاب تعليم ديانة النصيرية، الذي يتكون من أسئلة وأجوبة، نجد كثيراً من المصطلحات الخاصة بالنصارى منها سؤال يسأل: ما هو القداس، وسؤال آخر عن القربان، حيث كان الجواب أنه الخبز الذي يقدمه المؤمنون عن أرواح إخوانهم[(٣)].

هذا عن تعاونهم وتأثرهم بالنصارى، أما التتار فقد كان تعاوناً أشد وأمتن، وذلك لأن تيمور لنك زعيم التتار كان قد اتخذ التشيع مذهباً له، لذا نجد أن النصيريين كانوا من أقوى المتعاونين معه، وخاصة في تحريضه على غزو دمشق وبغداد، والتاريخ يحدثنا عن الفتاة النصيرية (درة الصدف) التي جاءت إلى تيمور لتك في حلب ومعها أربعون بنتا بكرا من النصيرية؟! وهي تنوح وتبكي وتطلب الانتقام لأهل البيت وبناتهم اللاتي جيء بهن سبايا للشام، فوعدها تيمور لنك بأخذ الثأر ومشت معه حتى الشام والبنات النصيريات

---

(١) تاريخ العلويين ص٢٦١.

(٢) نقلا عن مقال للكاتب النصيري (عبد الرحمن الخير) نشره هاشم عثمان في كتابه العلويون بين الأسطورة والحقيقة ص١٧٥.

(٣) مخطوط كتاب تعليم ديانة النصيرية في المكتبة الأهلية بباريس رقم ٦١٨٢ عربي ورقة ١٦ب.

معها ينحن ويبكين وينشدن الأناشيد المتضمنة التحريض لأخذ الثأر، فكان ذلك سببا للشام بمصائب لم يسمع بمثلها، ولم ينج من قتل تيمور في الشام إلا عائلة واحدة من المسيحيين، حيث كان يقتل السنيين ويستثني العلويين، ومن بعد الشام ذهب تيمور لبغداد وقتل بها تسعين ألفا[1].

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «وقد كانت النصيرية أثناء الهجمة الصليبية على العالم الإسلامي والوطن العربي عونا للصليبيين على المسلمين، ولما استولى الصليبيون على بعض البلاد الإسلامية قربوهم وأدنوهم، وجعلوا لهم مكانا مرموقا، وعندما تمكن المسلمون من طرد الصليبيين، اعتصم النصيريون بجبلهم، واقتصر عملهم على تدبير المكائد والفتن، ولما أغار التتار بعد ذلك على الشام مالأهم أولئك كما مالأوا الصليبيين من قبل، فمكنوا للتتار من الرقاب، حتى إذا انحسرت غارات التتار، قبعوا في جباهم قبوع القواقع في أصدافها لينتهزوا فرصة أخرى»[2].

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ أمين الريحاني أيضا: «والغريب العجيب أن يجمع الغرض بين هاتين الأقليتين: المارونية والعلوية، وكلتاهما متمسكة بعقيدتها وبأوليائها أشد التمسك، فتسلكان مسلكاً واحدا في الماضي والحاضر وتكونان مع السائدين من الأجانب على أهل البلاد الوطنيين»[3].

وقد قامت محاولات كثيرة من زعماء المسلمين لاصلاح هذه الطائفة وإرجاعها إلى طريق الإسلام الصحيح، وأول من قام بالمحاولة، صلاح الدين الأيوبي بعد دحره للصليبيين حيث حاول إصلاحهم ببناء المساجد وإقامة الصلاة والصيام وغيرها من الفروض الإسلامية، فأطاعوه ولكنهم بعد وفاته عادوا إلى ما كانوا عليه من معتقدات

---

(١) تاريخ العلويين ص٣٩٠ - ٣٩٢.

(٢) المذاهب الإسلامية / محمد أبو زهرة ص٦٣ - ٦٤جـ١ دار الفكر العربي.

(٣) النكبات / خلاصة تاريخ سوريا منذ العهد الأول للطوفان إلى عهد الجمهورية بلبنان ص١٤٢ - مطابع صادر وريحاني - بيروت)) أمين الريحاني ط٢.

وخربوا المساجد وجعلوها زرائب للحيوانات. وكرر المحاولة الظاهر بيبرس بعد هزيمته للتتار، والذي ألزمهم ببناء المساجد بقراهم، فبنوا بكل قرية مسجدا، ولكن ابن بطوطة الرحالة المسلم المشهور مرّ بالساحل السوري بعد هذه الفترة في القرن التاسع الهجري فروى ما رآه بقوله: «وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية، الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله، وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون، وكان الملك الظاهر ألزمهم ببناء المساجد بقراهم، فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة، ولا يدخلونه ولا يعمرونه، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له: لا تنهق علفك يأتيك بعد قليل...»[١].

ولما جاء السلطان العثماني سليم إلى بلاد الشام، قاتل النصيرية ودحرهم حتى أوصلهم إلى جبالهم، بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنهم كفرة ويجب قتالهم، وقد حاول السلطان العثماني إصلاحهم ببناء المساجد وغيرها من الاصلاحات ولكنهم بعد مدة رجعوا إلى ما كانوا عليه.

وهذا أيضا ما فعله إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي باشا «عندما سيطر على مناطق النصيريين، فحاول جهده إصلاح المنطقة وتثبيت الأمن فيها وحمل أبنائها على ترك المعتقدات الفاسدة، فاستعمل الشدة أول الأمر، ثم لان لهم وبنى المدارس والمساجد غير أن النصيرية قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوا وفتكوا بأهلها، فجرد لهم إبراهيم باشا حملة كبيرة وعاقبتهم بشدة وأحرق عددا من قراهم، فاستسلموا وأظهروا الطاعة التامة، فلما دالت دولته رجعوا إلى ما كانوا عليه. وفي عهد السلطان العثماني عبد الحميد كرر المحاولة بإرساله رجلاً من خاصته اسمه ضيا باشا جعله متصرفا على لواء اللاذقية في بداية هذا القرن، فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ص٦٥ / تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى / طبعة القاهرة.

ويصلون ويصومون، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون، فلم يعصوا له أمرا، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست»[1].

هذا عن تاريخ هذه الطائفة مع محاولات الإصلاح، أما عن تاريخها مع الفتن والثورات ضد المسلمين فهي كثيرة جدا في الماضي والحاضر، منها ما رواه ابن كثير:

«إنه في سنة ٧١٧هـ خرجت النصيرية عن الطاعة وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدعي علي بن أبي طالب فاطر السموات والأرض، وتارة يدعي أنه محمد بن عبدالله صاحب البلاد، وخرج يكفر المسلمين، وأن النصيرية على الحق، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية... وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقا من أهلها، وخرجوا منها يقولون: لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان. وسبوا الشيخين، وأمر أصحابه بخراب المساجد واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين: قل لا إله إلا علي، واسجد لإلهك المهدي الذي يحيي ويميت حتى يحقن دمك... فجردت إليهم العساكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيراً...»[2].

وعندما احتل الفرنسيون سوريا عام ١٩٢٠م، اجتمع الكابتن الفرنسي (بلونديل) رئيس مصلحة الاستخبارات في اللاذقية بزعماء العلويين، فأوضح لهم الفوائد التي يجنونها من انفصال المنطقة عن سوريا وإعلان استقلالها، وبالفعل فقد أعلنت هذه الدولة برئاسة سليمان مرشد الذي ادعى الألوهية بإيعاز من الفرنسيين، فكان يلبس ثيابا فيها أزرار كهربائية، ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار، فإذا وصل التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر له أنصاره ساجدين، ومعهم المستشار الفرنسي الذي كان يسجد مع الساجدين ويخاطب سلمان بقوله: يا إلهي. وقد غذى الفرنسيون هذه الحركة وراحوا

---

(١) خطط الشام / محمد كرد علي جـ١ ص٢٦٠ - ٢٦٣، جـ٣ ص١٠٥، وإبراهيم باشا في سوريا / سليمان عز الدين ص١٨٤ - بيروت ١٩٤٩م.

(٢) البداية والنهاية / ابن كثير جـ١٤ ص٨٣، ٨٤.

يستغلونها على أوسع مدى لإثارة القلاقل والفتن. وفي عام ١٩٣٨م عين سليمان مرشد في دولته قضاة ودرب فدائيين، وفرض الضرائب، وأصدر قرارا جاء فيه: «نظرا للتعديات من الحكومة الوطنية، والشعب السني على أفراد شعبي، فقد شكلت لدفع هذا الاعتداء جيشا يقوم به الفدائيون والقواد». ولما استقلت سوريا، وجلا الفرنسيون عنها، جردت الحكومة حملة استطاعت القضاء على هذه الفتنة واعتقلت سليمان مرشد حيث حوكم وشنق عام ١٩٤٦م - ١٣٦٦هـ. وبعد أن قتل سليمان مرشد قام بعض أتباعه بتأليه ابنه (مجيب المرشد) ولكنه قتل بعد فترة بسيطة، وبقي أتباعه على تأليهه، وعندما يذبحون يقولون: باسم المجيب أكبر، من يدي لرقبة أبي بكر وعمر[١].

وإذا كنا قد أتينا على العلاقة القوية بين النصيريين وفرنسا، وخاصة في تأسيس دولتهم في بداية هذا القرن، فإننا نورد بشيء من التعجب وثيقة كشف عنها حديثا وهي من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وتحمل رقم ٣٥٤٧ وتاريخها ١٥/٦/١٩٣٦، وقد أوردها الدكتور مجاهد الأمين في كتابه العلويون أو النصيرية، وتتضمن هذه الوثيقة عريضة رفعها زعماء الطائفة النصيرية في سوريا إلى رئيس وزراء فرنسا، يلتمسون فيها عدم جلاء فرنسا عن سورية، ويشيدون باليهود الذين جاءوا إلى فلسطين، ويؤلبون فرنسا ضد المسلمين، ووقع الوثيقة: سليمان الأسد، ومحمد سليمان الأحمد، ومحمود أغا حديد، وعزيز آغا هواش، وسليمان مرشد، ومحمد بك جنيد، وفيما يلي نص هذه الوثيقة نورده لأهميته:

«دولة ليون بلوم، رئيس الحكومة الفرنسية، إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس، هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم (السني)، ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل.

---

(١) انظر كتاب مدعي الألوهية في القرن العشرين أو سليمان مرشد / جورج بطرس ذكر ص١٠٧، ١١٠، ١١٤، ١٢٥، وكتاب إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٥٦، ٣٥٧.

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين، وإن هؤلاء اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والإسلام، ونثروا على أرض فلسطين الذهب والرخاء، ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة بالرغم من وجود انكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا.

إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله، ولكن سوريا لا تزال بعيدة عن الهدف الشريف، خاضعة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين.

ونحن الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه المذكرة، نستصرخ حكومة فرنسا ضماناً لحريته واستقلاله، ويضع بين يديها مصيره ومستقبله، وهو واثق أنه لا بد واجد لديهم سنداً قوياً لشعب علوي صديق، قدم لفرنسا خدمات عظيمة»[١].

وفي حرب عام ١٩٦٧م ظهر عطف الطائفة النصيرية على اليهود عملياً، وذلك بتسليمهم مرتفعات الجولان السورية بلا حرب بعد أن استولوا على السلطة في سوريا، ويوضح ذلك الأستاذ سعد جمعة رئيس وزراء الاردن عام ١٩٦٧م في كتابه (مجتمع الكراهية) فقد أورد بيانا سريا أصدره أحد مشايخ النصيرية المعاصرين تكلم فيه على ما حدث في حرب ١٩٦٧م مع إسرائيل وبين كيف سلم النصيريون الجولان لاسرائيل لاعتقادات خاصة اعتقدوها.

ومما جاء في هذا البيان قول كاتبه: «أصل الغلو والزندقة والتطرف أربعة هم: ميمون القداح، والمفضل الجعفي، وأبو الخطاب المجوسي، ومحمد بن سنان... ثم يذكر أنه بعد اختفاء الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري عام ٢٦٠هـ ظهر من أحفاد هؤلاء شيخ آخر وحيد العين يتمتع بذكاء خارق ودهاء منقطع النظير هو أبو شعيب بن نصير البصير النميري الذي عكف على دراسة المبادئ والأسس بكافة الفرق الشيعية المتطرفة

---

(١) العلويون أو النصيرية / د. مجاهد الامين ص٥٥، ٥٦.

فصهرها جميعا في بوتقة واحدة وصاغ منها المعتقدات النصيرية السرية التي لا يزال حتى يومنا هذا القسم الأكبر من المشايخ السذج يطبقونها وينطلقون منها في وعظهم وإرشادهم ولقد جعل أبو شعيب أبو سيدنا وحيد العين قدس الله سره المحور الرئيسي الذي تدور عليه العقيدة إطلاق صفة الألوهية على الإمام علي بن أبي طالب وتسميته بأمير النحل كما منح نفسه لقب الباب الذي يحل محل أمير النحل ويمثله، ثم جاء بعده الشيخ الجنبلاني والجلي والزاهري وجبين المذهب الشيخ علي الصوري والخصيبي فأوجدوا المراتب والحجب والأظلة والقباب والنقباء والنجباء... الخ ودعوا إلى عبادة الشمس والقمر والحلول أي حلول الألوهية في أمير النحل، وبابه سلمان الفارسي، وسلمان خلق المقداد، والمقداد خلق الناس لذلك فهو رب الناس..... ثم يورد كاتب البيان مقتطفات من بعض صلوات النصيرية مثل قولهم في صلاة التربية: مولاي أمير النحل علي حيدر أبي تراب منه أستفتح وأنجي وفيه أفوز وأستغني وفيه أختم وهو ربي ورب أبائي الأولين ورب الآخرين ورب الخلائق أجمعين... الخ ثم يذكر كاتب البيان النبوءة التي يؤمن بها النصيرية وبسببها أسلمت الجولان ونصها ما يلي: عندما يبلغ المريخ إلى مرتبة الأوتاد الأربعة ويكون بهرام في الطالع يظهر من الجنوب وحيد العين الذي يكون مجتمعا به حدث الميم وقدم الدال، عندما يصبح بهرام في الوتد بمقدار عشر درجات يكون وارد الوقت وحيد العين قد ظهرت أعلامه الخضراء من الشرق راكبا الميمون وبيمينه ذو الفقار المسنون فيطهر البلاد ويقضي على الفساد وينصب الخيام على العاصي وينهى الناس عن المعاصي ويطعم الجائع، وعندما يصل بهرام إلى الغارب في تلك السنة يكون صاحب حدث الميم وقدم الدال قد وصلت راياته إلى دمشق واتجهت جيوشه نحو الشمال لتلتقي مع جيوش وارد الوقت وحيد العين فتلالأ الأنوار القدسية وتظهر الأظلة والأشباح والأيتام من خلف القباب لتؤدي الطاعة إلى وارد الوقت سيدنا وحيد العين ويدوم العز في رؤوس العوالي وترفرف الأعلام فوق الجبال مدة سبعين عاما بالتقريب تكون كلمة وارد الوقت واحد العين هي السائدة يخدمه وحيد العين صاحب حدث الميم وقدم الدال....[1] ويعلق كاتب البيان على

---

(١) هذه النبوءة موجودة في أحد كتب النصيرية المقدسة واسمه (كتاب الأسوس) وهو مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٤٩ عربي.

هذه النبوءة بقوله: إن مشايخ النصيرية يفسرون ما جاء في هذه النبوءة تفسيرا يخدم الصهيونية فهم يقولون: إن السيد أبا شعيب الذي كان وحيد العين أي أعور سيحتجب عن طريق التناسخ ويظهر من الجنوب فيحتل دمشق ويتجه نحو الشمال ليؤدي الطاعة إلى وارد الوقت وحيد العين أعور، وعندما يلتقي الأعوران سيدوم حكمهما مدة سبعين عاما، وان أبا شعيب هذا يفسره مشايخهم على أنه هو (موشي دايان) حدث الميم وقدم الدال..... ويضيف قائلا: إنه لهذا السبب تنازل المقدم جديد عن جنوب سوريا لوحيد العين حدث الميم وقدم الدال تسهيلا لالتقاء الأعورين على نهر العاصي حيث سيدوم ملكهما سبعين سنة لأن النصوص المتعلقة بقيام دولة العلويين مرهون بقيامها سيطرة وحيد العين على دمشق وحتى نهر العاصي وبعد هذه السيطرة يكون الوقت لإقامة الدولة العلوية»[1].

هذا عن تاريخ النصيرية، أما اسمهم فالنصيرية هو الاسم الديني والتاريخي لهذه الفرقة، ولكن بعد الاحتلال الفرنسي لسوريا، أطلق الفرنسيون عليهم اسم (العلويين)، لذر الرماد في العيون عن أصلهم ومعتقدهم، وقد ارتاحوا لهذه التسمية، لأنهم كانوا ضائقي الصدور بتسميتهم (بالنصيرية)[2]، ولأن التسمية الجديدة - على الأقل - تخلصهم مما علق تاريخيا باسم النصيرية من ذم وتشيع وتكفير، ولأنها ربما تفتح لهم آفاقا أرحب للتقارب مع الشيعة[3].

لذا عمد بعض الكتاب النصيريين المعاصرين إلى نفي هذا الاسم كلية عن هذه الطائفة، أمثال محمد أمين غالب الطويل صاحب كتاب تاريخ العلويين، وهاشم عثمان صاحب كتاب العلويون بين الأسطورة والحقيقة، الذي يحاول جاهدا قلب الحقائق التاريخية، فيتهم المؤرخ المسلم عبد الكريم الشهرستاني المتوفى عام ٥٤٨هـ، بوضع هذه التسمية، لأنه عاش - أي الشهر ستاني - في وسط وجو البغض للشيعة، وهو بالإضافة إلى ذلك موضع شك متهم في عقيدته، وفي أمانته ونزاهته العلمية. وما كتبه كان لغاية مرسومة الأهداف[4].

---

(١) مجتمع الكراهية / سعد جمعة ص٦٢ – ٧٥.

(٢) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٢٠.

(٣) العلويون أو النصيرية / السيد عبد الحسين مهدي العسكري ص٨.
الحركات الباطنية في العالم الإسلامي – م٢٢.

(٤) العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص٣٨، ٦٢، ١٤١، ١٤٢.

ولو رجعنا إلى صحة هذه المزاعم، لوجدنا بطلانها لأن عدم ذكر اسم النصيرية بالتحديد قبل الشهرستاني لا يعني مطلقا عدم وجودها، فكما علمنا مما سبق أن مؤسس هذه الفرقة يدعى (محمد بن نصير النميري)، لذا فهناك ممن سبق الشهر ستاني من ذكر فرقة النميرية نسبة إلى الاسم الأخير من اسمه أمثال الأشعري وعبد القاهر البغدادي[١]، وهناك أيضا من ذكر محمد بن نصير دون ذكر اسم فرقته مثل المؤرخين الشيعيين المعاصرين لابن نصير سعد القمي المتوفى عام ٣٠١هـ، والنوبختي المتوفى عام ٣١٠هـ[٢].

وكذلك هناك ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل والذي سبق الشهرستاني في ذكر اسم النصيرية وبعض معتقداتهم[٣].

والواقع أن الأمور التي ذكرناها عن النصيرية، لم يستطع حتى ممن كتب عنهم مدافعا أن ينكرها، لأنها حقائق تاريخية دامغة في الماضي والحاضر، فهذا الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه إسلام بلا مذاهب، يحاول جاهدا أن يدافع عنهم، إلا أنه يعترف أن هناك غلاة ملحدين يؤلهون عليا موجودون في طائفة النصرية لذا يقسمهم إلى: علوية غلاة وعلوية صحيحة[٤]. وإن كنا لسنا مع الدكتور الشكعة في هذا التقسيم، نود من صميم قلوبنا أن يكون من هذه الطائفة من رجع إلى الطريق الصحيح للإسلام كما يذكر ذلك، إلا أننا مع الأسف نشك في ذلك لما نراه في الوقت الحاضر في هذه الطائفة من تصرفات وأعمال إن دلت على شيء فإنما تدل على الحقد التاريخي الذي يكنه هؤلاء للإسلام والمسلمين، وهذا كله يؤكد جميع الحقائق التاريخية والعقائدية التي تحدثت عنهم.

وحتى نستطيع أن نحيط بشكل أوسع بهذه العقائد والتي تجعل هؤلاء بعيدين عن الإسلام بل وحاقدين عليه، كان علينا أن نبدأ بالفصل الثاني والذي يتحدث بشكل تفصيلي عن الجانب الباطني المستور من عقائد النصريين.

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين / للأشعري جـ١ ص٨٦، والفرق بين الفرق / عبد القاهر البغدادي ص٢٥٢.

(٢) انظر كتاب المقالات والفرق للقمي ص١٠٠، ١٠١، وكتاب فرق الشيعة للنوبختي ص٧٨.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم جـ٤ ص١٨٨.

(٤) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة الصفحات من ٣٣٢ - ٣٥٩.

الفصل الثاني

الجانب الباطني في عقائد النصيريين

١- دعوى ألوهية علي عند النصيريين

العقيدة الأساسية عند النصيريين هي تأليه علي رضي الله عنه، فيزعمون أن عليا إله أو حلت فيه الألوهية، وهم كذلك يؤلفون ثالوثا من علي ومحمد ﷺ وسلمان الفارسي، ويتخذون من ذلك شعارا يتكون من الحروف الثلاثة (ع.م.س) وهذا الثالوث يفسر عندهم بـ (المعنى والاسم والباب)، «فالمعنى هو الغيب المطلق، أي الله الذي يرمز إليه بحرف (ع). والاسم هو صورة المعنى الظاهر ويرمز إليه بحرف (م). والباب هو طريق الوصول للمعنى ويرمز إليه بحرف (س)»[(١)].

لذلك فهم يعتقدون بحلول الألوهية في البشر منذ أول الخليقة، فهناك سبعة أداور للظهورات الإلهية، اتخذت في كل دور وظهور رسولا ناطقا، «فالظهور الأول كان في هابيل ثم في شيت وكان آدم هو الرسول الناطق، ثم انتقلت الألوهية إلى سام والنبوة إلى نوح، وبعدها انتقلت الألوهية إلى إسماعيل والنبوة إلى إبراهيم، ثم انتقلت الألوهية إلى هارون والنبوة إلى موسى، ثم انتقلت الألوهية إلى شمعون الصفا المعروف عند النصارى ببطرس والنبوة إلى عيسى، وظهر للمرة الأخيرة في علي بن أبي طالب والنبوة في محمد ﷺ»[(٢)].

فعلي في نظرهم «إله في الباطن إمام في الظاهر، لم يلد ولم يولد ولم يمت ولم يقتل ولا يأكل ولا يشرب، وهو الذي اتخذ محمدا ناطقا، لذا فهو متصل به ليلا منفصل عنه نهارا»[(٣)]. لأنه فاض من نوره المشع فهو الدال عليه، يروي أحد كتاب النصيريين عن محمد بن سنان: «أنه لا

---

(١) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٣٣.

(٢) مخطوط في تقسيم جبل لبنان / مخطوط في الجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٣١، ويوجد شريط عنه في الجامعة الاردنية رقم ٦٩٩. ومخطوطة تعليم الديانة النصيرية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦١٨٢ عربي ورقة ٤أ.

(٣) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٣٥.

يدل على الله إلا من كان منه أو من نوره الخاص... ثم يضيف قائلا: ألستم تعلمون أن محمداً دلّ على علي إذا كان منه أو من نوره»[1].

ويفسرون قوله تعالى ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾[2] بأن الكلمات هي الظهورات التي ظهر فيها الله بالبشرية[3].

وظهور الله - جل شأنه - في البشرية كما يزعمون كان «عدلا منه وإنصافا لئلا يكون على الله حجة بعد الرسول، فنطق من البشر وظهر بالمعجزات والقدرة ليدلهم على ذاته.... فكان ظهوره قدرة، ونطقه حكمة، ودلالته على ذاته رحمة، وغيبته عظمة.... ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾[4]»[5].

والمعنى - أي الله - كما يتصورونه: «أحد فرد صمد جوهر قائم بذاته بالعلم والقدرة والفعل.... وهو أمير النحل بذاته[6]»، وهو أيضا «لا إله إلا هو أحد لا ينثني في عدد ولا يتجسد في جسد[7]»، أما الجسد الذي ظهر فيه فلم يكن له حقيقة «فهو بصفته مقلب القلوب والأبصار رآه الناس كهيئة البشر، فحقيقته في الربوبية، والصورة هي لحاجة المخلوقين إليها، فالبشرية التي أظهرها لم يكن لها حقيقة، وإنما الحقيقة في الربوبية لإظهار القدرة... إذ لم ير الخلق إلا صورة بشر، وهذه الصورة لم يكن لها حقيقة»[8].

---

(١) كتاب الأصيفر / أبو عبد الله بن شعبة الحراني – مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ٥ب.

(٢) آية ١٠٩ سورة الكهف.

(٣) المصدر السابق ورقة ٣٥أ.

(٤) سورة الزخرف آية ٨٤.

(٥) المصدر السابق ورقة ٢٩ب.

(٦) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي / مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ١٠٩أ.

(٧) مسائل أبو عبدالله بن هارون الصايغ المروية عن الخصيبي – مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ٥٤أ.

(٨) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي / مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ١٠٤، ١٠٥أ.

ومن القصص الغريبة والساذجة التي يستدلون بها على ألوهية علي، ما روى عن الخصيبي قال: «لما أراد مولانا إظهار قدرته عقد ذاتيته، وقام سلمان جل وعز، مثلما قام اسمه وقال: يا سلمان تعرفني وقد ظهر له بالصورة الهاشمية العلوية، قال: نعم أنت الله لا إله إلا أنت الأزل القديم ربي ورب الخلائق أجمعين، ثم ظهر له بصورة الحسن وسائر الصور الإمامية التي ظهر بها الميم، فكان كلما ظهر المولى لسلمان بصورة من الصور يقول: يا سلمان تعرفني، يقول: نعم يا مولاي أنت أنت لا مولاي لا إله إلا أنت، أنت الأزل، ويسجد عند كل ظهور سجدة حتى سجد اثني عشر سجدة، وكان كلما سجد سجدة أنحله حرف فتمت اثنى عشر حرف لاثنتا عشر سجدة وهي حروف لا إله إلا الله، وهي واقعة على عليّ ومحمد وسلمان....»[1].

والمعنى عندهم لا ينقسم ولا يتبعض، ولا يظهر إلا بشخص واحد، فإذا شاء أن يحجب خلقه عنه ترك الصفة التي كانوا يرونه بها في أيديهم موجودة عند الغيبة في الموت أو بالقتل، فيروا تلك الصفة التي كانت في أعينهم على المغتسل، وصاحبها ناطق من مقام جديد، والناس يقولون: مات فلان وقتل فلان، فيبقى في أيديهم الصفة والاسم الذي لها، وهم محجوبون عن المعنى الناطق، وهو ظاهر باسم غير ذلك الاسم، وصفة غير تلك الصفة...[2]». ولذلك فهم يتصورون أن من عرف إلهه في ظهوره الأخير فقد عرفه في كل الظهورات الماضية ويزعمون: «أن من عرف أمير المؤمنين وشهد له بالربوبية فقد أثبته في جميع الظهورات، ومن أقر بظهور واحد ونطق واحد أقر بجميع الظهورات»[3].

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٣٠أ و ب.

(٢) المصدر السابق ورقة ١٠٩أ.

(٣) المصدر السابق ورقة ١١١ب.

أما من حيث اللاهوت والناسوت عند النصيرية، «فاسم الله وقع على اللاهوت، واسم علّي وقع على الناسوت، وعلّي هو الله، والله هو علي، لأن ذلك الناسوت عرف باسم، كما عرف بالناسوت كل مخلوق باسم»[1].

فإذا قلت - كما يزعمون -: « (إله) كان يعني ذلك المعنى، وإذا قلت (الله)، إن أردت المعنى أصبت، وإن أردت الاسم أصبت، وإله ثلاثة أحرف، وعلي ثلاثة وهو المعنى»[2].

وحتى تكون الفكرة عن تأليهه علي عند هذه الطائفة واضحة، فلا بأس من أن نأتي ببعض النصوص من كتبهم وصلواتهم وتعاليمهم، ليستيقن القارئ أن هذه الاعتقادات ليست تلفيقا على هذه الفرقة، ولكنها من صميم وجودها، ونبدأ بنص عبارة عن أسئلة وأجوبة من كتاب تعليم الديانة النصيرية نورد منه بعض الأسئلة الواضحة عن ألوهية علي، يقول النص:

«س: من هو ربنا الذي خلقنا؟

ج: هو مولانا أمير المؤمنين، أمير النحل علي بن أبي طالب، وهو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

س: من أين نعلم أن مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو الله؟

ج: من شهادته ووصفه لنفسه في خطبة مشهورة نطق بها على المنبر إمام كافة من حضر، وعلمها أهل العقل والنظر، فقال: . أنا عندي علم الساعة، وعلّي دلت الرسل، وبتوحيدي نطقت، وإلى معرفتي دعت، أنا سميت أسمائها، وأسطحت أرضها، وأرسيت جبالها، وأجريت أنهارها، وأخرجت ثمارها، أنا غسقت الغسق، أنا أطلعت شمسها، وأنرت قمرها، أنا خلقت الخلق وبسطت الرزق، أنا رب الأرباب ومالك الأركان، أنا العلي العلام... [3].

---

(١) كتاب الأصيفر / لأبي عبد الله محد بن شعبة الحراني / مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ٦أ.

(٢) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي / مخطوط ورقة ١٣٢أ.

(٣) كل هذه الأقوال المنسوبة إلى علي رضي الله عنه غير صحيحة، ولم تدون في أي كتاب، إلا في كتب النصيرية.

س: من دعانا إلى معرفة مولانا أمير المؤمنين؟

ج: رسوله محمد ﷺ، كما قال في خطبة بيعة الدار: اسمعوا الآن ما أقول لكم... اعلموا أني أدعوكم إلى علي بن أبي طالب، كما أدعوكم إلى الله عز وجل، إلا أن عليا مولاي ومولاكم»[1].

وفي كتاب الباكورة السليمانية[2] يصف علياً بهذه الأوصاف: «اعلم يا ولدي أن السماء هي ذات علي بي أبي طالب، هي الجنة الباطنية... واعلم أيضا أن الشمس هي السيد محمد، وهو كل نبي ظهر في العالم من قبة الجن إلى آدم وإلى محمد، كما أخبر بذلك شيخنا وسيدنا أبو عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي... واعلم أيضا أن القمر هو سلمان الفارسي، وهذه الكواكب هم الملائكة الذين كانوا قبل العالم، وهم سبع مراتب إحداهما تعلو الأخرى، كبيرهم السيد المقداد الذي هو كوكب زحل واسمه ميكائيل، وأما كوكب المشتري فهو الدر واسمه اسرافيل، وأما عبدالله بن رواحة الأنصاري فهو كوكب المريخ وهو عزرائيل الملاك الذي يقبض أرواح العالم... وأما عثمان بن مظعون فهو كوكب الزهرة واسمه بالملائكة در ديائيل، وأما كوكب عطارد فهو قنبر بن كادان الدوسي واسمه بالملائكة صلصائيل»[3].

وقد سبق أن أشرنا إلى أن النصيرين قد أنزلوا محمد ﷺ إلى مرتبة أدنى من مرتبة علي في الثالوث المقدس عندهم، وجعلوه يقوم بدور حاجب لعلي، باعتبار أن علي هو الذات

---

(١) كتاب تعليم الديانة النصيرية / مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس رقم ٦١٨٢ عربي ورقة ٢و٣.

(٢) نسبة إلى مؤلفه سليمان الأذني، والذي ولد في عائلة نصيرية في أوائل هذا القرن، وتلقى التعاليم النصيرية وهو في الثامنة عشرة من عمره، لكنه لم يستسغها، فتأثر بأحد المبشرين النصارى فاعتنق النصرانية، ورحل إلى بيروت حيث أصدر كتابه هذا يفضح به العقيدة النصيرية، فنقم عليه النصيريون وقتلوه لكشفه الأسرار التي لا يجوز إباحتها؟!

(٣) الباكورة السليمانية / سليمان الأذني ص٨٤ - ٨٦ نقلا عن كتاب إسلام بلا مذاهب للدكتور الشكعة ص٣٣٥.

الإلهية التي فاض عن نوره محمد وسلمان، وباعتبار أن محمد هو الحجاب فهو إذن (العقل)، فاض عنه سلمان والذي هو (النفس)، يقول الحراني أحد مشايخهم: «إن الإله أبدع من نور ذاته نورا لا يحد ولا يعد ولا ينحصر ولا يبلغ إلى نهايته ولا ينتهي... وهو العقل الذي هو حجابه ونبيه وصفيه وكلمته المتصلة بوجوده ومبديه، الذي هو الإله منذ ظهرت القدرة والمشيئة والإرادة وهو المشار إليه بالميم إليه التسليم، ثم ظهر عن العقل الذي هو حجاب الله وصفته... النفس الكلية.... وإن الباب العظيم والسبب القديم هو النفس الكلية المخترعة من العقل الأول الذي هو حجاب الله حقا.... وهو في رتبة القمر... واعلم أن الباب لا يظهر إلا بظهور الحجاب، والحجاب لا يظهر إلا بظهور الباب، لأن الباب مادته وكونه وذاتيته وفعله....»[1].

لهذا فإنهم يزعمون أن الاسم هو الذي خلق الباب، والباب هو الذي خلق السموات والأرض، يقول الجسري في رسالة التوحيد: «إن الله اسم المعنى وهو الاسم الذي ظهر للعالم ليعرفوا به المعنى، وينادى به ويوجد فيه، فالمعنى لا ينفصل من اسمه، واسمه لا ينفصل عن معناه، والاسم خالق كل شيء... وأول ما خلق الباب، وهو الشيء الأول مبدئ الأشياء وموجدها[2]» فالاسم هو الرب، والباب هو الخالق والرازق والمعنى هو الإله والمولى ورب الآباء الأولين المقداد وسلمان ومحمد[3]» وهم يقولون إن «كل النعوت الواقعة والأوصاف كلها محمد، وكلما دعوت الله دعوة، وسميته باسم فإلى السيد محمد رجعته وإليه عولته»[4]. «والركوع والسجود موجه - أيضا - إلى محمد ﷺ»[5].

ويؤولون (بسم الله الرحمن الرحيم): على أن لفظ الجلالة إشارة إلى المعنى، والميم من (بسم) إشارة إلى الاسم، والسين من (بسم) إشارة إلى الباب، والباب إشارة إلى اليتيم

---

(١) كتاب الأصيفر / أبو عبدالله محمد بن شعبة الحراني ورقة ٩بو ١٦أ، و ٣٢أ، ب.

(٢) رسالة التوحيد / أبو محمد علي الجسري ورقة ٤٣ب.

(٣) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ١٩٣أ.

(٤) رسالة التوحيد / الجسري ورقة ٤٧أ.

(٥) كتاب الأصيفر / الحراني ورقة ٢ب.

الأكبر وهو المقداد، والرحمن الرحيم إشارة إلى الحسن والحسين وهم شخصين من أشخاص السيد محمد[1].

مع أن بعض النصيرية مثل (الكلازية) لا تقول بربوبية محمد ﷺ، لأنه في نظرهم لا يجوز أن ننسب الربوبية تارة لعلي وتارة لمحمد، ولكن الفريق الآخر وهم الشمالية يجيب: أن محمد وعلي متصلان بعضهما ببعض وليسا منفصلين، وأن الغاية الكبرى هي علي، ومحمد أيضا خالق. ولو اعتقدنا بربوبيته فلا نخطئ، لأن اعتقادنا واعتقادكم بالثالوث واحد[2].

ومن اعتقاداتهم كذلك في علي، أن صوت الرعد هو صوت علي ينادي قائلا: يا عبادي اعرفوني ولا تشكوا بي، وعلي في اعتقادهم أيضا يسكن القمر أو بالأحرى أن القمر هو (علي ذاته)، وأن ما في القمر من سواد ليس إلا أعضاء جسم علي، ومن ثم كان القمر معبودا لهم... وكلمة قمر توحي بالضياء وهي مكونة من ثلاثة أحرف، ولما كانت كلمة (شمس) وكلمة (نجم) كل منها مكونة من ثلاثة أحرف وتعطي ضياء فإن الصلة وثيقة القداسة بينها، ولذلك فإن بعضهم يذهبون إلى أن القمر هو علي، والسماء هي علي، والشمس هي محمد... ومن حيث العبادة فإن فرقهم كما تقدم تنقسم إلى طوائف هم عباد السماء، وعباد الشمس، وعباد القمر، وعباد الهواء. وليس كل من السماء و الشمس والقمر والهواء إلا عليا[3].

وقد ذكرنا أن محمدا ﷺ - في اعتقادهم - هو الذي خلق سلمان الفارسي، وسلمان هو الذي خلق الأيتام الخمسة بعد ذلك، والذين «بيدهم مقاليد السموات والأرض وهم:

١ - المقداد: ويعتبرونه رب الناس وخالقهم والموكل بالرعود.

٢ - أبو ذر الغفاري: الموكل بدوران الكواكب والنجوم.

---

(١) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ٩٤أ، مع أن كتاب تعليم الديانة النصيرية يؤولها تأويلا آخر فيقول: إن لفظ (الله) تدل على المعنى، ولفظ (الرحمن الرحيم) تدل على الاسم والباب.

(٢) انظر الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / الحسيني عبدالله ص١٦١ نقلا عن الباكورة السليمانية / سليمان الأدبي - شرح سورة السلام.

(٣) انظر إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الكشعة ص٣٣٧، ٣٣٨

٣- عبدالله بن رواحة الأنصاري: الموكل بالرياح وفيض أرواح البشر.
٤- عثمان بن مظعون: الموكل بالمعدة وحرارة الجسد وأمراض الإنسان.
٥- قنبر بن كادان: الموكل ينفخ الأرواح في الأجسام»[١].

وفي مخطوطة عن المراتب ومسائلها نجد هذا التفصيل: «ان أول المراتب بعد رتبة البابية رتبة الأيتام، وأول الأيتام المقداد، وهو أول ما رتب الباب له ومده بالنور، فالباب مستمد نوره من نور الاسم، وعبدالله بن رواحة يستمد نوره من نور أبو الدر، وعثمان يستمد نوره من نور عبدالله بن رواحه، وقنبر يستمد نوره من نور عثمان، وتولى المقداد مرتبة النقباء، وتولى أبو الدر مرتبة النجباء، وتولى عبدالله مرتبة المختصين، وتولى عثمان مرتبة المخلصين، وتولى قنبر مرتبة الممتحنين»[٢].

وقد ذكر المنتجب العاني[٣] هذه المراتب في قصيدة أطلق عليها اسم (جذوة التوحيد) ومما قاله:

«فتلـــك الأبـــواب والأيتـــام تتـــبعهم
وخلفهـــــم نقبـــاء ســـادة نجــــب
وإثـــرهم نجبـــاء كلهـــم ســـلكوا
نهـــج الهـــدى والى نيـــل العـــلا وثبـــوا
وبعـــد ذلـــك مختصـــون تـــرفعهم
ومخلصـــون إلى مـــولاهم قربـــوا»[٤]

---

(١) العلويون أو النصيرية / د. مجاهد الأمين ص١٤، وهؤلاء الأيتام كما نرى - ما عدا قنبر - هم من صحابة رسول الله ﷺ، وكانوا ممن ناصروا عليا قولا أو عملا، ولذلك كان لهم هذا التقديس، أما قنبر فكان غلاما لعلي بن أبي طالب، وقد ورد ذكره في شعر علي عندما جاءه بعض الغلاة وقالوا له: أنت الإله، فدعا قنبرا وأمره بتأجيج النار لحرقهم.

(٢) مسائل عن المراتب / مخطوط ورقة ٥٦ب، ٥٧أ، ب.

(٣) هو محمد بن الحسن العاني الخديجي، أحد أعلام النصيريين وشعرائها، له ديوان صدر حديثا باسم فن المنتجب العاني وعرفانه تحقيق أحد النصيريين المعاصرين الدكتور أسعد علي، والعاني توفي في سنة ٤٠٠هـ.

(٤) فن المنتجب العاني وعرفانه / ص٥٣.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة عن هذه المراتب: «لقد بدأت هذه الرتب على زمن الخصيبي معتمدة على درجات المعرفة في نطاق المذهب، ولكنها في الأزمنة الأخيرة افتقدت هذه المؤهلات، ولعل المؤهل الغالب هو قوة شخصية صاحب الرتبة بغض النظر عن تأهيله العلمي والديني»[(1)].

وفي اعتقاد النصيرية أن معرفة المراتب ظاهرا وباطنا هو ذروة العبادة. و تغنيهم عن الفروض والعبادات، لأنها في نظرهم أغلال للجاهلين والمقصرين، يروى المفضل الجعفي عن جعفر الصادق قوله: «قلت يا مولاي هل علينا نحن معرفة هذه الدرجات؟ قال الصادق: نعم من عرف هذا الباطن فقد سقط عنه عمل الظاهر، وما دام لا يعرفها، يعني هذه الدرجات ولا يبلغها بمعرفته، فهو عنه عمل الظاهر، وما دام لا يعرفها، يعني هذه الدرجات ولا يبلغها بمعرفته، فهو في عالم الظاهر، ولكن إذا بلغها وعرفها منزلة منزلة، ودرجة درجة، فهو حينئذ حر قد سقطت عنه العبودية وخرج من حد المملوكية إلى حد الحرية بانتهائه ومعرفته... فإذا عرف الرجل ربه، فقد انتهى للمطلوب، ولا شيء أبلغ إلى الله من الوحدانية والمعرفة، وإنما وضعت الأغلال على المقصرين، وأما من قد بلغ وعرف هذه الدرجات التي قرأتها لك، فقد أعتق من الرق، ورفعت عنه الأغلال والقيود، وإقامة الظاهر...»[(2)].

وفي كتاب الصراط للجعفي أيضا، والذي يرويه الجلي عن الخصيبي يقول: «قال السائل: أخبرني كيف يجوز أن يكون المؤمن بلا عمل ولا فرض ولا يطالب بشيء ويستمر في منزلة الأجر فلا يحرم عليه شيء، قال العالم: إذا أكمل المؤمن وبلغ المعرفة وعرف ربه وحدبه ومقاماته وأبوابه وأيتامه ونقبائه وأنجبائه ومختصيه ومخلصيه وممتحنيه فقد خرج من العبودية وصار إلى منزلة الأحرار ورفع عنه الآصار وأبيح له ما كان محظوراً لأن قليل

---

(١) إسلام بلا مذاهب ص٣٥٢.

(٢) كتاب الهفت والأظلة / المفضل بن عمر الجعفي ص٥٣، ٥٤.

العلم خير من كثير العلم، وأن موسى كان بيتا من بيوت الله التي ينزل بها الرب ويرتحل، وقد كلمه الله وأخذ التوراة منه واهتز له كل شيء، وأمره بالطهارة من البول وترك أكل لحم الحمر والأرنب والخنزير وما أشبه ذلك، وأمرهن بالغسل من الجنابة، فلما جاء المسيح الابن[1].... فحلل في المريمية غير سنة موسى ورحمهم، فقال: كلوا ما شئتم وأطعموا كل شيء يطيب في أنفسكم، ورفع عنه الغسل من الجنابة والوضوء، أفلا ترى أيها السائل أنه قد أعتقهم من كثير مما فرض عليهم موسى، وهون عليهم كثيرا مما شدد عليهم من الأغلال والآصار وقال: إن الله مستغن عن أعمالكم إن شئتم اعملوا، وإن شئتم فلا تعملوا»[2].

وهذا الاعتقاد يفسر لنا سبب تخريبهم للمساجد وعدم قيامهم بجميع الفرائض، لأنها باعتبارهم هي للجهلة والمقصرين، أما هم فقد عرفوا الله ظاهرا وباطنا وعرفوا مراتبه فخرجوا من هذه الدائرة، وسقطت عنهم الفرائض، فأصبحوا هم أهل التوحيد الحقيقيين؟!

أما نظرتهم إلى مؤسس فرقتهم (أبي شعبي محمد بن نصير النميري)، فيزعمون «أنه في المقام الذي ظهر فيه، كان الحسن العسكري هو (المعنى)، ومحمد بن الحسن العسكري هو (الاسم)، والباب أبو شعيب»[3]. وذلك لأن «الله عز وجل لما خلق خلقه ظهر فيما بينهم وانتقل كما ينتقلون، فخلق لنفسه سبع حجب[4]، واثنى عشر مقاما[5]، ينتقل ويظهر ويعرف بأمير المؤمنين ظاهره الإمامة والوصية، وباطنه الربوبية، وأخر أشخاصه القائم

---

(١) وهذا يبين تأثرهم بالنصارى وبأقوالهم كما سيأتي.

(٢) كتاب الصراط / المفضل بن عمر الجعفي مخطوط ورقة ٥٦ أو ب.

(٣) رسالة التوحيد / الجسري ورقة ٤٤ب.

(٤) التي مر ذكرها وهي الظهورات السبع.

(٥) المقصود بالمقامات، هي مقامات الأئمة الاثنى عشرية، فهؤلاء الائمة جميعهم كانوا من المقامات التي ظهر الله فيها متحد مع الاسم، فكلهم أسماء أي أنبياء ورسل اتحدوا مع المعنى.

بالقسط لا إله إلا هو»[1]. وعلى هذا الاعتبار فإنهم يرون أن: «الأسماء المتعلقة بالمعنى والاسم والباب تنقسم إلى مثلية وذاتية وصفاتية، فالمثلية هي المعنى، والذاتية الاسم، والأسماء الصفاتية هي التي تسمى بها الاسم وهي للمعنى خاصة، ومن أسماء الاسم المثالية وهي للمعنى أئمة الشيعة الاثنى عشر، فهي مثلية في المعنى، ذاتية في الاسم، وهي التي قامت بها النبوة والرسالة»[2].

لذلك فهم يقولون: «إن محمد بن نصير هو باب الله الذي لا يتخذ بابا غيره، وهو بعد غيبة الاسم (محمد بن الحسن العسكري) أصبح هو الاسم - أي النبي -، فالاسم شخصين هما المهدي صاحب الزمان، والسيد أبو شعيب محمد بن نصير»[3].

«والمعنى في ظهوره الأخير - أي في شخص علي - أخفى شخصه بسبب ما سلف من الذنوب، لذا ستظهر دعوة الباطل حيناً طويلاً مثلما كانت دعوة الحق في الأول ظاهرة»[4]، وسيظهر (علي) من جديد في يوم الرجعة البيضا»[5]، لأنهم يعتقدون «أن القتل وقع على الناسوت وأن اللاهوت رفع إلى السماء وعاد إلى ما منه بدأ، ولم يزل ذلك إلى ظهور القائم المهدي لاشهار سيفه العظيم.... وكيون ظهوره بين الشمال والصبي ومغارب الجنوب والدبور»[6]. وهذا الظهور سيكون «الظهور المطلق للخاص والعام لأنه يوم الكشف وساعة النداء، عندما ينادي السيد محمد هذا ربكم فاعرفوه، هذا باريكم فاعبدوه....»[7].

---

(١) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ١٢٣أ، ب.

(٢) كتاب تعليم الديانة النصيرية ورقة ٥أ.

والنبوة في نظرهم لم تنته بمحمد ﷺ وإنما استمرت بالأئمة الاثنى عشر الشيعة وكانوا خلالها متحدين أو متصلين بالإله.

(٣) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ١٢٠أ، ١٢١ب.

(٤) كتاب الصراط / المفضل الجعفي ورقة ١٨٠أ.

(٥) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ١٢٧أ.

(٦) المرجع السابق ورقة ١٤٠ب.

(٧) المصدر السابق ورقة ٩٥أ، ب.

والنصيرية تعظم عبد الرحمن بن ملجم، قاتل علي رضي الله عنه، ويعتبرونه أفضل أهل الأرض، لأنه خلص روح اللاهوت مما كان يتشبث فيه من ظلمة الجسد وكدره[1].

والخلاصة أن النصيرية «يدعون - أنهم أهل التوحيد - وأنهم المترجمون الصادقون عن الفكر الشيعي القويم، ويعدون الشيعة العاديين من الظاهرية ومن أنصار التعاليم الدينية السطحية الذين لا يتغلغلوا في أعماق الوحدانية الحقة، ويحكمون عليهم بالتقصير ويسمونهم بـ (المقصرة)، لأنهم تخلفوا عن غيرهم في عبادة علي، وقصروا فيها عن القدر المطلوب»[2].

من كل ما تقدم، نستطيع أن نقول أن مذهب النصيرية يتكون من مزيج عناصر غير متجانسة منها: الوثنية كتقديس الكواكب والنجوم، ومنها النصرانية كالاعتقاد بالثالوث: (ع.م.س) ومنها شيعية اثنا عشرية كالاعتقاد بسلسلة الأئمة الاثنى عشر... ومنها مجوسية مزدكية كإباحة المحرمات، وإسقاط الواجبات والاحتفال بعيد النوروز[3] والواقع أن الوثنية كانت شائعة في المنطقة قبل مجيء النصرانية، وكان يدين بها صابئة حران، ولم تستطيع النصرانية مزاحمتها ومحوها، ولكنها تركت بصماتها عليها، وبقيت إلى ما بعد الفتح الإسلامي بمدة طويلة، ولما تعرض أهلها إلى ضغوط من المسلمين تظاهروا بالإسلام وبممارسة شعائره وآداء فرائضه، ولكنه ظل إسلاماً شكلياً[4].

أما عن أثر النصرانية في النصيرية، فنجده في مظاهر وصور شتى، منها احتفالهم بالأعياد النصرانية، وكذلك بتسمية صلواتهم قداسات، وتعظيمهم للخمر، والأهم من ذلك هو محاولتهم في كثير من كتبهم ومخطوطاتهم أن يبرهنوا أن الثالوث النصراني (الأب، والابن، والروح القدس) لا يختلف عن ثالوثهم (ع. م. س.) بل يتفق معه، وهذا أحد

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم جـ٤ ص١٨٨.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص٢٤٩.

(٣) (٤) العلويون أو النصيرية / السيد عبد الحسين العسكري ص٥٩، ٦٩.

مشايخهم يقول: «والنصارى يعتقدون بأربع مراتب (بسم الأب، والابن والروح القدس إله واحد)، لأن الأب بمنزلة المعنى، والابن وروح القدس بمعنى النور والضياء والظل، إذا القدس هو الميم، والروح السين، والابن الألف المقداد[1]. ويضيف مبرهنا على صحة الأيام بالثلاثة: «ثم أن الواحد صدر عنه واحد، والواحد لا يصدر إلا واحد فصار اثنين، والاثنين زوج... فآدم زوج لحواء، وحواء زوج لآدم، ثم صدر عن الواحد أيضا واحد، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد، صارت الجملة ثلاث، والثلاثة فرد، والثالث زوج الثاني، والثاني زوج الأول، والثلاثة هي الزوج والفرد... فالثلاثة هي جملة العدد وغايته، فثبت أن الثلاثة غاية كل غاية ونهاية كل نهاية[2].

وفي كتاب تعليم الديانة النصيرية نجد هذه الأسئلة والأجوبة، التي تبين أثر المصطلحات النصرانية في مذهبهم، ومما جاء فيه:

«س: ما هو القداس؟

ج: هو تقديس الشراب وشربه بسر النقباء والنجباء.

س: ما هو القربان؟.

ج: هو الخبز الذي يقربوه المؤمنين عن أرواح إخوانهم وبه يقال القداس.

س: ما هو سر الله الأكبر؟

ج: هو سر اللحم والدم الذي قال المسيح عنه لتلاميذه: هذا لحمي ودمي فكلوا واشربوا منه لأنه حياة الأبدية[3].

ولكن احتفال النصيرية بعيد النوروز، وهو العيد الديني والقومي للفرس، يدل على الأثر الفارسي أيضا في النصيرية، ويشير كذلك إلى تمجيدهم للفرس، بدعوى حلول الإله وشخوصه في ملوكهم، حيث زعموا أن ثلاثة منهم توارثوا الحكمة، وتجلى الإله فيهم وهم: شروين، وكروين، وكسرى، وهذا من غير شك ينبئ عن الأصل المجوسي للنصيرية، كما

---

(١) مخطوط مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ٨٧أ.

(٢) المصدر السابق ٩٠ب، ٩١أ.

(٣) مخطوط (كتاب تعلمي الديانة النصيرية) ورقة ١٦ب.

يفضح تعصب النصيرية للفرس، ويشير إلى الخط الشعوبي في الحركة النصيرية[1]. تروي أحد مخطوطاتهم عن المفضل الجعفي قوله: «إن المعنى كان في زمن الفرس يظهر في كل عام مرتين: في انقضاء الحر من البرد، وفي انقضاء البرد من الحر، فسمي إنقضاء البرد من الحر، النيروز، وسمي انقضاء الحر من البرد المهرجان، واتخذوهما عيدين لهما»[2].

وأعتقد أن الحكم على النصيرية بعد هذا التفصيل في نظرتهم للألوهية لم يعد صعباً، وأن الإسلام الذي يدعونه، ما هو إلا مظلة يختفون تحتها بكل أفكارهم الوثنية يحاولون من خلالها أن يهدموا الإسلام في أصل هام من أصوله وهو التوحيد.

والإسلام - كما نعلم - ما جاء إلا لهدم الوثنية بكل صورها وأشكالها، لذلك كان القرآن في آياته الكريمة دعوة للإنسان والبشرية جمعاء في توحيد الخالق، والبعد عن الشرك والوثنية المهينان للعقل الإنساني. «وإن أهم الأهداف الأساسية لإرسال الرسل تحرير البشر من عبادة الطبيعة كالشمس أو القمر أو الحيوانات أو غيرها أو الإنسان وتوجيههم لعبادة الله الخالق[3]». وهذا الهدف كان دعوة كل رسول ونبي، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾[4] ويقول جل وعلا: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾[5].

حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أمرنا الله أن نعاملهم معاملة البشر ونندد بمن يعبدهم من دونه، لأن ذلك يبعدنا عن رسالة الأنبياء وهي التوحيد قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ ﴾[6].

---

(١) العلويون أو النصيرية / السيد عبد الحسين العسكري ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) مخطوطة أعيادنا العربية والفارسية رقم ٦١٨٢ ورقة ٣٩أ، ب.

الحركات الباطنية في العالم الإسلامي – م٢٣.

(٣) نظام الإسلام / العقيدة والعبادة / محمد المبارك ص٩٠.

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٥.

(٥) سورة النحل آية ٣٦.

(٦) سورة آل عمران آية ٨٠.

والرسول ﷺ كانت دعوته، دعوة توحيد ونسف للوثنية بشتى صورها، ومن ذلك تحرير الإنسان من عبودية العباد والاتجاه به إلى عبادة الله وحده، ولو كان الإسلام كما تصوره النصيرية لما كان هناك اختلاف وقتال بين المسلمين من جهة، وكفار قريش والروم والفرس من جهة أخرى.

لهذا إن كل ادعاءات النصيرية في تصورهم للألوهية، ليس من الإسلام في شيء، بل هو صورة مشوهة أريد بها هدمه ومحوه من الوجود، بإرجاع عقائد الشرك والإلحاد إلى الوجود.

وصدق الله العظيم: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(1)].

٢- عقيدتهم في الثواب والعقاب:

تؤمن النصيرية بتناسخ الأرواح، وأن الروح عندما تفارق الجسم بالموت تتقمص ثوباً آخر، وهذا الثوب يكون على حسب إيمان هذا الشخص بديانتهم أو كفره بها. وعلى هذا فهم يرون أن الثواب والعقاب ليسا في الجنة والنار وإنما في هذه الدنيا على حسب التراكيب والتقمصات الناسوتية والمسوخية التي تصيب الروح.

وهم إضافة إلى ذلك يؤمنون بعالم روحاني تسكنه المخلوقات العليا أو النجوم، وهذه المخلوقات تفيض بالنور بشكل متسلسل وفق ترتيب السموات السبع، وهؤلاء يشكلون العالم النوراني الكبير، وتتكون السموات السبع من أهل المراتب والكواكب، ويعتقد النصيريون أن عدد العالم البشري (١١٩) ألفا ويتكون من المقربين والكروبيين والروحانيين والمقدمين والسائحين والمستمعين واللاحقين، وجميع هذه المراتب من العالم النوراني الذي هبط من السماء النورانية على سبع مراحل. أما عالم الظلمة فيضم الأرواح التي لبست قمصان المسوخية في كل أدوار مسخها، ومنها المسخ بصورة امرأة[(2)].

---

(١) سورة المائدة آية ٧٣.

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية / مادة نصيري / ومخطوط تعليم الديانة النصيرية ورقة ١٤أ. وكتاب الهفت والأظلة للمفضل الجعفي ص٣٢.

وذلك لأنهم يعتقدون أن المرأة لا تستحق أن تكون مؤمنة، فإذا قدر لها ذلك؛ فإنها بعد موتها ترد بصورة رجل مؤمن، لأن صورة المرأة هي هبوط من الدرجة التي سما لها المؤمن، أما الرجل الكافر بدينهم فيعتقدون أنه عندما يموت ترد روحه في صورة امرأة كافرة، لأن الشياطين كما يقولون من المرأة، والإنسان إذا ارتقى في كفره صار إبليسا وورد في صورة امرأة(١).

ويجري على هذا الاعتقاد قولهم إنه كان قبلنا سبعة أدوار وسبعة أوادم، وفي كل دور كان يبعث فيهم آدم، ونحن في الدور الثامن، وسيبقى الكون والوجود هكذا وإلا يبطل سلطان الله وقدرته(٢).

وتقمص الأرواح بالنسبة للمؤمن في نظرهم هو ارتقاؤه في الدرجات والمراتب حتى يخرج من هذه القمصان اللحمية ويلبس قمصان الأنواع وهي النجوم(٣). فالنجوم هم المؤمنون والصالحون.

أما الكافر فيحل عليه المسخ والنسخ(٤)، فيبقى كذلك على مر الأكوار والأدوار، يأتي بقمصان رديئة دنيئة كالحيوانات التي تذبح والتي لا تذبح، أو أن يأتي بصورة جامدة من معدن أو حجر فيذاق بذلك حر الحديد وبرده(٥).

ويرى المفضل الجعفي أحد مشايخ ابن نصير أن الحجر والشجر والماء والملح وغير ذلك مما لا يدب ولا يمشي ولا يطير، هو مما يتحلل من أبدان المؤمن والكافر، فكل من هذه الأشياء من كانت له طعم طيبة ورائحة لذيذة أو ملامسة لينة أو مشرب صافي، فانه يكون

---

(١) كتاب الهفت والأظلة / المفضل الجعفي ص١٤٢، ١٤٤.

(٢) المصدر السابق ص٨٠.

(٣) كتاب تعليم الديانة النصيرية – مخطوط – ورقة ١٦ب / وكتاب الصراط / للمفضل الجعفي – مخطوط – ورقة ٩٥ ب – ٩٨أ.

(٤) هو انتقال الروح بعد موتها إلى جسد حيوان ليتعذب، فهو شكل من أشكال العقاب التي تحل بالكافر أي – غير النصري –.

(٥) كتاب تعليم الديانة النصيرية – مخطوط – ورقة ١٧أ.

مما يتحلل من أبدان المؤمنين، وأما الأشياء التي لها رائحة نتنة وطعمها مر وغير ذلك، فإنه مما يتحلل من أبدان الكافرين[1].

والكافر في اعتقادهم يمسخ في كل شيء ما عدا الصورة البشرية، وذلك لما سبقه من الكفر والجحود والإنكار لأهل الحق - وهم النصيرية -، فيعاقب ويعذب بتركيبه بكل شيء ما عدا الصورة البشرية الإنسانية من بقر وغنم وإبل وطير وهوام، وكل ذي روح من قردة وخنازير مما يؤكل ولا يؤكل، وهذا في نظرهم هو المسخ والنسخ، فالذي يؤكل منه هو نسخ، والذي لا يؤكل هو مسخ، وهذا كله - كما يزعمون - عدل من الله عز وجل لهؤلاء الجاحدين لأهل الحق لقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾[2]. **فمسخهم الله لتكذيبهم بالدين، لأن (الدين)[3] المذكور في الآية الكريمة - كما يزعمون - هو أمير المؤمنين على بن أبي طالب[4].**

والتناسخ الذي يقع على الكافر بديانتهم يجري عليه ألف موته وألف ذبحة، وذلك عن طريق المسخ والنسخ ويستدلون على ذلك بآيات منها قوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمۡ[5] فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6]، **وقوله تعالى** ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[7]، **وقوله جل وعلا** ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾[8]، **ويعتبرون**

---

(١) كتاب الهفت والأظلة ص٧٦.

(٢) سورة الانفطار آية ٦ – ١٢.

(٣) والصحيح أن المقصود بالدين في الآية الكريمة هو يوم الحشر يوم يجازى الناس على أعمالهم.

(٤) كتاب الهفت والأظلة ص٧٤، ٧٥.

(٥) مع الأسف فقد اقتطع من الآية ليستدلوا على ما يزعمون وبداية الآية كانت قوله تعالى ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾.

(٦) سورة الواقعة آية ٦١، ٦٢.

(٧) سورة الانفطار آية ٨.

(٨) سور الإسراء آية ٥٠، ٥١. والآية التي قبلها كانت قوله تعالى ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩﴾ فأجابهم الله بالآيات الكريمة بأنه قادر على بعثهم حتى ولو كانوا حجارة أو حديداً، وأما الخلق الذي يكبر في الصدور فهو الموت نفسه.

(الخلق الذي يكبر في الصدور) الذهب والفضة باعتبارهما من معادن الجبال لقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[1]، فالجبال في نظرهم هم الجبابرة والطواغيت الذين ظلموا أهل الحق - النصيرية - فمسخوا على هذه الحالة، حتى ينتهي هذا الدور، فيمسخوا مرة أخرى حيوانات تؤكل وتشرب[2].

ويبقى عذاب المسخ والنسخ على الكافر بدينهم في جميع الأدوار إلى أن يظهر القائم الغائب - وهو محمد بن الحسن العسكري - فيرد هؤلاء في صورة الإنسانية، ثم يقتلهم من جديد فتجري الأودية بدمائهم كما يجري الماء[3].

والكافر قبل ظهور القائم ينادي ويصرخ أن يخرجه الله من العذاب الواقع عليه بالمسخ والنسخ وأن يعيده إلى الصورة الإنسانية ليؤمن بدينهم ويعمل صالحاً، ويتسدلون على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[4]. فالكافرون يقولون لربهم أخرجنا من الأبدان المسوخية ومن هذا العذاب إلى الأبدان الناسوتية لكي نعمل صالحاً[5]».

والنصيرية في الوقت الحاضر لا تنكر هذا الاعتقاد مطلقاً، بل لا تزال تؤمن به وتبرره بكل ما يعنيه هذا الاعتقاد من كفر وإنكار، يقول هاشم عثمان النصيري: «إن إنكار وجد البعث شيء طبيعي وهو كان ذائعاً في العصر العباسي قبل ظهور اصطلاح النصيرية[6]». وكأن وجود هذا الاعتقاد يبرر إنكار النصيرية للبعث والنشور.

والواقع أن اعتقاد التناسخ بكل صوره وأشكاله، يهدم ركنا هاما من أركان الإيمان في الإسلام وهو الإيمان باليوم الآخر بما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار، وعدم الإيمان

---

(١) سورة فاطر آية ٢٧.

(٢) كتاب الصراط / المفضل الجعفي - مخطوط - ورقة ٥٣ أ، ب.

(٣) المصدر السابق ورقة ٥٣ أ، ب.

(٤) سورة فاطر آية ٣٧ ت.

(٥) كتاب الهفت والاظلة / الجعفي ص٦٦

(٦) العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص٧٧.

بالآخرة يخرج الإنسان من طريق الإسلام، وهذا واضح في كثير من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ بِٱللَّهِ .. ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2]. ووصف الله هذا اليوم بوصف دقيق في كثير من الآيات والسور كقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[3].

فكيف بنا فيمن يعتقد بالتناسخ، والذي جاء الإسلام لإزالته. كما أزال باقي الاعتقادات الوثنية والإلحادية. أما الآيات التي يستدلوا بها على هذا الاعتقاد الفاسد فهو نوع من المغالطة والتأويل بالرموز والألغاز، والإسلام بريء من هذا لأنه دين الوضوح بلا لبس ولا غموض.

ونستطيع أن نقول بكل تأكيد إن التناسخ مرتبط باعتقادات كثيرة كانت سائدة قبل الإسلام في فارس والهند واليونان، وكما يقول الدكتور محمد كامل حسين: «فإن لهذه العقيدة علاقة بمذهب التناسخ في الديانة البوذية، والديانة الهندوكية»، ففي الديانة البوذية ظهر بوذا على هيئة حيوانات وطيور وشجر وصور أنسية حوالي ألف مرة، وفي الديانة الهندوكية ظهر شيفا على صور إنسانية عديدة. كذلك ظهر مذهب التناسخ عند فلاسفة اليونان وكانوا يعتقدون بظهور آلهتهم بصورة مختلفة، وكان فيثاغورس أحد فلاسفتهم يدرس هذه الفكرة لأتباعه، بل إنه كان يؤمن بقرابة الإنسان والحيوان[4]».

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧.

(٢) سورة النساء آية ١٣٦.

(٣) سورة الزلزلة آية ٧، ٨.

(٤) انظر البوذية وتأثيرها في الفكر والفرق الإسلامية المتطرفة / محمد علي الزعبي وعلي زيعور ص١٤٧ – ١٤٩. وكتاب طائفة الدروز – محمد كامل حسين ص١٠٩. وكتاب هيراقليطس فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي – د. علي النشار ورفاقه ص٢٤٩.

٣- تعظيمهم لسلمان الفارسي والأيتام الخمسة وحبهم لابن ملجم قاتل علي، وموقفهم من الصحابة الأخرين:

ذكرنا في بحثنا عن ألوهية علي عند النصيرية، أن لهم ثالوثا يؤمنون به وهو: (ع. م. س)، فالعين هو علي بن أبي طالب وهو المعنى أي الذات الإلهية، والميم هو محمد ﷺ وهو الاسم والحجاب والنبي الناطق، أما السين فهو سلمان الفارسي وهو الباب الذي خلقه - كما يزعمون - محمد ﷺ، وبالتالي هو الذي خلق الأيتام الخمسة الذين بيدهم مقاليد السموات والأرض.

ومما يذكر في هذا المقام، أن سلمان فارسي الأصل من صحابة رسول الله ﷺ، ولكنه يحتل مكانا عظيماً وجليلاً عند جميع الطوائف الشيعية على اختلاف عقائدها وأسمائها، لأنهم يزعمون أن من الصحابة القلائل الذين ناصروا وشايعوا علياً ووقفوا إلى جانبه في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك في عهد أبي بكر وعمر وعثمان. وهذا الأمر واضح في كتب الشيعة جميعهم التي تأتي بقصص مختلقة ليس لها أي أساس تاريخي، بطلها الحقيقي سلمان في موقف الدفاع عن علي ضد أعدائه من صحابة رسول الله ﷺ، كما تصور هذه القصص.

أما الأيتام الخمسة الذين ورد ذكرهم فيما سبق، فهم أيضا من الصحابة المعظمين عند كل الشيعة، وهؤلاء هم: المقداد، وأبو ذر الغفاري، وعبدالله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وقنبر بن كادان، وجميعهم من الصحابة ما عدا قنبر فانه خادم علي بن أبي طالب.

وقد أخذت النصيرية عن الشيعة هذا التعظيم لهؤلاء، ولكن بوجه أخر: هو اعتبار سلمان والأيتام الخمسة هم الذين خلقوا العالم والموكلون بأموره.

فسلمان في نظرهم هو النفس الكلية التي انبثقت من العقل - محمد ﷺ -، ويعتقدون ان سلمان أو النفس الكلية هي التي خلقت السموات والأرض، وخلقت كذلك الأيتام الخمسة، والمقداد باعتباره أول الأيتام الخمسة فقد خلق الناس ولذلك فهو رب الناس، - تعالى الله عما يقولون -.

وهذا الاعتقاد في الواقعة دخيل من عدة مذاهب واعتقادات، لذا يجب أن نربطه بصورة طبيعية بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة: التي تقوم على أن الموجودات فاضت عن الواحد ولها مراتب مختلفة، أعلاها مرتبة العقول المفارقة[1].

ونربطه كذلك بمذهب الصابئة الذي يقول: أن للعالم صانعاً فاطرا نتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون لديهم، وهم أيضا الأرباب والآلهة والشفعاء عند الله رب الأرباب ويوجهون المخلوقات[2].

وينبغي أيضا كما يقول المستشرق ماسينيون: أن نقارن بين قائمة الأيتام عند النصيرية، وقائمة الحدود الهندية أو العذارى الحكيمات لسليمان[3].

ومن أقوالهم حول هذا الاعتقاد، ما نجده في كتاب تعليم الديانة النصيرية فيقول على طريقة السؤال والجواب:

«س: كيف المعنى اخترع الاسم، وكيف الاسم اخترع الباب؟

ج: اعلم أن عنصر العناصر وجوهر الجواهر اخترع الاسم من نور وحدانيته، وجعله نورا منجبلا من جوهر معنويته، وحركة من سكونه، واصطفاه وسماه باسمه، واجتباه. ولم يكن له ربا سواه، وجعله حده الخالق ولسانه الناطق، وأقامه بالأمر العظيم، والسبب القديم، وجعله دائرة الوجود، ومحراب السجود بأمر العلي المعبود، وقال له: كن سبب الأسباب ومبوب الأبواب، فعندها الحجاب خلق الباب بأمر مولاه، وأمره أن يخلق العوالم العلوية والسفلية[4]».

فسلمان إذن - حسب زعمهم: خالق السموات والأرض، وهو أيضا «الباب الناطق والشبح اللاصق الذي لا يوصل إليه - أي إلى الله - إلا منه، متصل غير منفصل[5]».

---

(١) المعجم الفلسفي / د. جميل صليبا جـ٢ص٧٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ١٤ ص٨٩ - ٩١.

(٣) المصدر السابق - مادة نصيري.

(٤) مخطوط كتاب تعلمي الديانة النصيرية ورقة ٤ب، ٥أ.

(٥) مسائل عن المراتب - مخطوط - ورقة ٥٥ب.

ويزعمون أيضا أن «محمد ﷺ بمنزلة الأب لهذه الأمة، وسلمان بمنزلة الأم[(١)]»، «والذي علم القرآن لمحمد هو المعنى أي علي، على لسان الباب وهو سلمان[(٢)]» بصفته جبرائيل.

وللباب أسماء وصفات كثيرة، فهو «روح القدس جبرائيل، وهو أيضا العزيز الأعلى سلمان[(٣)]»، «وهو نور الله، وسر وجود الوجود، ونور العقل وصفته وكلمته، وإلهي البعث والنشور[(٤)]».

وبطريق التناسخ الذي يؤمنون به، فإن الباب أو سلمان كانت له أسماء مختلفة على مر العصور والأدوار، وهذه الأسماء هي: «جبرائيل، ويابيل، وحام، ودان، وعبدالله، روزن، وسلمان الفارسي، وقيس بن ورقة، ورشيد الهجرى، وعبدالله بن غالب الكابلي، ويحيى بن معمر، وجابر بن زيد الجعفي، ومحمد بن أبي زينب الكاهلي - المعروف بأبي الخطاب -، والمفضل بن عمر الجعفي، ومحمد بن المفضل، وعمر بن الفرات، ومحمد بن نصير النميري[(٥)]».

وابتداء من قيس بن ورقة، فإن جميع هذه الأسماء كانت بنظرهم أبواب الأئمة الشيعة الاثنى عشر، فهؤلاء الأئمة في اعتقادهم كانوا الحجاب الناطق عن المعنى الذي غاب، فعند غيابه أصبحوا هم أسماءه الصفاتية، أي متصلون به غير منفصلين، والباب لا يظهر إلا بظهور الحجاب، والحجاب لا يظهر إلا بظهور الباب، لأن الباب مادته وكونه وذاتيته وفعله[(٦)].

أما الظهور الأخير للباب، وهو ظهوره بشخص محمد بن نصير، «فإنه الظهور الذي ليس بعده ظهور، لأن محمد بن نصير هو باب الله الذي لا يتخذ بعده بابا، ولكن بعد غياب الاسم (محمد بن الحسن العسكري) أصبح ابن نصير بصفته الباب هو الحجاب

---

(١) مخطوط مناظرة الشيخ يوسف الحلبي ورقة ٩٢ب.

(٢) كتاب تعليم الديانة النصيرية – مخطوط – ورقة ١٦أ.

(٣) المصدر السابق ورقة ٨أ.

(٤) كتاب الأصيفر – للحراني – مخطوط، ورقة ٣٢ ب.

(٥) المصدر السابق ورقة ٧أ.

وكتاب تاريخ العلويين / لمحمد الطويل ص٢٥٤.

(٦) كتاب الأصيفر / الحراني ورقة ٣٤ب.

والاسم والنبي الناطق والمتصل بالمعنى (أي الذات الإلهية)، ولم يزل ولا يزال هذا الأمر حتى ظهور القائم[1]».

ويطلقون على ابن نصير لقب سلسل، لأنه ليث الدين ويوم الدين، وينقلون عن الخصيبي قوله: «والباب الذي أشرع من دار النهايات، فالباب الذي أشرع هو سلمان، ودار النهايات هو - محمد ﷺ - كما قال - أي عليه الصلاة والسلام: أنا مدينة العلم وعلي بابها، ولسلمان من محمد - ﷺ - كما لمحمد من معناه[2]». وهذا طبعا ينطبق على الظهور الأخير - ابن نصير - لأنه أصبح بذلك هو الباب ودار النهايات.

والنصيريون في الوقت الحاضر. ويحاولون أن يؤلوا أمام الناس إيمانهم بسلمان والأيتام الخمسة بتبريرات سطحية ليس لها أساس من الصحة التاريخية ولا المنطقية، فيقولون: «إن الأيتام الخمسة، وهذا اللقب لا يرمز إلى مذهب روحاني، ولكنه أطلق عليهم لاتخاذهم سلمان الفارسي أبا صادقاً يغمرهم بعطفه وحنانه، فكان هؤلاء الخمسة يتململون متى غاب سلمان عنهم، وقد عرفوا لفرط إذعانهم لأقواله بأيتام سلمان ليس إلا؟!![3]».

وهذا في الواقع تبرير سخيف تزداد به حقيقة هؤلاء، واستخفافهم بالعقل والمنطق، فلم يكن لهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم مرشداً ولا معلماً إلا رسول الله ﷺ، وهذا ما ذكره التاريخ، وما نطقت به سيرة هؤلاء الصحابة.

أما موقف النصيرية من باقي الصحابة رضوان الله عليهم، فهو موقف العداء والحقد، باعتبارهم أبالسة ظالمين لعلي، وخاصة أبو بكر وعمر وعثمان، فيصبون اللعنات والشتائم عليهم مما لا يمكن ذكره.

---

(١) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي - مخطوط - ورقة ١١٩أ - ١٢١ب.

(٢) المصدر السابق ورقة ١٢٨أ، ب.

(٣) العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص١٦٤، ١٦٦، نقلا عن مجلة الأماني الصادرة في اللاذقية العدد السادس آذار ١٩٣١م.

وعندما يأتون بقصة من قصصهم المختلقة حول هؤلاء الصحابة، يسمونهم بأسماء وألقاب بذيئة منها: ساكن لعنه الله، والشيطان، وأدلم[1]. ومن القصص المختلفة والسخيفة التي يذكرونها ويستدلون بها على ألوهية علي قصة تقول: «إن أحد حكماء الفرس جاء إلى المدينة وسأل عن أمير المؤمنين، فأتوا به إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فلم يكلمه ذلك الحكيم وخرج من عنده، وعندما سألوه لماذا لم يكلمه قال: هذا ظلمة بلا نور، هذا أصل كل ظلمة، ومضل كل أمة ومغير كل ملة فلا تركنوا إليه... ثم سأل عن أمير المؤمنين علي، فلما أتوا به إلى علي، جعل علي يكلمه بكلام غير معروف، فلما خرج من عنده سألوه عنه فقال: هذا أصل كل نور، ومدبر الأمور، والرب الكريم والعلي العظيم[2]».

لذلك فهم يصبون غضبهم وحقدهم على عمر رضي الله عنه، وكتبهم مليئة بهذه السخافات الدنيئة، وعمر في رأيهم كان عدوا لعلي في جميع ظهوراته من قبل عن طريق التناسخ، فهو مثلا قابيل عندما ظهر علي في صورة هابيل[3] ويبررون زواج عمر من أم كلثوم بنت علي، على أن هذا توهم من عمر - كما يزعمون -، لأنه في الحقيقة قد تزوج بابنته جريرة التي أوهمه علي أنها أم كلثوم، فلما دخل بها عمر أعلمه سلمان بذلك، فخاف أن يفتضح أمره فلم يخبر أحداً[4].

وبسبب هذا الحقد ضد عمر، فإنهم يحتفلون بعيد مقتله ويسمونه (يوم مقتل دلام لعنه الله)، وهو اليوم التاسع من ربيع الأول من كل سنة[5].

لذا فالجهاد عند النصيرية هو ذكر الشتائم على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة[6] وكذلك على الفقهاء والعلماء أمثال أبي حنيفة والشافعي وأحمد ومالك، لأنهم

---

(١) هذه الأسماء يطلقونها على عمر رضي الله عنه.

(٢) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي - مخطوط - ورقة ٧٤ب، ٧٥أ.

(٣) انظر كتاب الهفت والأظلة / للجعفي ص٦٩.

(٤) المصدر السابق ص٦٩ - ٧٣.

(٥) مخطوطة (أعيادنا) ورقة ٣٩أ.

(٦) الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / للحسيني عبدالله ص١٦٤ - نقلا عن الباكورة السليمانية لسليمان الأذني.

يأكلون من خيرات علي ولا يعبدونه[١]، فهم أنجاس لأنهم نصبوا أنفسهم لضلالة من اتبعهم فصدوا الناس عن آل البيت[٢].

هذا هو مع الأسف موقفهم من صحابة رسول الله ﷺ، موقف الحقد والضغينة الذي يدور في صدور أعداء الإسلام ضد هؤلاء، لأنهم رفعوا راية الإسلام خفاقة في كل أرجاء الأرض، وحطموا كل طواغيت الشرك والوثنية التي تختفي النصيرية وراءها.

وفي المقابل فإن النصيرية تقدر وتحب عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه، وتعتبره أفضل الناس، لأنه خلص اللاهوت من الناسوت بقتله، وبذلك تخلص اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره[٣].

٤- المراتب والدرجات عند النصيرية:

العالم عند النصيرية ينقسم إلى قسمين: العالم العلوي، و العالم السفلي، ولكل واحد منهما رتبه ودرجاته.

والعالم العلوي هو العالم النوراني الذي تعيش فيه الرتب النورانية التي تنتهي برتبة البابية، وتفيض بالنور على العالم السفلي، الذي لا يزال ينتقل في الصور البشرية، ولم يصل إلى مستوى الإيمان الكامل[٤].

والعالمان العلوي والسفلي في نظرهم، هم النصيريون عاقلهم وجاهلهم[٥]، فغير النصيري لا يكون في الصورة البشرية لأنه ممسوخ بالصور الأخرى، مثل صورة المرأة والحيوان والجماد.

---

(١) العلويون أو النصيرية / د. مجاهد الأمين ص١٥.

(٢) كتاب الصراط / للجعفي ورقة ١٧٨ب.

(٣) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم جـ٤ ص١٨٨.

(٤) العالم السفلي في نظرهم يتكون من (١١٩) ألف نسمة... انظر مخطوطة كتاب تعليم الديانة النصيرية ورقة ١٤أ/ وكذلك موضوع تناسخ الأرواح عند النصيرية من هذه الرسالة.

(٥) العقلاء هم العالم العلوي، وهم مشايخ النصيرية، والجهال هم العوام من النصيريين الذين لا يزالون يترقون في درجات العالم السفلي ولم يعرفوا عن دينهم الشيء الكثير.

أما درجات العالم العلوي، فهي للمؤمن، وتتكون من سبع درجات، لا يرتقي الشخص من درجة إلى درجة إلا بمقدار علمه وعمله، فهي ترتبط ارتباطا مباشرا بالباب والأيتام الخمسة، لأن من جملة هذه الرتب: اليتيم والباب.

وأول درجة يرتقي إليها المؤمن من العالم السفلي إلى العلوي هي درجة الممتحن، تليها درجة المخلص، فدرجة المختص، ثم النجيب، ثم النقيب، فاليتيم، وأخيرا الباب، وهذه الدرجات في نظرهم عقبات، فكلما تجاوز المؤمن درجة كأنه بذلك تجاوز عقبة من العقبات[١].

فاذا أصبح الشخص أو المؤمن في الرتبة السابعة وهي رتبة البابية، فعند ذلك يدخل: «المحل الأعلى، ويتخلص من هذه الصور، ليصبح نورانيا فيظهر له الاسم - أي الحجاب - فيعاينه ويشاهده ويطلعه على علم تكوينه»[٢].

ويستدلون على تقسيم هذه الدرجات بقوله تعالى - على لسان إبراهيم عليه السلام -: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[٣]، ويؤول الخصيبي هذه الآية بقوله: «إن الباب هو الذي قال: ليطمئن قلبي، وكان إرادته في ذلك استئذان مولاه أن يرتب أربعة يكونوا مع المقداد في الرتبة[٤]، فقال له الله (وهو الاسم): - ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٥]، فالطيور الأربعة هم الأيتام، والجبال هم الخمس مراتب: النقباء، والمختصين، والمخلصين، والممتحنين.... فتولى المقداد مرتبة النقباء، وتولى أبو الدر مرتبة النجباء، وتولى عبدالله مرتبة المختصين، وتولى عثمان مرتبة المخلصين، وتولى قنبر

---

(١) انظر كتاب الصراط / للمفضل الجعفي - مخطوط - ورقة ٩٥أ، ب.
(٢) المصدر السابق ورقة ٩٨أ.
(٣) سورة البقرة آية ٢٦٠.
(٤) أي رتبة اليتيم.
(٥) سورة البقرة آية ٢٦٠.

مرتبة الممتحنين... فالنقباء تمد النجباء بالنور، وهكذا تمد كل مرتبة الأخرى بالنور... أما الرتبة الاخيرة أي - الممتحنين - فإنها تمد مراتب العالم السفلي السبعة البشرية، فتمد المقربين، والمقربين تمد الكروبيين، والكروبيين تمد الروحانيين، والروحانيين تمد المقدسين، والمقدسين تمد السائحين، والسائحين تمد المستمعين، والمستعمين تمد اللاحقين»[1].

والمراتب السبعة السفلية لا ترتفع إلى العالم العلوي ومراتب السبع إلا بارتقاء الدرجات السابقة الذكر من درجات العالم السفلي، حتى تصل إلى درجة (الكروبيين)، وهي الدرجة التي يرفع فيها عن الشخص كرب البشرية لأنه عرف باريه واسمه وبابه[2]، فيكون بذلك قريب من درجة المقربين التي تستمد نورها من العالم العلوي.

والشعراء النصيريون، أنشدوا هذه المراتب في قصائد، منهم المنتجب العاني الذي وصفهم بقوله:

فتلــك الأبــواب والأيتــام تتــبعهم
وخلفهــم نقبــاء ســادة نجــب
واثــرهم نجبــاء كلهــم ســلكوا
نهــج الهــدى والى نيــل العــلا وثبــوا
وبعــد ذلــك مختصــون تــرفعهم
ومخلصــون إلى مــولاهم قربــوا
فهــذه ســبعة علويــة ظهــرت
دون الأوائــل منهــا السـبعة الشـهب
وبعــدهم ســبعة ســفلية نســبوا
إلى الـتراب مـا وارتهـم الـترب»[3]

(١) مخطوطة مسائل عن المراتب ورقة ٥٧أ. ب.

(٢) المصدر السابق ورقة ٥٨أ.

(٣) فن المنتجب العاني وعرفاته ص٥٢، ٥٣.

والدرجة النهائية للمؤمن - كما مر - هي درجة الباب، وفيها يصبح المؤمن ملاكا، ويرفع عنه الأكل والشرب، ويستطيع أن يصعد للسماء وينزل للأرض، مثلما يريد، وكيفما شاء، لأنه يتصور بالصورة التي يريدها[١].

ولكن الدكتور مصطفى الشكعة ينقل عن كتاب (الباكورة السليمانية) أن رتب المشيخة في الوقت الحالي ثلاثة هي: الإمام، ثم النقيب، وتليها رتبة النجيب، ولكل واحد من هؤلاء سلطانه وحدوده وحقوقه... ويضيف: أن هذه الرتب افتقدت في الوقت الحاضر المؤهلات، ولعل المؤهل الغالب هو قوة شخصية صاحب الرتبة بغض النظر عن تأهيله العلمي والديني[٢]. وهذا يؤكده لنا البيان الذي أصدره أحد مشايخ النصيرية بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧م، والذي فضح فيه بعض أعمالهم، ومنها إعطاء الرتب إلى بعض ضباط الجيش السوري النصيريين تعبيراً عن جهودهم في خدمة الطائفة أمثال صلاح جديد، ومحمد عمران وغيرهم[٣].

٥- تعظيمهم للخمر، ونظرتهم إلى الأنثى:

الخمر في نظر النصيريين مقدسة أيما تقديس، لأنها تقدم بسر النقباء والنجباء خلال دخول الجاهل في أسرار عقيدتهم، لذلك يطلقون عليها اسم (عبد النور)، باعتبار أن الخمر خلق من شجرة النور وهي (العنب).

والحقيقة أنه لا يمكن للباحث أن يفصل موضوع الخمر والمرأة من موضوع دخول الجاهل في أسرار العقيدة النصيرية، لأن الخمر والمرأة أمران مهمان ومتلازمان يقدمان للشباب الداخل في أسرار الدين باعتبارهما جزءا من الضيافة للدخول في الفردوس.

وفي نظري أن تلقين أسرار النصيرية في جو الخمر والمرأة، يوضح لنا عملية التخدير النفسي والجسدي والعقلي التي تقع على الشاب وهو يلقن أسرار دينه، فكؤوس الخمر تدار

---

(١) كتاب الهفت والأظلة / للمفضل الجعفي ص٦١، ٦٢.

(٢) اسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة ص٣٥٢.

(٣) انظر كتاب مجتمع الكراهية لسعد جمعة ص٦٢ – ٧٥.

بين وقت وأخر فتلعب دورها في تخدير عقل الشاب، وتأتي الأنثى لتكمل الدور الذي بدأته الخمرة، فيكون الشاب حينذاك في وضع لا يمكنه أن يرفض أي شيء من أسرار الدين، وخاصة أنه أصبح في الفردوس المنشود (الخمر والمرأة).

ومع أن موضوع دخول الجاهل في دينهم، سيأتي تفصيله بعد هذا الموضوع مباشرة، إلا أنني أوضحت هذا الأمر بشكل موجز لارتباطهما معا، وليتبين للقارئ العملية الرهيبة التي يتعرض لها الشاب النصيري وهو يدخل في أسرار دينه، والدور الذي تلعبه الخمر والمرأة في ذلك.

والخمر - كما يزعمون - حللها الله لهم بصفتهم أولياء الله الذين آمنوا به وعرفوه بشخص (علي)، وحرمه على الجاحدين لله المنكرين له - أي الذين لم يؤمنوا بعلي - فهي نوع من الأغلال والآصار وضعت عليهم لعدم إيمانهم بعلي.

يروى عن الخصيبي: «أنه إذا حضر بين يديه (عبد النور) - أي الخمر - يأخذ القدح في يمينه، وينهل منه ثلاث نهلات، ويترنم عليه في هذا القداس المبارك ويقول: الحمد لله العلي وحده الذي أنجز وعده، ونصر عبيده، وأعز جنده، وأهلك ضده، وهزم الأحزاب وحده، فلا إله مثله ولا إله بعده، مفزع الطالبين، وغاية العارفين، إله الأولين وإله الآخرين، له الدين الخالص وإنما تدعون من دونه الباطل، وإن الله هو العلي الكبير أمير المؤمنين الملك الحق المبين... ألهم إن هذا عبدك عبد النور شخص النار[(١)] حللته وكرمته وفضلته لأوليائك العارفين بك حلالا طلقا، وحرمته على أعدائك الجاحدين المنكرين لك، حراما نصا، اللهم مولاي كما حللته لنا ارزقنا به الأمن والأمان، والصحة من الأسقام، وانف عنا به الهم والأحزان... ثم يقرأ عدد من الآيات، ويقول أخيرا: تذكروا بسر (العين) الله يرزقكم بركتها ورضاها»[(٢)].

---

(١) يعرفون شخص النار بأنه عبد النور (الخمر) الذي جعله الله قربانه الأعظم وشخصه المكرم وحكم على نفسه بالمغفرة فيه (من تعليق على مخطوطة كتاب تعليم الديانة النصيرية ورقة ١٨ب).

(٢) قسم (التوجيه لتعليم الديانة النصيرية) - القداس الثاني - مخطوطة ورقة ٢٥أ، ب / وكذلك مخطوطة كتاب تعليم الديانة النصيرية ورقة ١٨أ، ب.

وتسمية بعض صلواتهم بـ (القداس)، إنما يعود إلى تقديسهم للخمر، لأن القداس في اعتقادهم هو: تقديس الشراب وشربه بسر النقباء والنجباء[1].

أما المرأة فهي في نظرهم نوع من أنواع المسخ الذي يصيب غير المؤمن، فهي كالحيوان لأنها مجردة عن وجود النفس الناطق، لذلك فهم يعتقدون أن نفوس النساء تموت بموت أجسادهن[2]، لعدم وجود أرواح خاصة بهن[3]. «لهذا السبب فهم يستبيحون الزنا بنساء بعضهم بعضا، لأن المرأة لا يكمل إيمانها إلا بإباحة فرجها إلى أخيها المؤمن، وفي ذلك اشترطوا أن لا يباح ذلك للأجنبي ولا لمن هو ليس داخلا في دينهم»[4].

وهذا يفسر لنا ظاهرة كون المرأة جزءا من الضيافة المقدمة عند الدخول في أسرار العقيدة[5]. وكذلك الإباحية المطلقة التي تظهر خلال أعيادهم الكثيرة، كالنوروز والميلاد وغيرهما، حيث تدار كؤوس الخمر ويختلط الحابل بالنابل من نساء ورجال. ولعل هذه الإباحية تعيدنا إلى الحشاشين و تلامذة الحسن بن الصباح الذي كان يخدر تابعيه ويدخلهم إلى جنات ملأى بالنساء ليفرض عليهم ما يريد، وكذلك إلى القرامطة الذين كان لهم يوم يجتمعون فيه في مكان مظلم رجالا ونساء، فينكح الرجل أخته أو أمه أو أي امرأة تقع في يده.

ومن الطبيعي أيضا أن ترجعنا هذه العقائد لأقوال المؤرخين عن إباحة المحارم والنساء التي نادى بها ابن نصير في بداية دعوته، وكذلك في إباحته لنكاح الرجال بعضهم بعضا لأن هذا من التواضع والتذلل[6].

---

(١) مخطوطة كتاب تعليم الديانة النصيرية ورقة ١٦ب).

(٢) مخطوطة في تقسيم جبل لبنان - قسم - في مذهب النصيرية -.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية - مادة نصيري -.

(٤) مخطوطة في تقسيم جبل لبنان - قسم في مذهب النصيرية -.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية - مادية نصيري -.

(٦) انظر المقالات والفرق للقمي ص١٠٠ - ١٠١، وفرق الشيعة للنوبختي ص٧٨ - وموضوع نكاح الرجال بعضهم بعضا سيأتي توضيحه في الموضوع السادس من عقائدهم وهو (الدخول في العقيدة النصيرية).

والنصيرية لا يصرحون في كتبهم ومخطوطاتهم بموضوع إباحة النساء بشكل واضح، ولكن من يدقق النظر في الطقوس والقداسات التي تتبع في تلقين الجاهل، يجد هذا الشيء مدسوسا بين السطور والكلمات. ولكن التوضيح الساطع جاء من بعض أشعار النصيرية المخطوطة - المكسرة في الوزن واللفظ، التي تعطي القارئ وصفا حيا لقداساتهم وصلواتهم برفقة المرأة والخمرة، ومنها قول أحد شعرائهم (علي بن منصور):

ونحن مع السادات على طيب مشرب
نقتضي فروض الله مع كل واجب
ولم نختش من قول واش وكاذب
ونحن وربات الخدور سواحيا
تناولني كأس الهنا من يمينها
موردة الوجنات سودا عيونها
معدلة تسبي الورى في فتونها
بكل رداح كالهلال جبينها
فكم عالم قد تاه فيها موقفا
وكم جاهل قد ضل عنها محرفا
أكون عبدا خادما لجلالها
وبعت حياتي واشتريت وصالها
دخلت بملة لا أريد بدالها
فاسقوني السادات كأس زلالها[1]

ويضيف شاعر أخر هو (محمد الكلازي) قوله:

بدرا أضاء متجليا لما جاء
بالنور كالمشكاة والمصباحا

(١) مخطوط رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ١٦٨أ، ب - ١٦٩ب.

بوجـــوده ولى الظـــلام وأشرقـــت

كاســـــاته مملـيـــــة الأقـــــداحا

واذا بـــــدا متمنطـــــق بلثامـــه

أهــل الغــرام لقربـــة ترتاحـــا

طلبـــوا جميـــع العـــارفين وصـــاله

وفي هـــواه راحـــت الأرواحـــا[1]

ويتضح من شعرهم هذا أن المرأة هي التي تقدم كؤوس الخمر لمشايخهم، وأن صلواتهم وقداساتهم لا يمكن أن تخلو من هذين الاثنين.

ولكن النصيريين في الوقت الحاضر، وبعد أن كشفـت هـذه الحقائـق عن دينهم ومعتقدهم، يحاولون أن يوجدوا مخرجا لتقديسهم الخمر، حيث يقول أحدهم: إن الخمر قد استحلت عند المسلمين قبل ظهور النصيرية[2]، ولذلك فهم لم يأتوا بجديد وساروا على نفس الطريق، بل إن نفس الكاتب يروي عن الخصيبي في كتابه الهداية الكبرى قوله: إن الخمر حلال، ولم ينزل تحريمها في كتاب الله، لأن نوح عليه السلام - كما يزعمون - شرب الخمر وسكر حتى رقد، وكذلك فإن الناس تقدم لها القرابين منذ زمن قابيل وهابيل[3].

والعاقل وهو يقرأ هذا التبرير السخيف، يتساءل بمرارة عن وقت وكيفية استحلال المسلمين للخمر، وكأن تصرف فرد أو أفراد معدودين في تاريخ المسلمين الطويل بشربهم الخمر، يعد ويعني تحليل الخمر، فالخمر كانت في نظر الإسلام والمسلمين في الماضي

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٧٥أ.

(٢) العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص٦٩ - ٧٢.

(٣) الهداية الكبرى - للخصيبي - نشر في كتاب (العلويون بين الأسطورة والحقيقة) ص٢٣٩.

والحاضر حرام لا يجوز تناولها تنفيذا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[1]، فكيف بنا فيمن يعتبرها مخلوقاً نورانياً.

٦- مراسيم وطقوس الدخول في عقيدة النصيرية:

طريقة دخول الجهال في سلك عقالهم، يمر بعدة مراحل حتى يتيقنوا خلالها من إخلاصه وصدقه، فلا يلقنون الداخل جميع الأسرار دفعه واحدة، بل يطلعونه على القليل، والتدريج، وذلك لأن التلقين يمر من خلال ثلاث جلسات.

وتبدأ عملية الدخول، بأن يتخذ الشاب الذي يريد ذلك، أستاذا من مشايخهم يلقبونه (والدا روحيا أو دينيا)، فيخضع له غاية الخضوع، ويكون الواسطة بينه وبين مجلس مشايخهم - وهذا الوالد الروحي - في نظرهم - الأحق بالتكريم من الوالد الحقيقي، لأن الوالدين الحقيقيين لا فضل لهما على أولادهما، فقد أنجبا الأولاد بالعرض، وكان قصدهما ليس هو خير الأولاد، بل خير أنفسهما وهو لذة الجماع، وبذلك فقد تسببوا في خروج أولادهم لدار الشقاء، وأما الوالد الروحي فهو ذو الفضل العظيم على التلميذ، لأنه يقوده إلى معرفة الحق ودار السعادة. يقول الشيخ يوسف الحلبي في مناظرته: «فأما الذي أولدك فليس له عليك حقا ولو رباك، لأنه لم يأت زوجته طالباً لوجودك، ولا راغباً في ظهورك، وإنما كان طالباً تحصيل شهوة[2]».

والخضوع التام، والتذلل، مطلوب من التلميذ ومفروض عليه أمام شيخه، وإلا لا يمكن أن يلقن أسرار الدين، لأنها لا تلقن إلا للمتواضع الذليل لأخيه المؤمن، والتواضع كما يتصورونه واضح من مراسيم وطقوس الداخل في العقيدة، حيث يمر في مرحلتين:

---

(١) سورة المائدة آية ٩٠.

(٢) مناظرة الشيخ يوسف الحلبي مخطوطة ورقة ١٥٣ب.

الأولى هي وضع أحذية المشايخ على رأس الشاب الراغب في دخول العقيدة يتبعها تقبيل أقدام هؤلاء المشايخ، والمرحلة الثانية والمكملة للأولى، فتتم في الجلسة الثانية من جلسات التلقين، وهي قبوله مناكحة الرجل له. لأن هذا عندهم يدل على عدم التكبر والتذلل للأخ المؤمن[1] - كما يزعمون -.

وإذا رجعنا إلى مبادئ ابن نصير مؤسس فرقتهم، والتي دعا إليها وطبقها عملياً، نجد هذا التواضع من جملة المبادئ التي حملها، ففي رواية سعد القمي «أن يحيى بن عبد الرحمن بن خاقان رأى ابن نصير وغلام له - أي لابن نصير - على ظهره - أي على ظهر ابن نصير -، قال - أي ابن خاقان - فلقيت ابن نصير، فعاتبته بذلك، فقال: إن هذا من اللذات، وهو من التواضع لله وترك التجبر[2]».

وهذا الشيء يطبق عملياً في الجلسة الثانية من التلقين (السمّاع)، فبعد أن تدور الخمرة في الرؤوس، وتكمل المرأة عملها الشيطاني[3]، ينام الحاضرون بجانب بعضهم بعضا حتى وقت (السحر)؟! حيث يحين (وفي ذلك الوقت بالذات) عملية التلقين الثانية، بعد أن يصبح التلميذ ذليلا قولا وفعلا.

ويصف ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية هذه الطقوس بأنها تتشابه وتتصل بطقوس السبأيين، والأسرار القديمة لآسيا الوسطى[4]. وكذلك يمكننا أن نربط هذه الطقوس بعملية التكريس لدى الماسونية في الوقت الحاضر.

---

(١) مخطوط ١٤٥٠ عربي ورقة ١٦٤ب.

(٢) المقالات والفرق / سعد القمي ص١٠٠ / ١٠١.

(٣) راجع البحث السابق من عقائدهم في هذه الرسالة وهو (تعظيمهم للخمر ونظرتهم للأنثى) والذي وردت فيه بعض الأمور المتعلقة بهذا الموضوع.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية - مادة نصيري -.

والطقوس النصيرية تبدأ بجلسة تعرف باسم (التعليق)، حيث يتم فيها عقد (الزواج الروحي) بين الأستاذ والتلميذ، وفيه عقد وطلاق وعهد غليظ بعدم كشف أي شيء عن هذا الزواج الروحي، والمسمى (نكاح السماع)، لأن كلمات الوالد الروحي أو الأستاذ بمثابة تلقيح لروح التلميذ.

لذلك فهم يشبهون طريقة دخول الجاهل في دينهم بعملية الجماع بين الرجل والمرأة، فالتعليق الذي هو الجلسة الأولى، يعتبرونها البداية وهي وقوع النطفة في رحم المرأة وبداية خلق الجنين، فالنطفة في نظرهم هي وقوع نور المعرفة وقدسها في نفس الداخل بالعقيدة وبعد تسعة أشهر أو سبعة أشهر[١] وهي مدة الحمل تكون الجلسة الثانية وتسمى (السّماع) وهي بمثابة الولادة لهذا الطفل وخروجه من بطن أمه، لذا هذه الجلسة بالنسبة للتلميذ هي بداية العمر الحقيقي له، والولادة الحقيقية له، لأنه بذلك خرج من العدم إلى الوجود، وبعد ذلك بسنة أو سنتين - وهذا يعتمد على الشخص أيضا - وهي مدة الرضاع، أي رضاع المعرفة من الأستاذ، تأتي المرحلة الثالثة وهي النهائية حيث تؤخذ منه المواثيق والأيمان الغليظة، ويشهد على ذلك الشهود بأن لا يفشي سرا من أسرارهم التي يبيحونها له.

فالشاب الذي يريد الدخول في دينه، يتخذ له والدا روحيا من مشايخهم، فيدخله هذا إلى جمعية مشايخهم، فيقدمه لهم في اجتماع سري، وهذا هو التعليق والذي يتم كما سيأتي: «يقف النقيب، والولد عن يمينه، مكشوف الرأس، ويأمره أن يرفع على رأسه (مداسي) - أي حذاء - سيده (أستاذه)، ثم يأمره أن يسأل الجماعة ويقول: أسألكم يا جماعة بالوجه الذي تسألون الله به لأنه وجه الكمال، أن تسألوا شيخي وسيدي فلان....... أن يقبلني ولدا ومملوكا و يطهرني من نجس الشرك، وينقذني من ظلمة الضلال، ويهديني إلى الصراط، وفقكم الله وجعلكم أهلا لكل خير.

---

(١) وهذا يعتمد على شخص الداخل، فإذا وجدوه مخلصا أدخلوه بعد سبعة أشهر، لأن الحمل يكون في سبعة وفي تسعة.

ثم ينهض جميع الحاضرين ويقولون يا فلان هذا التلميذ سألنا بوجه الكمال أن نسألك حتى ترضه وتقبله، فإذا قبل منهم يرفع النقيب ما على رأسه ويجلسه بين يدي الإمام، ويجتمعون حوله ليشهدوا عليه، فيقول له الإمام: اعلم وفقك الله، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾[1]، قال النبي ﷺ: تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم إلى يوم القيامة[2]..... ولم يرد نكاح الجماع، وإنما هو نكاح السماع. واعلم أن هذه الجماعة إنما اجتمعوا بسبب عقد نكاحك، وقد قال النبي ﷺ: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبدل، ومن بدل نفسا ملك نفسا، ولك نفس أنفس من نفسك، وما تشتمل عليه صورتك، فإن بذلت ذلك زوجتك بكريمة مولاي هذا فلان الذي أعني السيد، وإن أبيت فهذا إليك... فإن طاع فيلزم (أي يمسك) يده اليمنى ويقول: زوجتك بأمر الله ومشيئته متبع لسنة رسوله كريمة مولاي فلان إلى ما استودعه الله لك عنده، وهي أمانة مبلغة أمر الله بها أبدا إلى أهلها، وإن الله أثبت لك أمرا لا شك فيه وهو نور المعرفة وحقيقة الإيمان، ولم يزل ذلك النور ينمو ويترعرع في نفسه إلى أن حصل الاستعداد - وهو وقوع النطفة وتربية الجنين - لقوله تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾[3]، وهي إدخال نور قدس المعرفة في داخله، وهي تربية نفسه كذلك... فيقول له الإمام: أقبلت هذا النكاح ورضيت به، فإذا قال نعم، فيقبل ما بين عينيه ويقول له: بارك الله فيك، وفيما أنت طالبه، وسير لك الاستعداد لقبوله، ثم يتلو عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[4].

---

(١) سورة النجم آية ٣، ٤، ٥ .

(٢) مع أن الحديث الصحيح (فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة) (بدون – إلى)، وذلك لأنهم يعتقدون أن الثواب والعقاب يكون بالصور الناسوتية أو المسوخية التي تحل على الإنسان بكفره أو إيمانه، أما يوم القيامة عندهم فهو ظهور القائم (محمد بن الحسن العسكري) الذي يقتل جميع أعدائهم.

(٣) سورة الأحقاف آية ١٥.

(٤) سورة التوبة آية ١١١.

ثم ينهض النقيب إلى سيده (أستاذه)، فيقبل يده ورجله والأرض بين يديه، فإذا فعل ذلك يقول له السيد: قم وفقك الله، ويأمره بشرب سر الإمام، فيعتزل ويقف بطرف المجلس ويشرب سر الإمام، وسر سيده، وسر الجماعة، ثم يقول: ساركم أحسن الله معادكم، وسار دينكم، وسار اعتقادكم، وأنا عبدكم تحت طاعتكم، وبعد ما يشرب يقبل أيدي وأقدام الجميع[1] ويبدأ بالإمام ثم جميع الحاضرين.

وبعد ذلك يشرب الحاضرون سر القبول لسيده، ويقولون: سارك يا فلان، سارك سر قبولك أيها التلميذ، هنئت بالوصول، ثم يجلسون حيثما كانوا، ويحضر ما يتيسر من الطيب والبخور والشراب، ثم يكتب النقيب التاريخ والوقت الذي هم فيه واسم الشهر لئلا يقع خلق في المدة والشهور[2] إلى ليلة السماع، وهذا هو التعليق.

وأما السماع، فيحسب أول عمره من التعليق، ومثاله مدة الحمل والولادة وما بينهما من التعليق إلى السماع، فلذلك يحسب أول عمر الإنسان الطبيعي لساعة ولادته عند خروجه من الرحم، وعمره الحقيقي لساعة ظهوره بالسماع من العدم إلى الوجود، ومدة الرضاع في الظاهر وفي الباطن حولان.... ولا يجوز للولد أن يتخلى عن السيد إلا بإذنه، فإن منزلته من سيده بمنزلة الزوجة من البعل والتلاقي للرجال لا للنساء[3].

ولا يجوز لمؤمن أن يعترض على من هو متعلق على بعض إخوانه، فقد قال مولانا جعفر الصادق: المؤمن لا ينزل على سمة أخيه، وقد يحمل له التزويج بأم أخيه المؤمن

---

(١) وهذا يدل على الإذلال النفسي الذي يتعرض له الداخل في عقيدتهم، بحيث يجعلونه في آخر الامر يصيح بأعلى صوته: بأنه عبد من عبيدهم وتحت طاعتهم.

(٢) كما مر سابقا فإن عملية التكريس في ثلاثة جلسات تتم مشابهتها بعملية حمل المرأة.

(٣) وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقا في هذا البحث عن موضوع التواضع والتذلل الذي لا يتم إلا بملاقاة الرجال بعضهم بعضا.

وأخته وزوجته إذا طلقها، فلم يبق إلا ولد السماع، فمن أخذه وعمل ذلك فقد زنا ولو كان بألف شاهد، وفسق الشهود، فيجب على الجميع المقاطعة حولا كاملا[1].

والسماع يجب أن يؤخر إلى وقت السحر على ما جرت به عادة المتقدمين والسادة الفضلاء من المؤمنين، وهو أن ينهض النقيب وينبه كل من هو نائم ويجلس الإمام والجماعة ويحضر النقيب الولد الطالب بين يدي الإمام، ويضع يده في يد الإمام فيتلو عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]. اعلم وفقك الله أنك قد أهلت نفسك لطلب أمر عظيم وخطب جسيم لا يحمله إلا كل ملك مقرب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه بالعلم والإيمان، فأخبرني ما الذي قد ثبت عندك وتصور في ذهنك ونفسك، وما أنت طالب من هذا الرجل، وذلك بعد أن يفهمه النقيب ما يجب أن يجيب به الإمام عند سؤاله إياه، فإذا سأله الإمام وحسن جوابه، فيتلو عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[3]، فإذا قال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فيقول الإمام: اعلم وفقك الله أنك طالب أمر عظيم تحتاج معه إلى شيء ينفعك فعله... واعلم وفقك الله أن جميع ما أوردته عليك إنما هو من جهة معاملة الإخوان خيرا بخير وشرا بشر... ويجب أن لا تتكبر على أحد من المؤمنين، لأن الاستكبار هو ترك الطاعة لمن أمرت بطاعته، فإن قبلت ما قصصت عليك وما سمعته مني بقبول، فإني آمر سيدك أن يجيب دعوتك ويرد إليك ضالتك، بعد أن يأخذ عليه العهد والميثاق ويقال له: جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وعقده وذمته وذمة رسول الله ﷺ، ثم يقول: والله والله والله، الذي كان قبل كل أحد، ما يدي إلا بيد الله الباقي، وإلا برئت من الله وحوله وقوته، وأنبياء الله وملائكته وكتبه ورسله، وعدت إلى حولي وقوتي ونفسي، وكل مرة تزوجت بها وأتزوج بها فلانة بنت فلان

---

(١) وهذا يعني أن الوالد الروحي يتكفل التلميذ في كل شيء حتى نكاحه (لأنه بمنزلة البعل له)، ولا يجوز للآخرين من المشايخ أن يأخذه إليه لأن هذا في عرفهم جريمة.

(٢) سورة الفتح آية ١٠.

(٣) سورة المزمل آية ٥.

تكون طالقة مني ثلاث على سائر المذاهب والاعتقادات، ومتى وصل إلي هذا الأمر وصلح لي فإني حافظه، قائل به، مجتهد في التقية به[1].

والله والله ويا من الله وبالله، وبما أخذ على النبيين من عهد وميثاق أن أستر جميع ما سمعته وعلمته ولقنته من أمر داعيتي وإمام زماني الذي أخرجني من العدم إلى الوجود، ومن النحوس إلى السعود، والذي عرفني الإقرار وإقرار المؤمنين له من عقد ذمته وأمور إخوته... ثم يقال له قل: والله والله والله وبالله إنك وكيل على هذا العقد أن لا تهدمه ولا تذيعه ظاهرا ولا باطنا على الشرائط المبينة، وبهذا العهد والميثاق وضعت على نفسك الوفاء بذلك، قل نعم على أنك لا تذيع علينا شيئا من هذه العقد لا في حياتنا ولا بعد وفاتنا، ولا على حال غضب، ولا حال رضى، ولا حال مناوأة، ولا حال رهبة، ولا حال رغبة، ولا حال شدة، ولا حال طمع، ولا حال حرمان، وإن لم يصلح لي فإني والله والله وبالله أني لا أذيعه إلى مخلوق بلسان ولا أكتبه في صحيفة بيدي، ولا أسعى في حق هذه الطائفة بسوء، ولا أكشف ما أوعزتموه الي واستكتمتموني إياه إلى مخلوق، فإن خالفت على ما أمرناك به، وأنت على ما ذكرته فإنك بريء من الله خالق السموات والأرض الذي خلقك وألف تركيبك، وأحسن إليك في دينك ودنياك، وتبرأ من الله ورسوله وملائكته المقربين متى ما خالفت هذا العهد وهذا العقد، قل: معاذ الله أن خالفت ما سمعت منك يا فلان، والله والله والله وبالله الذي أحسن إليك في حال دينك ودنياك، قل: اليمين يميني، والنية نية مستحلفي، ثم تقول: وفقك الله لقد أديت ما عليك فافهم ما يجب لسيدك عليك، ثم يوعظه بعد اليمن... ويقول: واعلم وفقك الله أن سيدك هو ربك ونبيك ورسولك، ليس هو إلهك وخالقك ورازقك، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[2].... فخمس مالك لهذه الجماعة حلال مطلق في رأس كل سنة تأتي إليك، وأن تكون داعيا

---

(١) مما يؤكد مقدار التستر والكتمان في دينهم وضرورته؟!

(٢) الأنفال آية ٤١.

لسيدك شاكرا متوددا، وأن تغفر زلته وترحم عبرته.... وأن لا تهتك له سترات ولا تكشف له سرا.

ثم ينهض النقيب إلى ما بين يدي سيده ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1] ثم إن سيده يفتح عليه الفتح[2]، ثم يقبل سماعي، وما توفيق إلا بالله وسيدي المنعم... وبعد ذلك يقبل الأرض بين يدي سيده، ويقبل التلميذ، إلى أن يأمر الإمام السيد بالجلوس فيجلس، ثم يأمر الإمام الولد أن يتقدم إلى سيده ويقبل يده ورأسه والأرض بين يديه، ويتأخر ويتوقف في ذيل المجلس إلى أن يأمر الإمام النقيب أن يناوله قدحا يشربه سر الإمام، ثم يقبل الولد الأرض بين يدي الإمام بعد أن يشرب سره ويعود إلى ذيل المجلس، فيناوله النقيب قدحا أخر فيشربه النقيب قدحا ثالثاً يشربه سار الجماعة ويقبل أيديهم والأرض تطوعا بين أرجلهم، فإذا فعل ذلك ينهض كل واحد من الجماعة ويشرب سر القبول ويقبلوا يد الإمام ويعود التلميذ إلى مكانه إلى أن ينتهي الجميع....»[3].

ولكن طريقة الدخول هذه - والمأخوذة عن مخطوطة نصيرية - نجدها في صورة أخرى يرويها لنا أحد النصيريين المارقين والمعاصرين لنا (سليمان الأذني)، والذي دفع حياته ثمنا لإذاعته الأسرار، ومع أن فيما يرويه الأذني بعض الاختلافات البسيطة، عما جاء بالمخطوطة، إلا أنه في الإمكان أن نأخذ الخطوط العريضة التي يسير عليها النصيريون من كلتا الطريقتين. أما السبب في تكرار ما جاء به الأذني من جديد، فحتى يكون لدى القارئ انطباع واضح أن النصيرية لا تزال إلى الآن على الطريق القديم نفسه وأنه لم يحدث بها أي جديد، وكذلك حتى نلم بأسرار الجلسة الثالثة والهامة، التي يخضع فيها الشاب لأساليب نفسية رهيبة، وفيما يلي ما يقوله الأذني:

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

(٢) وهي سورة من السور التي يقرأها النصيرية في صلواتهم وقداستهم، وهي لا تمت للقرآن بصلة إلا بآية (إذا جاء نصر الله والفتح).

(٣) مخطوط رقم ١٤٥٠ عربي عن الإمام وما يجب عليه ورقة ١٥٨ب - ١٦٧ب.

«... ولما بلغت السنة الثامنة عشرة من العمر، أخذ بنو طائفتي يطلعونني على أسرارهم الباطنية التي لا يكشفونها إلا لمن بلغ السن أو سن التشريف. وفي ذات يوم، اجتمع جمهور من الخاصة والعامة، واستدعوني إليهم، وناولوني قدح خمر، ثم وقف النقيب بجانبي وقال لي: قل: بسر إحسانك يا عمي وسيدي وتاج رأسي، أنا لك تلميذ، وحذاؤك على رأسي». ولما شربت الكأس التفت إلى الإمام قائلا: هل ترضى أن ترفع أحذية هؤلاء الحاضرين على رأسك إكراما لسيدك؟ فقلت: كلا بل حذاء سيدي فقط. فضحك الحاضرون لعدم قبولي القانون، ثم أمروا الخادم، فأتى بحذاء السيد المذكور، فكشفوا رأسي ووضعوه عليه، وجعلوا على الحذاء خرقة بيضاء ثم أخذ النقيب يصلي عليّ لكي أقبل السر، ولما فرغ من الصلاة رفعوا الحذاء عن رأسي، وأوصوني بالكتمان وانصرفوا.

فهذه الجمعية يسمونها المشورة.

ثم بعد أربعين يوما، اجتمع جمهور آخر، واستدعوني إليهم ووقف السيد بجانبي وبيده كأس خمر فسقاني الكأس، وأمرني بأن أقول: سر (ع.م.س) أما العين فهي علي - ويسمونه المعنى - وأما الميم فهي محمد - ويسمونه الاسم والحجاب - وأما السين فهي سلمان الفارسي - ويسمونه الباب -. ثم بعد ذلك قال لي الإمام: إنه فرض عليك أن تتلو هذه اللفظة، وهي: سر (ع م س) كل يوم خمسمائة مرة. ثم أوصوني بالكتمان وانصرفوا.

وهذه الجمعية الثانية يسمونها جمعية المليك.

ثم بعد سبعة أشهر (والمدة للعامة تسعة أشهر) اجتمع جمهور آخر أيضا، واستدعوني حسب عادتهم، وأوقفوني بعيدا عنهم، ونهض وكيل من بين الجماعة، والنقيب عن يمينه، والنجيب عن شماله، وبيد كل منهم كأس خمر، واستقبلوا نحو الإمام، مترنمين الترنيمة الثالثة[1]، التي هي للحسين بن حمدان الخصيبي، وسيأتي ذكرها بعد انتهاء صلوات أعيادهم، وبعد ذلك توجهوا نحو المرشد الثاني مترنمين هذه الترنيمة:

---

(١) وهو قداس الاذان، أورده المؤلف في صفحة ٤٠ من كتابه هذا.

سـألت عــن المكــارم أيــن حلــوا

وبعــض النـــاس دلـــوني عليكـــا

بحـــق محمـــد مـــع آل بيتـــه

ارحـــم مـــن أتـــى يقبـــل يـــديكا

قصـــدتك لا تخيـــب فيـــك ظنـــي

نحـــن اليـــوم محســـوبين عليكـــا[1]

ثم وضعوا أياديهم على رأسه وجلسوا، وأما هو فنهض قائما، وأخذ القدح من الوكيل وخرّ ساجدا، وقرأ سورة السجود - وهي الفصل السادس - ورفع رأسه، وقرأ سورة العين - وهي الفصل التاسع - ثم شرب الكأس، وقرأ سورة السلام - وهي الفصل السابع - ثم قام متوجها نحو الإمام قائلا: نعم نعم نعم يا سيدي الإمام، فقال له الإمام: ينعم عليك وعلى من حواليك، لقد عملت ما لم تعمله هذه الجماعة، لأنك أخذت القدح بيدك، وشربت وسجدت وسلمت، ولله السجود، فما هي حاجتك؟ وماذا تريد؟ فقال: «أريد أن أتمسى بوجه مولاي ثم أنصرف». ونظر نحو السماء ورجع إليهم وقال: نعم نعم نعم يا سيدي. فأجابه الإمام كالأول: ما حاجتك؟ وماذا تريد؟ فقال: «لي حاجة أريد قضاءها». فقال: اذهب اقضيها. ثم انصرف عنهم، ودنا مني لكي أقبل يديه ورجليه، فقبلتهما، ورجع إليهم أيضا وقال: نعم نعم نعم يا سيدي الإمام. فقال له الإمام: ما مرادك؟ وماذا تريد؟ فأجابه: إنه تراءى لي شخص بالطريق، فقال: ألم تسمع ما قال سيدنا المنتجب الدين العاني: الليل يجزع من كل صنديد. فأجاب: لي قلب قوي ولا خوف علي. ثم نظر إليّ أيضا، والتفت إليهم وقال: هذا الشخص اسمه فلان، وهو قد أتى ليتأدب أمامكم. فقال: من دله علينا؟ فأجاب: المعنى القديم، والاسم العظيم، والباب الكريم، وهي لفظة ع.م.س. فقال الإمام: ايت به لنراه. فأخذ المرشد بيدي وذهب بي إلى الإمام، فلما دنوت منه، مدّ لي رجليه فقبلتهما ويديه أيضا، وقال لي: ما حاجتك؟ وماذا تريد أيها

(١) يبدو أن هذا الشعر موضوع للغناء، فوزنه غير سليم لا يمكن تداركه إلا بالتلاعب بالأصوات كما يتم في الغناء الفردي والجماعي.

الغلام؟ ثم نهض النقيب، ووقف بجانبي، وعلمني أن أقول: «بسر الذي أنتم فيه يا معاشر المؤمنين». ثم نظر اليّ بعبوسة وقال: ما الذي حملك على أن تطلب منا السر المكلل باللؤلؤ والدر، ولم يحمله إلا كل ملاك مقرب، أو نبي مرسل؟ اعلم يا ولدي أن الملائكة كثيرون، ولا يحمل هذا السر إلا المقربون، والأنبياء كثيرون، وليس منهم من يحمل هذا السر إلا الممتحنون، أتقبل قطع الرأس واليدين والرجلين ولا تبيح بهذا السر العظيم؟ فقلت له: نعم. فقال لي: أريد منك مائة كفيل، فقال الحاضرون: القانون يا سيدنا الإمام. فقال: إكراما لكم ليكن اثنا عشر كفيلا. ثم قام المرشد الثاني، وقبل أيدي الاثنى عشر كفيلا، وأنا أيضا قبلت أيديهم، ثم نهض الكفلاء وقالوا: نعم نعم نعم يا سيدي الإمام، فقال الإمام: ما حاجتكم أيها الشرفاء؟ قالوا أتينا لنكفل فلانا، فقال: إذا باح بهذا السر أتأتوني به نقطعه تقطيعا ونشرب من دمه؟ فقالوا نعم. فأجاب وقال: لست أكتفي بكفالتكم فقط، بل أريد اثنين معتبرين يكفلانكم. فجرى واحد من الكفلاء، وأنا وراءه، وقبل أيدي الكفيلين المطلوبين، وقبلتهما أنا أيضا. ثم نهضا قائمين وأيديهما موضوعة على صدريهما، فالتفت إليهما الإمام وقال: الله يمسيكما بالخير أيها الكفيلان المعتبران الطاهران أهل البشر والكرش. فماذا تريدان؟ فأجابا: إننا قد أتينا لنكفل الاثنى عشر كفيلا وهذا الشخص أيضا. قال: فإذا هرب قبل أن يكمل حفظ الصلوات، أو باح بهذا السر، هل تأتياني به لتعدم حياته؟ فقال: نعم. قال الإمام: إن الكفلاء يفنون وكفلاء الكفلاء يفنون، وأنا أريد منه شيئا لا يفنى. فقالا له: افعل ما شئت. فالتفت إلي وقال: أدن مني يا غلام، فدنوت منه، وحينئذ استحلفني بجميع الأجرام السماوية بأني لا أبيح بهذا السر، ثم ناولني كتاب المجموع في يدى اليمنى، وعلمني النقيب الواقف بجانبي أن أقول: تفضل حلفني يا سيدي الإمام على هذا السر العظيم، وأنت بريء من خطيئتي. فأخذ الكتاب مني وقال: يا ولدي أحلفك ليس لأجل مال ولا جوار، بل لأجلس سر الله فقط، كما حلفنا مشايخنا وساداتنا. وهكذا تكرر العمل والقول ثلاث مرات. ثم وضعت يدي على المجموع ثلاث مرات حالفا به له أن لا أبيح بهذا السر ما دمت حيا. وأما العامة فيستحلفونهم أكثر من ذلك، ولا سيما نصيرية منطقة اللاذقية، ثم قال الإمام: اعلم يا ولدي أن الأرض لا تقبلك

فيه مدفونا إن بحت بهذا السر، ولا تعود تدخل القمصان البشرية، بل حين وفاتك تدخل قمصان المسوخية وليس لك منها نجاة أبدا. ثم أجلسوني بينهم، وكشفوا رأسي ووضعوا عليه غطاء، ثم إن الكفلاء وضعوا أيديهم على رأسي، وأخذوا يصلون، فقرأوا أولا سورة الفتح والسجود والعين، ثم شربوا خمرا، وقرأوا سورة السلام، ورفعوا أيديهم عن رأسي، وأخذني عم الدخول وسلمني إلى مرشدي الأول، ثم أخذ بيده كأس خمر وسقاني وعلمني أن أقول: باسم الله وبالله وسر السيد أبي عبدالله، العارف بمعرفة الله، سر تذكار الصالح سره وأسعده الله.

ثم انصرفت الجماعة، وأخذني السيد إلى بيته، واسمه أحمد أفندي بن رضوان آغا، من أعيان مدينة أدنة، والمرشد الثاني اسمه الشيخ صالح الجبلي شيخ ا لرمالين، ثم ابتدأ السيد يعلمني أولا التبري وهو سورة الشتائم... وحينئذ أطلعني على صلاتهم المشهورة وفيها عبادة علي بن أبي طالب، وهي ستة عشر سورة»[(١)].

ليستميحنا القارئ الكريم عذرا في ذكر هذه الأوهام والخرافات والأساطير، ولكن ذكر هذه الصفحات من عملية التلقين جاءت ليلاحظ القارئ أن فرض الأفكار الخرافية والملتوية يتم وسط مؤثرات وأجواء تساعد على ذلك، «فالشاب يقف في هذا الحشد وحيدا ليس لديه أية معلومات مسبقة عن العقيدة، يملؤه شعور بالهيبة من هذا الحشد»[(٢)] لذا يعطى كأس الخمر مرارا لتخدير أعصابه ليلقن أثناء ذلك تلك «الطلاسم والمعلومات الدينية التي تؤخذ رغما عن المنطق والعقل»[(٣)]، ويحدث خلال ذلك الجو التحدي الكبير لكبرياء الشاب وهو وضع أحذية الحاضرين على رأسه وتقبيل أرجلهم بعد ذلك، ليبتعد عن كل معاني الكرامة، وليصبح عبدا مطيعا لهم، لا يحكم عقله ومنطقه في أي أمر من الأمور.

---

(١) من كتاب الباكورة السليمانية ص١ - ٧ / سليمان الأذني (نقلا عن كتاب الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / الحسيني عبدالله ص٥٣ - ٦١).

(٢) الجذور التاريخية للعلوية النصيرية / الحسيني عبدالله ص٦١، ٦٢، ٦٣.

(٣) الجذور التاريخية للعلوية النصيرية / الحسيني عبدالله ص٦١، ٦٢، ٦٣.

ولعل هذا لا ينسينا أبداً دور المرأة (الإبليسية - كما يزعمون) والتي تقدم كضيافة لهذا الشاب للدخول في الفردوس الموهوم الذي يصورونه له، فيكون دورها مكملا لإذلال كرامة الشاب وعنفوانه.

والحقيقة وكما يقول الأستاذ الحسيني عبدالله: «إن العقيدة التي لا تبلغ نفوس أتباعها إلا وسط مؤثرات تعطل الإرادة الحرة، وتعطل المحاكمة العقلية، وتنذر وتتوعد بالويل والثبور لمن يبوح بها... إن هذه العقيدة بعيدة كل البعد عن فطرة الإنسان، وبعيدة كل البعد عن عقله، وهي عقيدة عنصرية تختص بفئة معينة من دون الناس، وهي بلا شك غريبة عن الإسلام الذي جعله الله للناس كافة»[1].

٧- تسترهم على عقائدهم:

يمكننا القول بعد تتبع مراسيم وطقوس الدخول في العقيدة النصيرية، إنهم طائفة سرية كتومة، لا تجيز البوح بأسرار ديانتها ومعتقداتها، لأن الحقيقة الإلهية وأسرارها لا توضع وتبذل بين أيدي العامة الذين يجهلون هذه الحقيقة وأسرارها.

حتى ظهور (الإله) في الظهورات البشرية المختلفة لم يكن معروفا لكل الناس، لأنه سر الأسرار، فلم يعرف هذه الحقيقة وهذه الظهورات إلا الذين اصطفاهم الله لمعرفته، «لأن المعنى - أي الله - أسر ذاته عن العالم المنكوس، وأوجب أن يعبد سرا، ويعرف سرا في كيفيته وظهوره بالبشرية»[2]. فهناك صعب ومستصعب، «فالصعب هو الإقرار بالصورة المرئية، والمستصعب الإذعان لها بالعبودية، وكلا الأمرين سر مستتر، فمن عرفه وأذاعه على الجهال هتك سر الله»[3].

---

(١) المصر السابق ص٦٥.

(٢) كتاب الصراط / للجعفي - مخطوط ورقة ١٥٩ب.

(٣) كتاب الأصيفر / للحراني - مخطوط ورقة ٧أ.

فالتستر هي صفة أهل الباطن، أي أهل النور والقدرة، أما أهل الظاهر فهم أهل الظلام والظلمة[1].

لذا فإن التستر والكتمان أصل هام من أصول عقيدتهم، ويدل على ذلك طريقة تحليفهم الشاب عند الدخول في دينه، حيث يكون التكتم أول الشروط التي تشترط على الشاب، ليأتي بعد ذلك التهديد الشديد والوعيد المخيف لمن باح بالسر، فالأرض لن تقبل جثته، وصورته سوف تمسخ إلى صورة حيوان، وهناك أيضا رجال شهدوا وأقسموا بأن يحضروه ليقطع إن هو فعل ذلك، وهذا يبين لنا مدى السرية عند هذه الطائفة، وكذلك سر تكتم النصيريين.

ولهذا فإنهم يعتبرون الكتمان من الميثاق الذي أخذه الله على النبيين، ويروى المفضل الجعفي عن جعفر الصادق، أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[2]، فالله - تعالى عما يزعمون - قد أدخل الكتمان في الميثاق الذي أخذه على الأنبياء والأوصياء، وقال لهم: استروا ذلك واكتموه، لما علم ما في قلوب الأعداء»[3].

حتى إن اليهود والنصارى - كما يزعمون - لما أقروا بالمعنوية - أي الألوهية - لعلي، قالوا: يا مولانا نقيم على أدياننا، فقال: اعبدوا الله في خوالص ضمائركم لأنكم في خفية واستتار، أخفى الله فيها نفسه وستر علمه[4].

وهذا السر - في نظرهم - لا تستطيع الجبال حمله لعظمته وشرفه، فهو الترياق الشافي لمن حفظه - أي حفظ وصان السر - ودان به واتقاه، والسم القاتل لمن كشفه إلى غير أهله وفشاه، لأنه سر احتجاب علي في النور أي الشمس[5].

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٧٩أ.

(٢) سورة الأحزاب آية ٧.

(٣) كتاب الهفت والأطلة / للجعفي ص٤٦.

(٤) كتاب الأصيفر / للحراني ورقة ١٢٦ب–مخطوط – وهذه الحادثة ليس لها أصل تاريخي.

(٥) كتاب تعليم الديانة النصيرية / مخطوط ورقة ١١٧أ/ ومخطوط ١٤٥٠ عربي ورقة ٣٢أ.

والذي يفشي السر إلى الجهلة، أودع المعرفة عند غير أهلها، فكأنه علق الدر في أرقاب الخنازير[1].

والمنتجب العاني يعرض هذه السرية في بعض أبياته فيقول:

«وسر يقلقـــل صـــم الجبـــا ... ل ويفجـر مـن صـخرها أعينـا

عجائبـــه كثـــرة لا تعـــد ... فطـــوبى لطـــرف إليهـــا رنـــا

وفيـــه جـــواهر للمبصريـــن ... بألبـــاب أهـــل الوفـــا تجتبـــى

وفي طـــي أسرار أهـــل الحفـــا ... ظ تصـان ومـن عنـدهم تقتنـى

وفي قعـــره درر لا وصـــو ... ل الـــيهن إلا بطـــول العنـــا

ونمسـك مـن بعـد هـذا المقـال ... حـــذارا ونقطعـــه مـــن هنـــا

لكـــي لا تلـــوح معـــاني الكـــلام ... فيظهـــر ضـــد عـــلى سرنـــا»[2]

(١) مخطوط رقم ١٤٥٠ عربي ورقة ١٣٤أ.

(٢) فن المنتجب العاني وعرفاته / ص٥١، ٥٢.

والنصيرية المعاصرون، وبعد أن ظهرت بعض هذه العقائد السرية تحاول أن تبرر السرية هذه بقولها: «إن علوم أهل البيت كانت غير معلومة عند عوام المسلمين، وأن بعض الأحكام لم يعلمها إلا الخواص»(١).

أما عن تلك العقائد الوثنية والغريبة عن الإسلام، والتي ظهرت من بعد تسترهم، فإنهم يتبجحون بأن سببها هو: جور الحكام الظالمين في عصور التاريخ الإسلامي ضد النصيريين، مما جعلهم يلجأون إلى جبالهم، ويتكتمون على شعائرهم، ويتساهلون في ترك الفرائض الإسلامية حفاظا لكيانهم الطائفي(٢).

وللأسف فإن تفاهة وسخافة هذه التبريرات، جعلت بعضهم يلجأون إلى أساليب أخرى هو النفي الكامل لكل ما كشف عن النصيرية، مما يعني أن الكتمان لا يزال طريقا مهما من طرق الخداع عن حقيقتهم، فهذا هاشم عثمان (الكاتب النصيري المعاصر) يهاجم وبشدة كل من كتبوا عن النصيرية في الماضي والحاضر، ابتداء من الشهرستاني ومرورا بابن تيمية وانتهاء بالدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عبد الرحمن بدوي، ومع أن الدكتور الشكعة يحاول في كتابه أن يقرب بين هذه المذاهب، بل ويعتبرها إسلامية، إلا أنه في نظر هاشم عثمان، لم يكن منصفا، ولم يعتمد على الأسانيد العلمية الصحيحة، لذا فلا قيمة لكلامه(٣).

أما الدكتور عبد الرحمن بدوي، فلا يجد ما يرد عليه، إلا أنه - أي الدكتور بدوي - نقل عن القلقشندي في كتابه صبح الأعشى بعض العبارات والفقرات(٤) ولكن هاشم عثمان مع الأسف يتجاهل، بل لم يحاول أن يشير من قريب أو بعيد للمخطوطات الدامغة التي اعتمد عليها الدكتور بدوي. فكان دور هاشم عثمان في هذا الأسلوب السري المخادع هو

---

(١) تاريخ العلويين / محمد أمين غالب الطويل ص٢٤٩.

(٢) مجلة النهضة الصادرة في اللاذقية - مقال لعبد الرحمن الخير عدد ٣ كانون ثاني ١٩٣٧م - نقلا عن كتاب (العلويون بين الأسطورة والحقيقة) ص١٧٣، ١٧٤.

(٣) العلويون بين الأسطورة والحقيقة / هاشم عثمان ص١١٦.

(٤) المصدر السابق ص١٠٢، ١٠٤.

تسقط الهفوات والأخطاء أو يتوهم ذلك، أما الحقائق فكان يبتعد عنها ويدفن رأسه بالرمال كالنعامة.

حتى ابن تيمية رحمه الله لم ينج من هذه الأباطيل والاتهامات، فهو في نظره رجل متهم، لا يعتد بأقواله لعدم الثقة به[1].

ومن الطبيعي أن نضع هذا النفي، وهذه الاتهامات الموجهة من هاشم عثمان في دائرة التكتم والسرية والمخادعة الموجودة عند هذه الطائفة لأن النصيري مطالب دوما بالتستر والكتمان ولو قطع إربا، وواجب عليه أيضا أن يشهد دوما لصالح إخوته المؤمنين ولو كان بالزور والبهتان، لأنه بذلك يتستر ويتكتم عليهم من أعدائهم[2]، وهذا ما فعله هاشم عثمان في كتابه.

وفي هذا المجال أيضا، ينبغي أن نذكر قصة سليمان الأذني، صاحب كتاب (الباكورة السليمانية)، والذي ولد في عائلة نصيرية، وتلقى الطقوس والتعاليم النصيرية في الثامنة عشرة من عمره، ولكنه لم يقتنع بها، حتى اتصل به أحد المبشرين النصارى، فترك عقيدته واعتنق النصرانية، وهرب إلى بيروت حيث أصدر هناك كتاب (الباكورة السليمانية) الذي كشف فيه أسرار المذهب النصيري، فنقمت عليه طائفته لكشفه الأسرار، فجعلوا يتوددون إليه حتى عاد إلى اللاذقية فقتلوه خنقا، وأحرقوا جثته في أحد ساحات اللاذقية.

والحقيقة أن هذا يبين لنا سر تكتم النصيريين البالغ، لأن النصيري حسب ما يلقن: «محاط بالعقوبة في الدنيا والأخرة إن حرك شفتيه لغريب»[3] عن أسرار الدين.

ومع أن التقية والتستر من المبادئ التي تسير عليها الشيعة على اختلاف فرقها الغالية والمعتدلة، إلا أن الشيعة الاثنى عشرية يزعمون: «أنه ليس معنى التقية عندهم أن تصبح جمعية سرية لغاية الهدم والتخريب، كما أنه ليس معناها أن تجعل الدين وأحكامه سرا من الأسرار لا يجوز أن يذاع لمن لا يدين به»[4]. إلا أن النصيرية تخالف هذا التفسير الشيعي

---

(١) المصدر السابق ص٨٤.

(٢) كتاب الهفت والأظلة / للجعفي ص٤٧، ٤٨.

(٣) الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / الحسيني عبدالله ص٦٥.

(٤) عقائد الإمامية / محمد رضا المظفر ص٨٤، ٨٥.

الظاهري كليا، ويجعل عقيدتها سر من الأسرار، وهذا في الحقيقة نابع من المزيج الذي أخذت عنه النصيرية، فالسرية والكتمان أخذت عن الفلسفة اليونانية، وبالأخص عن الأفلاطونية الحديثة التي جعلت الوصول إلى كنه الأسرار الربانية هدفا رئيسيا من أهدافها، لا يجوز أن يبذل للجاهلين والمقصرين، بل يجب أن يصان عنهم، ولا يعطى إلا لأصحاب الفطنة والدراية، وقد تأثر بهذه الفلسفة كثير من النصارى واليهود، وبالتالي أخذت عنهم هذه الفرق ومنها النصيرية.

وكل عاقل يعلم أن العقيدة التي تحترم نفسها، ولا تخاف من صحة عقائدها ومبادئها هي التي تظهره وتذيعه بين الناس، ولا تتذرع بأسباب الكتمان الواهية التي تنطلق من خوف هذه الفرق من مبادئها الخرافية والأسطورية المنافية للعقل الإنساني. والإسلام على كل الأحوال هو دين الوضوح، فلا رموز فيه ولا ألغاز، كالمحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا ضال ابتعد عن طريق الهدى والصلاح.

٨- نظرتهم للفرائض والعبادات الإسلامية:

النصيرية شأنها شأن الفرق الباطنية الأخرى، ترى أن الفرائض والعبادات ما هي إلا أغلال وقيود وضعت على الجهلة المقصرين وهم (أهل الظاهر)، لعدم اعتقادهم بأسرار الحقيقة الإلهية وظهوراتها، لذلك فقد وضع الله عليهم هذه الفرائض والعبادات كقيود وأغلال لتقصيرهم في ذلك.

والحقيقة الإلهية - كما علمنا - عند النصيرية هو عبادة علي بن أبي طالب، فالذي عرف سر وباطن هذه الحقيقة وآمن بها فقد سقط عنه عمل الظاهر وأصبح حرا وسقطت عنه العبودية والرق التي كان مقيدا بها وهو تائه عن هذه الحقيقة. ويقولون: إن قول الله تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[(١)] أن الرجل إذا عرف ربه، فقد انتهى للمطلوب، ورفعت عنه الأغلال والقيود[(٢)].

---

(١) سورة النجم آية ٤٢.

(٢) كتاب الهفت والأظلة / الجعفي ص٥٣، ٥٤.

فالصيام مثلا في اليوم الطويل والحار هو - كما يزعمون - من الأغلال والآصار التي وضعت على أهل الظاهر نتيجة لتقصيرهم[1]. لهذا فهم لا يمتنعون عن الطعام والشراب في رمضان[2]. ويعتبرون جميع الفرائض والعبادات الإسلامية بالنسبة إليهم هي ذكر أسماء أشخاص معينين، وليست كما يعملها أهل الظاهر.

وأشخاص الفرائض الإسلامية بالنسبة إليهم مرتبة من جملة مراتبهم الدينية، وهي مرتبة النقباء، التي يندرج تحتها سبع درجات وهي: الصلاة والزكاة والحج والصيام والهجرة والجهاد والدعاء[3].

فالصلاة عندهم بالجملة هي (السيد محمد) ﷺ، وأما بالتفصيل فلها واحد وخمسون ركعة لواحد وخمسين شخصا، فالوقت الأول - كما يزعمون - صلاة الظهر، ثمانية ركعات[4] وهم: القاسم والطاهر وعبدالله وزينب ورقية وأم كلثوم (واسمها آمنة) وفاطمة الزهراء، وهؤلاء بزعمهم أولاد رسول الله ﷺ من خديجة بنت خويلد[5].

وفي كتاب المجموع المقدس عندهم، هناك سورة اسمها (البيت المعمور[6]) والمقصود بها فريضة الحج، ويقول سليمان الأذني عن هذه السورة في كتابه الباكورة السليمانية ما يلي: (اعلم أن هذه السورة قد رتبها سلفاؤهم بإقامة الحج، وهو أن البيت المأمور في القرآن زيارته (الكعبة، وأركان البيت، وسقفه وحيطانه)، هو كناية عن معرفة أولئك الأشخاص، كقول الشيخ إبراهيم الطوسي في عينيته:

أيـا قلـب بيـت الله وهـو حجابـه

وأمـا الصـفي المقـداد للضـد قـامع

---

(١) كتاب الصراط / الجعفي – مخطوط ورقة ١٨٠ب.

(٢) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة طبعة دار القلم / القاهرة ص٢٣١.

(٣) كتاب تعليم الديانة النصيرية – مخطوط ورقة ١٣ب.

(٤) مع أن صلاة الظهر أربعة ركعات فقط.

(٥) كتاب تعليم الديانة النصيرية ورقة ١٩أ.

(٦) سيأتي ذكرها بعد ذلك في موضوع (نماذج من كتبهم وقداساتهم وأعيادهم).

ومـــروة مـــذكور أبـــا الـــدر شخصـــها

شـــعايره مسلســـل إلى الـــذات خاضـــع

وعتباتـــه الحـــاءات يـــا قلـــب شخصـــها

وحلقـــة بـــاب البيـــت جعفـــر طـــالع

فالبيت هو الحجاب والسيد الميم (محمد ﷺ) والصفي هو المقداد، والعتبتان هما الحسن والحسين، وحلقة الباب هي معرفة جعفر الصادق، والمروة معرفة أبي الدر (أبي ذر الغفاري)، والمشعر الحرام معرفة سلمان الفارسي، ومعرفة هؤلاء الأشخاص هو نهاية حجهم. وأما سعي المسلمين إلى مكة فهو باطل عندهم ومذموم، كما قال بعض شيوخهم في هذا المعنى:

وقـــد لعنـــت لمـــن يحـــرم شربهـــا

وجميـــع أهـــل الشـــام والحجـــج»[1]

أما الجهاد عندهم فهو نوعان: «أولهما الشتائم على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة، وعلى جميع الطوائف المعتقدين بأن علي بن أبي طالب أو الأنبياء أكلوا وشربوا أو تزوجوا أو ولدوا من نساء. لأن النصيرية يعتقدون بأنهم نزلوا من السماء بدون أجسام، وأن الأجسام التي كانوا فيها إنما هي أشباه، وليست هي بالحقيقة أجسام.

والنوع الثاني (من الجهاد) إخفاء مذهبهم عن غيرهم، ولا يظهرونه ولو أصبحوا في أعظم الخطر وهو خطر الموت»[2].

وسورة الإشارة[3] (الموجودة في كتاب المجموع) هي سورة الجهاد عندهم، وكما يقول الأذني فإن من هذه السورة تميز أربع طوائف نصيرية: فعابدوا السماء والشفق[4] حين

---

(١) نقلا عن كتاب الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / الحسيني عبدالله ص١٧١، ١٧٢.

(٢) المصدر السابق نقلا عن الباكورة السليمانية ص١٦٤.

(٣) سيأتي ذكرها فيما بعد.

(٤) يرجع اختلاف هذه الطوائف في عبادة الظواهر الكونية المختلفة إلى اعتقادهم أن كلا من هذه الظواهر تحمل آثار علي، وأن عليها بهيئته الربوبية قد حلّ فيها.

تلاوتها يضعون اليد اليمنى على الصدر، ويجعلون باطن الإبهام على باطن الوسطى. وأما عابدوا القمر فيبسطون الكف ناجين الإبهام، لتكون اليد على صورة الهلال عند ابتدائه. والبعض يضعون اليدين على الصدر منبسطتين، وأطراف الكف الواحد فوق أطراف الأخر ويرفعون الإبهامين إلى فوق بدون التصاقهما ببعضهما فيكون على هيئة الهلال. وعابدوا الهواء يضعون الكف الواحد على الصدر، رافعين السبابة إلى خارج، وواضعين باطن أنملة الإبهام على باطن الوسطى، وجميعهم حين فراغهم من تلاوتها يقبلون أناملهم ثلاث مرات ويرفعونها على رؤوسهم»[1].

وهكذا نتبين أن جميع الفرائض والعبادات الإسلامية، لا اعتبار لها عند هذه الطائفة بأفعالها وأعمالها الظاهرة، وإنما ذكر بعض الاشخاص يغني عن كل هذه الأعمال التي يقوم بها الجهلة المقصرين من أهل الظاهر. وهذا يفسر لنا عدم وجود المساجد في قراهم ومدنهم، حيث يقيمون الصلاة في أماكن خاصة وسرية، لأن الصلاة كما ذكرنا من قبل لا تؤدى وفق الأسلوب المعروف عند المسلمين، ولكنها مجموعة رموز تدل على أشخاص معينين يرددها النصيري في مواقف العبادة والابتهال.

لهذا فهم لا يشترطون الطهارة في صلاتهم هذه، فالجماع والاحتلام لا يفسدا الطهارة، وإنما الذي يفسدها موالاة الأضداد والجهل بالعلم الباطني، فتكون الطهارة إذن معادات الأضداد معرفة العلم الباطني[2].

٩- نماذج من كتبهم وقداساتهم وأعيادهم وأثر النصرانية في ذلك:

في البحث السابق ذكرنا أن الصلاة عند النصيرية هي ذكر بعض الأشخاص المقدسين لديهم، في قداسات وأذكار تؤدى في مواقف معينة، وفي هذه القداسات والأذكار يتضح لنا تأليه علي بن أبي طالب، وكذلك تقديس الحروف الثلاثة: العين الميم والسين.

---

(١) الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / الحسيني عبدالله - نقلا عن الباكورة السليمانية - ص١٦٤.

(٢) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الشكعة - طبعة دار القلم / القاهرة ص٢٣٠.

والحقيقة أن مفهوم كلمة (القداس) يدل على تأثر النصيرية بالنصرانية، فهذه الكلمة مألوفة تماما عند النصارى، لأنها من جملة الطقوس التي يعتقدون بها، والنصيرية تقدم أثناء هذه القداسات كؤوس النبيذ والخمر، وهذا أيضا يوضح مدى تطبع العقيدة النصيرية بعادات النصارى وطقوسهم.

وهذه القداسات والأذكار لها صفة مقدسة لدى النصيرية، لأنها بمثابة الكتب المقدسة عندهم، وقراءتها في الواقع ضرورية لأي باحث منصف حيث يتبين له بشكل واضح وكامل الهيكل العام لهذه العقيدة، وحقيقتها من خلال كتبهم ومخطوطاتهم التي لم تستطع النصيرية أن تنكرها، ونبدأ بكتاب التوجيه المخطوط في المكتبة الأهلية بباريس، وهو قسم من كتاب المشيخة[1]، ويتكون من قداسين، حيث يبدأ بقوله[2]: «بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وجهت وجهي إلى القدرة الظاهرة، والعظمة الباهرة، الكلمة الناشرة، والمشيئة القاهرة، والنفس الآمرة، والعين الناظرة، والآذان السامعة، واليد المانعة، والحجة القاطعة، والنعمة السابغة، وجه الحق وغاية الخلق وعرش الاستعلاء، وقبلة أهل الولاء وصلاة الأبرار ونسك أهل الإقرار.

وجهت وجهي لفاطر الفطر، ومظهر الصور، الباطن في ظهوره، السافر في ستوره، مشرق شموس الجلال المنعصر في ظهوره من ذات الكمال وجهت وهي إلى الستر الجميل، ومحل التفضيل، ومقام التهليل، وعين السلسبيل الأزلي الدائم الأبدي القائم القادر العالم الولي الحاكم.

وجهت وجهي إلى ثاني حاته وحقيقة ذاته سر الأسرار ونور الأنوار الرفيع عن الجهات المنظور بأنواع الصفات، وجهت وجهي إلى خاتمة حمده وواسطة عقده، غاية الغايات

---

(١) عرف به المستشرق (كتافاجو) في المجلة الاسبوعية عدد شباط ١٨٤٨ ص١٤٩ - ١٦٨، وأورد الدكتور عبد الرحمن بدوي عناوين هذا الكتاب في كتابه مذاهب الإسلاميين جـ٢ ص٤٢٧ - ٤٤٧.

(٢) نقلا عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٦١٨٢ عربي من ورقة ٢٠ب - ٣٠ب.

ومسبب الأسباب باطن البواطن سبيل الحجاب، بديع الصفة، فاتح الأبواب، إله الآلهة رب الأرباب أبي الأبا تراب[1]، ونسكي طاعة الأزل في الكره ومحياي روح الحياة، ومماتي الإقرار بالرجعات بثبات المختصين وثبات المخلصين لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المؤمنين وهو العلي العظيم.

ثم تقرأ القداس الأول[2]، ويتلوه توجيه الصلاة وتفصيلها: فإذا قرأت أسماء أمير المؤمنين بالتمام، وكانت الصلاة قداس تترك الخطبة والتوجيه والخير، وتقول الخمسة الأشباح، وتقرأ القداس الأول والاشارات والقداس الثاني والعين (العلوة)، هذه صلاة القداس ركعتين من جلوس... وأما صلاة التمام فتقرأ أسماء أمير المؤمنين والخطبة والتوجيه والخير، وتقرأ الأول وتنقف الشراب، وتتلو قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[3]،.... ثم تقرأ عدد من الآيات الأخرى... ثم تأمر بالدعاء من كان على يمينك وأن يدعو بما تيسر، ثم تتلو الآية قوله تعالى ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾[4].

ثم تأمر الذي على يمينك بالدعاء والسجود، والذي على يمينه في دعاء المراتب، وتقبلوا أيدي بعضكم بعضا، وتقول عند (بوس) اليد: عليك السلام يا أخي وأحسن التسليم بحق الخفر وإبراهيم، ثم تأخذ الكأس وتقرأ عليه القداس الأول وهو هذا: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله على التمام، على نور الأنام، على رب العزة، على فالق الحبة، على إمام الأمة، على باري النسمة، على إمام المحراب، على قالع الباب[5]، على مفرج

---

(١) اسم من أسماء علي بن أبي طالب.

(٢) سيأتي ذكره بعد هذه الفقرة (توجيه الصلاة) مباشرة.

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٤.

(٤) سورة النجم آية ٥٧ – ٦٢، وقد كتبها النصيريون محرفة.

(٥) المقصود بذلك علي بن أبي طالب عندما خلع باب حصن خيبر.

الكربات، على صاحب المعجزات على رافع السماء، على مجري الماء، على داحي الأرض، على (من) بيديه القبض، على نزهة الشيب، على عالم ما في الغيب، على رب الأرباب، على مالك الأقارب، على سر السرائر، على موفي النذر، على مطلع على السر، على صاحب الدنيا، على رب الآخرة والأولى، على بديع الزمان، على رفيع الشان، على كثير من العجائب، على رب المشارق والمغارب، على فارس الفوارس، على محيي العظام الدوارس، على نور البصر، على شق القمر[١]، على الإمام المغوار، على الضارب، على حيدرة[٢] الكرار، خالق الليل والنهار، على قادر قاهر، على أول آخر، على باطن ظاهر، على موجود حاضر، على صامت ناطق، على فاتق راتق، على نبأ العظيم، على الصراط المستقيم، على حيدرة الأصلع.... على أحد هابيل على شيت على يوسف على يوشع على آصف، على شمعون الصفا على أمير المؤمنين لذكرة الجلال والتعظيم[٣]، ولا مثل هذا يا إخوان نعني ونقصد ونشير كما أشارت إليه الأولون، ودلت على أقدم ذاته الموحدين من أول البدا إلى هذا الحين، نشير إليه كما أشار شيخنا وسيدنا وتاج رؤوسنا وفقيه عصرنا شيخ الأوان، وقدوة الزمان أبي عبدالله الحسين بن حمدان، نشير إلى ما أشار إليه شيخه وسيده أبو محمد عبدالله الزاهد الجنان، نشير إلى ما أشار إليه يتيم الوقت محمد بن جندب، نشير إلى ما أشار إليه الباب ودلت عليه معنويته، الحجاب في السبع قباب، إشارتي وإشارتهم بكل اليقين إلى مولانا علي أمير المؤمنين الأنزع البطين، الجزء الأصم الذي لا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتفرق ولا ينقسم، الذي لعظم جلاله وهيبته تخضع له الأقارب، وهانت له أمور الصعاب... ثم ينهضوا قياماً، ويأخذ في يده الجام (أي الإمام) ويقرأ النوروز[٤] إلى آخره، ثم يقول

---

(١) كاتب هذا القداس ممن يعتقدون بحلول علي بالقمر.

(٢) اسم من أسماء علي.

(٣) كل الأسماء السابقة هي ظهورات (الله) قبل ظهوره (بأمير المؤمنين علي).

(٤) سيأتي ذكره فيما بعد عند الحديث عن أعيادهم.

الاشارة[1] إلى آخرها، ويقرأ القداس الثاني وهو هذا: يروى الخبر عن شيخنا وسيدنا أبي عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي[2] صاحب الرأي المصيب رضوان الله عليه عن كل إشراق ومغيب، قال إنه كان إذا حضر بين يديه عبد النور يأخذ القدح في يمينه وينهل منه ثلاث نهلات ويترنم عليه في هذا القداس المبارك، ويقول الحمد لله العلي وحده الذي أنجز وعده، ونصره عبده، وأعز جنده، وأهلك ضده، وهزم الأحزاب وحده، فلا إله مثله ولا إله بعده، مفزع الطالبين وغاية العارفين، إله الأولين وإله الآخرين. له الدين الخالص، وإنما تدعون من دونه الباطل، وإن الله هو العلي الكبير أمير المؤمنين الحق المبين... ألهم إن هذا عبدك عبد النور[3] شخص حللته وكرمته وفضلته لأوليائك العارفين بك، حلال طلقا، وحرمته على أعدائك الجاحدين المنكرين لك، حرام نصا، اللهم مولاي كما حللته لنا ارزقنا به الأمن والأمان والصحة من الأسقام، وانف عنا به الهم والأحزان.

ثم يقرأ الإمام عدد من الآيات ويقول أخيرا: تذكروا بسر العين، الله يرزقكم بركتها ورضاها، فإذا انتهى من ذلك تنقف الشراب وتسقي من باليمين والشمال وتقول: يا أخي اشرب من قدحي الله يجعل لك من الشفاء والعافية، وتقول: يا أخي اسقيني من قدحك أسقاك الله شربة من كف سلسل لا ضماء بعدها يوم العطش الأكبر..... ثم تتلو عدد من الآيات، وتأمر الذي على اليسار في دعاء السجود، والذي على يساره في دعاء السلام[4]، ثم يدعو الإمام بالاثنى عشر إمام، ويقول: اللهم أقمنا على طاعتك بأحسن قيام...

ثم تقبل الأرض وتقول: هذا الله وللإمام، ثم تأخذ الجام وتقول: سر الإمام الطالب للغالب الضارب الهامات بحد القواضب علي بن أبي طالب، وهذا سره، ثم تنقف الشراب

---

(١) المقصود سورة الاشارة والتي سيأتي ذكرها في كتاب المجموع فيما بعد.

(٢) الخصيبي وغيره من الأسماء السابقة هم من مؤسسي طائفة النصيرية بعد ابن نصير.

(٣) يقصد بذلك الخمر.

(٤) وهي سورة السلام، وسيأتي ذكرها هي والسجود في ذكرنا لكتاب المجموع فيما بعد.

وتقول سر إمام كل إمام، سر سيدي علي صاحب كل عصر وكل زمان، سر حجابه السيد محمد، سر بابه السيد سلمان، سر الأيتام ومراتب السلام، سر شيخنا وسيدنا أبي عبدالله الحسين بن حمدان، الذي أشرع لنا الأديان في سائر البلدان عليه وعلى تلاميذه من الله أفضل الصلاة والسلام، سر الجلي وأبو سعيد ومشايخ العلم والتوحيد، سر المؤمن في سائر البلدان، ومن ذلك سرك أيها الشيخ الجليل والندب الفضيل والجسام الصقيل.... سرك وسر الشخص القايم.. سرك وسر يمينك وشمالك... سركم أيها الجمع المحمدي، وسر جامع شملكم إلى هذه الديار، الله لا يقطع لكم سر ولا أسرار في سائر الأزمنة والأعصار، بجاه الأئمة الأطهار والسبعة عشر... ثم تنقف الشراب وتبايع اليمن والشمال، وتقول: شربنا سر الإمام، وشربت سرنا وشربت سرك، الله يسر قلبك في معرفة ربك، أدام الله مشروبك، بلغك الله مطلوبك، الله يسر قلبك في معرفة ربك، أدام الله مشروبك، بلغك الله مطلوبك، خلصك الله من كربك وكروبك، وحاسبك الله حسابا يسيرا... ثم تشرب سر النقباء والنجباء، وتقول: سر سيدي النقيب، وسر سيدي نجيب النجبا، سر الاثنى عشر نقيب، سر الثمانية وشعرون نجيب، سر الأربعين قطب، سر محمد بن سنان الزاهري، سر عبدالله بن سبأ، سرك يا نقيب، وسر نقابتك، سرك يا نجيب وسر نجابتك، ثم تبايع اليمن والشمال، وتقول: شربنا سر النقباء والنجباء، وشربت سربنا، وشربنا سرك، سر الله ما في قلبك في معرفة ربك.... ثم تقول يا إخوان الذي معه دعاء يدعي، والذي ليس معه يؤمن، ومن معه أمن دعا وعلى الله القبول والإجابة، وقال مولانا أمير المؤمنين: إذا فرغ أحدكم من صلاته فليرفع يده إلى السماء....».

وهذه هي طريقة صلاتهم إذن، ذكر أسماء على رأسها علي بن أبي طالب، يتخللها كؤوس الشراب التي تخدر كل العقول والقلوب، لتبقى الأوهام والخرافات والأساطير هي المسيطرة على ألبابهم.

وهنالك قداسات ثلاثة ذكرت في إحدى المخطوطات الموجودة في الجامعة الأميركية ببيروت[١]، ومحورها كما سيأتي يدور حول ألوهية علي بن أبي طالب، والإقرار بالحجاب والباب، وهذا نصها:

القداس الأول: قداس البخور بيننا يدور في البيت المعمور: كان السيد محمد بن سوان الزاهرى يبخر بأقداح المؤمنين، ويجزيها عبد النور، وكان معه ياقوتة حمراء وقيل صفراء يبخر بأقداح المؤمنين ويجزيها عبد النور، فبخروا قداحكم أيها المؤمنين لعلكم تنالون السعادة والهنا، والفوز والمنا، وأشهد أن مولاي مولاك علي بن أبي طالب لا حال ولا زل، ولا انتقل من حال، بل هو الكريم المقيم على كل حال.

أما الثاني فهو: قداس الأذان... وبالله المستعان، وجهت وجهي إلى محمد المحمود، وطالب سره المقصود، وظله الممدود إياكم يا مؤمنين، اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم الخليل حنيفا مسلما وما أنا من المشركين[٢]. دينا سلسل، وطاعتي إلى قديم الأزل. وروحي بدت من روح الأحياء، وأقرت به كما أقرّ به سيدنا سليمان الفارسي لما بلغ أوان المؤذن في أذانه وهو يقول: لا إله إلا مولاي علي المعبود، ولا باب إلا باب السيد سلمان الفارسي المقصود، ولا حجاب إلا السيد محمد المحمود، اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الملأ والدين، وقيل الحمد لله رب العالمين.

والثالث هو: قداس الطيب لكل أخ حبيب... أيها المؤمنون اسمعوا وادعوا وانظروا إلى مقامكم الذي أنتم به مجتمعون، وانزعوا الغل والحقد من قلوبكم، والحسد من

---

(١) مخطوط في تقسيم جبل لبنان / مؤلف مجهول رقم ٣١، ويوجد شريطة عنه في الجامعة الأردنية رقم ٦٩٩، وقد ذكرها الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه مذاهب الإسلاميين جـ٢ ٤٩٠ -٤٩٤، نقلا عن القداسات التي نشرها المستشرق كتافاجو، ولكن هناك بعض الاختلافات بين النصين.

(٢) في هذا الموضوع خلط بين عدد من الآيات: ﴿ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ - آل عمران آية ٩٥. و﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ - الحج آية ٧٨ -، و ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ - آل عمران آية ٦٧ -.

صدوركم، يكمل لكم دينكم في معرفة معينكم، واعلموا أن الله حاضر معنا يسمع ويرى، عليم بذات الصدور[(١)] العزيز الغفور، إياكم يا مؤمنين من الضحك والقهقهة في أوقات الصلاة مع الجهال فإنها تهبط الأعمال وتغير الأحوال، لأنها من طريق إبليس لعنه الله. الله أكبر، الله أكبر، قد قامت الصلاة لأربابها وثبتت الحجة على أصحابها، قيّمها يا ربي وديّنها، واجعل السيد محمد أختامها، والسيد سلمان زكاتها، والمؤمنين دليلها، والعالمين سبيلها، والمقداد يمينها، وأبو الدر شمالها، والشيخ الصويري[(٢)] جبينها.

وفي نهاية هذه المقتطفات من كتبهم وقداساتهم، نأتي أخيرا إلى (كتاب المجموع)، الذي يتكون من ست عشرة سورة، تتركز فيها المعتقدات النصيرية الأساسية، وقد نشره المستشرق رينيه دوسو، ولهذا الكتاب صفة مقدسة عندهم، فهم - كما ذكرنا سابقا - يقسمون عليه أول دخولهم في العقيدة، وفيما يلي محتوياته[(٣)]:

السورة الأولى واسمها (الأول)

قد أفلح، من أصبح، بولاية الأجلح[(٤)]، أستفتح بأبي عبد استفتحت بأول اجابتي بحب قدس معنوية أمير النحل علي بن أبي طالب، المكنى بحيدرة أبي تراب[(٥)]، فيه استفتحت، وفيه استنجحت، وبذكره أفوز، وفيه أنجو و إليه ألجأ، وفيه تباركت وفيه استعنت وفيه بدأت وفيه ختمت، بصحة الدين وإثبات اليقين.

قال السيد أبو شعيب محمد بن نصير ليحيى بن معين السامري: يا يحيى إذا نزلت بك نزلة بالحياة، ودهت بك داهية بالممات، فادع دعوة عالية خالصة مخلصة تقية نقية بيضاء علوية، طاهرة زكية مشعشعة نورانية تخلصك من هذه القمصان البشرية اللحمية الدموية،

---

(١) المقصود قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وقد وردت في كثير من الآيات منها سورة الأنفال آية ٤٣، وسورة هود آية ٥، وسورة فاطر آية ٣٨.

(٢) أحد مشايخ النصيرية بعد الخصيبي.

(٣) نقلا عن كتاب الجذور التاريخية النصيرية العلوية / الحسيني عبدالله ص١٤٧ - ١٧٤.

(٤) من الأسماء التي تطلق على علي.

(٥) من الأسماء التي تطلق على علي.

وتلحقك بالهياكل النورانية فقل: فيك تباركت يا دليل بدلته، يا ظاهرا بقدرته، يا باطنا بحكمته، يا مجيبا ذاته بذاته، يا مخاطبا اسمه بصفاته، يا هو يا كل قديم يا أزلي لم تزل يا معلل العلل، يا مفني حركات الدول، يا غاية الغايات، يا منهي النهايات، يا عالما بأسرار الخفيات، يا حاضر يا موجود، يا ظاهر يا مقصود، يا باطنا بغير عمود، يا من أنوارك منك تشرق وفيك تغرب ومنك بدت وإليك تعود، يا من جعل لكل نور ظهورا ولكل ظهورا اسما ولكل اسم مكانا ولكل مكان مقاما ولكل مقام بابا. يرشد الباب منه إليه ويدخل الباب منه إليه، وأنت يا أمير النحل يا علي بن أبي طالب الدليل عليه، والكل أنت، هو يا هو يا هو يا من لا يعلم من هو إلا هو، وأسألك بمسائل السين سلكون سلكا سلك سالك سلك[1] بما سألك به السائلون وبمرشد المرشدين، وبعلي زين الدين والعابدين، أن تؤلف ما بين قلوبنا وقلوب إخواننا المؤمنين[2]، على البر والتقوى والتقويم والعلم والدين، نذكر حضرتك الطاهرة، وقدرتك الباهرة، ورحمتك الشاملة والفرض اللازم والحق الواجب هي أسرار وتذكار، وجلال وافتخار، وعز وانتصار، وطلعتك الزاهرة، وقبابك الفاخرة، وقبة العلي، وتاج الهدى، والدين القيم، والصراط المستقيم، ومن عرف باطنه وظاهره فاز ونجا والذي قد عرفنا به سيدنا سلسل سلمان يتلى وقد دلنا إليه وأرشدنا إليه شيخنا وسيدنا وتاج رؤوسنا وقدوة ديننا، وقرة أعيننا، السيد أبو عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس العلي روحه، لأن مقامه مقام الصفا، ومحله الصدق والوفا، بسم الله وبالله وسر السيد أبي عبدالله العارف معرفة الله سر تذكاره الصالح سره أسعده الله (انتهت).

السورة الثانية واسمها (تقديسة ابن الولي)

أحسن ما يرى النائم في منامه وهو يسمع الحسن ولم ير الشخص وهو ينادي ويقول: لبيك يا أمير النحل يا علي بن أبي طالب، يا رغبة كل راغب، يا قديم باللاهوت، يا معدن

---

(١) رموز سرية لها معاني خاصة عندهم.

(٢) أي المؤمنين بالنصيرية.

الملكوت، أنت إلهنا باطنا، وإمامنا ظاهرا، يا من ظهرت فيما أبطنت، وأبطنت فيما ظهرت، وظهرت بالاستتار، واستترت بالظهور، وظهرت بالذاتية، وتعاليت بالعلوية، واحتجبت بالمحمدية، ودعوت من نفسك إلى نفسك بنفسك، أنت يا أمير النحل يا علي أشرق نورك، وأبزغ[(١)] سفورك، وسطع ضياؤك، وتعظمت آلاؤك، وجل ثناؤك، بأن تأمنني من شر مسوخياتك[(٢)] لنا ولجميع إخواننا المؤمنين من شر الفسخ والنسخ والمسخ والوسخ والرسخ والقش والقشاش إنك على ذلك قدير. سر الولي ابن الولي أبي الحسين محمد بن علي الجلي[(٣)] علينا من ذكره السلام سره الله (انتهت).

السورة الثالثة واسمها (تقديسة أبي سعيد)

أسالك يا مالك الملك يا أمير النحل يا علي يا وهاب، يا أزلي يا تواب، يا داحي الباب[(٤)]، أسألك بالخمسة المصطفية[(٥)]، والستة التجلية[(٦)]، وبالسبعة الكواكب الدرية[(٧)]، وبالثمانية حمالة العرش القوية[(٨)]، وبالتسعة المحمدية[(٩)]، وبالعشرة الدجاجات الذكية[(١٠)]،

---

(١) الأصح (بزغ).

(٢) من أشكال العقاب الذي يقع على الكفار بعد موته فتنتقل روحه إلى جسد حيوان أو نبات أو جماد، انظر مبحث تناسخ الأرواح عند النصيرية في هذا البحث.

(٣) أحد مشايخ النصيرية المتقدمين.

(٤) إشارة إلى علي بن أبي طالب حين خلع باب حصن خيبر.

(٥) وهم: محمد ﷺ، وفاطمة، والحسن، والحسين، ومحسن (سر الخفي)، ويزعم النصيرية أن الصلوات الخمس لهم.

(٦) وهم: سلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر، وعبدالله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وقنبر بن كادان الدوسي.

(٧) وهي النجوم السبعة السيارة كزحل والمريخ والمشتري... الخ لأن النصيرية يعظمونها.

(٨) وهم الأيتام الخمسة الذين مر ذكرهم في فقرة (٣) من الحاشية يضاف إليهم طالب وعقيل وجعفر الطيار.

(٩) وهم الأئمة عندهم.

(١٠) وهم الأيتام الخمسة يضاف إليهم نوفل وأبو الحارث ومحمد بن الحنفية وأبو برزة وعبدالله بن نضله، ويمثلون مجموعة من الكواكب في عقيدتهم وهم أعظم الكواكب ويلقبون صيصان السماء.

وبالأحد عشر مطالع البابية[١]، وبالاثنى عشر سطر الإمامية[٢]، بحقهم عندك يا غاية الكلية، يا أمير النحل يا صاحب الدولة العالية، يا من أنت الأحد واسمك الواحد وبابك الوحدانية، يا من ظهرت في السبع القباب الذاتية، بأن تجعل قلوبنا وجوارحنا ثابتة على معرفتك الزكية، وخلصنا من هذه الهياكل الناسوتية، ولبسنا القمصان النورانية، بين الكواكب السماوية، نذكر حضرة شيخنا وسيدنا الأجل الأكبر الشاب التقي أبي سعيد الميمون بن قاسم الطبراني العارف معرفة الله المكثف عما حرم الذي أخذ حقه بيده من قفا أبي دهيبة، وعلى أبي دهيبة لعنة الله، وعلى أبي سعيد السلام ورحمة الله سر أبي سعيد الشاب التقي الحر الميمون بن قاسم الطبراني[٣] سره أسعده الله.

السورة الرابعة واسمها (النسبة)

أحسن توفيقي بالله طريق لله، وأحسن سمعي وأسماعي من شيخي وسيدي ومرشدي المنعم الله علي كما أنعم عليه بمعرفة ع. م. س وهي بشهادة أن لا إله إلا علي بن أبي طالب الأصلع الأنزع المعبود، ولا حجاب إلا السيد محمد المحمود، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي المقصود، وهذا ما سمعه من شيخي وسيدي، وغايتي ومعتمدي، ومهديني إلى طريق النجاة، وموردني إلى ينبوع الحياة، ومعتق رقبتي من رق العبودية، بمعرفة كنه الذات العلية، السيد الفاضل والطود العظيم عمي وشيخي وسيدي وتاج رأسي ووالدي الحقيقي أحمد، وقد ألقى إلي هذا السر العظيم في سنة كذا وكذا من شهر كذا ويوم كذا منه[٤]، وسمع أحمد من إبراهيم وسمع إبراهيم من قاسم وسمع قاسم من علي وسمع علي من أحمد وسمع من أحمد وسمع أحمد من خضر وسمع خضر من سلمان وسمع سلمان من صبح وسمع صبح من يوسف وسمع يوسف من جبرائيل وسمع جبرائيل من معلى

---

(١) وهم أبواب الأئمة ابتداء من علي إلى محمد بن الحسن العسكري وقد مرّ ذكرهم.

(٢) وهم الأئمة المعتبرون عندهم الاثنى عشر.

(٣) ميمون بن قاسم الطبراني: رئيس النصيرية بعد الجلي.

(٤) ويذكر المتعبد بهذا الدعاء (من النصيرية) تاريخ دخوله بالعقيدة، ويطلب منه حفظ هذا التاريخ لأنه يمثل ولادته في العقيدة.

وسمع معلى من ياسين وسمع ياسين من عيسى وسمع عيسى من محمد وسمع محمد من هدا محمد وسمع هذا محمد من رضى أحمد وسمع رضى أحمد من صفندى وسمع صفندى من بلاذري أسد وسمع بلاذري أسد من حسان الرشيقي وسمع حسان الرشيقي من محمد وسمع محمد من مرهف مصر وسمع مرهف مصر من عقد جبرائيل وسمع عقد جبرائيل من عبدالله الجوغلي وسمع عبدالله الجوغلي من إسماعيل اللفاف وسمع إسماعيل اللفاف من جعفر الوراق وسمع جعفر الوراق من أحمد الطراز وسمع أحمد الطراز من أبي الحسين محمد بن علي الجلي وسمع أبو الحسين محمد بن علي الجلي من السيد أبي عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي وسمع السيد أبو عبدالله من شيخه وسيده أبي محمد عبدالله بن محمد الجنان الجنبلان العابد الزاهد الذي هو من بلد فارس وسمع عبدالله الجنان الجنبلان من محمد بن جندب وسمع محمد بن جندب من السيد أبي شعيب محمد بن نصير العبدي البكري النميري[1]، الذي هو باب الحسن الآخر العسكري منه السلام وإليه التسليم ومن محمد بن نصير أقام النسب والدين، وتعالى مولانا الحسن العسكري عما يقول الضالون ونطق الظالمون علوا كبيرا سر الدين وسر إخوتنا الجليين أين ما كان منهم مكين بسرهم أسعدهم الله أجمعين وأشهد بأن الحسن الآخر العسكري هو الأول وهو الآخر وهو الباطن والظاهر وهو على كل شيء قدير.

السورة الخامسة واسمها (الفتح)

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾[2]، أشهد بأن مولاي أمير النحل علي اخترع السيد محمد من نور ذاته، وسماه ونفسه وعرشه وكرسيه وصفاته، متصل به غير منفصل عنه ولا متصل به بحقيقة الاتصال، ولا منفصل عنه في مباعدة الانفصال، متصل

---

(١) تمثل هذه السلسلة مجموعة شيوخ النصيرية الذين توالوا على رئاسة الطائفة - أو الشعبة من الطائفة - التي ينتمي إليها واضع هذا الدعاء.

(٢) سورة النصر آية ١ - ٣.

به النور، منفصل عنه بمشاهدة الظهور. فهو منه كحس النفس من النفس، أو كشعاع الشمس من القرص، أو كدوي الماء من الماء، أو كالفتق من الرتق، أو كلمع البرق من البرق، أو كالنظرة من الناظر، أو كالحركات من السكوت، فإن شاء علي بن أبي طالب بالظهور أظهره، وإن شاء بالمغيب غيبة تحت تلألؤ نوره، وأشهد بأن السيد محمد خلق السيد سلمان من نوره، وجعله بابه وحامل كتابه، فهو سلسل وسلسبيل، وهو جابر وجبرائيل، وهو الهدى واليقين وهو بالحقيقة رب العالمين، وأشهد بأن السيد سلمان خلق الخمسة الأيتام، الكرام، فأولهم اليتيم الأكبر، والكوكب الأزهر، والمسك الأذفر، والياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر، المقداد بن أسود الكندي وأبو الذر الغفاري وعبد الله بن رواحة الانصاري وعثمان بن مظعون النجاشي وقنبر بن كادان الدوسي هم عبيد مولانا أمير المؤمنين لذكره الجلال والتعظيم، وهم خلقوا هذا العالم من مشرق الشمس إلى مغربها وقبلتها وشمالها وبرها وبحرها وسهلها وجبلها ما حاطت الخضرا، وحوت الغبرا، من جابلقا، إلى جابرصا، إلى مراصد الأحقاف، إلى جبل قاف، إلى ما حاطت به قبة الفلك الدوّار إلى مدينة السيد محمد السامرة[1]، التي اجتمع فيها المؤمنون واتفقوا يبيحون، ولا يخرقون له حجابا، ولا يدخلون إليه إلا من باب. اجعل المؤمنين مؤمنين ومطمئنين ومؤيدين، مجبورين على أعدائنا وأعدائهم منصورين، بسر الفتح ومن فتح الفتح ومن كان الفتح على يده اليمين بسر سيدنا محمد وفاطر والحسن والحسين ومحسن سر الخفي وأشخاص الصلاة وعدة العارفين علينا من ذكرهم السلام صلاة الله عليهم أجميعن.

السورة السادسة واسمها (السجود)

الله أكبر الله أكبر لله السجود، للرب العلي الأنزع[2] المعبود، يا سيدي يا محمد يا فاطر، يا قاهر، يا نور المعنى العظيم، وحجابه الكريم، بك استعنت، أعني بهذا الدار

---

(١) وهي سامراء وكان الحسن العسكري فيها، ولذلك لقب بالعسكري، وهي المكان الذي ادعى به محمد بن نصير أولا أنه باب العسكري ثم ادعى ما ادعى بعد ذلك.

(٢) الأنزع: صفة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وبك استجرت، أجرني عذاب النار، يا عزيز يا جبار، يا قادر، يا قاهر، يا خالق الليل والنهار، الله نور السموات والأرض وهو العلي الكبير، إليه نقصد ونشير، عز وجل للباب قصدت، وللاسم سجدت، وللمعنى عبدت وسجدت، وسجد وجهي القاني البالي لوجه علي الحي الدائم الباقي، يا علي يا كبير، يا علي يا كبير، يا علي يا كبير، يا أكبر من كل كبير، يا مخترع شمس الضحى وخالق البدر المنير، يا علي لك العزة، يا علي لك الوحدة، يا علي لك الملك، يا علي لك الكبرياء، يا علي لك الإشارة، يا علي لك الطاعة، يا علي لك الشفاعة، يا علي لك الفطرة، يا علي لك القدرة، يا علي أنت صورة البقرة، أمانك يا علي، أمانك يا علي أمانك من سخطك وعذابك من بعد رضوانك، آمنت بعجزك[١] ومعجزك وجللت يا أمير النحل عن العجز أن يقع بك، آمنت وصدقت بباطنك ظاهرك، وظاهرك إمامي ووصيه[٢]، وباطنك معنوي لاهوت، يا هو يا هو يا معز من أعزك وذكرك وأفردك، يا هو يا هو يا مذل من أذلك وأنكرك وجحدك، يا حاضر يا موجود يا غيبا لا يدرك يا أمير النحل يا علي يا عظيم.

السورة السابعة واسمها (السلام)

سجدت وسلمت ووجهت وجهي لفاطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، بدء السلام من المعنى القديم، على الاسم العظيم، وسلم الاسم العظيم، على الباب الكريم، وسلم الباب الكريم، على الخمسة الأيتام أركان الدنيا والدين، السلام على الأبواب، السلام على الأيتام، السلام على النقباء، السلام على النجباء، السلام على المختصين، السلام على المخلصين، السلام على الممتحنين، السلام على المقربين، السلام على الكروبيين، السلام على الروحانيين، السلام على المقدسين، السلام على السائحين، السلام على المستمعين، السلام على اللاحقين، فهم أهل المراتب يتقدس عالم الصفاء أجمعين، السلام على من اتبع الهدى، واهتدى وخشي من عواقب الردا، وأطاع الملك العلي الأعلى،

---

(١) أي إعجازك.

(٢) أي أئمة النصيرية ورؤساؤهم.

وأقر ربوبية محمد المصطفى، السلام على المائة ألف نبي، وأربعة وعشرين ألف نبي، أولهم باب وآخرهم لاحق، السلام عليكم يا عباد الله الصالحين جمع الله شملنا وشملكم في جنة النعيم بين الكواكب السمائيين[1].

السورة الثامنة واسمها (الإشارة)

سبحان إله خضعت له الرقاب، وذلت له الأمور الشداد والصعاب، فقد ارتفع القصد والإشارة من السيد محمد المصطفى في يوم عيد الغدير خم للذي شرفه وفضله عند الله مقام عظيم، أنا عبد المشيرين اليك يا أمير النحل يا علي يا عظيم بالتوحيد والتفريد والتنزيه والتجريد لك، يا علي يا عظيم يا أزلي يا قديم يا بارئ يا حكيم أسألك بحق الدعوة التي دعاك بها السيد محمد وهو خارج من باب مكة، وراكب المطية البيضاء، وهو ينادي ويقول: الجهاد الجهاد، الحراب الحراب في سبيل الله. وهذه إشارتي اليك يا نور النور، يا فالق الصخور، وزاجر البحور، ومدبر الأمور، بأن تسكن المؤمنين في جنتك العلياء التي رضوان خازنها، ويا فوز عبد رجاها، فإذا بالنداء من قبل من العلا من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة ينادي ويقول: يا حبيبي يا محمد أي عبد دعاني بهذه الدعوة بصفو قلبه وخالص يقينه نهار الخميس النصف من نيسان، أو عشية الجمعة، أو ليلة النصف من شعبان، أو في خميس ليال من شهر رمضان أو يوم القداس، أو ليلة النصف من شعبان، أو في خمس ليال من شهر رمضان أو يوم القداس، أو ليلة الميلاد، أو يوم عيد الغدير، إلا وجعلته من أمتي، وسكنته جنتي، وأسقيه بكأس رحمتي واجعله مع المؤمنين. الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، رفعت إشارتي بسر العين العلوية، بسر الميم

---

(١) ينقل صاحب كتاب الجذور التاريخية عن سليمان الأذني في كتابه الباكورة السليمانية عند شرحه لسورة السلام ما يلي: من هذه السورة يقع الجدال بين الشمالية والكلازية - وهم فرقتان من فرق النصيرية - لأن الشمالية تقول: وأقر بربوبية محمد المصطفى، والكلازية تقول بربوبية علي المرتضى، وتقول الكلازية للشمالية: أخطأتم باعتقادكم بالربوبية تارة لمحمد وتارة لعلي، فتجيب الشمالية إن محمدا وعليا متصلان بعضهما ببعض ليسا منفصلين، وإن الغاية الكبرى هي علي، محمد أيضا خالق، ولو اعتقدنا بربوبيته فلا نخطئ، لأن اعتقادنا واعتقادكم بالثالوث واحد. الجذور ص١٦١.

المحمدية، بسر السين السلسلية، بسر ع م س أول دعائنا نشير لمعنانا ونقول بسم الله الرحمن الرحيم وآخر دعائنا نشكر من هدانا ونقول الحق الحمد لله رب العالمين.

السورة التاسعة واسمها (العين العلوية)

بسر العين العلوية الذاتية الظاهرة الأنزعية، بسر الميم المحمدية، الهاشمية الملكوتية الحجابية القرصية النورانية، بسر السين السلسلية الجبرائيلية السلمانية البابية البكرية النميرية النصيرية، بسر ع م س.

السورة العاشرة واسمها (العقد)

أشهد أن الله حق وقوله حق، وأن الحق المبين، علي بن أبي طالب الأنزع البطين، والنار مثوى للكافرين، والجنة روضة للمؤمنين، والماء من تحت العرش يطوف وفوق العرش رب العالمين، وحمالة العرش الثمانية الكرام[1]، الذين هم إليه مقربون، عدتي في شدتي وعدة كافة المؤمنين، سر عقد ع م س.

السورة الحادية عشر واسمها (الشهادة) والعامة تسميها (الجبل)

شهد الله أنه لا إله هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، شهادة ع م س، أشهد علي أيها الحجاب العظيم، اشهد علي أيها الباب الكريم، أشهد علي يا سيدي المقداد اليمين، أشهد علي يا سيدي أبو الذر الشمال، أشهد علي يا عبدالله[2]، أشهد علي يا عثمان[3]، أشهد علي يا قنبر بن كادان، اشهد علي يا نقيب، أشهد علي يا نجيب، أشهد علي يا مختص، أشهد علي يا مخلص، اشهد علي يا ممتحن، ويا مقرب، ويا كروبي، ويا روحاني، ويا مقدس، ويا سائح، ويا مستمع، ويا لاحق، اشهدوا علي يا أهل المراتب، ويا عالم الصفاء أجمعين، إني أشهد بأن ليس إلهاً إلا علي بن أبي طالب الأصلع المعبود، ولا حجاب

---

(١) مر شرحهم في هوامش السورة الثالثة.

(٢) هو عبدالله بن رواحة أحد الأيتام الخمسة عندهم.

(٣) هو عثمان بن مظعون أحد الأيتام الخمسة عندهم.

إلا السيد محمد المحمود، ولا باب إلا السيد سلمان الفارسي المقصود، وأكبر الملائكة الخمسة الأيتام، ولا رأي إلا رأي شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي الذي شرع الأديان، في سائر البلدان، أشهد بأن الصورة المرئية، التي ظهرت في البشرية، هي الغاية الكلية، وهي الظاهرة بالنورانية، وليس إله سواها وهي علي بن أبي طالب وأنه لم يحط ولم يحصر، ولم يدرك ولم يبصر، أشهد بأني نصيري الدين جندبي الرأي[١]، جنبلاني الطريقة، خصيبي المذهب[٢]، جلي المقال[٣] ميموني الفقه[٤]، وأقر في الرجعة البيضا[٥]، والكرة الزهرا، وفي كشف الغطا، وجلاء العما، وإظهار ما كتم، وإعلان ما خفي، وظهور علي بن أبي طالب من عين الشمس، قابض على كل نفس، والأسد من تحته، وذو الفقار بيده، والملائكة خلفه، والسيد سلمان بين يديه، والماء ينبع من بين قدميه، والسيد محمد ينادي ويقول: هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبحوه وعظموه وكبروه، هذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه، اشهدوا علي يا أسيادي، أن هذا ديني واعتقادي، وعليه اعتمادي، وبه أحيا وعليه أموت، وعلي بن أبي طالب حي لا يموت، بيده القدرة والجبروت، أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا، علينا من ذكرهم السلام.

السورة الثانية عشر واسمها (الإمامية)

اشهد علي أيها النجوم الزاهرة، والكواكب النائرة، والأفلاك الدائرة، بأن هذه الصورة المرئية المعاينة الظاهرة، هي علي بن أبي طالب القديم الأحد الفرد الصمد الذي لا يتجزأ ولا يتبعض ولا ينقسم ولا يدخل في عدد، فهو إلهي وإلهكم، وإلهكم وإلهي، إمامي وإمامكم، وإمامكم وإمامي إمامة الائمة، وسراج الظلمة، حيدرة أبو تراب الظاهر

---

(١) نسبة إلى محمد بن جندب، تلميذ ابن نصير وخليفته الأول في رئاسة النصيرية وهو أستاذ الجنبلاني.

(٢) نسبة إلى الحسين بن حمدان الخصيبي.

(٣) نسبة إلى محمد بن علي الجلي.

(٤) نسبة إلى أبي سعيد ميمون بن سعيد الطبراني.

(٥) أي رجعة علي إلى الأرض لينصر النصيرية.

بالاصلع[1]، الباطن بالأنزع، الظاهر من عين الشمس، القابض على كل نفس، الذي له ولعظم جلال هيبته، ولكبرياء سني برق لاهوته، تخضعت له الرقاب، وذلت له الأمور الصعاب، سر إله في السماء وهو إمام في الأرض، سر إمام كل إمام، سر علي بن أبي طالب قديم الزمان، سر حجابه السيد محمد وبابه السيد سلطان، باب الهدى والإيمان، علينا من ذكرهم الرضى والسلام.

السورة الثالثة عشرة واسمها (المسافرة)[2].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾[3]، وسر السيد أبي عبدالله، سر الشيخ وأولاده المختصين، الشاربين من بحر ع. م. س. فهم واحد وخمسون، منهم سبعة عشر عراقي، وسبعة عشر شامي، وسبعة عشر مخفي، وهم واقفون على باب مدينة حران يأخذون بالحق، ويعطون بالحق، ومن يتدين بديانتهم ويعبد عبادتهم وفقه الله إلى معرفته، ومن لا يتدين بديانتهم ولا يعبد عبادتهم فعليه لعنة الله، بسر الشيخ وأولاده المختصين، بسرهم أسعدهم الله أجمعين.

السورة الرابعة عشرة واسمها (البيت المعمور)

والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور، بسر طالب وعقيل وجعفر الطيار، هم أخوة علي بن أبي طالب، نور من نور، وجوهر من جوهر، وعلي بن أبي طالب منزه عن الإخوة والأخوات، والآباء، والأمهات،

---

(١) كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصلع.

(٢) ينقل مؤلف الجذور التاريخية عن سليمان الأذني في شرح هذه السورة ما يلي: إن النصيرية عندما يروون ذكر مدينة في كتبهم الباطنية فيؤولونها على السماء، ويزعمون أن سكانها هم الكواكب. وأما الشيخ المذكور في هذه السورة فهو سيدهم الخصيبي، والواحد والخمسون هم تلاميذه بعضهم في العراق والشام وبعضهم في الفرس والعجم. ومدينة حران كناية عن أسماء، والواحد والخمسون الواقفون على أبوابها هم الكواكب، ومعنى أخذهم بالحق وإعطائهم هو من استشفع بهم وقرب الذبائح باسمهم.

الجذور ص١٦٩.

(٣) سورة الصف آية ١.

أحدا أبدا موجود، باطن بغير عمود، سر البيت وسقف البيت وأرض البيت وأربع أركان البيت، أما البيت فهو السيد محمد، وسقف البيت أبو طالب، وأرض البيت هم محمد وفاطر والحسن والحسين سر الزاوية الغامضة الخفية التي هي في نصف البيت هي محسن سر الخفي، سر صاحب البيت العلوي الشريف الهاشمي، الذي هشم القرون وكسر الأصنام، علينا من ذكره الرضا والسلام[1].

السورة الخامسة عشرة واسمها (الحجابية)

سر الحجاب العظيم، سر الباب الكريم، سر سيدي المقداد اليمين، سر سيدي أبي الذر الشمال، سر الملكين الكريمين الطاهرين، هما الحسن والحسين، سر الوليين هما نوفل بن حارثة وأبو بزرة، سر الصفى وعالم الصفى، سر كل كوكب في السماء، سر قدس العلى وسكانه، علينا من ذكرهم الرضى والسلام.

السورة السادسة عشرة واسمها (النقيبة)

فنقبوا في البلاد هل من محيص، نذكر أسامي السادة النقباء الذين اختارهم السيد محمد من السبعين رجلا في ليلة العقبة في وادى منى، أولهم أبو الهيثم مالك بن التيهان الأشهلي، والبراء بن معرور الأنصاري، والمنذر بن لوذان بن كناس الساعدي، ورافع بن مالك العجلاني، والأسد بن الحصين الأشهلي، وعباس بن عبادة الأنصارى، وعبادة بن صامت النوفلي، وعبدالله بن عمر بن حزام الأنصاري، وسالم بن عمير الخزرجي، وأبي بن كعب،

---

(١) ينقل مؤلف الجذور التاريخية عن سليمان الأذني في شرح هذه السورة ما يلي: اعلم أن هذه السورة قد رتبها سلفاؤهم بإقامة الحج، وهو أن البيت المأمور في القرآن زيارته (الكعبة) وأركان البيت وسقفه وحيطانه، هو كناية عن معرفة أولئك الأشخاص... ومعرفة هؤلاء هو نهاية حجهم... وأما سعي المسلمين إلى مكة فهو باطل مذموم عندهم، وسيدهم ابن نصير ذم الحج، وفي كتاب الشيخ محمد الكلازي (التأييد) يزعم أن المفضل سأل جعفر الصادق عن هذه البناية التي يسعى إليها المسلمون ظانين أنها بيت الله، فأجابه الصادق: إن هذا رأس الكفر، وهي إله الأصنام، لأنها حجارة كالأصنام، ويسعون إليها بالقرابين من ضعف عقلهم وقلة فهمهم، فأجيبهم عن ذلك أنهم ينهون عن هذا العمل.
الجذور ص١٧٣.

ورافع بن ورقة، وبلال بن رباح السنوى سر نقيب النقبا، ونجيب النجبا، سيدنا محمد بن سنان الزاهري، علينا من ذكرهم الرضى والسلام[1].

وبعد هذه النصوص الصريحة والدامغة، لا يسع أي قارئ أو باحث إلا أن يجزم بانحراف هؤلاء عن جادة الحق والصواب، ودخولهم في متاهات الكفر والنفاق، التي أدت بهم إلى الوثنية وعبادة الأشخاص وغير ذلك من الاعتقادات الواهية التي جاء الإسلام لمحوها.

أما أعيادهم، فيمكن تقسيمها إلى أربع أقسام: إسلامية، وشيعية اثنى عشرية، ونصرانية، وفارسية.

وهذا يبين أن النصيرية تتكون من عناصر غير متجانسة، وهياكل اعتقادية مختلفة، استقت منها ومن غيرها عقائدها وتقاليدها، فبينما نرى هذه الطائفة تحتفل بعيدي الفطر والأضحى، نراها تذهب بعيداً بعد ذلك وتحتفل بعيدي الميلاد والبربارة النصرانيين.

وهم يعترفون بذلك، وبعض كتابهم يقسمون هذه الأعياد إلى قسمين: عربي، وفارسي، وفي أحد مخطوطاتهم نرى مؤلفها يقسم هذه الأعياد إلى قسمين ويقول: «أعيادنا العربية عشرة: منها يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة، وهو اليوم الذي أظهر السيد محمد فيه معنوية مولانا أمير النحل منه السلام للخاص والعام، فأقر من أقر وأنكر من أنكر.

ومنها يوم الجمعة، وهو محمد الذي اجتمع له أهل الأديان من المسلمين بنبوته، و هو القائم منه السلام.

ومنها يوم الفطر، وهو اليوم الذي يؤذن فيه للمؤمنين بالنطق وإظهار أمر الله عز وجل.

ومنها يوم الأضحى، وهو يوم خروج القايم منه السلام بالسيف وإهراقه الدماء.

---

(١) الجذور التاريخية للنصيرية العلوية / الحسيني عبدالله ص١٤٧ - ١٧٤.

ومنها يوم الأحد، وهو اليوم الذي أمر أمير المؤمنين منه الرحمة سلمان أن يدخل المسجد ويخطب بالناس ويظهر الله الطاغوتين[1] وأهل الردة، وهو اليوم الذي قال له سلمان: سل أعطيك البيان، وأمنحك البرهان، وأقامه للناس علماً، وقال للمؤمنين: سلمان شجرة وأنتم أعضاؤها، وكان ذلك يوم الأحد لليلتين خلت من ذي الحجة.

ومنها اليوم الذي نصب السيد جعفر منه السلام (محمد الزيني[2]) وأقامه للناس علماً، وقال: من كنت له ربا فمحمد وليه، ومن كان عدوه فأنا عدوه، وكان ذلك يوم الثلاثاء لأحد عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

ومنها اليوم الذي أمر السيد محمد بن علي الرضا منه السلام لعمر بن الفرات مقامه فيكم مقام رسول الله ﷺ وعلى آله، فدعا عمر بن الفرات الشيعة بأمره، وكان ذلك يوم الخميس لست ليال خلون من ذي الحجة.

ومنها اليوم الذي أمر الباقر بالبيان لجابر[3] بالدعاء إلى الله جهراً، فدعا فأخذ وترك السندان المحمى على يده حتى حالت جمراً، ثم قتل وكان ذلك يوم السبت لتسع خلون من ذي الحجة.

فهذه الأعياد العربية التي أمر الله العباد بمعرفتها، وأما الأعياد الفارسية: وهو النوروز، وهو اليوم الرابع من نيسان من كل سنة، وله شرف عظيم وفضل كبير.

ويوم المهجران، وهو اليوم السادس عشر من تشرين الأول في كل سنة ومن خواص الأعياد المفروح فيها، وهو اليوم التاسع من شهر ربيع الأول في كل سنة وهو مقتل دلام[4].

---

(١) المقصود بهذا اللفظ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) أحد الذين طردهم جعفر الصادق وتبرأ منهم ومن ادعاءاتهم واعتقاداتهم.

(٣) هو جابر الجعفي أحد مشايخ ابن نصير، ومن الشيعة الذين تولوا منصب الوزارة، وقد قتل لاعتقاداته المنحرفة.

(٤) اسم تطلقه النصيرية على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ورويناه من وجه آخر: أن يوم الواحد والعشرين من ذي الحجة هو يوم المباهلة[1]، ويوم تسع وعشرين من ذى الحجة يوم الفراش[2]»[3].

وقد قام أحد رؤسائهم (أبو سعيد الطبراني) بتأليف كتاب حول هذا الموضوع أسماه (مجموع الأعياد)، وهو كتاب مشهور عندهم وقد أورد الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه مذاهب الإسلاميين عناوين فصول هذا الكتاب ونموذجاً من مواضعيه. أما عناوين فصوله فهي[4].

١ - أخبار شهر رمضان، وما ورد فيه عن الموالي، منهم السلام.

٢ - دعاء شهر رمضان.

٣ - ذكر عيد الفطر.

٤ - خطبة عيد الفطر.

٥ - دعاء عيد الفطر.

٦ - ذكر عيد الأضحى.

٧ - دعاء عيد الأضحى.

٨ - شرح الأسماء السبعين الذين لا ينجون، ونعت نعوتهم وأجناسهم ووضائعهم وما كشفه العالم، منه السلام من آياته، حديث أبو علي البصري بشيراز في منزله ٧٢٣ للهجرة.

٩ - خطبة عيد الأضحى.

١٠ - أخبار يوم الغدير وشرفه.

١١ - القصيدة الغديرية لسيدنا أبي عبدالله الخصيبي.

١٢ - دعاء.

---

(١) هو اليوم الذي دعا به النبي ﷺ النصارى إلى الجاهلية مع أهل بيته.

(٢) وهو اليوم الذي هاجر به النبي ﷺ إلى المدينة وترك علي بن أبي طالب في فراشه.

(٣) مخطوطة رقم ٦١٨٢ ورقة ٣٨أ - ٣٩أ.

(٤) مذاهب الإسلاميين / الدكتور عبد الرحمن بدوى جـ٢ ص٤٦٣ - ٤٦٦.

ومما يذكر أن النصيريين في هذه الأعياد، يقدمون الخمور والنبيذ، ويخرجون مع نسائهم وأطفالهم إلى خارج مدنهم وقراهم بين الأشجار والبساتين، حيث تتحول هذه الأعياد بعد ذلك إلى مهرجان للفسق والدعارة.

والنصيرية تبرر احتفالها بعيد النوروز، بما يروونه عن المفضل الجعفي أنه قال: «قال سيد السادات!؟: أنه كان المعنى[1] عزّ عزه في زمن الفرس يظهر في كل عام مرتين: في انقضاء الحر من البرد، وفي انقضاء البرد من الحر، فسمى انقضاء البرد من الحر النيروز، وسمي انقضاء الحر من البرد المهرجان، واتخذوهما عيدين لهما، وكان ذلك الوقت إذا ظهر المعنى الأكبر في الأكوار ظهر بالأكل والشرب في هذين اليومين»[2].

«واحتفال النصيرية بعيد النوروز وعيد المهرجان، وهما عيدان دينيان للفرس يدل على الأثر الفارسي في النصيرية، ويشير إلى تمجيدهم للفرس. وهذا من غير شك ينبئ عن الأصل المجوسي للنصيرية، ويشير إلى الخط الشعوبي في الحركة النصيرية»[3].

وهناك أعياد نصرانية أخرى لم تذكر، ولكنهم يحتفلون بها وهذا ظاهر لمن يخالطهم ومنها: «عيد البربارة، والغطاس، والشعانين، والعنصرة، ومريم المجدلانية»[4].

١٠- حكم الإسلام في النصيرية:

يمكننا بعد دراسة وتحليل العقائد التي مرت بنا والتي آمنت بها النصيرية، أن نقول إن هذه الطائفة لا علاقة لها بالإسلام والمسلمين. فهي تقول بالحلول، بمعنى أن الله قد حلّ في علي بن أبي طالب وفي أشخاص آخرين، وتقول أيضا أن للشريعة ظاهراً وباطنا، وأن المراد باطنها دون ظاهرها، وترتب على هذا الاعتقاد تركهم جميع الفرائض الإسلامية وتأويلها، وظهورها أيضا على سلوكهم وأعمالهم، فهم يظهرون خلاف ما يبطنون، ويقولون مالا يعتقدون.

---

(١) اسم يطلقونه على الذات الإلهية، ولذلك يطلقونه على علي بن أبي طالب.

(٢) مخطوطة رقم ٦١٨٢ ورقة ٣٩ب.

(٣) العلويون أو النصيرية / عبد الحسين العسكري ص١٠٤ / ١٠٥.

(٤) إسلام بلا مذاهب / د. مصطفى الكشعة ص٣٣٤.

وهم بالإضافة إلى ذلك قد اعتقدوا بالتناسخ وكفروا بالبعث والحساب، فهدموا بذلك ركنا هاما من أركان الإيمان، وأباحوا المحرمات بشرب الخمر والزنا.

وهذا كله، بل واحد منه، مخالف للإسلام وخروج عنه، بل هو كفر به واستهانه بما فرض.

وكل من له بصيرة يعلم أن الإسلام ما جاء إلا لمحو هذه الاعتقادات الضالة الكافرة. فالتوحيد وترك عبادة الأوثان والأشخاص هو أول اعتقاد في هذا الدين، أما اليوم الآخر فهو الركن المهم لعقيدة التوحيد، لأن الإيمان بالله يتبعه الإيمان باليوم الآخر، وقول النصيرية بالتناسخ هدم لهذا الركن الهام من أركان الإيمان.

أما قولهم بان للشريعة ظاهراً وباطناً، وتأويل الفرائض الإسلامية على هذا الأساس، فهو هدف الباطنية والغلاة عموماً ابتداء من الإسماعيلية ومروراً بالدروز وانتهاء بالنصيرية، لمسخ الشريعة وهدم الدين، وصدق الله العظيم في فضح أمثال هؤلاء فيقول عزّ من قائل ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (٨) رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ (١٠) ﴾[١].

بهذا يتبين أن لا علاقة للإسلام بالنصيرية، فالإسلام شيء والنصيرية شيء آخر. وعلى هذا الأساس عاملهم جميع أمراء المسلمين ابتداء من صلاح الدين وانتهاء بالسلطان العثماني عبد الحميد، فقد حاولوا الكثير معهم في الرجوع إلى أصول الإسلام، ولكنهم لا يلبثون أن يرجعوا في كل مرة إلى ضلالاتهم وكفرهم[٢].

---

(١) سورة آل عمران آية ٧ – ١٠.

(٢) يراجع في هذا الموضوع: فصل التمهيد من هذا الباب.

ومع ذلك يحاول الكثير منهم في الوقت الحاضر أن يبرهن أمام الرأي العام أنهم مسلمون موحدون، فظهرت كتب وبيانات تقول بذلك، ولكن كل ذلك لا يجدي شيئا أمام الحقائق والأعمال التي يقومون بها والتي تدحض كل هذه الادعاءات الباطنية المزيفة.

ولعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كان من أوائل الذين عرفوا حقيقة هذه الطائفة، فحاربها قولا وعملا، كما حارب بقية الطوائف الباطنية فنجده في رده على سؤال حول حكم هذه الطائفة، يفند كل ضلالاتهم، ويرد عليهم بجرأة العالم الواعي لحقائق الأمور، والواقع أن فتوى ابن تيمية فيهم تعتبر جزءاً هاما من الحقائق التاريخية الدامغة للنصيرية، علاوة على قيمتها في إظهار عقائدها الباطنية.

لهذا آثارنا أن ننقل نص هذه الفتوى، حتى يتبين لكم مسلم حكم الإسلام في هذه الطائفة، وهذا هو السؤال الموجه والرد عليه:

«ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد شغب المبطلين في النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسخ الأرواح، وقدم العالم وإنكار البعث والنشور والجنة والنار في غير الحياة الدنيا، وبأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء، وهي علي وحسن حسين ومحسن وفاطمة، فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يجزئه عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوا وواجباتها، وبأن الصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلا واسم ثلاثين امرأة يعدونهم في كتبهم، ويضيق هذا الموضع عن إبرازهم، وبأن إلههم الذي خلق السموات والأرض هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فهو عندهم الإمام في السماء والإمام في الأرض فكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذا الناسوت - على رأيهم - أن يؤنس خلقه وعبيده ليعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه. وبأن النصيري عندهم لا يصير نصيرياً يجالسونه ويشربون معه الخمر ويطلعونه على أسرارهم ويزوجونه من نسائهم حتى يخاطبه معلمه.

وحقيقة الخطاب عندهم أن يحلفوه على كتمان دينه ومعرفة مشايخه وأكابر أهل مذهبه، وعلى ألا ينصح مسلماً ولا غيره، إلا من كان من أهل دينه، وعلى أن يعرف ربه وإمامه بظهوره في أنواره وأدواره فيعرف انتقال الاسم والمعنى في كل حين وزمان.

فالاسم عندهم في أول الناس آدم، والمعنى هو شيت، والاسم يعقوب، والمعنى هو يوسف، ويستدلون على هذه الصورة كما يزعمون بما في القرآن العظيم حكاية عن يعقوب ويوسف عليهما السلام فيقولون: أما يعقوب فإنه كان الاسم فما قدر أن يتعدى منزلته فقال: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ﴾[1]، وأما يوسف فكان المعنى المطلوب فقال: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾[2]، فلم يعلق الأمر بغيره لأنه علم أنه هو الإمام المتصرف، ويجعلون موسى هو الاسم ويوشع هو المعنى، ويقولون يوشع ردت له الشمس لما أمرها فأطاعات أمره وهل ترد الشمس إلا لربها، ويجعلون سليمان هو الاسم وآصف هو المعنى، ويقولون: سليمان عجز عن إحضار عرش بلقيس وقدر عليه آصف لأن سليمان كان الصورة وآصف كان المعنى القادر المتقدر، وقد قال قائلهم:

هابيـــل شـــيث يوســـف يوشـــع

آصـــف شـــمعون الصـــفا حيـــدر

ويعدون الأنبياء والمرسلين واحداً واحداً على هذا النمط إلى زمن رسول الله ﷺ فيقولون: محمد هو الاسم وعلي هو المعنى، ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا هذا، فمن حقيقة الخطاب في الدين عندهم أن عليا هو الرب، وأن محمداً هو الحجاب، وأن سلمان هو الباب، وأنشد بعض أكابر رؤسائهم وفضلائهم لنفسه في شهور سنة سبعمائة فقال:

أشـــــــهد أن لا إلـــــــه إلا

حيـــــدرة الأنـــــزع البطـــــين

ولا حجـــــاب عليـــــه إلا

محمـــــد الصـــــادق الأمـــــين

(١) سورة يوسف آية ٩٨.

(٢) سورة يوسف آية ٩٢.

ولا طريـــــــق إليــــــه إلا

سـلطان ذو القـوة المتـين

ويقولون: إن ذلك على هذا الترتيب لم يزل ولا يزال، وكذلك الخمسة الأيتام، والاثنا عشر نقيباً وأسماؤهم مشهورة عندهم، ومعلومة من كتبهم الخبيثة، وانهم لا يزالون يظهرون مع الرب والحجاب والباب في كل كور ودور أبدا سرمدا على الدوام والاستمرار.

ويقولون إن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويليه في رتبة الإبليسية أبو بكر رضي الله عنه، ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين، وشرفهم، وأعلى رتبهم عن أقوال الملحدين وانتحال أنواع الضالين والمفسدين، فلا يزالون موجدين في كل وقت دائماً حسبما ذكر من الترتيب.

وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من بلاد الشام وهم معروفون مشهورون متظاهرون بهذا المذهب، وقد حقق أحوالهم كل من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم ومن عامة الناس أيضا في هذا الزمان، لأن أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء الإفرنج المخذولين على البلاد الساحلية، فلما جاءت أيام الإسلام انكشف حالهم وظهر ضلالهم، والابتلاء بهم كثير جداً.

فهل يجوز لمسلم أن يزوجهم أن يتزوج منهم، وهل يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وما حكم الجبن المعمول من أنفحة ذبيحتهم؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟ وهل يجوز استخدامهم في ثغور المسلمين وتسليمها إليهم؟ أم يجب على ولي الأمر قطعهم واستخدام غيرهم من المسلمين الكفأة؟ وإذا استخدمهم وأقطعهم أو لم يقطعهم، هل له صرف أموال بيت المال عليهم؟ وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة، وأموالهم حلال أم لا؟ وإذا جاهدهم ولي الأمر أيده الله تعالى بإخماد باطلهم وقطعهم من حصون المسلمين، وحذر أهل الإسلام من مناكحتهم وأكل ذبائحهم، وألزمهم بالصوم والصلاة ومنعهم من إظهار دينهم الباطل، وهم الذين يلونه من الكفار، هل ذلك أفضل وأكثر أجراً من المتصدي والمترصد لقتال التتار في بلادهم

وهدم بلاد السيس وديار الافرنج على أهلها أم هذا أفضل من كونه يجاهد النصيرية المذكورين مرابطاً، ويكون أجر من رابطة في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الفرنج أكبر أم هذا أكبر أجراً؟

وهل يجب على من عرف المذكورين ومذاهبهم، أن يشهر أمرهم، ويساعد على إبطال باطلهم وإظهار الإسلام بينهم، فلعل الله تعالى أن يهدي بعضهم إلى الإسلام، وأن يجعل من ذريتهم وأولادهم أناسا مسلمين بعد خروجهم من ذلك الكفر العظيم؟ أم يجوز التغافل عنهم والإهمال؟ وما قدر أجر المجاهد على ذلك مثابين مأجورين إن شاء الله تعالى، إنه على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أجاب شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية وقال: الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل أكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت.

وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمر ولا بنهي ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل ولا بدين من الأديان السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن من جنس ما ذكره السائل.

فإنهم ليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه، إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق من التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس قولهم إن (الصلوات الخمس) معرفة أسرارهم، (والصيام المفروض) كتمان أسرارهم، (وحج البيت العتيق) زيارة شيخهم. وإن يدي أبي لهب هما أبو بكر وعمر، (وإن البناء العظيم والإمام المتين) هو علي بن أبي طالب.

وهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين كما قتلوا مرة الحجاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم مدة وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وصنفوا كتباً كثيرة مما ذكره السائل وغيره.

وصنف علماء المسلمين كتباً في كشف أسرارهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد الذي هم فيه أكفر من اليهود والنصارى ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام.

وما ذكره السائل من وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء من وصفهم. ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى ومن جهتهم وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين. ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى النصارى على ثغور المسلمين.

وما زالت بأيدي المسلمين حتى جزيرة قبرص يسر الله فتحها عن قريب، وفتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﵁ فتحها معاوية بن أبي سفيان إلى أثناء المائة الرابعة.

فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين من النصارى فمن كان بها منهم، وفتحوا أيضا أرض مصر، فإنهم كانوا مسئولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية.

ثم أن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغددا وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن مرجع هؤلاء الذي كان وزيرهم وهو (النصير الطوسي) كان وزيرا لهم، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

وهم ألقاب معروفة عند المسلمين: تارة يسمون الملاحدة، وتارة يسمون القرامطة، وتارة يسمون الباطنية، وتارة يسمون الإسماعيلية، وتارة يسمون النصيرية، وتارة يسمون الخربوية، وتارة يسمون المحمرة.

وهذه الأسماء منها ما يعمهم، ومنها ما يخص بعض أصنافهم، كما أن الإسلام والإيمان يعم المسلمين، ولبعضهم اسم يخصه إما النسب، وإما المذهب، وإما البلد، وإما لغير ذلك وشرح مقاصدهم يطول.

وهم كما قال العلماء فيهم: ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا بشيء من كتب الله المنزلة: لا التوراة ولا الإنجيل ولا القرآن، ولا يقرون بأن للعالم خالقاً خلقه، ولا بأن له دينا أمر به، ولا أن له دارا يجزى الناس فيها على أعمالهم غير هذه الدار.

وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطاغين، والإلهيين، وتارة يبنونه على قول الفلاسفة وقول المجوس الذين يعبدون النور، ويضمون إلى ذلك الرفض ويحتجون لذلك من كلام النبوات. إما بقول مكذوب ينقلونه كما ينقلون عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله العقل»، والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، ولفظه: «إن الله لما خلق العقل، فقال له: أقبل فأقبل، فقال له: أدبر فأدبر». فيحرفون لفظه ويقولون: «أول ما خلق الله العقل» ليوافقوا قول المتفلسفة أتباع أرسطو في أن أول الصادارت عن واجب الوجود هو العقل.

وإما بلفظ ثابت عن النبي ﷺ فيحرفونه عن مواضعه، كما يصنع أصحاب رسائل (إخوان الصفا) ونحوهم فإنهم من أئمتهم.

وقد دخل كثير من باطلهم على كثير من المسلمين، وراج عليهم حتى صار ذلك في كتب طوائف من المنتسبين إلى العلم والدين، وإن كانوا لا يوافقون على أصول الدعوة النهائية، وهي درجات متعددة ويسمون النهاية البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم[1].

---

(١) يقصد ابن تيمية رحمه الله طائفة الحشاشين التي انبثقت عن الإسماعيلية فهذا من مبادئها.

ومضمون البلاغ الأكبر جحد الخالق تعالى، والاستهزاء به وبمن يقر به، حتى قد يكتب أحدهم اسم الله في أسفل رجله، وفيه أيضا جحد شرائعه ودينه وما جاء به الأنبياء ودعوى أنهم من جنسهم طالبين للرئاسة، فمنهم من أحسن في طلبها، ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل، ويجعلون محمداً وموسى من القسم الأول، ويجعلون المسيح من القسم الثاني، وفيه من الاستهزاء بالصلاة والزكاة والصوم والحج ومن تحليل نكاح ذوات المحارم وسائر الفواحش ما يطول وصفه.

ولهم إشارات ومخاطبات يعرف بها بعضهم بعضاً[1]، وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين التي يكثر فيها أهل الإيمان فقد يخفون على من لا يعرفهم، وأما إذا كثروا فإنه يعرفهم عامة الناس فضلا عن خاصتهم.

وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا تجوز مناكحتهم، ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم. وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان مشهوران للعلماء كسائر أنفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس وذبيحة الفرنج الذين يقال عنهم: أنهم لا يذكون الذبائح.

فمذهب أبي حنيفة وأحمد في الروايتين أنه يحل هذا الجبن لأن أنفحة الميت طاهرة على هذا القول، لأن الأنفحة لا تموت بموت البهيمة، وملاقاة الوعاء النجس في الباطن ولا تنجس، ومذهب مالك والشافعي وأحمد في الرواية الأخرى أن هذا الجبن نجس لأن أنحفة هؤلاء نجسة، لأن لبن أنفحتها عندهم نجس.

ومن لا تؤكل ذبيحته فذبيحته كالميتة، وكل من أصحاب القولين يحتج بآثار ينقلها عن الصحابة، فأصحاب القول الأول نقلوا: أنهم أكلوا جبن المجوس، وأصحاب القول الثاني نقلوا: أنهم أكلوا ما يظنون أنه من جبن النصارى، فهذه مسألة اجتهاد للمقلد أن يقلد من يفتي بأحد القولين.

---

(١) وهذه الإشارات تختلف من طائفة إلى طائفة، فالإسماعيلية تختلف عن الدروز، والنصيرية كذلك تختلف إشاراتها عن هاتين الطائفتين.

وأما أوانيهم وملابسهم، فكأواني المجوس وملابس المجوس على ما عرف من مذاهب الأئمة، والصحيح في ذلك أن أوانيهم لا تستعمل إلا بعد غسلها، فإن ذبائحهم ميتة، فلا بد أن تصيب أوانيهم المستعملة ما يطبخونه في ذبائحهم فتنجس بذلك. فأما الآنية التي لا يغلب على الظن وصول النجاسة إليها فتستعمل من غير غسل كآنية اللبن التي لا يضعون فيها طبيخهم أو لا يغسلونها قبل وضع اللبن فيها، وقد توضأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جرة نصرانية، فما شك في نجاسته لم يحكم بنجاسته بالشك.

ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا يصلى على من مات منهم، فإن الله سبحانه وتعالى نهى نبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين كعبد الله بن أبي ونحوه، وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والجهاد مع المسلمين، ولا يظهرون مقالة تخالف دين الإسلام، ولكن يسرون ذلك فقال الله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1]، فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق يظهرون الكفر والإلحاد.

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شر من المخامر الذي يكون في العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض إما مع أمير العسكر وإما مع العدو، وهؤلاء مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها وخاصتها.

وهم أحرص الناس إلى تسليم الحصون إلى عدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على ولي الأمر، وإخراجهم عن طاعته، ويحل لولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة، فلا يتركون في ثغر ولا في غير ثغر، فإن ضررهم في الثغر أشد. وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى إستخدامه من الرجال المأمونين على دين الإسلام، وعلى النصح لله ولرسوله ولأئمة

---

(١) سورة التوبة آية ٨٤.

المسلمين وعامتهم، بل إذا كان ولي الأمر لا يستخدم من يغشه - وإن كان مسلماً - فكيف بمن يغش المسلمين كلهم؟ ولا يجوز تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر على الاستبدال بهم وجب عليه ذلك.

وأما إذا استخدموا وعملوا العمل المشروط فلهم إما المسمى وإما الأجرة المثل لأنهم عوقدوا على ذلك، فإن كان العقد صحيحاً وجب المسمى، وإن كان فاسداً وجبت أجرة المثل، وإن لم يكن استخدامهم من جنس الإجارة اللازمة فهي من جنس الجعالة الجائزة، لكن هؤلاء لا يجوز استخدامهم فالعقد عقد فاسد. فلا يستحقون إلا قيمة عملهم، فإن لم يكونوا عملوا عملا له قيمته فلا شيء لهم.

لكن دماءهم وأموالهم مباحة. وإذا أظهروا التوبة، ففي قبولها منهم نزاع بين المسلمين، فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقروهم عليها، ومنهم من لا يقبلها وورثتهم من جنسهم فإن مالهم يكون فيأه لبيت مال المسلمين، لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة لأن أصل مذهبهم التقية والكتمان لأمرهم، وفيه من يعرف، وفيه من قد لا يعرف، فالطريق في ذلك يحتاط في أمرهم.

فلا يتركون مجتمعين، ولا يمكنون من حمل السلاح وأن يكونوا من المقاتلة، ويلزمون شرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين معلمهم، فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة لما ظهروا على أهل الردة وجاؤوا إليه، قال لهم الصديق: اختاروا إما الحرب المجلية، وإما السلم المخزية. قالوا: يا خليفة رسول الله، هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية، قال: تدون قتلانا ولا ندي قتلاكم[1]، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ونقسم ما أصبنا من أموالكم، وتردون ما أصبتم من أموالنا، وتنزع منكم الحلقة والسلاح، وتمنعوا من ركوب الخيل، وتتركوا تتبعون أذناب الإبل حتى يرى خليفة رسول الله

---

(١) أي تؤدون الدية، ولا نؤديها.

والمؤمنون أمراً بعد ردتكم. فوافقه الصحابة على ذلك إلا تضمين قتلى المسلمين، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: هؤلاء قتلوا في سبيل الله فأجورهم على الله، يعني هم شهداء فلا دية لهم، فاتفقوا على قول عمر في ذلك.

وهذا الذي اتفق الصحابة عليه هو مذهب أئمة العلماء، والذي تنازعوا فيه تنازع فيه العلماء، فمذهب أكثرهم على أن من قتله المرتدون المجتمعون المحاربون لا يضمن، كما اتفقوا عليه آخرا، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين، ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى، وهو القول الأول. فهذا الذي فعله الصحابة بأولئك المرتدين بعد عودتهم إلى الإسلام، يفعل بمن أظهر الإسلام والتهمة ظاهرة فيه، فيمنع من أن يكون من أهل الخيل والسلاح والدروع التي تلبسها المقاتلة، ولا يترك في الجند من يكون يهوديا ولا نصرانيا، ويلزمون شرائع الإسلام حتى يظهر ما يفعلونه من خير أو شر. ومن كان من أئمة ضلالهم وأظهر التوبة أخرج عنهم، وسير إلى بلاد المسلمين التي ليس لهم بها ظهور، فإما أن يهديه الله تعالى، وإما أن يموت على نفاقه من غير مضرة للمسلمين.

ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين، وأن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال مقدم على الربح. وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك. بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾[1].

والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب مالا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم كما قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2]، قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام، فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله منهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كف الله ضرره من غيره.

ومعلوم أن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أفضل الأعمال، كما قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى»، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيل الله»، وقال ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه»، ومن مات مرابطا مات مجاهدا وجرى عليه عمله، وأجرى عليه رزقه من الجنة، وأمن الفتنة، والجهاد أفضل من الحج والعمرة كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[3].

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آهل وصحبه أجمعين»[4].

---

(١) سورة التوبة آية ٧٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١١٠.

(٣) سورة التوبة آية ١٩ – ٢٢.

(٤) مجموعة فتاوى ابن تيمية / مجلد ٣٥ ص١٤٥ – ١٦٠.

الفصل الثالث

مقارنــة بين عقائد الإسماعيلين والدروز والنصيرية

من خلال الاستعراض السابق الذي استكملنا فيه دراسة عقائد وأفكار الحركات الباطنية المتواجدة في العالم الإسلامي، يمكننا أن نرى كثيرا من أوجه الشبه أو الاختلافات بين عقائد هذه الحركات.

إلا أنه في الوقت نفسه، يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن الحركة الإسماعيلية كانت المغذي الرئيسي لكثير من هذه الحركات، ولن نتعدى الصواب إذا قلنا: إن الأفكار الرئيسية الموجودة في عقائد الإسماعيلية، لا تختلف إلا في بعض التفاصيل عن عقائد الفرق الأخرى.

فكافة هذه الفرق اتخذت من الفسلفات الوثنية من إغريقية وإسكندرانية أداة لها في إثبات صحة مزاعمها، وبالتالي في تشكيك الناس بدينهم وعقيدتهم.

وينبغي أن نلاحظ أن أتباع كل فرقة من هذه الفرق يعتبرون أنفسهم هم (الموحدون)، أما غيرهم - على حسب زعمهم - فالمسافة شاسعة بينهم وبين التوحيد، لذلك فالدروز يطلقون على مذهبهم (مسلك التوحيد) باعتبار أنهم وحدهم سلكوا هذا المسلك؟!

ومن الأمثلة الواضحة على أن الإسماعيلية كانت الرائدة في فلسفة كافة الفرق، نظرية الفيض الأفلاطونية، فقد كانت الإسماعيلية أول من حاول فرض هذه النظرية على العقائد الإسلامية، لذا أصبحت علما في هذا الاتجاه.

وإذا تتبعنا أوجه الاتفاق بين الفرق الباطنية، فإننا نرى أن نظرتهم للألوهية والتوحيد متشابهة رغم بعض الاختلافات في الأسماء والمسميات، وذلك لانبثاقها عن نظرية الفيض فالإسماعيلية - حسب زعمها - ترى أن الخالق الحقيقي للكون هما (العقل الكلي والنفس الكلية)، وأنهما من جملة الحدود في العالم العلوي، وهذان الحدان يقابلهما - على حسب قاعدة المثل والممثول - في العالم السفلي حد النبي وحد الإمام أو الوصي، لذا فإن كل

الألقاب التي تطلق على الله تطلق أيضاً على الوصي والإمام بصفتهما ممثلا العقل الكلي[1]. وهذه القاعدة تقول بها جميع الفرق الإسماعيلية الأخرى على اختلاف أسمائها.

ولكن الدروز رغم انشقاقهم عن الإسماعيلية، وأخذهم الكثير من عقائدها، إلا أنهم رفضوا نظرية المثل والممثول التي تقول بها الإسماعيلية، وقرروا أن الحدود العلوية الموجودة في العالم العلوي هي ذاتها الموجودة في العالم السفلي ولا اختلاف بينهما. وبما أن الدروز انشقوا عن الإسماعيلية لإظهارهم - الزعم - بألوهية الإمام الإسماعيلي (وهي العقيدة التي حاولت الإسماعيلية إخفاءها خوفا وتقية)، فقد أعلنوا جوهر هذه العقيدة وهي: أن الله يتخذ على مر العصور والأزمان حجابا أو صورة ناسوتية يتجلى فيها لخلقه - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا -، وأن الحجاب الأخير الذي ظهر فيه كان بصورة الحاكم بأمر الله العبيدي، وبذلك أظهروا عقيدة كانت الإسماعيلية تخفيها ولا تعلنها.

وفي الوقت نفسه أخذوا عن الإسماعيلية نظرية العقول السبعة وطبقوها على ظهورات الله بالصورة الناسوتية، وزعموا أن عدد هذه الظهورات كانت سبعة، آخرها الحاكم.

أما النصيرية، فتعتبر أن الذات الإلهية متشخصة بالمعنى وهو (علي بن أبي طالب) - تعالى الله عن ذلك -، ولكنها في الوقت نفسه لم تتجاهل نظرية الفيض التي قالت بها الإسماعيلية والدروز، فزعمت أن العقل الكلي هو (الميم) أي محمد ﷺ، وأن النفس الكلية هو (السين) أي سلمان الفارسي، وهو حسب زعمهم الذي خلق السموات والأرض والأيتام الخمسة كذلك[2].

وجميع الصفات الإلهية التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم لا تعترف بها كافة الفرق الباطنية، فهم ينفون نفيا مطلقا هذه الصفات، إيجابية كانت أم سلبية، لأنه تعالى - على حسب زعمهم - فوق متناول العقل، والعقل عاجز عن إدراك كنهه، فإثبات هذه

---

(١) انظر الفصل الثاني من الباب الأول عن عقائد الإسماعيليين.

(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الثالث عن عقائد النصيرية.

الصفات - حسب زعمهم - يعني عدم التوحيد. ولذلك فهم يزعمون أن هذه الصفات تليق فقط بحدوده وخاصة العقل والنفس، باعتبارهما من فيضه ومبدعاته.

وثمة وجه آخر من أوجه الشبه بين هذه الفرق، وهي عقيدة التناسخ، ورغم أن الإسماعيلية لا تجاهر أو تصارح بالقول بها، إلا أن المتتبع لآراء الإسماعيلية يجزم أنها تؤمن بها شأنها شأن الفرق الأخرى، ولكن هناك بعض الاختلافات بين هذه الفرق، فالإسماعيلية والنصيرية تؤمنان بوجود عالم روحاني تسكنه الملائكة، وعالم سفلي هو عالم الكون والفساد. وهم إضافة إلى ذلك يعتقدون بأن الأجساد مصدر الشقاء والألام، وأن المؤمن حين موته تذهب نفسه إلى العالم العلوي، وأما الكافر فيتقلب في الأجساد البشرية وغير البشرية عقابا له على ما قدم، وعلى هذا فالإسماعيلية والنصيرية تؤمنان بالمسخ، أي أن تأتي نفس الكافر عقابا لها - على حسب زعمهم - بقمصان رديئة كالحيوانات، أو أن تأتي بصورة جامدة من معدن أو حجر فتذوق بذلك عذاب جهنم؟!

وهذا الاعتقاد بالنسخ والمسخ، يخالف اعتقاد الدروز، الذين ينحصر التناسخ عندهم في الصور البشرية فقط، ولا يكون في البهائم أو الجمادات، ولذلك فقد عبروا عن التناسخ بكلمة التقمص، لأن في انتقال النفس إلى جسم حيوان ظلم لها، فالثواب والعقاب بني - حسب زعمهم - على قاعدة العدل الإلهي في محاسبة الأرواح بعد مرورها في القمصان البشرية.

وهناك عقيدة أخرى لا يختلفون فيها أبدا، وهي عقيدة التقية، فالتستر والكتمان عند جميع هذه الفرق فرض لا يجوز التهاون فيه، لأن البوح بأسرار اعتقاداتها إلى غير أهلها تدنيس لها، لذا فقد طالبت الإسماعيلية والدرزية والنصيرية أتباعها بالاستتار وعدم التظاهر بما يبطنون، وهكذا فقد أصبحت هذه العقيدة عادة مستحكمة عند جميع أتباع هذه الفرق، لأنها تعني التظاهر بشيء والإيمان بشيء آخر، وبالتالي فقد جعلت هذه العقيدة من أتباعها بؤرة للنفاق والخداع يتصفون به جميعهم، وهذا واضح في تاريخهم.

ويمكن أن يضاف إلى عقيدة التقية أمرٌ آخر مرتبط بها، وهو أن جميع هذه الحركات تطلب من المستجيبين لها عهوداً وأيماناً غليظة يجب أن يؤديها حتى يوثق به، ومع ذلك فإنهم

لا يسلموه كل الأسرار دفعة واحدة، بل على التدريج وكما هو واضح عند الدروز والنصيرية.

وهناك أيضا عقائد متشابهة بين الدروز والنصيرية أهمها:

«قضية العاقل والجاهل، فالعقال يسترون دينهم عن الجهال منهم، وإذا أراد أحد الجهال أن يدخل في أمور دينهم، فلا يسلمون الديانة له إلا بالتدريج بعد أن يتتلمذ على أحد مشايخ دينهم ويتخذه والدا دينيا، ويتفقون معهم أيضا بقدم العالم، وأن العالم قد خلق على ما هو عليه الآن، وأن عدد البشر كان كما هو الآن لا يزيد ولا ينقص»[1]. وهم يتفقون كذلك بالاضافة إلى الإسماعيلية في تأويل آيات القرآن حسب معتقداتهم، وأن له ظاهراً وباطناً حتى يثبتوا صحة معتقداتهم المناقضة للقرآن الكريم.

ونستنتج مما سبق، أن نقطة الخلاف والالتقاء الرئيسية بين الإسماعيلية والدروز والنصيرية هي عقيدة الألوهية، فجميعهم يقرون بإمكانية تجسد الألوهية في صورة إنسان، ولكن الإسماعيلية تراها في الأئمة الإسماعيليين جميعا، بينما الدروز والنصيرية جعلتا لتجسد الألوهية ظهوراً أخيرا، فكان عند الدروز بشخص الحاكم، وعند النصيرية بشخص علي بن أبي طالب - تعالى الله عن ذلك - أما بقية العقائد فقد يلتقون في شيء منها، ويختلفون في شيء آخر، ولكنهم متفقون في جوهرها.

---

(١) مخطوط (في تقسيم جبل لبنان). / الجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٣١.



الباب الرابع

أثر الحركات الباطنية في واقع العالم الإسلامي

الفصل الأول: أثرها في الناحية الفكرية

الفصل الثاني: أثرها في الناحية الاجتماعية

الفصل الثالث: أثرها في الناحية السياسية


الذخيرة العربية

الفصل الأول

أثرها في الناحية الفكرية

إن الهدف السياسي للحركات الباطنية، وهو إسقاط الخلافة الإسلامية، وإعلان الإمامة الشيعية، أمر لا يختلف فيه اثنان. ولكن اتجاه هذه الحركات بعد فترة طويلة من ظهورها اتجاها دينيا وفكريا، تستر به اتجاهها السياسي، يثير الشك والانتباه ويبدو أن هذه الحركات - وعلى رأسها الإسماعيلية - قد تنبهت إلى نقطة مهمة وخطيرة، وهي أن غالبية الحركات والثورات التي اشتعلت ضد الخلافة الإسلامية قد آلت إلى الفشل الذريع، لعدم استنادها على مفهوم ديني وفكري تدعم به حركتها.

وقد سارعت الحركة الباطنية الشيعية لاستغلال هذه النقطة أبشع استغلال، فجعلت لأئمتهم من نسل علي بن أبي طالب صفات أوصلتهم إلى رتبة الاجلال والتقديس، بل في بعض الأحيان إلى درجة الألوهية، فهم بفضل الصفات التي أودعها الشيعة فيهم، أئمة المسلمين، وفقهاؤهم، ووارثوا رسالة النبي ﷺ فيأمرون ويعلمون باسم الله كما كان يفعل عليه الصلاة والسلام، حتى أنهم أضافوا إلى (أركان الإسلام الخمسة) ركنا سادسا، وهو الولاية، أي الانضواء إلى الأئمة، وعدم مخالفتهم وموالاة أعدائهم، وبهذا الركن الذي أدخلوه على الإسلام استطاعوا أن يروجوا ما يريدون على أنه من الأئمة الذين لا تجوز مخالفتهم، بحيث أصبحت حركة التشيع تعني اتجاها مغايرا للإسلام الصحيح، بأفكارهم الدينية، وعقائدها الجديدة الغريبة على الإسلام والمسلمين.

وهكذا نشأت أنظمة سرية تعمل على نشر الآراء الدينية والفكرية الجديدة بين الناس، فكانت الحركة الباطنية الشيعية، «عبارة عن دعاية خفية مستترة أكثر مما هي مقاومة مكشوفة، وهذا ما جعلها مخالفة لغيرها من الفرق، وهي دعاية يحيط بها جو من الأسرار، وتغشاها أساليب من المكر والمراوغة»[1].

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص١٨٠.

فكان من أكبر ما تمتاز به الحركة الفكرية في القرن الرابع الهجري ظهور مذهب الشيعة يحمل بين ثناياه الكثير من الأفكار الشرقية القديمة، ويجعلها مكان بعض الأفكار الإسلامية، وقد كان للإسماعيلية دور كبير وخطير في حمل هذه الأفكار ومزجها بالعقائد الإسلامية، «فالضلال لم يتفشى في العالم الإسلامي بقدر ومثل ما تفشى بسبب الفرق الشيعية، وما غير السنن إلا المتشيعون الذين دخلوا الإسلام لهدمه وتقويض أركانه»[1].

ومن البديهي أن يكون لأتباع الحركة الباطنية أهدافا مرسومة، وغايات بعيدة من وراء زرع هذه الأفكار في العالم الإسلامي، من أهمها إزالة هالة الخوف والقداسة عن العقائد الإسلامية ومناقشتها ووضعها تحت مجهر العقل والحس، من قبل أصحاب النفوس المريضة التي نافقت الإسلام، ودخلت به رياء ونفاقا أو خوفا. وبذلك شجعت الحركة الباطنية أصحاب تلك النفوس في إظهار مذاهبهم وعقائدهم الوثنية علنا وبدون خوف أو وجل، ومهدوا السبيل للزنادقة والمجوس والفلاسفة والصابئة وغيرهم من الذين كانوا يتربصون الفرص للنيل من الإسلام والمسلمين.

وهكذا نلاحظ وبعد فترة من ظهور هذه الحركة، أنها مهدت الطريق لأمثال الفارابي وابن سينا والكندي والمعري وغيرهم، ليتجرأوا ويجاهروا بكفرهم وفلسفتهم الأفلاطونية الوثنية.

ولم يقف الأثر الفكري للحركة الباطنية عند هذا الحد، بل أوجدت لها أثرا واضحا على الصوفية والصوفيين، بأفكارهم وعقائدها الفلسفية، ويبدو أن عملية المطاردة لأتباع الفرق الباطنية جعلت الكثير منهم يختفون في حلقات الصوفيين، وهذا كان له أثر خطير على أفكار الصوفية، فظهر منهم الغلاة، المتأثرون بأفكار الإسماعيلية وفلسفتها، الذين زعموا وحدة الوجود والاتحاد بالمعبود، ولم يكن لهم أي اهتمام بالأديان ولا بالإسلام، أمثال الحلاج وابن العربي والسهرودى والبسطامي وغيرهم.

---

(١) الصراع المذهبي في أفريقيا / عبد العزيز المجذوب ص١٨٣.

وإن الطابع الفلسفي للحركة الباطنية قد جعل نظرية الإمام وولايته محورا تدور حوله الأفكار الباطنية وترتب على ذلك رفع منزلة علي بن أبي طالب وذريته إلى مرتبة الألوهية، وتجسد الجوهر الإلهي في أشخاصهم، «مما أفسح المجال لظهور عقائد وتصورات للألو هية مغرقة في التشبيه والتجسيم والمادية، وإلى آراء أسطورية محضة، تسلب أصحابها أدنى حق في معارضة الوثنية، أو المقابلة بين عقائدهم وعقائد الوثنيين»[١].

ولعبيد الله المهدي (مؤسس الدولة العبيدية في المغرب)، مواقف من الزيغ والضلال، تدل على مدى المغالاة الذي وصل إليها الباطنيون، «فقد حكى أحدهم أنه سمع الكفر بأذنيه، وذلك أنه حضر شهادة وكان فيه جمع كثير من أهل سنة ومشارقة. وكان بالقرب مني - يحكي عن نفسه - أبو قضاعة الداعي، فأتى رجل مشرقي من أهل الشرق ومن أعظم المشارق فقام إليه رجل مشرقي وقال: إلى هاهنا يا سيدي إلى جانب رسول الله يعني أبا قضاعة الداعي ويشير بيده إليه، فالخليفة العبيدي الإله، وداعيه أبو قضاعة رسوله»[٢].

بالاضافة إلى ذلك، فإن من أقوى المؤثرات الفكرية التي ساعدت الفكر الباطني على الانتشار، دعوى الإسماعيلية وأتباعها بوحدة الأديان، فهم في سبيل الوصول إلى غايتهم المريبة، كانوا يظهرون للناس في أثواب مختلفة، ويكلمون كل شخص بلغة خاصة، مما صادف هوى في نفوس بعض أفراد وجماعات تبغض الإسلام والمسلمين، فوجد هؤلاء في الباطنية الإسماعيلية كل ما يهدفون إليه من هدم للإسلام وتقويض لأركانه.

ويؤيد هذا أيضا، أن جماعة إخوان الصفاء الإسماعيلية كانت تضم في صفوفها: «أبا اسحاق الصابي الحراني، وهو من عبدة النجوم (الصابئة)، ويحيى بن عدي النصراني، رئيس أساقفة الكنيسة اليعقوبية، وماني المجوسي، وأبو سليمان المنطقي السجستاني الإسماعيلي، فما الذي يجمع هؤلاء، ويدعوهم إلى تأليف مجمع سري؟!»[٣] إلا الهدف الواحد، وهو هدم التوحيد الإسلامي بالأفكار الوثنية المستترة ببرقع التحرر.

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام / جولد تسهير ص١٨٥.

(٢) الصراع المذهبي في إفريقيا / عبد العزيز المجذوب ص١٧٢.

(٣) إخوان الصفاء / عمر الدسوقي ص٥٠.

وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا النشاط الفكري الواسع للحركات الباطنية في العصر الحالي، وكل مطلع على النشاط الثقافي وخاصة في مجال النشر يرى كثيرا من دور النشر المتسترة بأسماء لامعة تنشر من كتب الباطنية والباطنيين المسمومة الشيء الكثير، على اعتبار أنها كتب التراث الذي يجب أن يحفظ، أو التاريخ الذي يجب أن يدون ولا يضيع[1]، مستغلين جهل القارئ المسلم بحقيقتها وأصلها، وبذلك يضللون الكثير من العقول.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك النشاط الباطني المخيف للإسماعيلية في كثير من الولايات الأمريكية والبلدان الأفريقية، حيث مهد لها أعداء الإسلام الطريق هناك، بعد ن خافوا من امتداد الإسلام إلى تلك البلاد، فافتتحت الإسماعيلية المراكز الضخمة، في ظاهرها دعوة للإسلام، وفي باطنها هدم للإسلام وتقويض له.

(١) أمثال الكتب التي يخرجها مصطفى غالب وعارف تامر.

الفصل الثاني

أثرها في الناحية الاجتماعية

لقد كان للفوضى الاجتماعية التي أوجدتها الباطنية في جسم المجتمع الإسلامي، من أهم الأخطار العظيمة الذي هدد المسلمين في القرون الماضية، وأخص بالذكر الثورات المتلاحقة على الخلافة العباسية التي أوجدت هذه الفوضى.

ومن أخطر الآفات الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، انعدام الثقة بين أفراد المجتمع، بل بين أفراد الأسرة الواحدة، بسبب الغزو الفكري الباطني لعقول الناس، وخاصة الشباب منهم، مما أحدث ارتباكا فكريا خَلَّفَ من ورائه انحلالا اجتماعيا خطيرا، ترك أثاره على تعامل الناس مع بعضهم البعض، وعلى تعامل أفراد الأسرة الواحدة أيضا.

وقد ظهر هذا واضحا في أيام ظهور القرامطة والحشاشين، الذين سلبوا بأفكارهم الهدامة بعض عقول الشباب المراهق غير الواعية بما يدور حولها، بحيث أصبح هؤلاء أداة بلا عقل ولا إرادة في يد زعماء الباطنية يحققون بها غاياتهم المريبة.

وتعطينا القصة التالية التي رواها ابن الأثير صورة واضحة للوضع الاجتماعي الخطير الذي خلفته الباطنية على أفراد المجتمع الإسلامي، فيقول: «ذكر عن متطبب يدعى أبا الحسين قال: جاءتني امرأة بعدما أدخل القرمطي صاحب الشامة بغداد، وقالت: أريد أن تعالج جرحا في كتفي، فقلت: ها هنا امرأة تعالج النساء، فانتظرتها، فقعدت وهي باكية مكروبة، فسألتها عن قصتها قالت: كان لي ولد طالت غيبته عني، فخرجت أطوف عليه البلاد فلم أره، فخرجت من الرقة في طلبه، فوقعت في عسكر القرمطي أطلبه، فرأيته، فشكوت إليه حالي وحال أخوته، فقال: دعيني من هذا، أخبريني ما دينك؟ فقلت: أما تعرف ديني؟ فقال: ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه اليوم، فعجبت من ذلك، وخرج وتركني ووجه بخبز ولحم، فلم أمسه حتى عاد فأصلحه.

وأتاه رجل من أصحابه فسأله عني هل أحسن من أمر النساء شيئا، فقلت: نعم، فأدخلني دارا، فإذا امرأة تطلق، فقعدت بين يديها، وجعلت أكلمها ولا تكلمني، حتى ولدت غلاما، فأصلحت من شأنه، وتلطفت بها حتى كلمتني، فسألتها عن حالها، فقالت: أنا امرأة هاشمية، أخذنا هؤلاء الأقوام، فذبحوا أبي وأهلي جميعا، وأخذني صاحبهم، فأقمت عنده خمسة أيام، ثم أمر بقتلي، فطلبني منه أربعة أنفس من قواده، فوهبني لهم، وكنت معهم، فوالله ما أدري ممن هذا الولد منهم.

قالت: فجاء رجل فقالت لي: هنيه، فهنيته، فأعطاني سبيكة فضة، وجاء آخر، وآخر، أهني كل منهم، ويعطيني سبيكة فضة، ثم جاء الرابع ومعه جماعة، فهنيته، فأعطاني ألف درهم، وبتنا، فلما أصبحنا قلت للمرأة: قد وجب حقي عليك فالله الله خلصيني! قالت: ممن أخلصك؟ فأخبرتها خبر ابني، فقالت: عليك بالرجل الذي جاء آخر القوم، فأقمت يومي، فلما أمسيت وجاء الرجل قمت له، وقبلت يده ورجله، ووعدته أنني أعود بعد أن أوصل ما معي إلى بناتي، فدعا قوما من غلمانه وأمرهم بحملي إلى مكان ذكره، وقال: أتركوها فيه وارجعوا، فساروا بي عشرة فراسخ، فلحقني ابني، فضربني بالسيف فجرحني، ومنعه القوم، وساروا بي إلى المكان الذي سماه صاحبهم، وتركوني وجئت إلى هاهنا، قالت: ولما قدم الأمير بالقرامطة وبالأسارى رأيت ابني فيهم على جمل عليه برنس، وهو يبكي، فقلت: لا خفف الله عنك ولا خلصك!؟[1].

وهكذا فقد أصبح الابن جاحداً لأمه، والأب لا يعترف بابنه، والصديق عدوا لصديقه، بعد الغزو الباطني الخطير لأفكار المسلمين.

ويمكن أن يضاف إلى البلبلة الفكرية التي سببت الانحلال الاجتماعي، سبب آخر وهو أن الحركة الباطنية استغلت حالة الفقر التي كان يعيشها بعض أفراد المجتمع الإسلامي، فعملت على إشباع شهواتهم الجنسية والمالية وخاصة لذوي النفوس المريضة

---

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير جـ ص٥٢٤ - ٥٢٦.

منهم، مما سهل الأمر على الحركة الباطنية أن تستغلهم أبشع استغلال، وهذا ما هو واضح عند القرامطة والحشاشين على وجه الخصوص.

وعند ظهور الدولة العبيدية في المغرب وامتدادها بعد ذلك إلى مصر، «بلغ التعفن الاجتماعي أقصى مداه حيث عمد الشيعة إلى إنزال الويلات بالناس، فجاروا عليهم جوراً شديداً، وتعللوا على أموال الناس من كل جهة، وقد أصاب الناس على ذلك طاعون شمال أفريقيا، وما والاها إلى مصر سنة ٣٠٧هـ، نشأ قطعاً عما يعاني الناس من انهيار اجتماعي زاده الفقر استفحالا والمجاعة تعفناً[١]».

أما الباطنية من الحشاشين، فقد أحدثوا إنهياراً اجتماعياً لا مثيل له، تدل خطورته على الوضع الذي وصل إليه الناس في ذلك الوقت، حيث صار هؤلاء مصدراً للخوف والقلق بين جميع طبقات الناس، فصار الأخ لا يثق بأخيه، والأب يخاف من ابنه، والأمير لا يعلم المخلص من أتباعه وحراسه، لخوفهم أن يكون واحداً منهم ممن سلب الباطنية عقولهم بأفكارها المريبة البراقة؟!.

ومن البديهي أن تحدث هذه الأمور مجتمعة شرخا اجتماعيا كانت له انعكاساته على الوضع السياسي للعالم الإسلامي وهو يقاوم الأعداء الخارجين من الصليبيين والتتار، فكانت الباطنية عدوا داخليا يوالي الطعنات المخيفة من الخلف، مما أضعف المسلمين وأحدث ثغرة عميقة في صفوفهم.

ومن الأمور الخطيرة أيضا، التي عملت الباطنية على تحقيقها في المجتمع الإسلامي وهو يواجه الصليبيين والتتار، محاولتها قتل عدد كبير من خيرة العلماء والقادة والأمراء، في محاولة منها لإبعاد هؤلاء عن طريقها، حتى يفسح المجال لها لتنفيذ أغراضها الجهنمية في المجتمع الإسلامي، فكان فقد أمثال هؤلاء من المجتمع عاملا خطيراً في ارتباط المجتمع الإسلامي وتخلخله.

---

(١) الصراع المذهبي في أفريقيا / عبد العزيز المجذوب ص٢٣٧.

من ذلك أنهم قتلوا في همذان قاضي القضاة زين الإسلام أبا سعد محمد بن نصر الهروي أثناء عودته من خراسان إلى بغداد، ولم يجرؤ شخص على أن يتبعهم للخوف منهم، وفي سنة ١١٢٦هـ قتلوا البرسقي أتابك الموصل، وفي سنة ١١٢٧هـ قتلوا المعين وزير السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان، وفي سنة ١١٣٠هـ أرسل الباطنية من مركزهم في آلموت اثنين من الخراسانية لقتل تاج الملوك بوري أتابك دمشق، ويطول بنا الأمر لو حاولنا تسجيل كافة الاغتيالات الباطنية، ولكن يكفي أن نختم هذه القائمة بالإشارة إلى أنهم حاولوا أكثر من مرة قتل صلاح الدين الأيوبي ولكن الله سلمه[١].

وهذا غيض من فيض للأثر الاجتماعي الذي أوقعته الباطنية في القرون الماضية، أما حديثا فيكفي أن نجمله بأمر خطير تعمل على تحقيقه الباطنية بجميع فرقها، وهو امتدادهم البشري إلى كافة المدن والقرى المجاورة لمعاقلهم، في محاولة منهم للسيطرة على أكبر قدر من أراضي المدن والقرى التي يقطنها المسلمون، ويمكن أن نلاحظ هذا الزحف البشري بوضوح في سوريا، فقد ترك مئات الألوف من النصيرية جبالهم واستوطنوا دمشق وحلب وحماة وحمص، مما أحدث شرخاً عميقاً في مجتمعات هذه المدن وخاصة بعد أن أصبح هؤلاء الباطنيون المسيطرون على مقدرات هذه المدن سياسيا وماديا.

وهكذا ظلت الباطنية قديما وحديثاً مصدراً خطيراً للانحلال السياسي والاجتماعي بأفكارها المسومة، وأعمالها الإرهابية، ومن البديهي أن يكون لهذا الخطر الباطني في المستقبل أثر لا يجوز الاستهانة به.

---

(١) الحركة الصليبية / سعيد عاشور جـ١ ص٥٥٩، ٥٦٠.

الفصل الثالث

أثرها في الناحية السياسية

إن أسوأ النتائج التي ترتبت نتيجة لظهور الحركة الباطنية هو انقسام العالم الإسلامي إلى فئتين متناحرتين. فقد استطاعت الباطنية (المتمثلة بالإسماعيلية) استمالة قبيلة كتامة في بلاد المغرب مما ساعدها كثيراً على قيام أول دولة لها سميت بـ (الدولة الفاطمية) أو (العبيدية).

ولا شك أن قيام هذه الدولة الباطنية قد أوجد انقساماً خطيراً في صفوف المسلمين هو الأول من نوعه، لادعاء حكام هذه الدولة أنهم من ذرية آل البيت، وبأحقيتهم أن يكونوا أئمة المسلمين، بعد أن كان المسلمون جميعهم يتجهون في ولائهم إلى الخليفة العباسي في بغداد، ولكن سرعان ما تكشفت حقيقة هؤلاء الأدعياء عندما عملوا مرارا على إثارة الفتن بين السنة والشيعة في العراق مقر الخلافة العباسية، وعلى إظهار باطن ما يعتقدون في قوانينهم وتصرفات أتباعهم.

ومن المؤكد أن تفتيت العالم الإسلامي الذي عمل على تنفيذه أتباع الباطنية كان له أثر بالغ الخطورة على التطورات السياسية فيه، وخاصة وهو يواجه الصليبيين والتتار، فإذا به يتعرض لطعنه قوية من الخلف من جانب الباطنية، أضعف المسلمين وأحدث ثغرة قوية في جبهتهم نفذ من خلالها الأعداء من الصليبيين وغيرهم، فاستطاعوا بذلك أن يوطدوا قوتهم داخل بلاد المسلمين.

وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أن الباطنية كانت تمد يد العون والمساعدة لهؤلاء الأعداء وتتحالف معهم في سبيل القضاء على الخلافة الإسلامية، «ولما تحرك الصليبيون صوب الجنوب كانت سياستهم التقليدية تقوم على محالفة الفاطميين الشيعة بمصر لمناهضة الخلفاء العباسيين والترك السنيين[1]».

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية / ستيفن رنسيمان مجلد ٢ص٣٣.

وكان أكثر عونا للصليبيين وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، فرقة الحشاشين، الذين عرفوا بالقتل والتدمير، وأصبحوا أداة غادرة بيد الصليبيين موجهة ضد المسلمين.

فكانوا بما أقدموا عليه من اغتيالات ضد القادة المسلمين، موضع ترحيب وتقدير من قبل الصليبيين بعد أن وجدوا فيهم ضالتهم المنشودة، فسارعوا للتحالق الوثيق معهم، وكان هذا التحالف واضحاً عندما زحف المسلمون على الصليبيين حتى بلغوا طبرية في فلسطين بقيادة مودود وطغتكين سنة ١١١٣م، فأغضب هذا الباطنية، فعملوا على قتل مودود بينما كان يدخل المسجد الكبير لتأدية صلاة الجمعة، فطعنه أحد الباطنية بخنجر فلقي مصرعه[١] وهكذا تخلص الفرنج من عدو لدود لهم، بمصرع مودود على يد الباطنية.

وزاد من نفوذ الباطنية في بلاد الشام، اعتناق رضوان ملك حلب للمذهب الباطني وعطفه على أتباعه، فاستغل الباطنية تلك المكانة وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية ضد زعماء المسلمين[٢]. وما اتسمت به سياسة رضوان الباطنية، أسهمت إلى حد كبير في توطيد ملك الفرنج في الشام[٣].

وتوطدت العلاقات الودية بين الصليبيين والباطنية في أيام نور الدين وصلاح الدين، اللذين عملا جاهدين على توحيد العالم الإسلامي ضد الصليبيين، فقد كانت كراهية الباطنية لنور الدين شديدة، واعتبروه عدوهم اللدود، نظرا لأن سلطانه قيد توسعهم، فحقدوا عليه وعاونوا حلفاءهم الصليبيين ضده، حتى إنه عندما استطاع نور الدين أن يلحق الهزيمة بالصليبيين، نرى زعيم الحشاشين حينئذ (علي بن وفا الكردي) يسارع للتحالف مع الصليبيين، ويقوم بهجوم مفاجئ على نور الدين سنة ١١٤٨م بالقرب من انطاكية، ولم يكتفوا بذلك، بل حاولوا اغتيال نور الدين، وأرسل زعيم الحشاشين الجديد

---

(١) انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق مجلد ٢ص٢٠٦.

(٢) الحركة الصليبية / د. سعيد عاشور جـ ١ص٥٥٥.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية / ستيفن رنسيمان مجلد ٢ص٢٠٦.

رشيد الدين سنان إلى الصليبيين يعرض عليهم إجراء تحالف وثيق لمناهضة نور الدين ملوحاً بأنه يفكر مع قومه في التحول إلى النصرانية[1].

ولم يتوان هذا الحشاش عن محاولة اغتيال صلاح الدين الأيوبي نفسه، فقد تم اكتشاف جماعة من الباطنية عند خيمة صلاح الدين في جوف عسكره[2]، بعد أن استطاع أن يدحر الصليبيين، وقد تكررت هذه المحاولة عدة مرات، وكل هذا يدل بالطبع على نوعية الحقد الدفين الذي يكنه الباطنيون لكل ما يحمل علامة النصر للإسلام والمسلمين.

ويحسن بنا أن نلاحظ أن من الآثار السياسية للحركة الباطنية الفتن السياسية التي قامت بها، فأدخل العالم الإسلامي في بلبلة وقلاقل جعله نهباً للأعداء من كل جهة.

فالاضطرابات التي قام بها أدعياء التشيع من الباطنية أمثال الخطابية وغيرها، كانت تمهيداً لثورات وقلاقل أكبر خطرا حاقت بالعالم الإسلامي قام بها بعد ذلك الباطنيون، وأهم تلك القلاقل ثورة القرامطة الارهابية، وما حملته من فتنة سياسية أحرقت الأخضر واليابسن وأحدثت فراغاً كبيراً في صفوف المسلمين وقوتهم، دخل من خلاله الأعداء من كل صوب إلى قلب العالم الإسلامي فوجدوا من أتباع الباطنية خير عون ومساعد لهم ضد المسلمين.

والمطلع على تاريخ الباطنية، لا بد أن يربط القديم بالحديث في تاريخ هؤلاء، فما نراه اليوم من أعمالهم لا يمكن أن نستغربه، فتاريخهم السياسي القديم، أسود حالك بالسواد، مليء بالحقد والكراهية، وتاريخهم الحديث امتداد لهذا التاريخ، «فقد جهد الاستعمار الأوروبي ليجد أسلحة يهدم بها الإسلام ويسيطر على المسلمين، ويبدو أن الإسماعيلية كانوا أحد هذه الأسلحة، فإذا بإمام إسماعيلي يظهر من جديد، يساعد الإنجليز ويساعده الإنجليز، يتيح له الإنجليز أن ينشر مذهبه بين مسلمي مستعمراتهم، ويضمن لهم هو أن يخضع أتباعه لهم[3]».

---

(١) انظر بتفصيل المرجع السابق مجلد ٢ص٦٤١.

(٢) المرجع السابق مجلد ٢ص٦٧٥.

(٣) موسوعة التاريخ الإسلامي / د. أحمد شلبي جـ ٢ ص١٨٩، ١٩٠.

والنصيرية في السنين الماضية فاقت الإسماعيلية في تحالفها الوثيق مع أعداء الإسلام والمسلمين، فأصبحت أداة خبيثة بيد اليهودية والصليبية مزروعة في جسم العالم الإسلامي، تتحرك وتنفذ مخططات الأعداء بكل حقد، وخاصة بعد أن استولت على مقاليد الأمور في سورية، فكان تسليم الجولان لإسرائيل عبارة عن صفقة خائنة عقدت بين النصيرية والدولة اليهودية لا تزال آثارها الإجرامية تتفاقم إلى اليوم. ولم يكتف النصيريون بهذا، فعملوا أيضا على تحطيم المسلمين في لبنان، بعد أن كاد المسلمون أن يسيطروا على أكثر لبنان، فدخلت قوات النصيريين لبنان وحطمت هذا النصر، ودكت مخيم تل الزعتر بمعاونة قوات النصارى واليهود، يقتلون ويشوهون ويهتكون الأعراض معاً.

وهكذا نرى أن الباطنية كانت ولا تزال مصدر الفتن والقلاقل في المجتمع الإسلامي، وعوناً لكل عدو لهذه الأمة تساعده بكل ما أوتيت من قوة لعلها بذلك تحقق هدفها وهو هدم الإسلام وقتل المسلمين.

الخاتمـة

لعل النتيجة التي يخرج بها الباحث في عقائد الفرق الباطنية، هو أنها جميعها مثل وجهي العملة كيفما تقلبه لا يتغير رغم اختلاف الوجه الأول عن الوجه الثاني، وكذلك الفرق الباطنية، فإن اختلافها في الأسماء والألقاب، لا يغير من الحقيقة شيئاً، ولا يدل على تنافر عقائدها، وهذا يعني أن جميع هذه الفرق تتفق في الأهداف والغايات، فضلا عن اتفاقها في المصدر والأساس.

ولا شك ان الصفحات السابقة قد بينت أن المصدر الرئيسي التي أخذت عنه الباطنية عقائدها، كان مناقضا للأصول والمبادئ التي بنى عليها الإسلام، لذا لن نكون مغالطين أو مفترين على هؤلاء، إذا جزمنا أن وراء هذه الفرق أيدي خبيثة تسيرها نحو أهداف وغايات يتطلع لها أصحاب تلك الأيدي، وأولها تشويه الإسلام في نفوس أهله، تمهيداً لتقويضه والعودة إلى أباطيلهم وضلالاتهم التي قضى عليها الإسلام.

والمتتبع لتاريخ الإسلام والمسلمين في القديم والحديث، يدرك أهداف الباطنية هذه، وما الفتن والمؤامرات وسفك الدماء وهتك الأعراض، التي قامت بها الباطنية، إلا براهين على صدق ذلك، وتعطينا الدليل تلو الدليل على حقد هؤلاء على الدين وأهله.

ولا نريد أن نرجع إلى الماضي، بل نريد أن نعرف ما يفعله هؤلاء في الوقت الحاضر، من خيانة وتدمير وقتل بلا حساب ولا خوف. وأعتقد أن كل منصف وهو يشاهد ما يجرى في سورية ولبنان، وما ترتكبه النصيرية في حق أبناء هذين البلدين المسلمين، يدرك حقيقة هؤلاء ومقدار حقدهم الدفين، فقد صاروا - وكما كانوا في الماضي - أداة طيعة في يد أعداء الإسلام من اليهود والصليبيين يحركوهم كيفما يريدون.

ومن يتصفح تاريخ هؤلاء وعقائدهم لا يشك مطلقاً بكفرهم وخروجهم عن الإسلام، وما ادعاءهم بأنهم من المسلمين أو العرب إلا من جملة التضليل والنفاق الذي يتسترون به لتحقيق مآربهم.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد كان من العلماء القلائل الذين فضحوا هؤلاء، وبينوا كفرهم ووجوب استئصالهم من المجتمع الإسلامي، فكتب الكتب والرسائل في سبيل إيصال حقيقة كفرهم إلى المسلمين، والرد على تلك الأباطيل.

لذا فكفر هؤلاء لا جدال فيه، ولكن في حكم توبتهم إذا أظهروا خلاف بين العلماء، وسببه أن هؤلاء من المعتقدين بالتقية والقول بالباطن، ومن الممكن أن يظهروا التوبة وهم يكتمون الكفر، وقد فصل أبو حامد الغزالي هذا الأمر في كتابه فضائح الباطنية فقال: «وأما توبة الباطنية وكل زنديق مستتر بالكفر يرى التقية دينا، ويعتقد النفاق وإظهار خلاف المعتقد عند استشعار الخوف حقاً، ففي هذا خلاف بين العلماء، ذهب ذاهبون إلى قبولها، لقوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها عصموا مني دماؤهم وأموالهم إلا بحقها[1])، ولأن الشرع إنما بنى الدين على الظاهر فنحن لا نحكم إلا بالظاهر والله يتولى السرائر.

وذهب ذاهبون إلى أنه لا تقبل توبته، وزعموا أن هذا الباب لو فتح لم يكن حسم مادتهم وقمع غائلتهم، فإن من سر عقيدتهم التدين بالتقية والاستسرار بالكفر عند استشعار الخوف. فلو سلكنا هذا المسلك لم يعجزوا عن النطق بكلمة الحق وإظهار التوبة عند الظفر بهم، فيلهجون بذلك مظهرين ويستهزئون بأهل الحق مضمرين... ويقسم (الغزالي) هؤلاء إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة في السنن – انظر فضائح الباطنية – تحقيق: د. عبد الرحمن بدوى ص١٦٠.

الحالة الأولى: أن يتسارع إلى إظهار التوبة واحد منهم من غير قتال ولا إرهاق واضطرار، ولكن على سبيل الإيثار والاختيار متبرعا به ابتداء من غير خوف، واستشعار هذا ينبغي أن يقطع بقبول توبته.

الحاثة الثانية: الذي يسلم تحت ظلال السيوف، ولكنه من جملة عوامهم وجهالهم، لا من جملة دعاتهم وضلالهم، فهذا أيضا تقبل توبته، فمن لم يكن مترشحاً للدعوة فضرره مقصور عليه في نفسه.

الحالة الثالثة: أن نظفر بواحد من دعاتهم ممن يعرف منه أنه يعتقد بطلان مذهبه، ولكنه ينتحله غير معتقد له ليتوصل إلى استمالة الخلق وصرف وجوههم إلى نفسه، طلباً للرياسة وطمعاً في حطام الدنيا - هذا هو الذي يتقى شره، والأمر فيه منوط برأي الإمام ليلاحظ قرائن أحواله ويتفرس من ظاهره في باطنه، ويستبين أن ما ذكره يكون إذعانا للحق واعترافاً به بعد التحقق والكشف، أو هو نفاق وتقية، وفي قرائن الأحوال ما يدل عليه[(١)]».

أما واجب المسلمين اتجاه هؤلاء، فأرى أنه يتمثل في أمرين مهمين:

الأول: وهو منوط بعلماء المسلمين، بفضح كفر هؤلاء أمام المسلمين وبيان حقيقتهم، وأسماء فرقهم وألقابها، لأن الجهل بهؤلاء أصبح عاما عند كافة المسلمين، فلا فرق عند بعض الناس بين الإسماعيلي والشافعي مثلا، والإثم في ذلك يقع على بعض العلماء الذين تقاعسوا أو تكاسلوا أو خافوا من فضح الباطنية وأتباعها، فتسللت بسبب ذلك إلى صفوف المسلمين تخرب وتهدم باسم الوطنية تارة، والعروبة تارة أخرى.

الثاني: العمل على نشر الإسلام الصحيح بين أتباع هذه الفرق، على يد علماء واعين متخصصين في عقائدهم، ولهم قدرة على إقناع أمثال هؤلاء، وهذا لا يتم إلا بأن يحال بين أتباع الباطنية ومشايخهم ودعاتهم.

---

(١) فضائح الباطنية / أبو حامد الغزالي ص١٦٠.

وفي ختام هذا البحث، أرجو الله أن أكون قد وفقت في إظهار حقيقة هذه الفرق، لعل ذلك يزيل غشاوة الجهل من أعين المسلمين، فيكون بذلك - إن شاء الله - طريقاً آخر في تعاملنا مع أمثال هؤلاء.

راجياً الله أن يهدينا سواء السبيل، وأن يرينا الحق حقاً، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهـــارس



فهرس المصادر والمراجع المطبوعة

القرآن الكريم.

١. ابن الأثير - علي، الكامل في التاريخ، دار صادر - بيروت ١٩٦٦.

٢. ابن تغري بردي - يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة المصرية.

٣. ابن تيمية - أحمد، مجموعة فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، الرياض ١٣٨١هـ.

٤. ابن الجوزي - عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - بيروت.

٥. ابن حزم - علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة بيروت.

٦. ابن حنبل - أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي ودار صادر بيروت ١٩٦٥م.

٧. ابن خلدون - عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون ومقدمته، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨م.

٨. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، دار صادر - بيروت ١٩٦٨.

٩. ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧١م.

١٠. ابن عابدين، حاشة ابن عابدين مع التكملة، دار إحياء التراث - بيروت.

١١. ابن العبري - غريغوريوس الملطي، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية - بيروت.

١٢. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري - بيروت.

١٣. ابن كثير - أبو الفداء، تفسير ابن كثير، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا، مطابع الشعب / القاهرة.

١٤. ابن كثير - أبو الفداء، البداية والنهاية، مكتبة المعارف - بيروت ١٩٧٧.

١٥. ابن النديم، الفهرست - دار المعرفة - بيروت.

١٦. ابن محمد الوليد - علي، تاج العقائد ومعدن الفوائد، تحقيق عارف تامر، دار المشرق - بيروت ١٩٦٧.
١٧. ابن منظور - أبو الفضل محمد بن مكرم، دار صادر - بيروت ١٩٥٥م.
١٨. إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، تحقيق خير الدين الزركلي، المكتبة التجارية بمصر ١٩٢٨.
١٩. الأشعري - أبو الحسن علي، مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ.
٢٠. الأطرش - فؤاد، الدروز مؤامرات وتاريخ وحقائق - بيروت
٢١. الأعظمي - محمد حسن، الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثنى عشرية، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٠م.
٢٢. الأعلمي - محمد حسين، دائرة المعارف (المسماة بمقتبس الأثر ومجدد ما دثر)، مطبعة قم ١٣٨٥هـ.
٢٣. أبو زهرة - محمد، المذاهب الإسلامية، مكتبة الأداب - القاهرة.
٢٤. أبو شقرا - يوسف خطار، الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، مطبعة الاتحاد - بيروت.
٢٥. أبو النصر - عمر، قلعة آلموت (الحسن بن الصباح)، مكتبة عمر أبو النصر بيروت ١٩٧٠م.
٢٦. الألوسي - محمد، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، المطبعة المنيرية - القاهرة.
٢٧. أملي - شيخ سيد حيدر، جامع الأسرار ومنبع الأنوار، تحقيق: هنري كوربان وعثمان يحيى، طهران ١٩٦٩.
٢٨. الأمين - مجاهد، العلويون أو النصيرية، المؤسسة الإسلامية للطباعة والنشر - بيروت.
٢٩. بدوي - عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٣م.
٣٠. برهييه - اميل، الآراء الدينية والفلسفية لـ (فيلون الإسكندري)، ترجمة: د. محمد يوسف النجار ود. عبد الحليم النجار، نشر مصطفى الحلبي/ القاهرة ١٩٥٤م.

٣١. بروكلمان - كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٦٨م.
٣٢. بروكلمان - كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٩م.
٣٣. البستاني - بطرس، دائرة المعارف، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان/ طهران.
٣٤. البشبيشي - محمود، الفرق الإسلامية، المكتبة التجارية بمصر ١٩٣٣م.
٣٥. البغدادي - عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح/ القاهرة.
٣٦. بوردو - بول هنري، أميرة بابلية لدى الدروز، تعريب: ميشيل سليم كميدر، المطبعة العصرية بمصر ١٩٣١م.
٣٧. البوطي - محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر - بيروت ١٣٨٨هـ
٣٨. تامر - عارف، أربع رسائل إسماعيلية، تحقيق: عارف تامر، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧٨م. وتتضمن ما يلي:
١- رسالة مطالع الشموس في معرفة النفوس/ للداعي شهاب الدين أبي فراس.
٢- رسالة أسبوع دور الستر/ للداعي أحمد حميد الدين الكرماني.
٣- رسالة الدستور ودعوة المؤمنين للحضور/ للداعي شمس الدين الطيبي.
٤- القصيدة التائية/ للشاعر عامر المصري.
٣٩. تامر - عارف، القرامطة - دار مكتبة الحياة - بيروت.
٤٠. التميمي - القاضي النعمان بن حيون، آداب اتباع الأئمة، تحقيق مصطفى غالب، دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٧٩.
٤١. التميمي - القاضي النعمان بن حيون، أساس التأويل، تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٠.

٤٢. التميمي - القاضي النعمان بن حيون، افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع.
٤٣. التميمي - القاضي النعمان بن حيون، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف علي فيض، دار المعارف بمصر.
٤٤. التوحيدي - أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة ١٩٣٩م.
٤٥. ثابت - كريم، الدروز والثورة السورية وسيرة سلطان باشا الأطرش.
٤٦. جاد المولى - محمد أحمد، وأحمد العوامري، مهذب رحلة ابن بطوطة، المطبعة الأميرية ١٩٣٤م.
٤٧. الجعفي - المفضل بن عمر، كتاب الهفت والأظلة، تحقيق: عارف تامر والأب عبده اليسوعي، دار المشرق/ بيروت.
٤٨. جمال الدين - محمد السعيد، دولة الإسماعيلية في إيران، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٥م.
٤٩. جمعة - سعد، مجتمع الكراهية، دار الكاتب العربي - بيروت.
٥٠. جوزى - بندلي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، القدس.
٥١. جولد تسهير - أجناس، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: د. محمد يوسف موسى و د. علي حسن عبد القادر و د. عبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة بمصر.
٥٢. الحامدي - إبراهيم بن الحسين، كتاب كنز الولد، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، تحقيق: مصطفى غالب، بيروت ١٩٧١م.
٥٣. حبنكة الميداني - عبد الرحمن حسن، العقيدة الإسلامية وأسسها - دار القلم - دمشق.
٥٤. حتي - فيليب، لبنان في التاريخ، ترجمة: د. أنيس فريحة، دار الثقافة - بيروت ١٩٥٩م.

٥٥. حسن - سعد محمد، المهدية في الإسلام منذ أقدم العصور وحتى اليوم، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٣م/ ١٣٧٣هـ.
٥٦. حسن - حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٥٧. حسن - حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٥.
٥٨. حسين - محمد كامل، طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨.
٥٩. حسين - محمد كامل، طائفة الدروز - تاريخها وعقائدها - دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
٦٠. الحموى - ياقوت، معجم البلدان، دار صادر - بيروت ١٩٦٨م.
٦١. الحميري - محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان ١٩٧٥.
٦٢. حوى - سعيد، الإسلام - بيروت.
٦٣. الخطيب - محمد أحمد، عقيدة الدروز (عرض ونقض)، مكتبة الأقصى - عمان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
٦٤. خليفة - عبد الكريم، إخوان الصفاء وخلان الوفاء، عمان ١٩٤٩.
٦٥. دكر - جورج بطرس، مدعي الألوهية في القرن العشرين أو سليمان مرشد، مطابع دار الكشاف والحداد، اللاذقية ١٩٤٧م.
٦٦. الدهلوي - شاه عبد العزيز، مختصر التحفة الاثنى عشرية، ترجمة: غلام محمد الأسلمي، دار ابن خلدون - بيروت ١٩٧٨م.
٦٧. دي خويه - ميكال ياتي، القرامطة - نشأتهم، دولتهم، علاقتهم بالفاطميين، ترجمة وتحقيق حسني زينة/ دار ابن خلدون - بيروت ١٩٧٨.
٦٨. الرازي - فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٨م.
٦٩. الرازي - فخر الدين، التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية ١٩٣٨م.

٧٠. رضا – محمد رشيد، فتاوي الإمام محمد رشيد رضا، تحقيق د. صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٠م.

٧١. الريحاني - أمين، النكبات خلاصة تاريخ سوريا منذ العهد الأول بعد الطوفان إلى عهد الجمهورية بلبنان - مطابع دار صادر - بيروت ١٩٤٨م - الطبعة الثانية.

٧٢. الزعبي - محمد علي وعلي زيعور، البوذية وتأثيرها في الفكر والفرق الإسلامية المتطرفة، مطبعة الانصاف - بيروت ١٩٦٤م.

٧٣. الزركلي - خير الدين، الأعلام – قاموس وتراجم - بيروت - الطبعة الثالثة.

٧٤. زكار - سهيل، أخبار القرامطة في الإحساء - الشام - العراق - اليمن –، جمع وتحقيق: نشر عبد الهادي صرصوني - دمشق.

٧٥. السجستاني - أبو يعقوب اسحاق، الينابيع، تحقيق: مصطفى غالب - بيروت ١٩٦٥م.

٧٦. السيوطي - جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار احياء الكتب العربية/ القاهرة ١٩٦٧م.

٧٧. شاكر - محمود، القرامطة / المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٧٩م.

٧٨. شرف الدين - أحمد حسين، تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

٧٩. الشكعة - مصطفى، إسلام بلا مذاهب، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م.

٨٠. شلبي - أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية / القاهرة.

٨١. الشنتاوي – أحمد ورفاقه، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة – وزارة المعارف/ القاهرة

٨٢. الشهرستاني - محمد، الملل والنحل (المطبوع على هامش الفصل في الملل لابن حزم)، دار المعرفة – بيروت.

٨٣. الشيبي - كامل مصطفى، الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري –، مكتبة النهضة - بغداد ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٨٤. صبحي - أحمد محمود، الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف بمصر.
٨٥. الصغير - سعيد، بنو معروف (الدروز) في التاريخ، مطبعة الاتقان - بيروت ١٣٧٤هـ.
٨٦. صليبا - جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧١م.
٨٧. الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
٨٨. الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر.
٨٩. طليع - أمين، أصل الموحدين الدروز وأصولهم، دار الأندلس - بيروت ١٩٦١م.
٩٠. الطوسي - أبو جعفر، كتاب الغيبة، مطبعة النعمان - النجف ١٣٨٥هـ - الطبعة الثانية.
٩١. الطويل - محمد أمين غالب، تاريخ العلويين، دار الأندلس - بيروت ١٩٧٩م - الطبعة الثالثة.
٩٢. عاشور - سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م.
٩٣. عبدالله - الحسيني، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية، دار الاعتصام/ القاهرة ١٤٠٠هـ.
٩٤. عبد العال - محمد جابر، حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول، مطبعة السنة المحمدية / القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤.
٩٥. عبد النور - جبور، إخوان الصفاء، دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة.
٩٦. عثمان - هاشم، العلويون بين الأسطورة والحقيقة -، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ١٩٨٠م.
٩٧. العزاوي - السيد محمد، فرقة النزارية - تعاليمها ورجالها على ضوء المراجع الفارسية - الهيئة العامة للكتب/ جامعة عين شمس / القاهرة.

٩٨. عز الدين - سلمان، إبراهيم باشا في سوريا - بيروت ١٩٤٩م.
٩٩. العسكري - السيد عبد الحسين مهدي، العلويون أو النصيرية - بيروت.
١٠٠. العصامي المكي - عبد الملك، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية/ القاهرة ١٣٧٩هـ.
١٠١. عطية - أحمد، القاموس الإسلامي - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م.
١٠٢. علي - أسعد أحمد، فن المنتجب العاني وعرفانه - دار النعمان - بيروت ١٩٦٨م.
١٠٣. العلوي - يحيى بن حمزة، الإفحام لأفئدة الباطنية الطعام، تحقيق: فيصل عون، منشأة المعارف بالإسكندرية.
١٠٤. عنان - محمد عبدالله، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، دار الهلال بمصر ١٩٢٦م.
١٠٥. عنان - محمد عبدالله، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار النشر الحديث/ القاهرة ١٩٣٧م.
١٠٦. عنان - محمد عبدالله، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، مطبعة مصر ١٩٥٢م.
١٠٧. عوض - عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤م، دار المعارف بمصر.
١٠٨. العياش - سامي، الإسماعيليون في المرحلة القرمطية، دار ابن خلدون / بيروت.
١٠٩. غالب - مصطفى، إخوان الصفاء، دار مكتبة الهلال - بيروت ١٩٧٩م.
١١٠. غالب - مصطفى، الثائر الحميري (الحسن بن الصباح)، دار الأندلس - بيروت ١٩٧٩م.
١١١. غالب - مصطفى، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس - بيروت ١٩٧٩م.
١١٢. غالب - مصطفى، الحركات الباطنية في الإسلام، دار الكاتب العربي - بيروت.
١١٣. غالب - مصطفى، القرامطة، دار الأندلس - بيروت ١٩٧٩م.
١١٤. الغزالي - أبو حامد، فضائح الباطنية، تحقيق: د. عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية/ الكويت.

١١٥. فخري - ماجد، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة: د. كمال اليازجي، الدار المتحدة/ بيروت ١٩٧٩م.

١١٦. فروخ - عمر، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين/ بيروت ١٣٨٢هـ - ١٩٧٢م.

١١٧. الفوزان - أحمد، أضواء على العقيدة الدرزية، بيروت ١٩٧٩م.

١١٨. الفياض - زيد بن عبد العزيز، أبحاث بعنوان (حقيقة الدروز) بمجلتي:

أ- المنهل الصادرة بجدة جـ٣ مجلد ٢٠شهر ربيع ثاني ١٣٧٩هـ.

ب- راية الإسلام الصادرة بالرياض - الاعداد ٨، ٩، ١٠، ١١ سنة أولى ١٣٨٠هـ، والأعداد ١، ٢ سنة ثانية ١٣٨١هـ.

١١٩. قاسم - محمود: دراسات في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م - الطبعة الخامسة.

١٢٠. القرماني - أحمد، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب/ بيروت.

١٢١. القمي - سعد، المقالات والفرق، تحقيق: د. محمد جواد مشكور، مؤسسة مطبوعاتي أعطائي / طهران.

١٢٢. القلانسي - أبو يعلى، ذيل تاريخ دمشق - بيروت

١٢٣. القلقشندي - أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة.

١٢٤. كاير - جوزيف، حكمة الأديان الحية، ترجمة: حسين الكيلاني، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٤م.

١٢٥. كرد علي - محمد، خطط الشام، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٩م.

١٢٦. الكرماني - أحمد حميد الدين، راحة العقل، تحقيق: مصطفى غالب بيروت ١٩٦٧م.

١٢٧. لقبال - موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٩٧٩م.

١٢٨. لويس - برنارد، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، ترجمة: د. خليل أحمد خليل، دار الحداثة - بيروت ١٩٨٠م.
١٢٩. المبارك - محمد، نظام الإسلام - العقيدة والعبادة - دار الفكر / بيروت.
١٣٠. متز - آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة: د. محمد أبو ريدة، مكتبة الخانجي/ القاهرة ١٩٦٧م.
١٣١. المجذوب - عبد العزيز، الصراع المذهبي بأفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية ١٩٧٥م.
١٣٢. مجموعة مؤلفين، سلسلة تراث الإنسانية / المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.
١٣٣. المظفر - محمد الحسين، مؤمن الطاق - منشورات دار الباقر - النجف ١٣٨٤هـ.
١٣٤. المظفر - محمد رضا، عقائد الإمامية مكتبة الأمين - النجف ١٩٦٨م.
١٣٥. المقدسي - عبد الرحمن، الروضتين في أخبار الدولتين دار الجيل/ بيروت.
١٣٦. المقريزي - أحمد، الخطط المقريزية دار احياء العلوم/ بيروت.
١٣٧. مكارم - سامي، أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية) دار صادر/ بيروت ١٩٦٦م.
١٣٨. مكارم - سامي، تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي (بالإشتراك مع د. عباس أبو صالح) منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء.
١٣٩. مؤلف مجهول، رسالة تعليم دين التوحيد (المعروف بدين الدرزية).
١٤٠. مؤلف مجهول، كتاب النقط والدوائر (من كتب الدروز الدينية) طبع ريو دي جانيرو/ البرازيل سنة ١٩٢٠م - طبعة منير اللبابيدي.
١٤١. المؤيد في الدين - داعي الدعاة، ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري ١٩٤٩م.
١٤٢. المؤيد في الدين - داعي الدعاة، سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق: محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري ١٩٤٩م.

١٤٣. النجار - عبدالله، مذهب الدروز والتوحيد، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

١٤٤. النشار - علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام/ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٦٢م. الطبعة الثانية.

١٤٥. النشار - علي سامي، هيراقليطس - فيلسوف التغير وأثره في الفكر الفلسفي - (بالاشتراك مع د. محمد أبو ريان ود. عبده الراجحي) دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

١٤٦. نسيمان - ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د. السيد الباز العريني، دار الثقافة/ بيروت ١٩٦٨.

١٤٧. النوبختي - أبو محمد الحسن بن محمد بن موسى، فرق الشيعة، تحقيق: هـ. ريتر نشر جمعية المستشرقين الألمانية، استنبول ١٩٣١م.

١٤٨. وجدي - محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة/ بيروت.


الذخيرة العربية

فهرس المخطوطات

١. الجسري - أبو محمد علي بن عيسى، رسالة التوحيد (من مكتب النصيرية) - مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٠عربي.

٢. الجعفي - المفضل بن عمر، كتاب الصراط (من كتب النصيرية) - مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٩٤٩ عربي.

٣. حسين - محمد، شرح الميثاق (من كتب الدروز) - مخطوط في جامعة شيكاغو رقم ٣٧٣٧، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الأردنية/ مركز الوثائق والمخطوطات رقم ٢٩.

٤. الحراني - أبو عبدالله محمد بن شعبة، كتاب الأصيفر (من كتب النصيرية) - مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٠عربي.

٥. الحلبي - رزق حسونة، حسر اللثام عن الإسلام، مخطوط في الجامعة اليسوعية ببيروت رقم ٦٩٧، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الاردنية/ مركز الوثائق والمخطوطات رقم ٧٤٩.

٦. الحلبي – يوسف، مناظرة الشيخ يوسف الحلبي (من كتب النصيرية)، مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي.

٧. دروز - رسائل الدروز، بعض رسائل الدروز ورَدُّ شيخِ الإسلام ابن تيمية وغيره عليهم، مخطوط في المكتبة السعودية بالرياض، مكتبة دار الافتاء رقم ٢٥٢/ ٨٦.

٨. دروز - رسائل الدروز، رسائل الدروز - مخطوطات في جامعة شيكاغو تحت الأرقام التالية: ٣٧٣٦، ٣٧٤٠، ٣٧٤١، ٣٧٤٤، ٣٧٤٥ - وتوجد أفلام عنها في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق والمخطوطات، وأرقامها على التوالي: ٢٧، ٢٩.

٩. دروز - رسائل الدروز، رسائل الدروز - مخطوطات في جامعة برنستون (مجموعة جاريت) تحت الأرقام التالية: ١٦١٨، ١٦١٤، ب٣٩٥، ١٦١٢ وتوجد أفلام عنها في الجامعة الأردنية مركز الوثائق، وأرقامها على التوالي: ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥.

١٠. دروز - رسائل الدروز، رسائل الدروز - مخطوطات في جامعة ييل (مجموعة سالزبوري) تحت الأرقام التالية: ١٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، (ومجموعة العربي) تحت رقم ٦٤، (ومجموعة لاندبيرخ) تحت رقم ٧٧٣، وتوجد أفلام عنها في الجامعة الأردنية/ مركز الوثائق وأرقامها على التوالي: ١، ٢، ١٩.

١١. دروز - رسائل الدروز، رسائل الدروز - مخطوطات في جامعة أكسفورد (مجموعة بودلي) - مكتبة بودليان تحت الارقام التالية ٣٩٨، ٤٥٤، (ومجموعة مارتس) رقم ٢٢١ وتوجد أفلام عنها في الجامعة الأردنية مركز الوثائق وأرقامها على التوالي: ٥٣٠، ٥٦٢، ٥٦٣.

١٢. دروز - رسائل الدروز، رسائل الدروز - مخطوطة في جامعة كولومبيا (مجموعة سميث) تحت رقم ٢٠، ويوجد فيلم عنها في الجامعة الاردنية/ مركز الوثائق رقم ٤١١.

١٣. دروز - رسائل الدروز، رسائل الدروز - مخطوطتان في الجامعة الأمريكية ببيروت (مكتبة القديس بولس) تحت الأرقام التالية: ٢٠٥، ١، ويوجد فيلمان عنهما في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق تحت الرقمين التاليين: ٧١٥، ٧١٨.

١٤. دروز - رسائل الدروز، بعض رسائل الدروز - مخطوط في مكتبة الشيخ علي آل ثاني بالدوحة / قطر رقم ٧٥٨.

١٥. دروز المصحف المنفرد بذاته، مصحف الدروز أو (المصحف المنفرد بذاته) مخطوط وتوجد نسخة مصورة عنه في مكتبتي الخاصة.

١٦. الشيخ الفاضل، دعاء سيدنا الشيخ الفاضل (من أدعية الدروز) - مخطوط في مكتبتي الخاصة.

١٧. الصايغ - أبو عبدالله بن هارون، مسائل عن المراتب، مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٠ عربي، وهو من كتب النصيرية.

١٨. مؤلف مجهول، كتاب الأسوس - (من كتب النصيرية) - مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٩٤٩ عربي.
١٩. مؤلف مجهول، أعيادنا (من كتب النصيرية) - مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ٦١٨٢ عربي.
٢٠. مؤلف مجهول، أيها الدرزي عودة إلى عرينك، مخطوط ومطبوع على الآلة الكاتبة - وتوجد نسخة مصورة عنه في مكتبتي الخاصة.
٢١. مؤلف مجهول، كتاب تعليم ديانة النصيرية مخطوط في المكتبة الأهلية بباريس رقم ٦١٨٢ عربي.
٢٢. مؤلف مجهول، ذكر ما يجب أن يعرفه الموحد ويعتقد به ويسلك بموجبه (وهو موجز عن كتاب الفرائض) - من كتب الدروز - مخطوط في الجامعة الأمريكية ببيروت (مكتبة القديس بولس) رقم ٢٠٦، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق رقم ٧١٥.
٢٣. مؤلف مجهول، رسالة في معرفة سر ديانة الدروز مخطوط في جامعة ييل (مجموعة سالزبوري) رقم٩١، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق رقم ٢.
٢٤. مؤلف مجهول، رسالة السؤال والجواب (في الدين الدرزي) - مخطوط في الجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٢٠٦، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق رقم ٧١٥.
٢٥. مؤلف مجهول، في تقسيم جبل لبنان وطوائفه - مخطوط في الجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٣١، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق رقم ١٦٩٩.
٢٦. مؤلف مجهول، لبعضهم قول وجيز (من كتب الدروز) - مخطط في الجامعة الأمريكية ببيروت (مكتبة القديس بولس) رقم ٢٠٦، ويوجد فيلم عنه في الجامعة الأردنية / مركز الوثائق رقم ٧١٥.


الذخيرة العربية

الفهرست